



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
قسم الدراسات العليا العربية
فرع الأدب

النَّيْلُ فِي رُؤْيَةِ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ مَهْمُومًا وَمَحَبًّا

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب

إعداد

الطالب / عبدالله محمد علي المصري

إشراف

الأستاذ الدكتور / محمود عبدربه فياض



١٤١٢هـ / ١٩٩٢م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

المقدمة

الحمد لله القائل «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ
مبصراً»
(سورة غافر: آية ٦١).

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ... وبعد
فقد تحدث القرآن الكريم عن آية الليل في مناسبات مختلفة باعتبار ما تدلّ
عليه هذه الآية من عظمة الخالق الباري من حيث حركته المقدرة تقديراً، إلى ما فيه
من جمال وسكن.

وكان هذا المنحنى خليقاً أن يفتن الشاعر العربي إلى آفاق متنوعة، ومشاعر
ثرة إزاء الليل. فأين كان موقفه من ظاهرة الليل؟ هل تجاوب مع تلك اللفّات
القرآنية الغنيّة، ودلالاتها الرائعة بحسنها وجمالها... أم أنه قنع بالوصف الظاهري
المسطح لكل ما يعرض له من أمور الليل؟

وتلك المصنّفات والدراسات التي أنشأها القدامى والمحدثون عن الليل ما هي؟
وما وجهاتها؟ وهل حملت في طيّها ما يفيد الشاعر ويثريه؟

لقد كان موضوع «الليل في رؤية الشاعر العربي» أمراً جديراً بالأهمية،
وموضوعاً يستحق البحث والدّرس، لجدّته وطرافته، ولأنّه وثيق الصّلة بصميم فنّ
الشّعر، وبوجدان العربي، وبكلّ ما يتلبس به هذا الوجدان من أمور الحياة. ومن ثمّ
نشأت لديّ الرّغبة الوطيّدة في دراسة هذه العلاقة والكشف عن جوانبها الفنيّة
الزّاخرة.

لكنني وجدتُ ظاهرة الليل في الشّعر العربي فنوناً وضروباً مختلفة، وكل ضرب
منها يلزمه بحوث وكتابات كثيرة لإظهاره، فاخترتُ الهمّ والحبّ من بين تلك
الضروب لأدرس من خلالهما رؤية الشاعر العربي لليل، لقرب هذين المنزعين من
وجدان الشاعر العربي، ولكثرة دورانهما في الشّعر العربي الذي قيل حول الليل. فكان
هذا البحث بعنوان «الليل في رؤية الشاعر العربي مهموماً ومحبباً»

ولقد تلبثتُ في رؤية المنهاج الذي يعالج به الموضوع، فلم أجد غناءً ولا وفاءً في ربط الموضوع بزمان أو بمكان، ولا بشاعر بذاته، لأن ربطه بأيّ منها لا يعين على رؤية الموضوع كظاهرة مستقلة، وربما تكون دراسة الظاهرة في ظلّ شاعر بعينه وافية من حيث نسبة الليل للشاعر، ولكنها تكون قاصرة من حيث رؤية الليل كظاهرة عامة في الشعر العربي. ومن ثمّ فإنّ طبيعة الموضوع وجهتني إلى اعتباره ظاهرة متكاملة لا يمكن بترها، ولا فصمها بمقتضى زماني أو مكاني أو شخصي بالنسبة لشاعر ما.

وستكون غايتي هي البحث عن رؤية الشاعر العربي لليل مهموماً ومحبباً، وطريقة أدائه الفني لها.

أمّا منهجي في البحث فقد كان منهجاً تكاملياً، أتبع الصّورة الفنيّة من أول شاعر صادفتها عنده إلى عصرنا الحاضر قدر الاستطاعة، وقدر ما أسعفتني به المصادر. وأعرض لها بالدراسة البيانية أو النفسيّة متى ما رأيت في أيّ منهما تبيانا للظاهرة التي أعالجها.

ولم أغفل التنقيب فيما كتبه القدامى حول هذه الظاهرة وقد أسعفني طول البحث بعدد من الدّراسات والأبحاث التي ألفها القدامى حول الموضوع، وإنّ لم يظفر واحد منها بحظّ وافٍ من منهجية البحث، فلم أجد فيها غير عرض لأحسن ما قيل في الليل، أو في أيّ شيء يتّصل به. ولذلك كانت بحوثاً لا تغني الباحث كثيراً أكثر من أنّها تفيد التفات الأقدمين إلى هذه الظاهرة. وقد جمعتُ المادة العلميّة التي تتصل بالموضوع، وتبرز صورته صافية دقيقة تامة من خلالها، ثم صنفْتُ هذه المادة على هدى من العلائق التي تقوم عليها الموضوعات والصّور، وقد هدتني آخر الأمر إلى خطة أزعّم أنها كفيلة بتوطيد ببيان هذا البحث.

فبعد المقدّمة قسّمتُ البحث إلى تمهيد ويايين، وفي التمهيد تناولت بالدّرس المصنّفات والدّراسات التي أنشأها القدامى والمحدثون عن الليل.

(ج)

وفي الباب الأول بعنوان «اللَّيْلُ وهموم الشاعر» درست الهموم التي تطرَّق إليها الشعراء في لياليهم، وصورة اللَّيْل في ذهن الشاعر العربي من خلال تعبيره عن تلك الهموم، وقسمت هذا الباب إلى فصلين:

الفصل الأول «اللَّيْلُ وهموم الشاعر الشخصية»

ويضم المباحث التالية:

- * اللَّيْلُ والموت.
- * الشعراء الأسرى واللَّيْل.
- * الشعراء الغريباء واللَّيْل.
- * طوارق اللَّيْل.
- * اللَّيْل والطَّموح.
- * هموم أخرى.

الفصل الثاني «اللَّيْلُ وهموم الشاعر الإنسانية».

ويضمّ المباحث التالية:

- * حال الأُمَّة.
- * الاستعمار.
- * الحروب.
- * الآفات الاجتماعية.

أمَّا الباب الثاني فهو بعنوان «اللَّيْلُ والشاعر المحبّ»

وقد قسمته إلى أربعة فصول:

الفصل الأول «مشابه بين الحبيب واللَّيْل»

وفيه درست المباحث التالية:

- * القمر ووجه الحبيب.
- * سواد اللَّيْل وشعر الحبيب.
- * النّجوم والحبيب.

الفصل الثاني «ليالي الوصل»

ويشمل المباحث التالية:

* ترقب الزيارة.

* الزيارة وملابساتها.

* الوداع.

الفصل الثالث «ليالي الحرمان»

ويضمّ المباحث التالية:

* الطيف.

* الشاعر المحروم.

* ليل الحرمان ليلٌ طويل.

الفصل الرابع «خصائص الصورة الفنيّة في إطار البحث»

وفيه تعرضتُ بالدرس للموضوعات التالية:

* التعريف بالصورة الفنيّة.

* توارد الشعراء على صور الشعر القديم.

* موقف النقاد من تكرار الصورة في أشعار اللاحقين.

* تلون الصورة بلون إحساس الشاعر.

* أثر البيئة في تشكيل الصورة الفنيّة.

وقفيتُ كلَّ ما سبق بخاتمةٍ تضمّ أهمّ نتائج الدراسة.

ثم أوردتُ بعدها تراجم للشعراء الذين ورد ذكرهم في البحث واهتديت إلى

تراجمهم، ومن عرفتُ تاريخ وفاته أثبتته بجانبه.

ولقد آثرتُ إثبات ترجمة الشعراء في آخر الدراسة لكثرتهم، فعددهم يقارب

المائتين والعشرين شاعرا. ثم إنَّ بعض الصفحات كان يرد فيها ذكر عدة شعراء فلا

يتيسر تقديم تراجم وافية لهم في الصفحة الواحدة.

وإنِّي لأحمد الله العليّ القدير الذي تكرّم عليّ بعونه وتوفيقه حتّى تمّ هذا

البحث بهذه الصورة، تاركا تقدير ما لقيت في سبيل جمع مادته العلمية، وما واجهته في سبيل إعداده وكتابته لمن نظر فيه وقدره.

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من قدم لي العون أو المشورة في إخراج هذا البحث، وأخصُّ بالشكر أستاذي الكريم الأستاذ الدكتور/محمود فياض الذي شجّع فيّ روح البحث العلمي والاستقلال بالرأي منذ كنت طالبا بمرحلة البكالوريوس، والذي رعى هذا البحث منذ كان فكرة حتى استوى على سوقه، ففتح لي قلبه وداره، ووهبني من الوقت أضعاف الوقت المخصص لي، وكان دائم المتابعة والإشراف والتوجيه، ولن أنسى له أيام كان يرقد في غرفة العناية المركزة بالمستشفى وأنا أقرأ عليه بعض مسودات هذا البحث بطلب ملحّ منه، فجزاه الله عني خير الجزاء، ووهبه الصحة والعافية، ووفقه لما يحب ويرضى.

كما أزجي الشكر الجليل والامتنان إلى كل مسئول ومشرف على الهيئات

التالية:

- * جامعة أم القرى، التي أنتمي إليها وظيفيا وأكاديميا.
- * معهد اللغة العربية الذي أتاح لي فرصة إتمام دراستي العليا.
- * كلية اللغة العربية التي قبلتني دارسا بها.
- * قسم الدراسات العليا العربية الذي احتضن هذا البحث.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

تمهيد

عناية القدماء والمحدثين بموضوع الليل والشعر :

يُعمّر ديوان الشعر العربي بذكر الليل ، ظلّامه ونجومه
وكواكبه أكثر من غيره من الظاهرات الكونية الأخرى ، إذ كان
راسخ الوجود متغلغل الأثر في حياة الشاعر الجاهلي ، يملأ
عليه وجدانه وحسّه في مختلف الملابس ، في خوفه وأمنه ، في
فرحه وترحه ، في حبّه وبغضه .

أَلَا لَيْلَ اللَّيْلِ فِي الْمَحْرَاءِ أَظْهَرَ ، وَأَكْثَرَ إِشَارَةَ لَخَوَاطِرِ
الشَّاعِرِ بِمَا لَطَبِيْعَةُ اللَّيْلِ مِنْ قُوَّةِ عَلَى الْاِسْتِدْعَاءِ ، وَمِنْ إِغْرَاءِ
بِالْبُوحِ وَإِظْهَارِ لِلاشْجَانِ الْمَسْتَكْنَةِ ، ثُمَّ وَافَقَ هَذَا طَبِيْعَةَ
الشَّاعِرِ وَغَلْبَةَ الْوَجْدَانِ عَلَيْهِ ، وَغَزَارَةَ نَصِيْبِهِ مِنَ الْعَوَاطِفِ
وَالْمَشَاعِرِ مِمَّا جَعَلَ هَذِهِ الْمَعْطِيَّاتِ مِنْ أَوْلِيَّاتِ مُؤَهَّلَاتِهِ لِيَكُونَ
شَاعِرًا مُمْتِيزًا فِي تَكْوِينِهِ وَاسْتِعْدَادِهِ ؟

اكَانَ النَّهَارُ بِصُجُوهِ وَسُطُوْعِهِ ، وَبِتَقَلُّبِ النَّاسِ فِيهِ
لِمَعَاشِهِمْ مِمَّا لَا يَنْسَابُ خِيَالُ الشَّاعِرِ الَّذِي وَجَدَ فِي سَكُونِ اللَّيْلِ
وَجَمَالِهِ حِينًا ، وَفِي رَهْبَتِهِ وَوَحْشَتِهِ وَبِهِمَّتِهِ حِينًا مُنْطَلَقًا لِبَنَاتِ
أَفْكَارِهِ ، فَتَقَبَّعَ فِيهِ يَنْسُجُ مِنْ ذِكْرِيَّاتِهِ وَرُؤَايِهِ ، وَمِنْ إِهَامِهِ
وَبَدَائِعِهِ مَا يَمْتَعُ بِهِ النَّاسُ ، وَيَزُوْدُهُمْ بِمَا يَجِدُّدُ شَعُورَهُمْ
بِالْجَمَالِ وَيَقْوِيهِ ؟

لَمْ يَكُنِ الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ - عَلَى كُلِّ حَالٍ - بِمَعزَلٍ عَنِ
الليْلِ ، بَلْ اسْتَجَابَ لَهُ ، وَانْفَعَلَ بِهِ فِي شَتَّى تَجَارِبِهِ النَّفْسِيَّةِ
وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَابْدَعَ مِنْ رُؤْيَيْتِهِ لِلَّيْلِ صُورًا مِنَ الْفَنِّ الرَّفِيْعِ ،
عَلَى طَرِيْقَتِهِ الْخَاصَّةِ فِي إِبْدَاعَاتِهِ الشَّعْرِيَّةِ .

ثمّ جاء القرآن الكريم فعرض لآية الليل فيما يناهز
ثمانين موضعاً^(١) ، كلّها تظهر عظمة الله الباري ، وقدرته في
خلق الليل متحركاً غير ساكن ، ملفتاً حنّ العربي إلى ما يستكن
فيه من مواضع العظة ، ومن أسرار الجمال والجلال .
ثمّ استمر الشاعر العربي على مدّ تاريخه يفترف من
ينبوع الليل ، ويحيك من مشاعره في الليل اشتاتاً من المور
والقمائد ، إلى أن تكوّن من علاقة الشاعر بالليل ظاهرة فنيّة
خاصة وصار لها في ديوان الشعر العربي فصل كبير .

عناية مصادر الادب بهذه الظاهرة :

لاغرو أن استلقت هذه الظاهرة بعض مؤلّفي مصادر الادب
والمجموعات الادبية فعقدوا لها الفصول ، وحشدوا فيها ما قيل
من المقطّعات ونثار الابيات التي قيلت في الليل ، بيد أنّها
لم تظفر بقدر من التحليل والنقد الذي يضع هذه الظاهرة في
المكان الذي تستحقّه من الدرس الفنيّ ، اللهمّ إلا ما قد تقترن
به المقطوعة من التقريظ والاستحسان ، ومن أشهر هذه الكتب
والفصول :

(١) [الايام والليالي والشهور] "لابي زكريّا يحيى بن زياد
الفرّاء (٢٠٧هـ)" .

والكتاب كما ينمّ عنوانه معني بالناحية اللغوية ، من
حيث تبيان أسماء الليل والنهار ، والشمس والقمر وصفاتها ،
وما يكون قد ورد منها في الشعر .

(١) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ص ٦٥٦، ٦٥٧ .

ففي باب "من صفة الليالي" يقول "الغراء" : ويقال
ليلة مثل لون الفيل ، لأنَّ الفيلة أكثرها رُمك ، أي أنها
سوداء غبراء لا يُهتدى إليها ، قال الشاعر :
(١)

وليلةٍ مثل لون الفيل غيرها

طُمَسَ الكواكب والبيدُ الدياميمُ

ويقال ليل كالدَّأماءِ ، يعنى به البحر ، قال امرؤ
القيس :
(٢)

وليلٍ كَموجِ البحرِ أرخى سُدولَهُ

عليَّ بأنواعِ المومِ ليبتلي

ويقال : ليلة كالطَّاق ، يعنى شدة ظلمتها . والطاق ،
هاهنا الطيلسان ، وهو الساج أيضا ، قال الشاعر :
وليلةٍ ذاتِ جَمامِ أطباقٍ وذاتِ ألوانِ كألوانِ الطاقِ
(٣)
ويقال : ليل أغصِف (إذا كان شديد الظلمة كأنها
مسترخية) .
(٤)

ويقال وردت في أغباش ليل ، أي بقايا ظلم منه ، قال

الراجز :

ومَنهلٍ ليس بساقي نخلٍ ولا بساتينَ ولا بأثلٍ

وردتُ في أغباشِ ليلٍ مُجلٍ
(٥)

فالكتاب وإن التفت إلى الظاهرة إلا أنه ذو منحنى لغوي

سيقت فيه الأشعار توكيداَ لمحة الدلالات اللغوية .

(٢) حماسة "أبي عبادة الوليد بن عبيد البحرى" (٢٨٤هـ) .

-
- (١) الأيام والليالي ص ٦٥ .
(٢) السابق ص ٦٥ .
(٣) السابق ص ٦٦ .
(٤) السابق ص ٦٨ .
(٥) السابق ص ٧٠ .

وقد عقد الباب الخمسين على ما قيل "في اختلاف الليل والنهار والشهور والاحوال ، وتقريبهم الآجال" وأورد فيه مثل قول "عبد الله بن مَخَارِق" (١) :

إِذَا مَالِيَةٌ مَرَّتْ وَيَوْمٌ أَتَى يَوْمٌ وَلَيْلَتُهُ جَدِيدٌ
أَبَادَ الْأَوَّلِينَ وَكُلَّ قَرْنٍ وَعَاداً مِثْلَ مَابَادَتْ شَمُودُ
ومثل قول "شجاع بن سباع الضَّبِّي" (٢) :

وَأَفْنَانِي وَمَا يَفْنَى نَهَارٌ وَلَيْلٌ كُلَّمَا يَمْضِي يَعُودُ
ومثل قول "المُخَبَّلُ التَّمِيمِي" (٣) :

اتَهْرَأُ مِنِّي أُمَّ عَمْرَةَ أَنْ رَأَتْ
نَهَاراً وَلَيْلاً بَلِيَانِي فَأَسْرَعَا
فِي أَنْ أَكُ لَاقِيَتْ الدَّهَارِيْرَ مِنْهُمَا
فَقَدْ أَفْنِيَا لُقْمَانَ قَبْلُ وَتَبَعَا

وكذا يمضي في اختياره للشعار التي تنحو منحى الحكمة والاعتبار بمرّ الليل والنهار اللذين يذهبان الاعمار ، ويقربان الآجال وكان أخرى "بالبحثري" وهو البصير بمستودع الجمال في مشاهد الطبيعة وصاحب اللّفات الخلابة في وصفها ، أن يجعل اختياراته لأشعار الليل برهان أمالة إحساسه بالجمال ، لكنّه قصر عن قُدرة .

(٣) الزّهرة "لابي بكر محمد بن داود اللمبھاني" (٢٩٧هـ)

والكتاب غنيّ بالاختيارات الحسنة أبوابها ، الجميلة موضوعاتها ، ممّا يؤكد ما قيل عن الرّجل أنّه كان فقيهاً أديباً شاعراً ظريفاً وكان من أذكيا أهل زمانه . (٤)

(١) الحماسة ص ٩٤ .

(٢) السابق ص ٩٣ .

(٣) السابق ص ٩٣ .

(٤) أوراق من ديوان اللمبھاني ص ٧ .

بَيِّدَ أَنَّ مَاعْرُضَ لَهُ مِنْ ذِكْرِ اللَّيْلِ ؛ وَمَاقِيلَ فِيهِ مِنَ الشَّعْرِ
لَمْ يَكُنْ إِلَّا بَيَانًا لِحَالِ "مَنْ قَصَرَ نَوْمَهُ وَطَالَ لَيْلُهُ" مِمَّنْ لَجَّ بِهِمُ
الشُّوقُ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الْعَوَى . لَكِنْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قَصْرِ هَذَا
الْبَابِ قِيَاسًا إِلَى أَبْوَابِ الْكِتَابِ الْوَاحِدَةِ وَالْخَمْسِينَ ، فَهُوَ غَنِيٌّ
بِمَا أُورِدَ فِيهِ .

وَتَبَدُّو قِيَمَةَ هَذَا الْبَابِ لِلْبَاحِثِ فِي أَمْرَيْنِ :

(أ) أَنَّهُ هُمْ بَاقَةٌ مِنْ أَجُودِ مَاقِيلِ فِي لَيْلِ الشَّعْرَاءِ الْمَهْمُومِينَ
أَيًّا مَا كَانَ بَاعَثَ هَمَّهُمْ .

(ب) نَظْرَةَ الرَّجُلِ النَّقْدِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَوْقِ وَبَصْرِ الشَّعْرِ فِيْمَا
كَانَ يَتَّبِعُهَا أحيانًا بَعْضَ مَخْتَارَاتِهِ ، كَقَوْلِهِ فِي أَبْيَاتِ
"الْأَبِيِّ تَمَامٍ" :

رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ أَنَّ الصَّلْحَ قَدْ فَسَدَا

وَأَنَّ مَوْلَايَ بَعْدَ الْقُرْبِ قَدْ بَعُدَا

لَمْ لَمْ أَمْتُ جَزَعًا لَمْ لَمْ أَمْتُ أَسْفَا

لَمْ لَمْ أَمْتُ حَزْنًا لَمْ لَمْ أَمْتُ كَمْدَا

قَدْ كَدْتُ أَحْلَفُ لَوْلَا أَنَّهُ سَرَفُ

أَنَّ لَا أَذُوقَ رُقَادًا بَعْدَهُ أَبَدًا

عَقَّبَ "ابْنُ دَاوُدَ" عَلَى هَذِهِ الْأَبْيَاتِ قَائِلًا "فَهَذَا قَدْ زَادَنَا
(١)
رَتْبَةً عَلَى مَا عَنَى ، لِأَنَّهُ لَمْ يَدْعِ النَّوْمَ شَوْقًا إِلَى مَنْ يَهْوَاهُ ،
ثُمَّ رَأَى فِي النَّوْمِ مَا قَدَّ وَصَفَ ، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّ تَرْكَهُ إِيَّاهُ مَعَ ذَلِكَ
سَرَفٌ ، وَلَوْ جَعَلَ امْتِنَاعَهُ مِنْ تَرْكِ النَّوْمِ شَوْقًا إِلَى رُؤْيَا الطَّيْفِ
فَقَالَ :

قَدْ كَدْتُ أَحْلَفُ لَوْلَا الطَّيْفُ مُجْتَهِدًا

أَلَّا أَذُوقَ رُقَادًا بَعْدَهُ أَبَدًا

كان اعذر على كل حال ، وإن دخل ذلك ضروب من الاختلال
منها أنه نام أولاً حتى رأى ماراي ، ومنها أنه لم يتهياً له
ترك النوم إلا بيمين على نفسه ، ومنها أنه مع ذلك لم يحلف
ايضا وإنما ارجف باليمين . وقال ايضاً :

لَانْمَتَ عَيْنًا وَلَا لُقَيْتَ عَافِيَةً

وكان حَظُّكَ بَعْدَ اللَّيْلَةِ الْأَرْقَا

فهذا عافانا الله وإيَّاه - أَلْوَمٌ في هذا النوم من كل
مأمناهُ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يشغل قلبه بمجيء خادمه من حاجة لاقدَر
لها في قلبه فيشغله ذلك عن نومه ، فكيف لمن يَعِدُّهُ من يهواهُ
(١)
بزيارة فينام عن مواعده؟ "

وماعدا ذلك كان الرجل يرسل مختاره من الابيات إرسالا
دون تعقيب ، مكثفيا بدلالاتها ذاتها على مافيها .

(٤) "التشبيهات من أشعار أهل الاندلس"

منعه "أبو عبد الله محمد الكتاني" (٤٢٠هـ)

منتخباً من أشعار أهل الاندلس - كما يدل عنوانه - وهو
أدخل في ذكر الليل وأشمل من سابقه استهله "الكتاني" بباب
في السماء والنجوم والقمرين ، ثم أورد قطوفا من التشبيهات
المختارة في كل منها كقول "عبادة الانماري" يصف السماء
(٢)
ونجومها :

كَانَ السَّمَاءَ قَبَّةً مِنْ زُمُرْدٍ

وفيها الدراري من عقيقٍ مسامرٍ
(٣)

وقول "سعيد بن عمرو" في الهلال :

(١) الزهرة ٣٨٥/١ .
(٢) التشبيهات من أشعار أهل الاندلس ص ٢٧ .
(٣) المرجع السابق .

والبدْرُ في جَوْ السَّمَاءِ قد انطوى
طرفاهُ حتَّى عادَ مثلَ الزُّورِقِ

فتراهُ مَنْ تحتِ المَحَاقِ كَأَنَّمَا
غرقَ الجَمِيعُ وبعفُهُ لم يَغْرَقِ

وقول «طاهر بن محمد» في النجوم :^(١)

كَانَ النِّجْمَ مُعْتَرِضاً وَشَاةً تُسَارِقُ فِيهِ لِحْظاً مُسْتَرَابَا

كَانَ كَوَاكِبَ الْجُوزَاءِ شَرِباً تَعَاطِيهِمْ وَلَا تُدْهِمُ شَرَابَا

كَانَ الْفِرْقَدِينَ ذَوَا عِتَابِ أَجَالَا طَوَّلَ لِيْلَهُمَا الْعِتَابَا

كَانَ الْمُشْتَرِي لِمَا تَعَالَى طَلِيْعَةً عَسْكَرٍ خَنَسُوا ارْتِقَابَا

وتُوحِي النِّمُوسُ المِخْتَارَةَ بَأَنَّ "الكتاني" عنى من هذه

الإشعار ما انطوى على إحساسٍ بجمال اللَّيْلِ ، وما أَفْتَنَ الشعراء

فيه بتكوين الضور الجمالية نحو السماء ونجومها ، ولم

يختلف هذا المنزع عنه في الباب الذي أعقبه "في انبلاج

المصبح" والذي اختار له ما يصف إدبار الليل وإقبال الفجر

(٢)

مثل قول "يوسف بن هارون" :

وكم ليلَةٍ قَدْ جَمَعْتَنَا وَأُدْبَرَتْ

تَنُوحُ عَلَى تَفْرِيقِنَا وَتَلَهَفَتْ

إِلَى أَنْ بَدَأَ وَجْهُ الصَّبَاحِ كَأَنَّمَا

تَحْمَلُ لِقْمَانٌ وَأَقْبَلَ يَوْسُفٌ

(٣)

ومن نحو قول "علي بن أبي الحسين" :

لَا حِظَّ ظِلَامِ الدُّجَى وَالصَّبْحِ يَحْفِزُهُ

كَأَنَّهُ جَيْشُ رُومٍ يَهْزِمُ الْحَبِشَا

(١) السابق ص ٣٠ .

(٢) السابق ص ٣٣ .

(٣) السابق ص ٣٤ .

أمّا الباب الثاني والثلاثون فعن "طول الليل والسهد
ومراعاة النجوم" ، والثالث والثلاثون عن "الخيال" .
ومنهج "الكتاني" في جميع الأبواب ثابت ، فهو يحسن
الاختيار من أشعار الأندلسيين في موضوعات الليل والسماء
والنجوم ونحوها ، ثم يصنف المختار قطوفاً قطوفاً ، دون
محاولة للكشف عن أسرار الجمال فيها ، فعمله في الكتاب
تنحصر أهميته في اختياراته وتصنيفها . ومهما يكن أمر هذه
المحاولة فهي خطوة على الطريق تعكس الالتفات إلى ظاهرة
الليل في شعر الأندلسيين ، وإن كان ينقص هذه اللفتة
التحليل الذي يفسرها ، ويدل على مدلولاتها .

(٥) "من غاب عنه المطرب" انتخبه "أبو منصور عبد الملك
الشمالي" (٤٢٩هـ) من أشعار معاصريه وغيرهم في أوصاف
الليالي والأيام وأوقاتها .

وقد عقده "الشمالي" على فصول ، جعل منها فصولاً فيما
يطرب من ذكر الليالي الطيبة القصيرة المحمودة المشكورة ،
واستشهد له بقطوف من الأشعار أكثرها لمعاصريه نحو قول "ابن
(١)
طباطبا" :

وليلةٍ مثل أمر السّاعةِ اشتبّهت
حتى تقفّت ولم نشعُرُ بها قِصراً
مايستطيعُ بليغٌ وصفَ سرعتها
فاتت ولم تعلقْ وهماً ولا خطراً

(٢)
وقول "المولي" :

وليلةٍ من حسناتِ الدّهرِ
لم يكُ غيرَ شفقٍ وفجرِ
قابلتُ فيها بدرهاً ببدرِي
حتى تولّتْ وهي بكرُ الدّهرِ

(١) من غاب عنه المطرب ص ٨٤ .
(٢) السابق ص ٨٥ .

ثُمَّ عَقَدَ فَمَلَا فِي طَوْلِ اللَّيْلِ وَيَسْتَحْسِنُ "الثُّعَالِبِي" قَوْلُ
 "عَتَابِ بْنِ رِقَاءٍ" وَيَقْدِمُهُ عَلَى غَيْرِهِ :^(١)

إِنَّ اللَّيَالِي لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ تَطْوَى وَتُنَشْرُ بَيْنَهَا الْأَعْمَارُ
 فِقْصَارُهُنَّ مَعَ الْعُمُومِ طَوِيلَةٌ وَطَوَالُّهُنَّ مَعَ السُّرُورِ قِصَارُ
 وَيَعِدُّ قَوْلُ "ابْنِ طِبَاطِبَا" فِي وَصْفِ اللَّيْلِ أَطْرَفَ مَا قِيلَ فِي

مَعْنَاهُ :

أَتَرَى النَّجْمَ حَارًا فِي اللَّيْلِ أَمْ أَسَـ
 جَلَّ لَيْلِي عَلَى نَهَارِي ذَيْلًا^(٢)
 أَمْ كَمَا عَادَ وَضَلُّهُ لِي هَجْرًا
 عَادَ أَيْضًا بِهِ نَهَارِي لَيْلًا

لَكِنَّهُ يَعُودُ فَيَقْدِمُ عَلَيْهِ قَوْلُ "سَيَدُوكِ الْوَاسِطِي" وَيَعْتَبِرُ
 الْبَيْتَيْنِ غَرَّةَ الْفِعْلِ :^(٣)

عَهْدِي بِنَا وَرِدَاءِ الْوَضِلِ يَجْمَعُنَا
 وَاللَّيْلُ أَطْوَلُهُ كَالنَّحْلِ بِالْبَحْرِ
 فَإِنَّ لَيْلِي مَذُ غَابُوا - فَدَيْتَهُمْ -
 لَيْلُ الْفَرِيرِ فَمُبْحِي غَيْرُ مُنْتَظَرِ

وَأَعْقَبَ هَذَا بِفِعْلِ فِي وَصْفِ النُّجُومِ ، وَآخِرُ فِي الْقَمَرِ عَلَى
 شَاكِلَةٍ مَاسْبُوقٍ ، مَرَاعِيًا الْقِيَمَةَ الْجَمَالِيَّةَ فِي التَّشْبِيهَاتِ ، دُونَ
 أَنْ يَتَنَاوَلَ بِالنَّقْدِ وَالتَّحْلِيلِ أَسْرَارَ الْجَمَالِ فِي الصُّورِ الَّتِي
 يُوْرِدُهَا ، مَكْتَفِيًا بِالْأَحْكَامِ التَّعْمِيمِيَّةِ الْمُقْتَضِبَةِ عَلَى مَا يَخْتَارُ
 مِنْهَا ، كَقَوْلِهِ : مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ ، مِنْ أَطْرَفِ مَا قِيلَ ، وَمِنْ غَرَرِ
 فَلَانٍ أَوْ بَدَائِعِهِ ، أَوْ مَلَحِهِ مَا يَدْخُلُ فِي النَّقْدِ الذَّاتِيِّ غَيْرِ
 الْمُقْتَرَنِ بِتَعْلِيلٍ أَوْ تَفْصِيلٍ .

(١) السابق ص ٩٣ .

(٢) السابق ص ٩٤ .

(٣) السابق .



(٦) "خاص الخاص" ، وهو كتاب آخر "للشعالي" .

اشتمل الباب الثامن منه على معانٍ لمؤلف الكتاب لم يسبق إليها في زعم "الشعالي" وعقد فيه فصلا في وصف "الأيام والليالي" ، وأورد فيه قوله في وصف ليلة :
(٢)

ياليلةً هي طولاً كمثل شوقي ووجدي
مدت سرادق وشي على الوري أي مدّ

(٣)

وقوله :

وليلٍ بته رهن اكتئاب
إذا شرب البعوض دمي وغنى
أقاسي فيه أنواع العذاب
فللبرغوث رقص في شيابي
ولم أتبيّن الأساس الذي بنى عليه "الشعالي" حكمه
ولعلّي في الفصول اللاحقة من هذا البحث أستطيع تبين الحق
في هذا الزعم .

(٧) "طيف الخيال" "للشريف المرتضي" (٤٣٦هـ)

وهو من خيرة الكتب القديمة التي هديت إليها في الموضوع ، جمع فيه نماذج منوعة عن الطيف مدحا وذما وهجرا ووصلا ، اختار هذه النماذج من شعره ومن ديواني الطائيين (البحثري وأبي تمام) ومن ديوان لأخيه (الشريف الرضي) إلى قطوف قليلة لشعراء آخرين ويرى صاحب الكتاب أنّ "أبا تمام" معانى بالطيف ولارزق منه ، أمّا "البحثري" فإنّه كان مغرما متيما بالقول في الطيف فأكثر فيه وأغزر ، مع تجويد وإحسان وافتنان وتمرّف فيه تمرّف المالكيين ، وتمكن منه تمكن القادرين ...
(٤)

-
- (١) خاص الخاص ص ٢٢٩ .
(٢) السابق ص ٢٣٦ .
(٣) السابق .
(٤) طيف الخيال ص ٢٦ .

ومن مزايا الكتاب أنّه في موضوع واحد ، وأنّه لم يسرد
النصوص صنيع غيره من المصنفين ، إنّما يشفع مختاراته بشيء
من التعليق والموازنة وإظهار الحسن ، أو غيرها في النص .

ومن أمثلة هذا أنّه عندما أورد قول "البحتري" :

وزائرٍ زارَ من أعقَّتِه يَمِيلُ وَزناً بِأُنْسِهٍ دُعْرُه
كأنّه جاءَ مُنجزاً عِدَّةً وبتُّ في الرَّاقِبِينَ أَنْتَظِرُه

علق عليها بقوله : "ومن العجب أنّ الأمدى ذكر أنّ هذه
الابيات أحسنُ وأحلى من التي قبلها . والأمر بخلاف ما ظنّه لأنّ
الابيات القافية أطبعُ وأنمع وأبعد من الكلفة ، والصنعة
فيها أخفى وكلامها أحلى ، وهذه الابيات الرائية معانيها
أجودُ من الفاظها ، وتظهر فيها بعضُ كلفة الصنعة ، وهي مع
ذلك في غاية الحسن ، إلّا أنّ تغميلها على الأولى غير صحيح .
وأما قوله : "يميلُ وزناً بأنّسه دُعْرُه" فإنّما يريد به أنّ دعره
أرجحُ وأزيد من أنسه ... الابيات ليست خالصةً لوصف الطّيف بل
يجوز أنّ يكون المراد بها زائراً زار في اليقظة" (١) .

وأورد قول "البحتري" :

وزورِ خيالٍ بعد وَهْنِ أَلَمِّ بِي وَأَحْشاؤُه من فرطِ خِيفَتِه تَهْفُو

وعلق عليه بقوله : "إنّ قيل: كيف يليق هذا الوصف
بالخيال ؟ قلنا: المعنى أنّ أحشاء صاحب هذا الطّيف لو زارني
هذه الزيارة تهفو من الخيفة ، فأجرى على الطّيف ما هو لصاحب
الطّيف وهذا توسع يحتمل من الشعراء ويحسن منهم" (٢) .

(٨) "زهر الآداب وثمر الآلباب" للأبي إسحاق الحميري

القيرواني" (٤٥٣هـ) .

(١) طيف الخيال ص ٣٧ .

(٢) السابق ص ٦٧ .

وهو من المصادر المعروفة المتداولة ، وفيه فمّل عن الليل وأحواله ، والعلاقة بين الشاعر وبينه في المناسبات المختلفة .

(١)

فيروي - مثلا - قول "ابن الرومي" في طول الليل :

رُبَّ لَيْلٍ كَانَتْ الدَّهْرُ طَوْلًا قَدْ تَنَاهَى فليس فيه مَزِيدُ
ذِي نَجُومٍ كَانَهُنَّ نَجُومَ الشَّيْبِ (م) لَيْسَتْ تَغِيْبُ لَكِنْ تَزِيدُ
ويذهب إلى أنّ هذه الصورة من أجود ما جاء في موضوعها

مكتفيا بهذا الحكم الذي خلا من التعليل ، ومن إيراد سبب يعززه ثمّ يورد قطوفا أخرى في طول الليل لشعراء مختلفين ، ويقم بينها أخباراً أدبية تمت إلى الشعر الذي يدور حوله ، ممّا كان يحدث مثله في مجالس الخلفاء والادباء ، كالذي رواه عن "الشعبي" من أنّ "الوليد بن عبد الملك" وأخاه "مسلمة" تنازعا في شعر "لامرئ القيس" و"النابغة" في طول الليل أيهما أشعر ؟ فاحتكما إلى "الشعبي" ليفعل بينهما ، فرأى أنّ "النابغة" لاتأتيه العموم إلاّ ليلا ، أمّا هي في النهار فسارحة ، وأمّا "امرؤ القيس" فلا يخفّ همّ عنه في وقت من الاوقات، وأهمّ ما عالج "الحمري" في إطار الفمّل الذي خصّ به طول الليل هو قضية السرقات الادبية ، وإن كان ذلك في لمحات سريعة ، كالذي أورد "الطرماح بن حكيم" :

ألا أيّها اللّيل الذي طال أمّبح

بيوم وما الإصباح فيك بأرواح

على أن للعينين في المبح راحة

لطحهما طرّفيهما كلّ مطرّح

(١) زهر الآداب ٨٠١/٣ .

(٢) السابق ٨٠٢/٣ .

ذهب "الحمري" إلى أن "الطرمّاح" نقل لفظ امرئ القيس ومعناه وزاد فيه زيادة اغتفر له معها فحش السرقة ، وإنما تنبّه عليه من قول "النابغة" ، إلا أن "النابغة" لوح وهذا (١)
 صرح "

كذلك أورد قول "ابن بسام" :

لاظلم الليل ولا ادعى أن نجوم الليل ليست تغور
 ليلى كما شاءت فإن لم تزُر طال ، وإن زارت فلئلي قصير
 قال "الحمري" : إن "ابن بسام" أغار على قول "ابن الخليل" فلم يغير إلا القافية ، أمّا مقال "علي بن الخليل" فهو :

لاظلم الليل ولا ادعى أن نجوم الليل ليست تزول
 ليلى كما شاءت ، قصير إذا جادت ، وإن ضنت فليلى طويل
 على أن "ابن الخليل" هذا أخذ قوله هذا من "الوليد بن يزيد" الذي قال : (٣)

لأَسألُ اللهَ تغييراً لما صنعتُ

نامتُ وإن أسهرتُ عينيَّ عيناها

فالليلُ أطولُ شيءٍ حينَ أفقدها

والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها

"الحمري" وإن ذهب مذهب غيره في الاختيارات وسردها إلا أن محاولته في الموازنة بين الصور الأدبية وبيان السابق منها واللاحق تحفمن إضافة تحسب للرجل .

(٩) "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء" للراغب

الاصمغاني" (٥٥٠٢هـ)

(١) السابق ٨٠٣/٣ .

(٢) السابق .

(٣) السابق ٨٠٤/٣ .

وفي الحدّ الثاني والعشرين من الكتاب عرض «الراغب» لبعض ما جاء في الملّوين والسّماء والنّجوم وأورد قطوفاً من الشعر والنثر في هذه الموضوعات ، دون أي تعليق أو تعقيب ، بيد أنّ الرّجل كان أكثر حفاوة بإيراد هذه الشواهد في الأحوال والمقامات المختلفة ، كذكره ماهية الشّمس ، ونعتها (١) وحالها قبل الطلوع ، أو مستترة بالغيم أو لائحة من خلاله ، أو جانحة للغروب ، وهكذا بالنسبة للهِلال ... والنجوم وغيرها .

(١٠) «غرائب التنبّهات على عجائب التشبيهات» العلي بن ظافر الأزدي (٦٢٣هـ)

والتشبيهات العجيبة التي نَبّه عليها «الأزدي» عن الليل والنجوم ، لا يختلف فيه عن غيره من الكتب التي سبقته إلاّ أنّ تأخّر عمر المؤلف أعانه على تنويع الإختيار وتفصيلها على الأحوال والأشكال المختلفة للقمر وللنجوم .

فالباب الأول الذي عقده لتشبيه الأجرام العلوية ضمّنه عشرة فصول ، منها فصل «في ذكر التشبيه الواقع في الهلال» وضمّنه اختيارات شعرية كالذي اختاره «الأبن المعتز» ورآه (٢) احسن ما قيل في الهلال .

وقد بدت فوق الهلال كُرته
كهامية الأسود شابت لحيته

وكل التشبيهات التي أوردها «الأزدي» في هذا الفصل مبنية على الملاحظة الخارجية للشاعر ، وليس من بينها ما يعكس تجربة الشاعر الشعورية ، كلّها مبنية على القياس والتماثل الدقيق بين الطرفين ، ثمّ هي في معظم ما أورد

(١) محاضرات الأدباء ص ٥٣٧ .

(٢) غرائب التنبّهات على عجائب التشبيهات ص ١١ .

«الازدي» مبنية على التقليد ، او توليد الصور بعضها من بعض فالهلال عند «ابن المعتز» (زورق من فمّة اشقلته حمولة من عنبر) ، وعند «ابن الحداد» (فترحوى تفاحة من عنبر) ، وعند «ابن قلاقس» (زورق صيغ من ورق) .

او أنّه عند «ابن المعتز» : (فخّ من اللجين لميد الكواكب) ، وعند «ابى بكر الخالدي» (دبوس فمّة او سوار) ، وعند «الامير تميم» (نصف السوار) ، وعند «الشريف القيرواني» (كما شطرت منعمة سوارا) .

او (كانّ الهلال نون لجين) كما قال «السري الرّفاء» او (كمذهب النون من الكتاب) كما قال «الواواء دمشقي» ، او (كالنون خطّت على لوح من الذهب) كما قال «ظافر بن الحداد» . وعلى هذا الفرار اتت جميع الصور التي تضمنها الفصل (١) فالهلال منجل فمّة ، وطوق عروس ، وقلامة قدّت من الظفر ، ومدغ تبين في اثناء زجاج او قوس مَفُوق ... الخ

ولايختلف الحال بين سائر المختارات التي تضمنتها الفصول اللاحقة كالفصل الذي عقده لتشبيه الهلال مع الثريا وسائر النجوم والذي عقده لتشبيه الهلال عند انتصافه وكماله وفي احواله المختلفة ... وهكذا .

ويرى الباحث ان «الازدي» جدّ جدّه في تقسيم الاحوال والاصناف وتصنيفها ، والكتاب من هذه الوجهة يعد من كتب الاختيار الموفقة ، وثبتاً جمع فيه صاحبه قطوفاً تخيرها من اجود ما قيل في الليل ونجومه إلى عصر المصنّف ، والكتاب بعد ينمّ على ذوق «الازدي» في الاختيار ، لكنّه ذوق شخصي غير معلل ولايتسم بنظرة نقدية جادة تفسّر وتحلل ، وتقف على مستسرّ

الجمال في الصورة الادبية ، او القصور فيها .
 (١١) "نثار الازهار في الليل والنهار" المنسوب وهماً إلى

"ابن منظور" صاحب لسان العرب (٧١١هـ)
 والكتاب كما ينمّ عليه عنوانه عنى بإيراد منتخبات من
 الشعر الذي قيل في الليل والنهار إلى عصر المؤلف .

وعزو تاليفه "لابن منظور" من وهم الناشر ، فهو للشيخ
 "شرف الدين أحمد بن يوسف بن أحمد التيفاشي" صديق والد
 "ابن منظور" ، وقد سمعه الفتى في حديثه يذكر لابيهِ كتاباً
 منفه افنى فيه عمره وسماه "فصل الخطاب في مدارك الحواس
 الخمس لأولى الابواب" ، فلما مات والد ابن منظور (٦٤٥هـ)
 ومات "التيفاشي" بعده بمدة ، وتقدمت "بابن منظور" السن ،
 ذكر الكتاب والحف في طلبه من مظانّه ، واقبل عليه تنقيحاً
 وتهذيباً حتى خلس إلى الصورة التي انتهى بها إلينا ، وسمّاه
 "نثار الازهار في الليل والنهار" ، واطايب أوقات الاصيل
 والاسمار ، وسائر مايشتمل عليه من كواكبه الفلك الدوار" .
 (١)

ثم جعله في عشرة ابواب :
 (٢)

- (١) في الملويين : الليل والنهار .
- (٢) في اوصاف الليل وطوله وقصره واستطابته والافتياق
 ومدحه وذم الاصطباح .
- (٣) في الاصطباح ومدحه وذم شرب الليل وإيقاظ النديم
 للاصطباح .
- (٤) في الهلال وظهره وامتلائه وكماه والليلة المقمرة .

(١) نثار الازهار ص ٦ .

(٢) المرجع السابق .

- (٥) في انشقاق الفجر ورقة نسيم السحر وتغريد الطير في الشجر وصياح الطير .
- (٦) في صفات الشمس في الشروق والضحى والارتفاع والطفل والمغيب والمحو والغيم والكسوف .
- (٧) في جملة الكواكب وأحاديثها المشهورة .
- (٨) في آراء المنجمين والفلاسفة الأقدمين في الفلك والكواكب .
- (٩) في شرح مايشتمل عليه من أسماء الأجرام العلوية ومايتصل بها واشتقاقه .
- (١٠) في تأويل رؤيا الأجرام العلوية ومايتعلق بها في المنام على مذهب حكماء الفلاسفة والإسلام .
- درج المصنّف في الأبواب السبعة الأولى على طريقة سردية في جملتها ، حيث يوظف لكل من الأبواب المذكورة بنبذة مناسبة لموضوع الباب ، ثمّ يورد بعد ذلك البيت أو البيتين أو القطعة يختارها من أحسن ما قيل في معناها تبعاً لذوقه الخاص ، وغالباً مايعزوها لأصحابها ثمّ يتركها دون إضاءة نقدية ، وقد يُعقب بعضها بشرح موجز إظهاراً لجودتها .
- ففي الباب الأول "في المَلَوَيْنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ" يبدأ بقول الله تعالى : {وَأَيُّ لَهْمُ اللَّيْلِ نَسَلُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ... يَسْبَحُونَ} ^(١) ثمّ يشرح الآية شرحاً مستفيهاً ، فيذكر أسماء اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ المأثورة ، كالمَلَوَيْنِ ، والجديدين ، والفَرْنَيْنِ ، والبردين ، والخافقين معللاً بعض هذه الأسماء ، فاللَّيْلِ سُمِّيَ لَيْلًا لِأَنَّهُ يُلَالِي بِالْأَشْخَاصِ حَتَّى يَتَشَكَّكَ النَّظَرُ فِي الشَّيْءِ ، فيقول : هو هو ثمّ يقول : لا ، لا ... وَسُمِّيَ النَّهَارُ نَهَارًا لِظُهُورِ ضَوْءِ الْفَجْرِ يَجْرِي كَالنَّهْرِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ مَعْتَرِضًا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى الظَّلَامِ .

وفي "نسلخ منه النَّهار" ننزع عنه الضوء فيظهر سواده ، لأنَّ أصل ما بين السماء والأرض من الهواء والظلمة ... ويمضي الشَّيخ على هذا السنن ، مغيضا في القول عن مستقر الشمس ومنازل القمر ، مبيناً كيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ قدر لكلِّ منهما سيره تقديراً حكيماً . ومن حيث تقدم الليل على النهار ، أو النهار على الليل استعرض أقوال الحكماء والجغرافيين ، بين من يقول: إنَّهما في دائرة واحدة ومن يقول بغير ذلك ، باعتبار وجودهما بالإضافة إلينا أو بالإضافة إلى العالم نفسه . أما العرب والمشرعون فمتفقون على أنَّ الليل متقدم على النَّهار في الوجود ، معللاً ذلك بأنَّ الخالق الحكيم شأنه أن يدرِّج مفعولاته من النقصان إلى الكمال ، كتمييره الجنس الأدمي الذي هو علَّة المخلوقات آخرها وبناء على تقويمهم الليل على النَّهار يؤرخون فيقولون : لخمس بقين ولست بقين من الشهر ، والعلَّة الموجبة لذلك عندهم أنَّ الشهر إنَّما تعلم بداءته بالهلال . وفي الحديث : "صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته" ، وفي الحديث أيضاً : "من صام رمضان واتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر" ، فقال ستاً ولم يقل ستة ، فدل ذلك على أنَّه - صلى الله عليه وسلم - جعل بداءة الشهر الليل . ثمَّ يذكر أبياتا "لابي منصور صرار" في تقديم الليل على النَّهار يصف سوراء :
(١)

عَلَّقَتْهَا سِوَاءَ مَقُولَةٍ	سِوَادُ عَيْنِي صَفَةٌ فِيهَا
مَا انْكَسَفَ الْبَدْرُ عَلَى تَمِّهِ	وَنُورِهِ إِلَّا لِيَحْكِيَهَا
لِأَجْلِهَا الْأَزْمَانُ أَوْقَاتُهَا	مُؤرَخَاتٌ بِلِيَالِيهَا

(١) نثار الأزهار ص ١٤ .

(٢) السابق ص ١٥ .

وعلى هذا الفرار يمضي المؤلف إلى نهاية الباب السابع يوطيء لكل باب بنبذة قصيرة حول المعاني التي يشتمل عليها الباب ، ثمَّ يورد ماينتخب من أبيات لشعراء مختلفين يرويها دون تعقيب أو إهداء نقدية في الاغلب ، فإذا استحسّن معنى لم يزد عن قوله : هذا أطرب أو أحسن من قول فلان .

أما الباب الثامن فيدور على آراء المنجمين والفلاسفة الاقدمين في الفلك والكواكب ... ممّا لاشان لي به في هذا البحث .

ويقوم الباب التاسع على ماشتمل عليه أسماء الاجرام العلوية ومايتّمل بها .

وينهي كتابه بالباب العاشر وهو في تاويل رؤيا الاجرام العلوية ومايتعلق بها في المنام على مذهب حكماء الفلاسفة والإسلام .

وأما قيمة الكتاب بالنسبة لموضوع البحث : فيشترك المصنف مع غيره ممّن سبقه من المصنفين في الالتفات إلى الليل باعتباره ظاهرة كونية ، وآية من آيات الله ، وإيراد مااستحسنه من هذه الاقوال وتمنيّفها دون زيادة ، ويبدو من القرائن أنّ انشغال عمر المؤلف ببعض الابحاث الفلكية هو الذي وجهه إلى ظاهرتي الليل والنهار . فدافع المصنف وغايته مختلفان عن الهدف الذي يتوخاه الباحث من دراسة علاقة الشاعر العربي بالليل وطريقته الفنية في الاداء .

وخلامة ماخرج به الباحث من استعراض هذه المصنفات القديمة :

(١) استرعت آية الليل الشاعر العربي منذ العصر الجاهلي فانشأ حولها شعراً ، وعلى حسب حالة الشاعر ، والموقف

- الذي يلبسه كانت نظرتَه إلى الليل وإلى الكواكب والنجوم وغيرها ، فهو إمّا ليل موحش مخيف ، وإمّا ليل مؤنس يحرك فيه بواعث البهجة والراحة .
- (ب) اجتمع من ذلك شعر كثير على مدّ الزمن ، ثمّ التفت إليه من القدامى المعنيون بجمع الشعر وتصنيفه ، فانتخبوا منه ما يروق لأذواقهم الخاصة دون تحليل أو تعليل في أكثر ما صنّفوا ، وجعلوا من هذه المنتخبات كتباً أو فصولاً في كتب ، وقد انحصرت قيمة هذه الكتب في أنّها انتخبت من شتات حول موضوع واحد ممّا يقطع بأهمية الموضوع ، وفي التفات الشعراء إليه التفاتاً قوياً ، كما أنّها دلّت على أذواق المصنّفين الخاصة .
- (ج) بعض هؤلاء المصنّفين نهد إلى نقد أبيات ممّا انتخبوا لكنّهم اقتصروا على النقد اللّغوي ، أو الكلام عن الصور المنحولة أو المسروقة في هذا الباب من أبواب الشعر أمثال "الشّريف المرتضي" (٤٣٦هـ) ، و"محمد بن داود الأصبهاني" (٢٩٧هـ) .
- (د) جلّ مانزع إليه الشعراء القدامى ، وما استوقف المصنّفين في الوقت ذاته هو التشبيهات والصور التي اعتمدت على الملاحظة الخارجية ، وعلى التماثل الدقيق بين الطرفين أمّا الصور المعتمدة على انفعالات الشاعر ، المستمدّة من تجاربه الداخليّة فلم تلق عناية تذكر .
- (هـ) ثمّ جاء العصر الحديث فلم ينصرف الشاعر عن الليل ، همومه ومسراته ، بل زاد إيفلالاً في القرب منه ، كما تدلّ النصوص التي اخترتها في بعض فصول هذا البحث .

ومن ثم بدأت تنشأ حول ظاهرة الليل في الشعر العربي دراسات فنيّة لاتخلو من الجدية ، وإن كانت لاتزال قليلة في شكل مقالات وأبحاث محدودة .

الدارسون المحدثون وظاهرة الليل في الشعر :

كما حفل الاقدمون بظاهرة الليل في الشعر فانتخبوا اجود ما قيل فيه ، وعرضوه بطريقتهم الخاصة عني المحدثون ايضاً بالظاهرة نفسها في الشعر العربي ، بيد أن معظم ما ظهر من هذه الابحاث لا يعدو مقالات او ابحاثاً قصيرة تناولت جانباً محدداً من جوانب الموضوع في عمر من العصور .

ومن اظهر ما ظفر به الباحث من هذه الجهود :

(١) عدد خاص من مجلة الهلال المصرية (ديسمبر ١٩٧٢م) "عن القمر في الدين والعلم والادب" وفيه مقال محدود "المحمد عبد الغني حسن" عن "القمر في الشعر العربي القديم" تحدث فيه عن اهتمام الشعراء القدماء بالقمر حيث وصفوه ووصفوا ضوءه ومراحل نموه ، وشبهوا الحبيب به .

ثم يقسم المقال إلى ثلاثة أجزاء :

١ - "ليلة بيضاء مقمرة" واورد فيه أبياتا في وصف القمر منها بيت أنشده "أبو هلال العسكري" ولم يدر قائله (١) وهو :

هل لك في ليلة بيضاء مقمرة

كانها فمة ذابت على البلد

(١) مجلة الهلال المصرية ، ديسمبر ١٩٧٢م ص ٤٦ .

ويعلق عليه "محمد عبد الغني حسن" بقوله : "ويبدو أن إعجاب "أبي هلال العسكري" بهذا البيت هو من حيث تشبيه ضوء القمر بالفضة الذائبة على البلد" .^(١)

٢ - تشبيه المحبوب أو الممدوح بالقمر ، وفي هذا الجزء يقول الكاتب : "ونلاحظ أن الشعراء القدامى ... ، قد اتخذوا من البدر مثلاً لتشبيه المحبوب به ، أو لتشبيه الممدوح به ، وإذا كان من المستساغ أن تشبه الحسناء بالبدر ، فهل من المألوف أن يشبه الرجل الممدوح بالبدر ؟ الواقع أن الذوق العربي لم يرفض هذا التشبيه ولم يمجّه" .^(٢) ثم يورد اشعاراً يشبه فيها الحبيب أو الممدوح بالقمر .

٣ - "اتهام الكمال بالنقص" وفي هذا الجزء من المقال يقول الكاتب : "ولم يسلم القمر على بهائه وضيائه من السنة العائنين ، ومن هجاء الساخطين" ثم يورد نمواً نثرية وشعرية تمف القمر ببعض العيوب وتنتقص منه . ثم يختم مقاله بأوصاف وتشبيهات للقمر مدعمة بنصوص شعرية قديمة .

وفي هذا العدد من مجلة الهلال مقال آخر "العبد العزيز الدسوقي" عن "القمر والادب المعاصر" ، ومن هذا المقال قوله "واستأثر القمر بمكان رفيع في الادب المعاصر - شعره ونثره ووقف عنده الاديباء والشعراء ، واتخذوه ملهما لخواطرهم وقصائدهم ، وهاموا به وخاطبوه ... ويندر أن تجد شاعراً لم يتناول القمر أو يصفه أو يذكره على نحو من الانحاء ..."^(٤) .

(١) السابق .
 (٢) السابق .
 (٣) السابق ص ٥٠ .
 (٤) السابق ص ٨٧ .

- * امتزج بكثير من تجارب الشعراء العاطفية .
- * وفجر في شعرهم كثيراً من الرؤى التأملية والفلسفية
- * وامتزج عند بعض الشعراء بالتاريخ الإسلامي ، ومظاهر الحياة الاجتماعية .
- * وتناولوه معظم الشعراء في قصائدهم الوصفية .
- ثم يعلق على النقاط السابقة الواحدة تلو الأخرى .
- (٢) "النجوم في الشعر العربي" مقال "العبد القادر عابد" نشرته مجلة العربي الكويتية في العدد ٢٠٦ - يناير ١٩٧٦م أشار فيه إلى بعض النجوم التي استلقت الشعراء كالشريا والدبران وسهيل ، والنجم القطبي ، وساق اشعارا وردت في هذه النجوم .
- (٣) "شعراء القمر في المشرق والمغرب بين عشاق الطبيعة وعشاق المرأة" . مقال نشرته مجلة "العربي" الكويتية في عددها ٢٠٧ فبراير ١٩٧٦م "الحسن فتح الباب" وهو دراسة مقارنة حاول فيها الكاتب إبراز نظرة كل من المشاركة ، والمغاربة للقمر ، فالشاعر العربي لا يرى القمر إلا من خلال المرأة ووحياها ، والشاعر الياباني يراه من خلال الطبيعة ووحياها .
- (٤) "الليل في الشعر الجاهلي" بحث جيد كتبه "جليل رشيد فالح" ونشرته مجلة "آداب الرافدين" ايلول ١٩٧٨م . والبحث في ثمان وثلاثين صفحة ، وقد ذهب فيه إلى أن الليل في وجدان الشاعر الجاهلي إما ليل ألفة او ليل رهبة ، وفي هذين المدارين فقط تحرك وجدان الشاعر الجاهلي ، وتحددت رؤيته الفنية .

(٥) "النجوم في الشعر العربي القديم حتى اواخر العمر

الأموي" للدكتور "يحيى عبد الأمير شامي" والكتاب بحث

للمؤلف نال به درجة الدكتوراه عام ١٩٨٠ م .

في الباب الأول ولج من مدخلين اثنين هما : تعريف^(١)

بالعمر والبيئة ، ومعرفة العرب بالفلك ، ثم تحدث عن نجوم
الاهتداء في الفصل الأول ، وعن النجوم المعبودة في الفصل
الثاني ، وعن التنجيم في الفصل الثالث وعن الخرافة
والنجوم في الفصل الرابع ، ثم عن الانواء والنجوم في الفصل
الخامس .

والباب الثاني قسمه إلى خمسة فصول وهي :

الفصل الأول : النجوم من خلال الوصف .

الفصل الثاني : النجوم من خلال الغزل .

الفصل الثالث : النجوم من خلال الفخر والحماسة .

الفصل الرابع : النجوم من خلال المديح .

الفصل الخامس : النجوم من خلال الرثاء .

وفي الباب الثالث : تحدث عن الصورة الأدبية للنجوم

بعمامة في الفصل الأول ، وعن الصورة الأدبية للنجوم المنفردة

في الفصل الثاني ، وتلك التي للنجوم المثاني في الفصل

الثالث ، ثم لاشهر المجموعات النجمية في فصل رابع .

أمّا الباب الرابع فقد أبرز فيه قيمة شعر النجوم

وقسمه إلى ثلاثة فصول :

الأول : قيمة ذلك الشعر .

الثاني : أبرز صفاته وخصائصه .

الثالث : تطوره .

(١) النجوم في الشعر العربي القديم ص ٢٨ .

وقد ظهر للباحث من خلال العرض السابق لظاهرة الليل في نظر القدامى والمحدثين أنّ هذه الجهود - على أهميتها - لاتعكس الرؤية الفنيّة للشاعر العربي ومدى تطورها عبر عصور الشعر العربي ، ولاطريقة الشعراء في الإبداع الفني في هذا المجال ، وهذا مايدع الباب مفتوحاً لدراسة تسدّ هذه الشفرة .

الباب الاول

الليل وهموم الشاعر

- . الفصل الاول : الليل وهموم الشاعر الشخصية .
- . الفصل الثاني : الليل وهموم الشاعر الإنسانية .

الغمل الاول

الليل وهموم الشاعر الشخصية

- * الليل والموت .
- * الشعراء الاسرى والليل .
- * الشعراء الغرباء والليل .
- * طوارق الليل .
- * الليل والطموح .
- * هموم اخرى .

الليل وهموم الشاعر الشخصية

الليل والموت :

ربّما يكون الفنانون بعامة هم أكثر الناس حسّاً بالحياة أفراحها وأتراحها ، لَمَّا فطروا عليه من رقة الشعور ، وحدة المزاج ، ورهافة الرّوح ... فاستعدادهم للانفعال الشديد في كلّ ما يؤثّر عليهم أقوى من سواهم .

والشعراء من هؤلاء الفنّانين الذين لا يشذون عن هذه القاعدة ، بل لعلمهم في طليعة الفنّانين باعتبار أنّ الكلمة هي وسيلة تعبيرهم عن مشاعرهم ، ولَمَّا كان الليل أنسب الاوقات ليطلق فيه الشاعر أشجانه من مكانها ، ولَمَّا كان الموت بالذّات من الحقائق الكبرى التي تهزّ وجدان الشاعر هزّاً ، فتحدوه إلى التأمل وإلى إرسال خواطره وصوره تجاه هذه الحقيقة الكبرى كان من المناسب أن يبدأ هذا الغمل بالموت والليل في تصوّر شاعرنا العربي وانعكاسات البيئة والثقافة بكلّ أنواعها على صوره وطريقته في أداء هذه الصور .

ومع أنّ الموت حقيقة مستقرة في كل وجدان ، إلاّ أنّ أحداً لا يحبّ أن يتوقعه ، لأنّ الله فطر النّاس على حبّ الحياة فإذا وقع لمن عرفناهم أو الفنّانهم فزعنا لمصابنا فيهم ، وفزعنا لما سيحيق بنا مثلهم بعد حين .

أمّا الشاعر فأشدّ انفعالاً وأغزر حسّاً كما قلتُ ، وما ينتابه من الشعور بالفقد يُمفّه ويشجيه ، وقد لا يجد مثل هذه المضاغة في وقت كما يجدها في الليل ، حين يخلو إلى

نفسه وإلى أشجانها ، فتخرج همومه من مكانها كأنما تجد من سواد الليل داعياً . ولأنَّ الشعراء يملكون من وسائل البيان ما يعينهم على التعبير عن هذه المشاعر والهموم بحسب قدراتهم ، فهم يمورونها ويمفونها ، وقديماً قال «المهل» في رثاء أخيه «الكلبي» :

أَهَاجَ قَدَاءَ عَيْنِي الْأَذْكَارُ
 هُدُوءاً ، فَالِدُمُوعُ لَهَا انْحِدَارُ
 وَصَارَ اللَّيْلُ مُشْتَمِلاً عَلَيْنَا
 كَأَنَّ اللَّيْلَ لَيْسَ لَهُ نَهَارُ
 وَبِتُّ أُرَاقِبُ الْجُوزَاءَ ، حَتَّى
 تَقَارَبَ مِنْ أَوَائِلِهَا انْحِدَارُ
 أَصْرَفُ مُقَلَّتِي فِي إِشْرِ قَوْمٍ
 تَبَايَنَتِ الْبِلَادُ بِهِمْ ، فَغَارُوا
 وَأَبْكَى ، وَالنُّجُومُ مُطْلَعَاتُ
 كَأَنَّ لَمْ تَحَوْهَا عَنِّي الْبِحَارُ
 عَلَى مَنْ ، لَوْ نُعِيتُ ، وَكَانَ حَيًّا
 لِقَادَ الْخَيْلِ يَحْجُبُهَا الْغُبَارُ (١)

في هداة الليل تُهَيِّجُ الأحزانُ كوامن الشاعر ، فتنهمر عيناه دموعاً فيها لوعة وحسرة على أخيه ، وتملي عليه الضيق بالليل فيصير ليلاً ثقيلاً ، ومُمعناً في الطول فكأنه لانهار له ويستعصي النوم على عين الشاعر ، ويلازمها الأرق ، فيتوجه إلى النجوم يرقبها ، ويمرّف نظره فيها ، مؤملاً غيابها ، وظهور النهار الذي ربّما يكون فيه بعض السلوى عن هؤلاء الاعزاء

(١) موسوعة الشعر العربي ص ١٩٨ .

المفقودين . فالشاعر متبرِّم من الليل ، كارهٌ له ، راغبٌ في زواله . وهو يعبر عن مشاعره بطريقة خالية من المبالغة والغلو فأتت صورته لا تكلف فيها "ومار الليل مشتتلاً علينا كأنه ليس له نهار" وإحساس الشاعر شديد بالحزن غير أنه لا يتمرد على الواقع ، بل هو يخدُّ لهذا الواقع ويسلم له (١) ويقول في نفس المناسبة :

أَلَيْتَنَا بِذِي حُسْمٍ ، أَنْيْرِي إِذَا أَنْقَمْتِ فَلَاتَحُورِي
فَإِنْ يَكُ بِالذَّنَائِبِ طَالَ لَيْلِي فَقَدْ آبَكِي مِنَ اللَّيْلِ الْقَمِيرِ
وَأَنْقَدْنِي بَيَاضَ الصُّبْحِ مِنْهَا لَقَدْ أَنْقَدْتُ مِنْ شَرِّ كَبِيرِ
«فالمهلل» يخاطب ليلة «ذي حُسْم» وهو وإد في نجد

ويسألها أن تذهب ، ويرجو ألا تعود بعد ذهابها . وهذا يشير إلى فيق الشاعر بهذه الليلة التي ردت إليه أحزانه وهمومه حتى جعل بياض الصبح منقذاً له من شرِّ كبير . وهذه صورة مجملة لا تفصيل فيها ، ويقول «أعشى باهلة» : (٢)

قَدْ جَاءَ مِنْ عَلِ أَنْبَاءٌ أَنْبُوها إِلَيَّ لَاعَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخْرُ
فَظَلْتُ مُرْتَفِقًا لِلنَّجْمِ أَرْقُبُهُ حَرَّانَ مُكْتَتِبًا لَوْ يَنْفَعُ الْحَذْرُ
«أعشى باهلة» يقرُّ بحقيقة الموت لا ينكرها ، ولا يعجب

منها ، لكن هموم الفقد تدركه ليلاً فتسمره وتؤرقه ، ويظلُّ طول ليله رفيقاً للنَّجم حرَّان مكتتباً .

فعلاقة الشاعر بالليل في هذا النص علاقة حميمة "فظلت مرتفقاً للنجم" إلا أنها مع ذلك طبيعية ، لا أشر عليها للمبالغة ، فكانه يمف واقعه الشعوري بصدق لازيف فيه .

(١) موسوعة الشعر العربي ص ١٩٢ .

(٢) الأسمعيات ص ٨٨ .

ولقد أسهمت النساء الشاعرات اللاتي عشن في العمر
الجاهلي بنصيب وافر من شعر الرثاء الذي يربط بين الليل
والموت ، وفي ظنّي أنّ هذا يرجع إلى جملة من الأسباب منها
تكوين الانثى النفسي ، وطبيعة العصر التي اتسمت بكثرة
الحروب والفتن ، وطبيعة ليل الصحراء الذي يلابس أهلها دون
حاجز أو مانع .

(١)

فهذه «سعدى بنت الشمردل» ترثي أخاها :

أَمِنَ الحِوَادِثِ وَالْمَنُونِ أُرْوَعُ وَأَبَيْتُ لَيْلِي كُلَّهُ لَا أَهْجَعُ
وَأَبَيْتُ مُخْلِيةً أَبْكِي أَسْعَدَا وَلِمِثْلِهِ تَبْكِي العُيُونُ وَتَهْمَعُ

تساؤل تقريري تثبت به الشاعرة أنّ الحوادث والمنون
سبب حزنها وقفائها الليل ساهرة لاتعجع ولاتنام ، وحيدة في
تلك الليلة تبكي أخاها .

وهذه «عاتكة بنت عبد المطلب» تسأل عينيها أنّ تجودا

(٢)

بالدمع على موت والدها ، وتختار الليل موعدا لبكاؤها :

(١) الأصمعيات ص ١٠١ .

(٢) شاعرات العرب في الجاهلية ص ٢٢٤ .

أعيني جُوداً ولا تَبَخَّلاً بدمعما بعد نوم النَّيامِ
على الجفَلِ الغمرِ في النائباتِ م كريمة المساعي وفيَّ الدَّمَامِ
وطال ليل «أميمة بنت أمية» عندما فقدت بعض عشيرتها :
(١)

أبى ليلى أن يذهب ونيط الطرف بالكوكب
وهذا الصُّبحُ لا ياتي ولا يدنو ولا يقربُ
بفقدِ عشيرةٍ منّا كرامِ الخيمِ والمنصبِ

و«أميمة» تُعبِّرُ بعفوية عن طول الليل "أبى أن يذهب"
فهي غير راغبة فيه ، بل تتمنى زواله ، ثم نلاحظ هذه اللفظة
المادقة والرغبة العارمة في زوال الليل ، وظلوع النهار ،
حيث جاءت بثلاثة أفعال مفارقة منفية مُتتالية . وهذا الصبح
لا ياتي ، ولا يدنو ، ولا يقرب .

(٢)
وقالت «سمية» زوجة «شداد العبسي» في رثائه :

جفاني الكرى وأنا في الفسق وساعدني الدَّمعُ لما أندفقُ
لغفدِ همامٍ مضى وانقضى وقد زادَ مني عليه القلقُ
فالنوم يمتنع ، والدموع مساعدة ، والوقت هو الليل .

ويبرز من هؤلاء الشاعرات «الخنساء» التي بكت أخويها
"صخرا" و"معاوية" ورثتهما بشعر كثير ، وأبانت في كثير منه
عن سهرها وطول ليلها ، ومراقبتها للنجوم ، وكثرة دموعها
وطول بكائها :
(٣)

يُورقني التذكُّرُ حينَ أمسي فأصبحُ قد بليتُ بفرطِ نكسِ
على صخرٍ وأبي فتى كمنصرٍ ليومِ كريهةٍ وطعانِ خلصِ
فالذكرى تجلب الأرق مع دنو المساء ممَّا يلزم معه السهر
والبكاء ومراقبة النجوم ، وتجتمع عليها الأحزان في ليلها

(١) السابق ص ٢١٦ .

(٢) السابق ص ٩٩ .

(٣) السابق ص ٣٦ .

(١)

بعد فراق أخويها :

بَكَتْ عَيْنِي وَعَاوَدَتِ السُّهُودَا وَبِتَ اللَّيْلَ جَانِحَةً عَمِيدَا
لِذِكْرِي مَعَشَرَ وَلَّوَا وَخَلَّوَا عَلَيْنَا مِنْ خِلَافَتِهِمْ فُقُودَا

سهر ، وبكاء ، وحزن ، وذكرى تجتمع على الشاعرة

(٢)

الشكلى في ليلاها :

أَرَقْتُ وَنَامَ عَنْ سَهْرِي مِحَابِي كَأَنَّ النَّارَ مُشْعَلَةَ شِيَابِي
إِذَا نَجْمٌ تَفَوَّرَ كَلَّفَتْنِي خَوَالِدَ مَا تَوُوبُ إِلَى مَا ب

هكذا تتزاحم الذكريات مع الليل وتنبثق مواجع الفقد ،

ويمتنع النوم عن أعين الشعراء المحزونين فليس لهم إلا

البكاء وإرسال زفرات الحزن ، ومراقبة النجوم على أمل أن

تفور فبغياها يمضي الليل ، الذي تجتمع عليهم المواجد

فيه ، راجين أن يجدوا بعض الراحة والسلوى في ضوء النهار .

وفي هذه النصوص التي يمثل الموت التجربة الشعرية

فيها ، يلاحظ فيق الشعراء وتبرمهم من الليل الذي تتكالب

عليهم الذكريات فيه ، فيتغير إحساسهم بالزمن في الليل

فيرون أنه طويل ، أو أنه واقف جاشم على صدورهم لا يودّ

الرحيل ، لذا رأوا في الفجر منقذا لهم مما هم فيه ،

ومخلصاً لمعاناتهم ، والزمن كما هو لا تتغير ساعاته ووحداته

الزمنية غير أن الشاعر في هذه المواقف يمور ماحوله من خلال

ما في نفسه وما يشعر به من حزن وألم وضيق ، ويعكسه على

الواقع الخارجي الذي يمفه ، فالشاعر عندما يقول: إنَّ الليل

(١) ديوان الخنساء ص ٣٦ .

(٢) السابق ص ٢٤ .

طويل فهو يُعَبِّرُ عن حالة نفسية يمرُّ بها متأزماً لدافع من الدوافع التي تبعث الهمَّ والضيقة .

على أنَّ الشاعر في هذه الرؤى التي مرَّتْ لم يخرج عن الواقع العادي المألوف الذي يعرفه آباؤه وأجداده من عهد آدم ، فالليل لباس والنهار معاش ، وذلك هو الواقع الذي عليه الحياة ، وقَطِرَ الإنسانُ عليه ، فإذا حدث اختلال في مألوف هذا الواقع ، كأنَّ يطير الرقاد ، ويسهر الشاعر لمصاب ما فهو اختلال في نفس الشاعر لافي الواقع ، فارتفاق النجم في ليل ليس له نهار ، وفرار النوم كل هذه أحاسيس متولدة عن وجدان الشاعر الحزين .

وإذا تأملنا مامرَّ بنا من صور الشعر الجاهلي نجدها صوراً حسيَّةً واقعية فطرية ، تخلو تماماً من التفكير والتأمل . وإذا تجاوزنا العصر الجاهلي إلى عصر صدر الإسلام وتلمسنا النصوص التي تربط بين الموت والليل ، فإنَّ أهمَّ شخص فجع الناس بموته بعامة ، والشعراء بخاصة هو سيدنا «محمد» عليه الصلاة والسلام . ومن الشعر الذي قيل في رثائه - عليه الصلاة والسلام - قول «عبد الله بن أبي عمير» :^(١)

تَطَاوَلَ لَيْلِي وَأَعْتَرَتْنِي الْقَوَارِعُ
وَحَظْبٌ جَلِيلٌ لِلْبَلِيَّةِ جَامِعُ
غَدَاةَ نَعَى النَّاعِيِ إِلَيْنَا مُحَمَّدَا
وَتَلِكِ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ

فالليل يتطاول لهذه الممائب التي اعترت الشاعر ولهذا

(١) شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة ص ٣٩٧ .

الخطب الجليل الذي جمع البلية عندما نُعي "محمد" عليه
الملاة والسلام .

(١)
وقال «أبو سفيان بن الحارث» في المناسبة ذاتها :
أَرَقْتُ وَبَاتَ لَيْلِي لَا يَزُولُ وَلَيْلُ أَخِي الْمَصِيبَةِ فِيهِ طَوْلُ
فَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتُنَا وَجَلَّتْ عَشِيَةٌ قِيلَ : قَدْ قُبِضَ الرَّسُولُ

صور تعبر عن طول الليل وامتناع النوم وكما أسلفت ،
فالشاعر يعكس ما في نفسه من خلال تصوير العالم من حوله ،
ولعلَّ أبا سفيان ينظر إلى شعر من قبله عندما يقول : "وليل
أخي المصيبة فيه طول" ، فلقد ارتبط الإحساس بطول الليل
والتعبير عنه في الشعر عند التعبير عن المصائب والفواجع
والأحزان ، وقالت «مغية بنت عبد المطلب» في رثاء الرسول
(٢)
الكريم :

طَالَ لَيْلِي أَسْعِدْنِي أَخَوَاتِي لَيْسَ مَيِّتِي كَسَائِرِ الْأَمْوَاتِ
طَالَ لَيْلِي لَنَكْبَةٍ قَطَعْتَنِي لَا أَرَى مِثْلَهَا مِنَ النَّكَبَاتِ

فلقد اكتفت الشاعرة بتكرير الجملة الفعلية (طال
ليلي) لِتُعَبِّرَ عن حزنها وألمها لوفاة الممطفى عليه السلام ،
وكأنها تُعَبِّرُ عن عرف شائع حتّى عند المتلقين وليس خاماً
بالشعراء فقط ، وذلك عندما تردف الجملة الفعلية (طال
ليلي) بقولها (أسعدني أخواتي) .

فصورة الليل في ذهن الشاعر آنئذ عندما يسوقها من خلال
فكرة الموت لم تختلف كثيراً عنها في الشعر الجاهلي حتّى عند
وفاة أهم شخصية وهي شخصية الرسول الكريم ، فالليل طويل ،
أو هو يتناول ، وحال الشاعر كما هو حزن وبكاء وأرق .

(١) الزهرة ٥٠٩/٢ .
(٢) السابق ٥٠٨/٢ .

أما الصورة عند «متمم بن نويرة»^(١) فانتقلت مع صدقها من
الإجمال والبساطة إلى التفصيل والإبداع ، قال في رثاء أخيه :

أرقتُ ونامَ الأَخْلِيَاءُ وَهَاجَنِي
مَعَ اللَّيْلِ هَمٌّ فِي الْفُؤَادِ وَجِيعٌ
وَهَيَّجَ لِي حُزْنَاً تَذَكَّرُ مَا لِكَ
فَمَا نَمْتُ إِلَّا وَالْفُؤَادُ مَرُوعٌ
إِذَا عَبْرَةٌ وَرَعَتْهَا بَعْدَ عَبْرَةٍ
أَبَتْ وَاسْتَهَلَّتْ عَبْرَةٌ وَدُمُوعٌ
كَمَا فَاضَ غَرْبٌ بَيْنَ أَقْرِنِ قَامَةٍ
يُرَوِّي دِبَاراً مَاؤُهُ وَزُرُوعٌ
جَدِيدُ الْكُلِيِّ وَاهِي الْأَدِيمِ تُبَيِّنُهُ
عَنِ الْعَبْرِ زَوْرَاءُ الْمَقَامِ نَزُوعٌ
لِيَذْكُرَى حَبِيبٍ بَعْدَ هَدْيٍ ذَكَرْتُهُ
وَقَدْ حَانَ مِنْ تَالِي النُّجُومِ طُلُوعٌ

فقد انقضى من الليل شطر ، والخليون ناموا ، أما هو
فاستمعى عليه النوم وأرق ، وهاج أحزانه ذكرى أخيه «مالك»
وتحرك في قلبه الهمّ الموجع بعد هداة من الليل ، وبعد أن
أوشكت النجوم تغور ، وذرفت عيناه الدموع .

ثم يوشى هذه الصورة الحزينة بما يخرجها إلى مجال
الإبداع والجمال الفني الجذاب ... فقد استهلّت عبارته في
هذا الصمت الشاحب الكئيب ، وكلّما ورّع عبرةً ذرفت أخرى كأنّ
عينيه دلو جديد الكلي ، واهي الأديم ، وجعل الرقاع جديدة
لأنّ سيورها لم تنتفخ فتملا الثقوب ، فالماء يسيل منها
والغرب واهٍ متمزق فهو يسيل . فالصورة تنبض بالحوية ،
وتبرز المعنى في شكل محسوس ومن ثم يبقى أثرها مستمراً في
وجدان المتلقي .

ومن شعراء صدر الإسلام «حسان بن ثابت» الذي يقول في

(١)

رشاء شهداء مؤتة :

تَأْوَبْنِي لَيْلٌ بِيَثْرَبَ أَعْسَرُ وَهَمٌّ إِذَا مَا تَوَّمَ النَّاسُ مُسِيرُ
لِذِكْرِي حَبِيبٍ هَيَّجَتْ شَمَّ عَبْرَةَ سَفُوحاً وَأَسْبَابُ الْبُكَاءِ التَّذْكَرُ
بَلَاءٌ وَفَقْدَانُ الْحَبِيبِ بَلِيَّةٌ وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُبْتَلَى ثُمَّ يَمِيرُ

تَأْوَبْنِي : عاودني والشاعر يفضل صيغة تفعل التي تكثر

الفعل وتفيد التجدد ، فالليل يعاود الشاعر عدة مرات ، فهو ليل طويل لا ينقضي ، ثُمَّ يجعله ليلاً أعسر وصيغة أفعل تدل على شدة المصوبة ، فالشاعر يعبر بهذه الصيغة عما يعتلج في نفسه من ضيق وهم جعل نومهم ينفر منه في الوقت الذي ينام فيه الناس ، وسبب ذلك فقد شهداء مؤتة وتذكرهم ، فلاحيلة إلا البكاء ، وسفح الدمع ويربط الشاعر بين البكاء والتذكر ، فيجعل التذكر سبباً للبكاء فهو يتذكر شهداء مؤتة الذين قال

(٢)

«كعب بن مالك» في رثائهم :

نَامَ الْعَيُونَ وَدَمْعُ عَيْنِكَ يَهْمِلُ
سَحّاً كَمَا وَكَّفَ الطَّبَابُ الْمُخْفِلُ
فِي لَيْلَةٍ وَرَدَّتْ عَلَيَّ هُمُومُهَا
طَوْرًا أَخِي وَسَاعَةً أَتَمَلَّمُ
وَاعْتَادَنِي حَزَنٌ فَبِتُّ كَأَنَّي
بِبَنَاتِ نَعَشٍ وَالسَّمَاكِ مَوَكَّلُ
وَجَدًّا عَلَى النَّفَرِ الَّذِينَ تَتَابَعُوا
يَوْمًا بِمُؤْتَةَ أُسْنِدُوا لَمْ يُنْقَلُوا

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ١٠٨ .

(٢) شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة ص ٤٦٥ .

في هداة الليل نامت العيون ووردت العموم على قلب
الشاعر فسأل دمه غزيراً كما يسيل الدمع من راوية فتح فمها
والصورة هنا ليست جديدة ، فهي التي وردت قبل عند "متمم بن
نويرة" ، لكنّها أكثر تفصيلاً ودقة منها هنا ، ولاستريح في
هذه الحقبة من تاريخ الشعر العربي ان أشير بإصبع الاتهام
إلى الصور المتشابهة ، وادعاء ان أحد الشعراء سرق من غيره
فموضوع السرقة هنا غير وارد في زعمي ، لأنّ البيئنة مورد عام
للجميع ، وهي بيئة سهلة لاتعقيد فيها ولا تكلف ، "متمم" شاهد
المزادة تسكب الماء ، و"كعب" شاهدها أيضاً ، لكن "متمما"
كان أوعى لتفاصيل الصورة ، و"كعب" في هذه الليلة في حال
عميب بين الاستكانة والتلمل على الفراش يراقب نجوم السماء
وكأنّه موكل بمراقبتها ، حزناً على شهداء مؤتة . واستمر
الشعراء يرددون هذه المعاني عندما يمورون احزانهم متى
جنّهم الليل وهم معمومون لموت عزيز او استشهاده .

وقال "الابيرد بن المعذر" في رثاء اخيه "بريد"^(١) :

تَطَاوَلَ لَيْلِي لَمْ أَنْمُهُ تَقْلُبًا

كَأَنَّ فَرَاشِي حَالَ مِنْ دُونِهِ الْجَمْرُ

أَرَاقِبُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ نُجُومَهُ

لَدُنْ غَابَ قَرْنُ الشَّمْسِ حَتَّى بَدَا الْفَجْرُ

تَذَكَّرُ عَلِقِ بَانَ مَنَّا بِنَمْرِهِ

وَنَائِلِهِ يَا حَبَّذَا ذَلِكَ الذُّكْرُ

(١) شعراء أمويون ص ٢٥٩ .

فالليل يتطاول ، والشاعر لايعرف النوم ، وإنما هو
يتقلب في فراشه الذي كأنّ عليه جمرا فليس للشاعر إلاّ مراقبة
النجوم من أول الليل إلى أن يطلع الفجر ، وتذكر أخيه
الغالي الذي فقده .

ونلمح هذه الصورة تمتد وتتسع لتشمل عناصر أخرى أكثر
عمقاً وتأثيراً عند «الاشهب»^(١) :

وَعَادَ فَوَادَكَ الطَّرْبُ الْقَدِيمُ	أَرِقْتَ وَلَمْ تَنَمْ الْعَمُومُ
كَمَا يَحْتَمُّ لِلَّيْلِ السَّقِيمُ	تَمَارِسُ جَوْزَ أَدْهَمِ ذِي ظِلَالٍ
تَعَرَّضُ فِي السَّمَاءِ وَمَاتَرِيمُ	كَأَنَّ نَجُومَهُ آجَالُ عَيْنٍ
وَهَلْ تَرَكَتْ مَطَالِعَهَا النُّجُومُ ؟	فَهَلْ زَالَ النَّهَارُ فَكَانَ لَيْلًا

"الاشهب" يخاطب نفسه : انا مؤرق ، وهمومي لم تنم ،
فهي يَقْظِي تَحُولُ بيني وبين النوم ، والعم القديم يعاودني
فكأنني مغطور عليه ، وهو يعاودني كما تعاود الحمى السقيم
في أوقات من الليل ، وطال الليل طولاً يفوق العادة والوصف
فكأنني بالنهار مار ليلا ولا أمل في انقضائه ، فالحزن إذا
استبدَّ بإنسان تبدل الواقع في عينه ، فربما رأى الليل
كالنهار ، والنهار كالليل ، والنجوم ثابتة لاتريم كناية عن
طول الليل .

و«الفرزدق» حين فقد بنيه جعل ليله كليل «المهلل»
الذي مرّ بنا :^(٢)

تَمَنَّى الطَّوْلَ ذُو اللَّيْلِ الْقَمِيرِ	كَلِيلٍ مُهْلَلٍ لَيْلِي ، إِذَا مَا
رَجَحَنَ بِجَانِبَيْهِ عَنِ الْغُورِ	يَمَانِيَّةً ، كَأَنَّ شَامِيَاتِ

(١) السابق ص ٢٤٠ .

(٢) ديوان الفرزدق ٢٢١/١ .

كَانَ اللَّيْلَ يَحْبِسُهُ عَلَيْنَا هَرَارٌ ، أَوْ يَكُرُّ إِلَى نُذُورِ
كَانَ نَجُومَهُ شَوْلٌ تَشْنَى لَادَهُمْ فِي مَبَارِكِهَا عَقِيرِ
وَكَيْفَ بَلَيْلَةٌ لَانُومَ فِيهَا وَلَاضَوْءٌ لِمَاحِبِهَا مُنِيرِ

كانَ ليل الممذبين في عين «الفرزدق» هروب وانواع ،
ومنها ليل «مهلل» الذي تحدث عنه وهو يرثي اخاه «كليبا»
... لقد كان ليلاً شجياً ابقى صورة حية في سجل الشعر الجاهلي
و«الفرزدق» يقول : إنَّ ليله بفقد بنيه كهذا الليل المؤرق
الذي كأنما لانهار له ، ونجومه رجحن بجانبيه فلاتفور ،
وكانها حيث هي معلقة في الفضاء «شول تشنى لادهم» فهي تقبل
وتدبر لكنها لاتند بعيدا ، وفي قصيدة أُخْرَى يَكْنَى
«الفرزدق» عن إحساسه بطول الليل بأنَّ نجوم الليل لاتسري ،
(١)

قال في رثاء "بشر بن مروان" :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْأَرْضَ هَدَّتْ جِبَالَهَا

وَإِنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ بَعْدَكَ لَاتَسْرِي

فلم يعبر مباشرة كأنَّ يقول : ليلى طويل ، او هو يتناول
ولكنه قال: (نجوم الليل لاتسري) وهذا كناية عن هيق
"الفرزدق" بالليل الذي يراه طويلا على غير عادته ، فمادامت
النجوم لاتسري فالليل باق لايريم ولايتزحزح ويعيد الذكريات
إلى نفس الشاعر كَمَا يَقُولُ «اعشى همدان» في رثاء "الاشعث"
(٢)
الكندي :

تَأْوَبَ عَيْنَكَ عَوَّارُهَا وَعَادَ لِنَفْسِكَ تَذَكَارُهَا
وَإِحْدَى لِيَالِيكَ رَاجِعْتَهَا أَرَقْتَ وَنُومَ سَمَّارُهَا

(١) ديوان الفرزدق ٢١٧/١ .

(٢) ديوان اعشى همدان ص ١٢٢ .

وماذاقت العين طعم الرقا م
 وقام نعاةً أبي قاسم
 ليلة أعادت إلى النفس الذكريات ، فطردت النوم من عين
 الشاعر فبات مؤرقاً والناس نيام ، إلى أن ظهر نور الصباح ،
 وفي آخر الليل يبلغ الشاعر غاية الجهد والمكابدة فيسأل
 العون على همومه :
 (١)

أَلَا مَنْ لِهَمِّ آخِرِ اللَّيْلِ مُنْصِبِ
 وَأَمْرِ جَلِيلِ فَادِحِ لِي مُشِيبِ
 أَرَقْتُ لِمَا قَدْ غَايَنِي وَتَبَادَرْتُ
 سَوَاكِبُ دَمْعِ الْعَيْنِ مِنْ كُلِّ مَكْنَبِ
 فَقُلْتُ وَقَدْ بَلَّتُ سَوَابِقُ عَبْرَتِي
 رِدَائِي مَقَالَ الْمَوْجِعِ الْمُتَحَوِّبِ
 أَلَا بَهْلَةُ اللَّهِ الَّذِي عَزَّ جَارُهُ

على الناكثين الغادرين بمصعب

"الاعشى" يسأل العون على الهم الذي أرقه إلى آخر
 الليل لموت "مصعب بن الزبير" وهو يختار آخر الليل ليشير
 إلى أرقه ، فهو مؤرّق يبكي ليلته ، ودمعه تسكب حتى ابتل
 رداؤه ، ويكشف الشاعر عن قلة حيلته فلا يملك إلا الدعاء على
 من غدر بمصعب .

وأكثر الشعراء من تصوير همومهم وبكائهم وأرقهم في
 لياليهم التي يسهرون فيها عندما يقولون الشعر في مناسبة
 الرشاء .

وامتدّ تأثير الصور السابقة إلى العصور اللاحقة
 فاتسع مجال التوليد وتشقيق الصور من بعضها بعضاً . قال

(١) السابق ص ٨٢ في رشاء مصعب بن الزبير .

(١)

"بشار" في رشاء امرأة :

هَجَرَ الْوَسَادَ فَبَاتَ غَيْرَ مُوسِدٍ
 وَأَذَابَهُ وَرَدُّ الْحَمَامِ الْمَوْرِدِ
 شَرَعَ الْمَكَارِهِ مَنْ تَوَجَّهَ غَادِيًا
 يَا لِرَجَالٍ لَمَا يَرُوحُ وَيَغْتَدِي
 وَبَيَاضِ يَوْمٍ قَدْ سَحَبْتُ وَلَيْلَةٍ
 قَدْ بَتَّهَا غَرَضَ الْعُمُومِ الْعُودِ
 وَكَأَنَّ هَمِّي وَالظَّلَامَ تَوَاعَدَا
 عِنْدِي فُكُلٌ قَدْ وَفَى بِالْمَوْعِدِ
 جَاشَتْ جُنُودُهُمَا عَلَيَّ فَلَمْ أَنْمَ
 وَبَدَا وَقَدْ بَلَّغْتَ بَغِيرِ تَبَدُّدِ

يستوقفنا هذا النص "بشار" لأنه لم يطرده على نسق
 النماذج السابقة ويستخدم التراكيب المكررة ، ولكنه تخلّى
 عن تلك التراكيب فقال : "وكأنّ همّي والظلام تواعدا عندي فوفى
 كل بموعده" ثم جعل للهم جنوداً ، وجعل لليل جنوداً ، جاشت
 عليه فاستعمى النوم عليه .

ومع هذه المورة البديعية فلم تخرج في جملتها عن
 الخيال الحسي الذي يدور في الفلك الذي تدور فيه الصورة
 التقليدية . ولما اهتم "التهامي" لموت ابنه جفاه النوم في

(٢)

لياليه ، وصور أرقه وهمّه بقوله :

قَمَرَتْ جُفُونِي أَمْ تَبَاعَدَ بَيْنَهَا

أَمْ صَوَّرَتْ عَيْنِي بِلَأَشْفَارِ ؟

(١) ديوان بشار بن برد ١١١/٣ .

(٢) ديوان التهامي ص ٣١١ .

جَفَّتْ الكَرَى حَتَّى كَأَنَّ غِرَارَهُ
عِنْدَ اغْتِمَاضِ العَيْنِ وَخَزْ غَرَارِ
وَلَوْ اسْتَزَارَتْ رَقْدَةً لَرَمَى بِهَا
مَابَيْنَ أَجْفَانِي مِنَ التِّيَّارِ

بمور سريعة متلاحقة يُصَوِّرُ لنا "التهامي" حاله في تلك
الليلة العصيبة التي لم يستطع الغمض بها حزناً على ابنه ،
هل قصرت جفوني ؟ فلم تعد كافية لتغطية عينه - أم أنَّ
المسافة بين جفونه زادت عن المألوف ؟ أم أن عينه خلقت
بلاشفاق فهي لاتعرف الغمض ، وهذه الصور أَكْثَرُ أَنَّ الشاعر لم
يغمض في ليلته ، فهي صور ليس لها قيمة فَنِّيَّةٌ ويتكى فيها
على السابقين . لكنَّ الشاعر يَرْتَقِي بمستوى المورة الادبية في
الابيات التالية عندما جعل للنوم حدًّا كحدِّ السِّيفِ يرسل
الطعنات متوالية إلى عينه ، عندما يحاول الغمض . فبدلاً من
أَنْ يكون النَّوم ممدراً راحة للعين نجده عند "التهامي" يرسل
الطعنات متوالية إلى عينه ، فَيَحْرِمُهُ الراحة ، ولو تَمَكَّنَ
الشاعر من استزارة رقدة ، فَإِنَّ دموعه المنسكبة كتيَّار الماء
لن تمهلها وسوف تجفوها بعيداً عن عينه . وكل هذه الصور
خلاصتها أَنِّي لم انم تلك الليلة ، ولكنَّ الشاعر المبدع
المتمكن من اساليب القول والبيان اخرج لنا كل هذه الصور
وفي قصيدة أخرى في الغرض نفسه يقول "التهامي" :

أَبَا الغُفْلِ طَالَ اللَّيْلُ أَمْ خَانَني صَبْرِي
فَخُيِّلَ لي أَنَّ الكَوَاكِبَ لَاتَسْرِي

(١) ديوان جميل بثينة ص ٣٧١ ، ابي دَهْبِل الجمحي ص ٧٢ .
(٢) ديوان التهامي ص ٣٣٣ .

أَرَى الرَّمْلَةَ الْبَيْفَاءَ بَعْدَكَ أَظْلَمَتْ
فَلَيْلِي لَيْلٌ لَيْسَ يُفْضِي إِلَى فَجْرٍ

في هذا النص يُعَبِّرُ الشاعر عن حقيقة نفسية تدعم اتجاه هذا البحث "فالتهامي" يتساءل هل طال الليل ؟ أم ان صبره خانه فخيَّل له الواقع على غير ما هو عليه حتى ظَنَّ أَنَّ النُّجُومَ شَابِتَةٌ فِي مَكَانِهَا لَا تَرِيمُ ، ولذا فلن ياتي الفجر . نعم ، مشاعر الإنسان وما يعتلج في نفسه مؤثران قويان على رؤيته للأشياء وللواقع من حوله ، وتجعله يتصوّر الأشياء على غير ما هي عليه فَيُصَوِّرُهَا من خلال نفسه فرحاً أو حزناً ، ويصبغها بالألوان التي تتلون بمشاعره ، ومن هنا جاءت مخالفة الشعر للواقع الذي يعيشه الشاعر ، وهذه المخالفة في أعيننا نحن معشر القراء ومن يتلقون الشعر ، أمّا الشاعر نفسه فإنه يرى الواقع ما يشعر به هو ، وما يتصوِّره وإلاَّ كان مداجياً كذاباً .
وَيُخْرِجُ "الشريف الرضي" الصورة السابقة مخرجاً آخر في قوله :

وَرَاءَكَ عَنْ شَاكِ قَلِيلِ الْعَوَائِدِ
تُقَلِّبُهُ بِالرَّمْلِ أَيْدِي الْأَبَاعِدِ
يُرَاعِي نُجُومَ اللَّيْلِ وَالنَّهْمَ كُلَّمَا
مَفَى مَادِرٌ عَنِّي بِأَخْرَ وَارِدِ
تَوَزَّعَ بَيْنَ النَّجْمِ وَالِدَّمْعِ طَرْفُهُ
بِمَطْرُوفَةٍ إِنْسَانَهَا غَيْرُ رَاقِدِ
وَمَا يَطْبِئُهَا الْغَمُّ إِلَّا لِأَنَّه
طَرِيقٌ إِلَى طَيْفِ الْخِيَالِ الْمُعَاوِدِ

ليل ثقيل وليس إلى النوم سبيل وكيف يأتي ، وجيوش
 الهم إذا صدر بعضها عني الشاعر بآخر وارد ؟ فبات يوزع
 طرفه بين مراقبة النجم والبكاء ويحاول اختلاس الغمض عنه
 يرى طيف الفقيد . و"ابن شهيد الأندلسي" يشاطره الليل الحزن
 على "أبي جعفر اللماثي" :
 (١)

وَاللَّيْلُ قَدْ قَامَ فِي أَثْوَابِ نَادِبَةٍ
 كَأَنَّهُ فَوْقَ ظَهْرِ الْأَرْضِ نُوبِيٌّ
 فَكَلْتُ وَالسُّقْمُ مَنْشُورٌ عَلَى جَسَدِي
 يَحْدُو الرَّدَى وَرِدَاءُ الْعَيْشِ مَطْوِيٌّ
 أَهْدَى اللَّمَائِيَّ مِنْ أَزْهَارِ فِكْرَتِهِ
 نَشْرًا فَقَالَ الدُّجَى: مَرَّ اللَّمَائِيُّ
 فِقِيلًا: مَاتَ فَقَالَ اللَّيْلُ قَارِبًا ذَا
 فَأَنْهَلَ مِنْ مُقَلَّتِي نَوْءٌ سِمَاعِيٌّ
 وَبِتُّ فَرْدًا أُنَاجِي مُقَلَّتِي شَفَقًا
 كَأَنَّي فِي نُقُوبِ الدَّارِ جَنِّيٌّ

صورة جديدة لليل الذي اكتسى أثواب نادبة ، أو أنه
 شبح نوبي جاشم على ظهر الأرض .

ولقد بقيت الصور الجاهلية مع رحلة الأدب العربي عبر
 عصوره المختلفة معيناً استمد منه أغلب الشعراء صورهم ، إما
 بنقلها كما هي أو بتوليدها وتشويقها ، وقد لاحظنا أن عناصر
 صورة الليل في منظور الشاعر الجاهلي الذي فقد عزيزاً هي :
 تطاول الليل ، مراقبة النجوم ، البكاء ، الأرق والسهر ،
 توارد الهموم ، ضيق الشاعر بفراشه وماحوله .

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسي ص ١٧٢ .

ووجدنا هذه العناصر بعينها في العصور التالية كالعصر الإسلامي والاموي وكان لشعراء هذه الفترة مايشفع لهم من قرب العهد ، وسيطرة الذوق العام ، ووجهة النقد اللغوي التي كانت سائدة ولكن الغريب استمرارها في العصور اللاحقة حتى في شعر عمالقة الشعر العربي :

ومنهم «ابو الطيّب المتنبي» الذي يقول في رثاء اخت سيف الدولة :
(١)

أَرَى الْعِرَاقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مُذْ نُعِيَتْ
فَكَيْفَ لَيْلُ فَتَى الْفِثْيَانِ فِي حَلَبِ
يَظُنُّ أَنَّ فُؤَادِي غَيْرُ مُلْتَهَبِ
وَإِنَّ دَمْعَ جُفُونِي غَيْرُ مُنْسَكَبِ

عندما نعت هذه المرأة راى «المتنبي» أنّ ليل العراق طويل ويتساءل عن ليل سيف الدولة في حلب ، واظن أنّ «العكبري» على حق عندما قال : ليس لهذا البيت معنى طائل ، وفيه سماجة ... والبيت الثاني يقول: إنّ فؤاده ملتهب ودمعه مسكوب .

ومور «ابو الطيب المتنبي» احزانه وطول ليله بعد وفاة

(٣)
«ابي شجاع فاتك» فقال :

وَالدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَمِيٌّ طَيِّعٌ
هَذَا يَجِيءُ بِهَا وَهَذَا يَرْجِعُ
وَاللَّيْلُ مَعِي وَالْكَوَاكِبُ طَلَعُ
وَحُحْسُ نَفْسِي بِالْحِمَامِ فَأَشْجَعُ
وَيَلِيْلُ بِي عَثْبُ الْمَدِيْقِ فَأَجْزَعُ
الْحَزْنُ يُقْلِقُ وَالتَّجَمُّلُ يَرْدَعُ
يَتَنَازَعَانِ دُمُوعَ عَيْنِ مُسَمِّدِ
النَّوْمُ بَعْدَ أَبِي شُجَاعٍ نَافِرٌ
إِنِّي لِأَجْبُنُ مِنْ فِرَاقِ أَحِبَّتِي
وَيَزِيدُنِي غَضَبُ الْأَعَادِي قَسْوَةً

(١) ديوان المتنبي ٢١٧/١ .
(٢) السابق ، العاشم ص ٢١٧ .
(٣) السابق ١٢/٣ .

يستهل "ابو الطَّيِّب" مرثيته بمصراع بين الحزن والتجمل ،
فالاول يقلقه والثاني يردعه والدمع في حيرة بينهما ،
فالحنن يأتي به والتجمل يرده ، والنوم لاسبيل إليه ولايالف
العين ، والليل طويل وكأَنه قد أعيا عن السير ، والكواكب
ظَلَّع ، لاتستطيع المشي فتقطع الفلك فتغيب ، ويدهشني في هذا
المجال قول ناقد كبير هو "ابن جني" عندما علق على هذا
البيت بقوله : "لو كان الليل والكواكب بما يؤثر فيهما حزن
لاشتر فيهما موته" ^(١) وكأَنه يتغافل عن حالة الشاعر النفسية
ورؤيته للأشياء من خلال حسه وشعوره ، فكل هذا الحزن الذي
يكسو مشاعر «المتنبي» لابد أن يؤثر على رؤيته للواقع من
حوله فيراه على غير ما هو على الحقيقة ، فعندما فجر من
الارق ، وغلب عليه الدمع والحزن وضاق بسواد الليل من حوله
قال: إنَّ الليل لايسير وإنَّ النجوم عرَّج لاتقوى على المشي ، وهو
يستعين بذلك لرسم صورة لحالته النفسية التي يلفها الحزن
والآلم بسبب فقد «أبي فاتك» ، وبتصوير الليل بالسرمد
وساعاته بالأعوام يعبر "ابن الزَّقاق البَلَنَسِي" عن همومه
(٢)

وسهره :

اللَّيْلُ بَعْدَكَ سُرْمٌ لَا يَنْقُضِي فَكأَنَّمَا سَاعَاتُهُ أَعْوَامٌ
والأُنْسُ غَمٌّ وَالسُّرُورُ كَأَبَةٌ وَالنُّومُ سَهْدٌ وَالْحَيَاةُ حِمَامٌ

مع أن سرمد تعني الدائم الذي لاينقطع ، إلا أن الشاعر
زاد قوله لاينقضي ، وزاد على ذلك بقوله : كأَنَّمَا سَاعَاتُهُ
اعوام وذلك إمعاناً في وصف فجره وتَبَرُّمَهُ بسبب فقد هذا
العزيز ، فغدت الأشياء على غير ما لوفها ، فالأنس غمٌّ والسرور

(١) السابق ، الهامش .

(٢) ديوان ابن الزَّقاق ص ٢٦٤ .

كتابة ، والنوم سهد ، وهكذا اختلفت الاشياء وانقلبت القيم

(١)

في عين الشاعر الحزين ، وقال يرثي في مناسبة أخرى :

هَمْ سَرَى فِي أَضْلَعِي وَسَرَى بِي فالبَرْقُ سَوَاطِي وَالظَّلَامُ رِكَابِي
لَا كَتَفَنَّ اللَّيْلَ عَزْمًا طَالِعًا فِي كُلِّ مَظْلَمَةٍ طُطُوعَ شَهَابِ

الهَمّ الذي سكن بين اضلع الشاعر ، واستقر بين جوانحه

لا يبرح ، سرى بالشاعر ، ولأن وقت الهَمّ هو الليل فقد جعل

البرق سوطاً في يده وجعل ظلام الليل ركاباً ، وهي صورة قد

تبدو - مع تكلفها الظاهر - بديعة ، لكن البيت التالي الذي

تتمّ به الصورة يخرجها إلى الإحالة والتعقيد ، فهو حريص على

أن يستخرج من الليل شهاباً كالذي فقده ، ويقول في آخر تلك

(٢)

القميدة :

عَلِقُ أَطَالَ مِنَ اللَّيَالِي فَقَدُهُ

فَلَبِستُ لَيْلًا مَابِغَ الْجَلْبَابِ

فقد هذا العزيز أطال الليل على الشاعر ، إلى أن ليس

الشاعر الليل ثوباً ضافياً طويلاً كناية عن حزنه الذي لا ينتهي.

أمّا «أسامة بن منقذ» فيصف تجربة متميزة ، فعندما

يَتَمَلَّكُهُ الْأَسَى وَالْفَجْرُ ، ويمتنع عليه النوم ، وتتكالب عليه

الأحزان والهموم ، يذهب تحت جناح الظلام ليزور قبر الفقيد

(٣)

ولكنه يعود كالمخبول من السحر وفي ذلك يقول :

أَبَا بَكْرٍ ، مَا وَجَدِي عَلَيْكَ بِمُنْقَضِ

طَوَالَ اللَّيَالِي مَا انْقَفَسَ الْيَوْمُ وَالشَّمْرُ

أَطَلَّتْ عَلَيَّ اللَّيْلَ ، حَتَّى كَأَنَّما

زَمَانِي لَيْلٌ كُلُّهُ ، مَا لَهُ فَجْرٌ

(١) السابق ص ٩٩ .

(٢) السابق ص ١٠٣ .

(٣) ديوان أسامة بن منقذ ص ٣٤٨ .

وَإِنِّي لَأَسْتَدْعِي الْكَرَى وَهُوَ نَافِرٌ
 بِهِ مِنْ جُفُونِي أَنْ يُلِمَّ بِهَا دُعُرُ
 لَعَلَّ خَيْالاً مِنْكَ يَطْرُقُ مُفْجِعِي
 فَأَشْكُو إِلَيْهِ مَارْمَانِي بِهِ الدَّهْرُ
 تَمَثَّلَكَ الْإِفْكَارُ لِي كُلَّ لَيْلَةٍ
 وَتُوْنِسُنِي أَشْبَاهَكَ الْإِنْجَمُ الزُّهْرُ
 إِذَا لَحَّ بِي شَوْقٌ أَتَيْتَكَ زَائِراً
 فَأَرْجِعُ كَالْمَخْبُولِ دَلَّهَ السَّحَرُ
 وَمَا الْقُرْبُ مِنْ قَبْرِ أَجَنِّكَ نَافِعِي
 إِذَا كَانَ فِيمَا بَيْنَنَا لِلشَّرَى سِتْرُ

فَقَدَّ الشاعر ابنه "أبا بكر" فَتَمَلَّكَهُ حزن لا يكاد ينقضي ،
 أَقْفَى مُفْجِعِهِ ، وَأَسْمَرَ جُفُونَهُ ، وَأَطَالَ اللَّيْلَ عَلَيْهِ حَتَّى ظَنَّ أَنَّ
 الزَّمَانَ كُلَّهُ لَيْلٌ وَلَا فَجْرَ بَعْدَهُ ، لَيْلٌ عَمِيْبٌ يَحِطُّ فَوْقَ مَتْنِ الشَّاعِرِ
 وَمَشَاعِرِهِ فَيَحَاوِلُ الْفِرَارَ مِنَ اللَّيْلِ بِاسْتِدْعَاءِ النَّوْمِ النَّافِرِ ،
 لَكِنْ لِأَسْبِيلٍ إِلَيْهِ لِأَنَّ النَّوْمَ مَذْعُورٌ مِنَ الْجَفُونِ ، فَلَنْ يَلِمَ بِهَا ،
 وَالْإِفْكَارُ تَأْتِي بِخِيَالِ الْفَقِيدِ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى خِيَالِ الشَّاعِرِ ،
 فَتُسَبِّبُ لَهُ الْعَنَاءَ وَالْأَرْقَ ، وَيَجِدُ فِي مِرَاقِبَةِ النُّجُومِ بَعْضَ
 السَّلْوَى الْمُؤَقَّتَةِ ، وَلَكِنَّهُ سَرِعَانَ مَا يَعُودُ إِلَى أَحْزَانِهِ وَهَمُومِهِ ،
 فَإِذَا تَكَالَبَتْ عَلَيْهِ ظَنَّ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ ابْنِهِ الْفَقِيدِ مَا يَخْفَفُ
 لَوْعَتَهُ ، فَيَخْرُجُ تَحْتَ سِتْرِ اللَّيْلِ إِلَى الْقَبْرِ ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا
 يَزِيدُ هَمُومَهُ وَأَحْزَانَهُ فَيَعُودُ كَالْمَخْبُولِ آخِرَ اللَّيْلِ ، مَوْقِنًا أَنَّ
 الْقُرْبَ مِنْ قَبْرِ ابْنِهِ لَيْسَ بِذِي نَفْعٍ مَا دَامَ التَّرَابُ حَاطِلًا بَيْنَهُمَا
 وَقَوْلُهُ "تَمَثَّلَكَ الْإِفْكَارُ لِي كُلَّ لَيْلَةٍ" يَخَيَّلُ لَنَا ظِلَامَ اللَّيْلِ سِحْرًا
 يَطْلُقُ الذِّكْرِيَّاتِ مِنْ قَمِيمِهَا ، فَيَتَمَثَّلُهَا الشَّاعِرُ وَيَمَعْنَ فِي
 تَشْخِيمِهَا ، مُسْتَرْوِحًا مِنْهَا لَذَّةَ التَّذَكُّرِ وَاجِدًا مِنَ النَّجُومِ أَشْبَاهَ

الفقيد إيناساً وأشياء ، وهي صورة إنسانية عامة ، يجدها كلُّ إنسان وكلُّ شاعر ، وقد أشاع صدق الشاعر في هذه الصورة كثيراً من الرّاحة ، ومن المتعة التي لا يُنقِّمها تكلف أو حذقة .
ومن شعراء العصر الحديث «محمود سامي البارودي» الذي

(١)

يقول في رثاء ابنه :

كَمْ لَيْلَةٍ فِيكَ لِأَصْبَاحِ لَهَا سَهْرَتَهَا بِأَكْبِيَاءِ بِلَامَدٍ
دَمْعٌ وَسُغْدٌ ، وَأَيُّ نَاطِرَةٍ تَبَقَى عَلَى الْمَدْمَعَيْنِ وَالسَّهَدِ؟

ليال كثيرة طوال سهرتها فيك باكياً بلامد ، لأنَّ الدموع على غزارتها تنفذ ، وأيُّ عين تبقى ساهرة دامعة دون أن يصيبها الكلال والعشى ؟ ولا زالت عناصر صورة الليل في منظور الشاعر المبتلي بفقد عزيز كما هي ، ولم يحدث عليها تغيُّر يُذكر .

وينحصر تفوُّق صورة على أخرى في سبك المعاني واختيار الالفاظ الملائمة ، أمّا الخيال المجنح الذي يخرج بالصورة إلى آفاق رحيبة فلم يلمس الباحث له إلاّ آثراً جدّ قليلة . فَبَيِّن «المعلل بن ربيعة» و«البارودي» زهاء ثلاثة عشر قرناً من الزمان ، ومع هذا فعناصر الصورة عندهما حيال موضوع الليل والموت متقاربة إلى حدّ بعيد ، ليل طويل ، أرق وسهر دموع وبكاء ، باصرة تعشى بكثرة السهد والبكاء .

وقد لا يكون المهمّ ومبعث الطرافة والجمال هو طول الليل أو الأرق أو الدموع فهي معان عامة يطرقها البدوي والحضري ، والمُتَكَفِّف والجاهل ، لكنّ المهمّ هو كيف يمور الشاعر هذا الطُّول ، وهذا الأرق ، وتلك الدموع ... وهذا الكيف هو مناط

(١) ديوان البارودي ١/٢٤٩ .

التفاوت والموازنة في درجات الجمال بين شاعر وآخر .

(١)
وفي رثاء الشاعر "عبد الحليم المصري" يقول "الماحي":
طَالَ لَيْلٌ أَلَسَى فَايُنَ الصَّبَاحُ؟

أَتَرَى الْعَمَّ شَاوِيًا لَا يُزَاجُ؟
خَفَّفِ السُّهْدَ وَالنُّوَجَ ، فَمَا يُجِدُ

بِذِي أَحَا الْحَزْنَ سُهْدُهُ وَالنُّوَجُ

ومع هذا التقارب في عناصر المورة ، إلا أن الشعراء
يتفاوتون في مستوى التعبير ، قال "معروف الرصافي" في رثاء
(٢)
"محمود باشا" :

لَقَدْ بَتُّ مَطْرُوفَ النَّوَاطِرِ بِالسَّهْدِ

تُقَلِّبُنِي فَوْقَ الْفِرَاشِ يَدُ الْوَجْدِ

تَسَاوَرْنِي رَقَشَاءُ مِنْ لَاعِجِ الْجَوَى

وَيَقْدَحُ فِي قَلْبِي الْأَسَى وَارَى الزَّنْدِ

فَارْقَبُ تَغْوِيرَ النُّجُومِ بِمَقْلَةٍ

تَرْقِرُقَ فِيهَا الدَّمْعُ مُنْفَرَطَ الْعَقْدِ

أَقُولُ وَفِرْعُ اللَّيْلِ أَسْحَمُ وَالْأَسَى

يَدْبُ دَبَّيْبَ السُّمِّ فِي الْعَظْمِ وَالْجِلْدِ

مَتَى يُسْفِرُ الصُّبْحُ الَّذِي أَنَا رَاقِبٌ

أَلَيْسَ قَمِيمُ اللَّيْلِ عَنْهُ بِمُنْقَدِّ؟

يُصَوِّرُ النَّصَّ حَالَةَ الشَّاعِرِ النَّفْسِيَّةِ الْمَقْرُوحَةِ مِنْ مِضَاةِ

الوجد ولذعه عندما يلفه الظلام بردائه ، ومع أن "الرصافي"

من شعراء العصر الحديث ، إلا أننا نستطيع رد كل مورة من

موره إلى أصلها عند الشعراء القدماء من نحو النواظر

(١) ديوان الماحي ص ٢٨٩ .

(٢) ديوان الرصافي ص ٣٠٠ .

المطروفة بالسهد ، والرقشاء التي تساور بالليل ، والتي طالما ساورت النابغة في لياليه ومراقبة النجوم ، وانفراط الدّموع ، ودبيب السمّ في الاعضاء والرغبة الملحة في ظهور الفجر تعبيراً عن طول الليل ، كلّها صور مرّت بنا في هذا المبحث لشعراء متقدمين .

والإبداع الحقيقي الذي يثري به شعور المتلقي ، ويثري به الشعر هو الذي يترجم شعوراً حياً متجدّداً لدى الشاعر ، ماجدوى أن يورد الشاعر تراكيب غيره ، وكلّ ما قد يكون له من فضل فيها هو فكّها ، وإعادة ترتيبها ، دون أن ينفخ فيها من روحه شيئاً ؟ وبمّ فضل أبو الطيّب كثيراً من شعراء العربية إلاّ بأنّه نظّم شعوره هو ، وأنّه أحسن نظمها في كثير من شعره ، إنّ هذا في زعم الباحث هو مناظ الإبداع والحيوية في الشعر وهو الجدير بأن يجعل نهر الشعر حياً دافقاً متجدّداً بتجدد الحياة .

(١)

ويقول "علي الجارم" في رثاء الشاعر "حفني ناصف" :

دَعْنِي أَقْلِبُ طَرْفِي	فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ دَعْنِي
حِيرَانٍ أَضْرَبُ كَفِي	أَسَى وَأَقْرَعُ سِنِّي
قَدْ خَانَنِي الدَّهْرُ يَوْمًا	يَالَيْتَهُ لَمْ يَخُنِّي

يبرز الشاعر مشاعره تجاه الموت في هذه الليلة من خلال رسم الصّور المتحركة لجوارحه ، تقليب الطرف ، ضرب الكف ، قرع السنّ ... وكلّها مشاهد توحى بحالة الشاعر التي يلقّا الحزن والالَم وتوارد العموم ، والليل هنا مجرد إطار لهذه الصّور ، ولا يمثّل عنصراً أساسياً من عناصر الصورة التي تبرز

هموم الفقد التي تعتلج في نفس الشاعر من نحو قول الشاعر
«حسن القرشي» في رثاء أمته^(١) :

وتراءت الآمالُ أشْ م باحاً لدى ليلٍ مُريبِ
ليلٍ تَلَطَّى بالشُّجُو م نِ ، وبالرَّزَايَا ، والنُّدُوبِ
فالليل هنا عنصر أساسي في تكوين المورة ، وما افدح
الآمال تستحيل أشباحاً في الليل المريب الذي يتلظى بالشجون
وبالرَّزَايَا .

ويناجي «حافظ إبراهيم» الليل في لوعة مرة في قميدته
التي يرثي بها "سعد زغلول" يقول :^(٢)

إِيهِ يَا لَيْلُ هَلْ شَهِدْتَ الْمُصَابَا
كَيْفَ يَنْمَبُّ فِي النُّفُوسِ انْمِصَابَا ؟
بَلِّغِ الْمَشْرِقَيْنِ قَبْلَ انْبِلَاجِ الْمُنَى
بِحِ انَّ الرَّئِيسَ وَلَّى وَغَابَا
وَأَنعَ لِلنَّيِّرَاتِ سَعْدًا فَسَعْدُ
كَانَ أَمْضَى فِي الْأَرْضِ مِنْهَا شِهَابَا
قَدْ يَا لَيْلُ مِنْ سَوَادِكَ ثَوْبَا
لِلدَّرَارِي وَلِلْمُحَيِّ جِلْبَابَا
أُنْسِجِ الْحَالِكَاتِ مِنْكَ نِقَابَا
وَاحِبُ شَمْسِ النَّهَارِ ذَاكَ النَّقَابَا
قُلْ لَهَا : غَابَ كَوْكَبُ الْأَرْضِ فِي الْأَرْضِ
فِي فِغْيَبِي عَنِ السَّمَاءِ احْتِجَابَا
وَالْبِسِينِي عَلَيْهِ ثَوْبٌ حِدَادِ
وَاجْلِسِي لِلْعَزَاءِ فَالْحُزْنَ طَابَا

(١) ديوان حسن القرشي ٢٤٤/٢ .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم ص ٢١٨ .

فنداء الليل في وقت المصاب رمز للسَّواد الذي اتخذته
الاذواق في بيئتنا رمزاً للنُّوب والخطوب ، ومن نسيج الصورة
الذي تستحوذ على اللبِّ استحواداً قوله : "بَلِّغِ المَشْرِقِينَ" فهل
هو مشرق الشمس أَلَّا تَبْزُغُ لِيُظِلَّ المَّبْعَ محتجباً ، أم يعني
بالمشرق بلاد العالم الإسلامي ليحزن على زعيم كان يؤمل على
يديه نهضته . وهذا الليل الذي دعاه الشاعر وجعله رسولاً طلب
إليه أَنْ يَنْعِي "سعداً" لكلِّ النِّيرَاتِ وَأَنْ يَقُدَّ من ظلمته جلباباً
ونقاباً فلاتنير بعد اليوم .

وجمال الصورة في رأيي أتى من صدق مشاعر "حافظ" نحو
"سعد" ومن تآثر الصُّورة تآثراً تاماً بملابسات البيئته ، فنحن
نعرف أَنَّ السَّواد شارةٌ للحزن ، ترتضيه اذواقنا وتخلد إليه
في بعض الظروف ، كما ارتضته نساء كثيرات زِيّاً للحجاب .
وقال "الشاعر القروي" في رثاء أحد الشباب مصوراً حال
أمِّ الفقيده :

غَابَ وَجْهُ الحَبِيبِ فَانْتَقَمَتْ
مِنْ وَجْهِهَا تَلْهُبُ القُلُوبَ بِلَطْمِهِ
تَسْأَلُ اللَّيْلَ عَنْهُ وَاللَّيْلُ بَاكِ
مِثْلَهَا فِيهِ سَائِلٌ عَنْ نَجْمِهِ
كَلِمَا أَمَّ مَفْحَةَ المَاءِ نَجْمٌ
مِنْ سَمَاءِ الوَادِي تَهْمُ بِلَمِّهِ

"فالقروي" أبكى الليل على فقيده ، وسأل الليل عنه ،
ولم سؤال الليل ؟ لَأَنَّهُ مِثَابَةُ النَّائِحِ وَالمَكْلُومِ ، فيه يسهر كلُّ
موجع ويننُّ كلُّ مصاب ، فمشاركة الليل هنا نقلت الإحساس من

مجرد طول الليل إلى مساهرته ، ومقاسمته الآلام .

(١)

وقال "الجواهري" في رثاء مديقه "إلياس أبو شبكة" :

أخي إلياس : ما أقسى الليالي	تُنِيخُ بِكَكَلٍ وَتَقُولُ : مالي
تَسْمَعُ إِذْ تَمَامَمُ لِلنَّجَاوَى	وَتَهْمِسُ إِذْ تَخَارَسُ لِلنَّمَالِ
وَتَخْدَعُنَا بِمُقَمَّرَةٍ لَعُوبٍ	وَتَرْمِينَا بِقَوْسٍ مِنْ هِلَالِ
وَتُعْطِينَا اللَّذَاذَةَ عَنْ يَمِينِ	وَتَطْعُنُنَا دِرَاكًا بِالشَّمَالِ
وَتَفْرُشُنَا أَمَانِي مِنْ حَرِيرٍ	وَفِي طَيَّاتِهَا سَمَّ الصَّلَالِ
وَتُدْنِينَا ، وَتُبْعِدُنَا وَتَلْهَوُ	بِنَا لَهَوَ الْعَوَاصِفِ بِالرَّمَالِ
وَنَلْمِسُهَا وَتَلْمِسُنَا عِيَانًا	وَتَمْرُقُ مِثْلَ طَيْفٍ مِنْ خِيَالِ

وينقلنا "الجواهري" مع الليل من دائرة الحس ومافيه من ظلام ونجوم وذكريات حلوة أو مرّة - ينقلنا إلى رحبة الزّمن ، وتداول الأيام والليالي ، وتقلباتها بما ينفع أو يضرّ ، وتخدعنا بمقمره لعوب ، وترميننا بقوس من هلال ، وتعطينا اللذّاذة عن يمين ، وتطعننا دراكًا بالشّمّال ، وتفرشنا أمانى من حرير وفي طياتها سمّ الصّلال ، وتدنيننا وتبعدنا ، وتلهو بنا كما تلهو العواصف بالرّمال . فرؤية "الجواهري" لليل أفسح من رؤية كثيرين من الشعراء الذين مروا بنا ، والذين لم يتجاوز تمورهم لليل أنّه خيمة من الظلام أفردت الشاعر فخلّا فيها إلى ذكرياته ، أتراحه وأفراحه ، إنّه الإحساس الواقعي البسيط لظاهر الليل .

أمّا "الجواهري" في الصورة التي معنا فتجاوز الشكل المعتاد لليل في رؤية كثير من الشعراء ، ورآه الزّمن بحلوه

ومرّه ، وخيره وشره ، دون التفات إلى المعاني الحسية فيه ،
التي لو كان التفات إليها لاكتملت مقومات جمالها ، وبلغت
ذروة الذرى .

الشعراء الاسرى والليل :

إذا فَقَدَ الإنسانُ حُرِّيَّتهُ فَقَدَ أَغْلَبَ أوجهَ نشاطه في الحياة فيهِتَمُّ لذلك ، ومن المعروف أنَّ شعراء عديدين عاشوا الاسر وعانوا منه ، وأشعار الشعراء الاسرى في تاريخ الشعر العربي تمثِّلُ ظاهرة قميئة بأنَّ تُفَرِّدَ بالدرس لكثرة الشعراء الذين أُسِرُوا ، وسمع الليل نجواهم من ناحية ، ولأنَّ هذا الشعر يتطرق إلى آفاق شتى ، كنشدان الحرِّية ، والتأمل ، ووصف آلام السجن إذا جنَّ الليلُ الشاعر وخيم عليه سجن الظلمة ، وسجن الوحدة وإذا كان هدف هذا الفصل البحث عن رؤية الشاعر لليل من خلال همومه ، فما حال الشاعر الاسير إذا أجته وكيف تكون رؤيته لليل ؟

(١)
عندما سجن «يزيد بن مفرِّغ الحميري» قال :

دارَ سَلَمَى بِالخَبْتِ ذِي الأَطْلَالِ

كَيْفَ نَوْمُ الأَسِيرِ فِي الأَغْلَالِ ؟

يستخدم الشاعر أسلوب الاستفهام في تموير حالته ، وهو أسلوب انشائي لا يحتمل مدقاً ولا كذباً ، وكان باستطاعته أن يقول : كيف يوم الاسير في الاغلال ؟ لكنّه اختار النّومَ لِمَا في الليل من مشاعر تتعاضد بها المواجد ، فهو يبكي حرِّيته ويأمل الخلاص من أسره ، ولكنّ لاحيلة له والابواب مغلقة ، والحرّاس في يقظة وحذر ، كما يقول «جعفر بن عُلبَة الحارثي»^(٢) :

إِذَا بَابُ دَوْرَانٍ تَرَنَّمَ فِي الدُّجَى

وَشَدَّ بِأَغْلَاقِ عَلَيْنَا وَأَقْفَالِ

(١) ديوان يزيد بن مفرِّغ الحميري ص ١٨٥ .
(٢) ديوان الشعر العربي ٤٦٣/١ .

وَأَظْلَمَ لَيْلٌ ، قَامَ عِلْجٌ بِجُلْجُلٍ
 يدورُ به حتَّى المَّبَاحِ بِإِعْمَالِ
 وحرَّاسٍ سَوِّءٍ مَايَنَامُونَ حَوْلَهُ
 فكيفَ لمَظْلُومٍ بِحِيلَةٍ مُحْتَالِ ؟
 ويمبِرُ فيه ذُو الشَّجَاعَةِ والنَّدَى

على الدُّلِّ لِلْمَأْمُورِ وَالْعِلْجِ وَالْوَالِي

"إذا باب دوران ترنم في الدُّجى" صورة لايمكن أن
 يتمورها إلا سجين قبع في ركن محبسه ، والليل من حوله مطبق
 ثقيل الظلمة ، لايسمع حتّى ولا ركزاً إلا صوت الرّتاج ، والحارس
 يدفع بالباب رويدا فيصوت ويحشرج ويمرّ ، والشاعر السجين
 جعل من هذا كله ترنماً في الدُّجى ، لأنّه لاشيء من حوله يبعث
 الرضى والسرور فخيّل من هذه الاصوات ترنماً سخريّةً وأسىّ ممّا
 هو فيه ، ثم نتأمل البيت الذي يليه فيزيدنا شعوراً بالإعجاب
 وحساً بالمتعة القلبية من الدّقة الدّقيقة التي اخرج بها هذه
 الصورة .. فالحارس عِلْجٌ إمعاناً في إظهاره بالغلظ والجسامة
 وهو يدور بالسّجن طول الليل ، يجلجل بالاغلال والمفاتيح
 وماهو من شأن السجانيين عموماً ، وحرّاسٍ سوء آخرون يتابعون
 من أماكن مختلفة بعيون يقظة لاسبيل لها إلى النوم .. فكيف
 باللّه لمثله أن يحتال فيجد مهرباً من هذا السجن ، إنّه
 لا حيلة له إلا المبر على الدُّلِّ للمأْمُورِ وَالْعِلْجِ وَالْوَالِي إلى
 أن يطلع الصبح علّه يأتي معه بنور الحرية كما يقول العياش
 الضبيّ^(١) :

كفى حزنًا في المَدْرِ أَنَّ عَوَائِدِي
 حُبْنِ ، وَأَنِّي فِي الْحَدِيدِ أَسِيرُ

إِذَا مَاتَشَكَّيْنَا أَدَاةَ الَّذِي بِنَا
 أَطَافَ بِنَا مِثْلَ الْغُرَابِ مَصِيرُ
 قَلِيلُ غِرَارِ النَّوْمِ ، حَتَّى يُنَوِّمُوا
 وَيَطْلُعَ مِنْ ضَوْءِ الْمَبَاحِ بَشِيرُ

والمصورة الاولى أدق من هذه الصورة وأوفى لأن «جعفرا»
 عني بتصوير دقائق الصورة من صرير الباب وغلظ الحراس وقسوة
 الحكام . والشاعر الأسير لا يجد إلى النوم سبيلاً كما يقول
 «محمد بن عاصم الكاتب» :^(١)

تَمْضِي اللَّيَالِي لَا أذُوقُ لِرُقْدَةٍ طَعْمًا وَكَيْفَ يَذُوقُ مَنْ لَا يَرُقْدُ
 فِي مَطِيقٍ فِيهِ النَّهَارُ مُشَاكِلٌ لِلَّيْلِ ، وَالظَّلْمَاءُ فِيهِ فَرَقْدُ
 فَإِلَى مَتَى هَذَا الشَّقَاءُ مُؤَكَّدٌ وَإِلَى مَتَى هَذَا الْبَلَاءُ مُجَدَّدُ

سجن يشاكل النهار فيه الليل - فظلامه دائم ، مما بعث
 الشقاء في نفس الشاعر وحرمة الرقاد - وإذا زيد شقاء
 الشاعر بالقيود زادت همومه ، قال «إبراهيم الموصلي» :^(٢)

إِلَّا طَالَ لَيْلِي أُرَاعِي النَّجُومَ أَعَالِجُ فِي السَّاقِ كِبْلًا ثَقِيلًا
 بَدَارِ الْعَوَانِ وَشَرُّ الدِّيَارِ أُسَامُ بِهِ الْخَسْفُ دَهْرًا طَوِيلًا

إنه ليل طويل ثقيل ، وهل أطول من ليل الأسير ، وأكثر
 إملالا؟ ، أمسى فيه «الموصلي» يُقَلِّبُ عَيْنِيهِ فِي الظَّلْمَةِ ، وَلَعَلَّ
 مَدْعَاً فِي الْجِدَارِ أَوْ خَمَامًا فِي الْبَابِ يَنْفِذُ مِنْهُمَا بِصَرِهِ فَيَثْبِتُهُ
 عَلَى بَعْضِ النَّجُومِ ، وَهُوَ فِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ يِعَالِجُ الْقَيْدَ الثَّقِيلَ
 فِي سَاقِهِ ، عَلَيْهِ يَنْحَلُ ، أَوْ لِيُزِيحَهُ مِنْ مَكَانٍ فِي السَّاقِ إِلَى آخِرِ
 بَعْدَمَا أَضَارَهُ وَآذَاهُ .

(١) الأسر والسجن في شعر العرب ص ٤٥٥ .
 (٢) الأغانى ١٤٨/٥ .

ولا يغفل الشاعر عن تنبيهنا إلى أنه في أشأم مقام أو
أتعس دار يسام فيها العوان والذلّ من دهر طويل ... وهل شمّ
ما هو أتعس من السجن واذلّ ، لاسيّما إذا كان السجين ممّن
تقلبوا في اكناف النعمة مثل «إبراهيم الموصلي» .

(١)

وعن مواقع الشاعر الأسير في لياليه يقول "الفرزدق" :

أَبَيْتُ أَقَاسِي اللَّيْلِ وَالْقَوْمُ مِنْهُمْ
مَعِيَ سَاهِرٌ لِي لَيْنَامٌ وَنَوْمٌ
وَلَوْ أَنَّهَا صُمُّ الْجِبَالِ تَحَمَّلَتْ
كَمَا حَمَلَتْ رِجْلَايَ كَادَتْ تُحَطِّمُ

الشاعر يقاسي الليل الطويل في سجنه ، وقد يساعده على
الليل بعض من سجنوا معه ، والباقون نائمون ، فهم إمّا
اعتادوا حياة السجن ، أو أنّ إحساسهم لا يرقى إلى إحساس
الشاعر الذي لا يستطيع النوم متى فقد حرّيته ، ولا سيّما أنّ
رجليه تنوء بحملها الثقيل من القيود التي لو حُمّلت بها
الجبال لما احتملتها .

وقد يملّ الشاعرُ الليل من طوله كما يقول «عطارد بن
قران»^(٢) :

يَطْوُلُ عَلَيَّ اللَّيْلُ حَتَّى أَمَلُّهُ
فَأَجْلِسُ وَالنَّهْدِيُّ عِنْدِي جَالِسٌ
كَلَانًا بِهِ كِبْلَانٌ يَرْسَفُ فِيهِمَا
وَمُسْتَحْكَمُ الْإِقْفَالِ أَسْمَرُ يَابِسٌ
لَهُ حَلَقَاتٌ فِيهِ سَمْرٌ يُحِبُّهَا
الْعِنَاةُ كَمَا حَبَّ الظَّمَاءُ الْخَوَامِسُ

(١) ديوان الفرزدق ٢/٢٤٩ .

(٢) الأسر والسجن في شعر العرب ص ٥١٩ .

فماق الشاعر بالليل الذي يبببب به مع صاحبه أسيرين
مكبلين بقيود ثقيلة محكمة يتحسان حلقاتها الباردة في
ليلهما .

(١)

ويمور "عدي بن زيد" إحدى لياليه في الأسر فيقول :

طالَ ذَا اللَّيْلِ عَلَيْنَا وَاعْتَكِرَ وَكَأَنِّي نَادِرُ الصُّبْحِ سَهْرَ
مِنْ نَجْيِ الهمِّ عِنْدِي ثَاوِيَا بَيْنَ مَا أُعْلِنُ مِنْهُ وَأُسِرَّ
وَكَأَنَّ اللَّيْلَ فِيهِ مِثْلَهُ وَلَقَدْ مَا ظُنَّ بِاللَّيْلِ الْقَمَرُ
لَمْ أَغْتَمِضْ طَوْلَهُ حَتَّى انْقَضَى أَتَمَنَّى لَوْ أَرَى الصُّبْحَ جَشْرُ
شَنَزَ جَنْبِي كَأَنِّي مَهْدَأُ جَعَلَ الْقَيْنُ عَلَى الدَّفِ إِبْرُ
غَيْرُ مَاغَشِقٍ وَلَكِنْ طَارِقُ خَلَسَ النَّوْمَ وَأَعْطَانِي السَّهْرُ

ليل من لياالي الأسر الطويلة ، سهر به "عدي بن زيد"
معموما ، كأنه قد نذر السهر إلى الصباح ، يناجي صاحبه
بهمومها وبما آلت إليها حالهما ، وتظيل الهموم الليل على
الشاعر فيظنّ زمنه قد تفاعف ، فيأمل في نهار يخلصه منه ،
ويفضل لفظ جسر لما فيه من قوة يتمناها لتخلصه مما هو فيه
فجنبيه نافر عن الفراش وكأنّ الإبر تحته تمنعه النوم ، وكأنّ
جنبه كفّ تضرب على دقّ به إبر فهي لاتكاد تصل إليه خوف وخز
الإبر ، فالأسر سلب نوم الشاعر ، وأعطاه السهر .

(٢)

وعندما سجن "جندر العكلي" بتهمة اللصومية قال :

إِنِّي أَرَقْتُ لِبَرَقِ فِأَقْنِي سَارِي
كَأَنَّ بِالْعَيْنِ مِنْهُ مَسَّ عَوَارِ
أَوْحَرَ فِلْفَلَةٍ كَانَتْ بِهَا قَذِيثُ
لَمَّا بَرَى قَشْرَهَا عَنْ حَرِّهَا الْبَارِي

(١) السابق ص ٤٧٢ .

(٢) السابق ص ٥٨٦ .

إِنَّ الْعَمُومَ إِذَا عَادَتْكَ وَارِدَةٌ .
 إِنَّ لَمْ تَفْرَجْ لَهَا وَرَدًا بِإِصْدَارِ
 كَانَتْ عَلَيْهِ سَقَامًا تَمْتَكِينُ لَهُ
 وَانْمَبِتَكَ لِحَاجَاتٍ وَإِذْكَارِ
 فَمَرْتُ فِي السَّجْنِ وَالْحَرَّاسُ تَحْرُسُنِي
 بَعْدَ التَّلَمُّصِ فِي بَرٍّ وَأَمْصَارِ

يَمُورُ "جحدر" أرقه في سجنه من خلال تصوير عينه التي
 كأنَّ بها من عوار ، أو كأنَّ بها الفلفل مقشورا ، فهي لاتغمض
 والشاعر لاينام ، والعموم إذا لم يفرِّج واردة بتصديره
 أسقمت من ترد عليه وأسهرته الليل ، وعودته السهر ، فقد
 بات في السَّجْنِ وَالْحَرَّاسُ تحرسه بعد أن كان حراً يتلمص في
 الأرض .

ولقد عاش "أبو فراس الحمداني" أعواماً من عمره وهو
 أسير ببلاد الروم ، وقال عدة قصائد يصف فيها سجنه ، ويمور
 حاله في الأسر راجياً قومه أن يسعوا لفك أسره ، وإطلاق حريته
 من قيدها ، ويتخلل هذه القصائد أبيات تصور سفره وأرقه
 ورؤيته لليل في الأسر ومن ذلك قوله :
 (١)

وَأَسْرٌ أَقَاسِيهِ ، وَلَيْلٌ نَجُومُهُ
 أَرَى كُلَّ شَيْءٍ غَيْرَهُنَّ يَزُولُ
 تَطُولُ بِي السَّاعَاتُ وَهِيَ قَمِيرَةٌ
 وَفِي كُلِّ دَهْرٍ لَا يَسْرُكَ طَوِيلُ

"أبو فراس" يقاسي الأسر ، والليل الطويل الذي لاينقضي
 وهو يئن تحت ثقله ، فنجومه شابتة لاتزول ، حتى لو زال

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ص ١٣٥ .

ماعدائها ، وساعات الليل كما هي ، غير أنّ الشاعر المهموم يحسبها تطول ويفصح عن سرّ إحساسه بطول الليل مع أنّ ساعاته واحدة "في كلّ دهر لايسرك طول" فالمسألة نفسية ، ومن حسن الشاعر ، وبحسب حالته الشعورية ، فإنّ كان مسروراً ادّعى أنّ الزمن يمرّ سريعاً ، ومتى كان مهموماً شكى من طول الليل وثقله ، ولقد تكرّرت هذه الشكوى في عدة مواضع من شعر "أبي فراس" ومن ذلك قوله :^(١)

أسرتُ فلمْ أدقْ للنّومِ طعماً ولاحلّ المّقامُ لنا حزاما
ويستجدي ابن عمّه بقوله :^(٢)

دعوتك للجفن القريح المسهد
لديّ ، وللنّوم القليل المشرّد^(٣)

وقوله يشكو قلة النوم في الأسر :

أبيتُ كأنني للمبابة صاحبٌ
وللنّوم مُدْ بان الخليط مجانبٌ^(٤)
وقوله يصف نفسه :

يرعى النّجوم السّائرا ت من الطّلع إلى الأقول
"فأبو فراس" في أسره لا يذوق للنّوم طعماً ، ونومه قليل مشرّد يبيت للمبابة صاحباً ، يراقب النّجوم في لياليه إلى أنّ تغيب . بهذه الصور استعان "أبو فراس" في تموير أرقه وسهره في ليالي أسره .

(٥)
وعندما سجن "أبو الحسن التهامي" بخزانة البنود قال :

-
- (١) ديوان أبي فراس ص ١٦٦ .
(٢) السابق ص ٥٠ .
(٣) السابق ص ٤٢ .
(٤) السابق ص ١٤٥ .
(٥) ديوان التهامي ص ٢٦٣ .

إِذَا جَنَّنِي اللَّيْلُ وَهَاجَتْ بَلَا بِلِي

وَعَاودَنِي هَمِّي تَجَدَّدَ لِي فِكْرُ

إِذَا ضَمَّه اللَّيْلُ ، عَاودَتْهُ الهموم ، فيسهر مفكراً فيما
أصابه . ولعلَّ الوقت كلُّه يغدو في الأسر ليلاً على نحو ماتصور
(١)
"البارودي" عندما سجن :

وَتَفَشَّتْنِي سَمَادِيرُ الْكَدَرِ	شَفَّنِي وَجَدِي ، وَأَبْلَانِي السَّهْرِ
وَبَيَاضُ الصُّبْحِ مَا إِنْ يُنْتَظَرُ	فَسَوَادُ اللَّيْلِ مَا إِنْ يَنْقَضِي
خَبْرٌ يَأْتِي ، وَلَا طَيْفٌ يَمُرُّ	لَا أُنَيْسٌ يَسْمَعُ الشُّكْوَى وَلَا
كُلَّمَا حَرَكَهُ السَّجَّانُ مَرًّا	بَيْنَ حَيْطَانٍ وَبَابِ مُوَصِّدٍ

وقت الشاعر كلُّه ليل ، سواء الليل المعهود بظلمته أو
الليل المضروب عليه ، في قاعة معتمة ، في سجن يقوم عليه
من كل صوب حراس مدجون أيقاظ ، فالشاعر إذن في ليل دائم
لا ينقضي سواده ، ولا ينتظر صباحه ، لا أنيس ولا خبر ، ولا طيف يمرُّ
بين حيطان وباب موصد كلُّما حرَّكه السجان مرًّا ، ولم يشأ
"البارودي" أن يجاوز الصورة المحسَّنة عن السَّجْنِ والسَّجَّانِ
والليل ، والباب الموصد الذي لا يمرُّ إلا إذا حرَّكه السَّجَّانُ ..
مع أنّه كان قميناً أن يجاوز الصورة الحسيّة الموروثة لليل
بحركته ونجومه ، فيجعل السواد رمزاً لكلِّ قيد يشلُّ حركة
الإنسان وحرّيته فالجهل ليل ، والفقر ليل ، والاستبداد ليل ،
وكل ما هو بهذا السبيل فالإنسان منه في ليل اليل .

وإذا كان الشعراء قد اشتكوا من الليل وطوله وفجروا
منه وتبرموا به في أسرهم فإننا نظفر بما يخالف هذا عند
"الاصبغ بن فرار الأزدي" الذي تمنى أن يكون الليل سرمداً إلى

(١)

يوم القيامة ، يقول :

أَلَا لَيْتَ هَذَا اللَّيْلَ طَبَقَ سَرْمَدًا
على النَّاسِ لَا يَأْتِيهِمْ بِنَهَارٍ
يَكُونُ كَذَا حَتَّى الْقِيَامَةِ إِنَّنِي
أُحَاذِرُ فِي الإِمْبَاحِ فُرْمَةَ نَارِ
فَيَالَيْلُ طَبَّقْ إِنَّ فِي اللَّيْلِ رَاحَةً
وفي المُبْحِ قَتْلِي أَوْ فَكَأكَ إِسَارِي

هو الليل الاخير من حياة الشاعر التي يحبها ويتشبث بها ، وفي انقضاء الليل وطلوع النهار نهايتها ، لذلك تمنى ان يدوم ليله الى وقت الساعة آملًا ان تطول حياته وهذا من احسن ما صادفني في ليل الاسير المغموم صدقًا واداء . وفي الليلة الاخيرة يقول "هاشم الرفاعي" وهو سجين :

هذا الكتاب إليك من زنازةٍ
مقرورةٍ مخريسةٍ الجدرانِ
لم تَبَقْ إِلَّا لَيْلَةً أَحْيَا بِهَا
وَاحِصٌ أَنْ ظَلَمَهَا أَكْفَانِي
سَتَمَّرُ يَا ابْتَاهُ - لَسْتُ أَشْكُ فِي
هَذَا - وَتَحْمَلُ بَعْدَهَا جُثْمَانِي
اللَّيْلُ مِنْ حَوْلِي هَدْوٌ قَاتِلٌ
وَالذِّكْرِيَّاتُ تَمُورُ فِي وَجْدَانِي
وَيَهْدُنِي أَلْمِي ، فَانشُدُ رَاحَتِي
فِي بَطْحِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ

(١) الأسر والسجن في شعر العرب ص ٤٦٤ .
(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٢٩٩ .

ولا يقل هذا النَّص عن سابقه صدق إحساس ، وبراعة أداء
لكنّه الصدق الواعي الذي لم تستغرق الشّاعر فيه مشاعره ،
فهي ليلة وحيدة باقية ، سيكفن بظلامها ، وهذه اللّيلة تميّزت
من سواها بالهدوء القاتل لأسمع فيه ركزا ، ولا أرى إلا شريط
ذكريات العمر ، كأنّها ساعة الحساب يوم القيامة ويهول
الشّاعر ما يحسّه ، ويهدّه الألم فينشد الراحة والخلص من هذه
الذّكرات بآيات من القرآن الكريم يتلوها .

فصورة اللّيل في ذهن الشّاعر الأسير تكاد تتشكل في
إطار واحد عناصره : الظّلمة الدّامسة ، والأبواب المغلقة
التي تمرّ عند فتحها ، والقيود المحكمة ، والحراس الأيقاظ ،
والهموم المطبقة ، واللّيل الطويل ، وإن رأينا تجاوزاً لهذه
الصّورة الحسيّة عند بعض الشّعراء الذين نظروا إلى أعمارهم
بطولها من خلال ليلة من ليالي الأسر ، فهو تجاوز محدود .

الشعراء الغرباء والليل :

وهذا المبحث كسابقه من فصول الشعر العربي التي عمرت
بكثير من المشاعر ، وهو كذلك قمين أن تفرد له دراسة
تستوعب أبعاده ، لشدة التماقه بأحوال المشاعر والوجدان ،
ولشدة صدقه أيضاً ، ولهذا فالباحث يعدّه من خيرة الشعر إذا
توافرت له عناصر الشعر الجيد ومقوماته - والغربة من دواعي
العمّ وأسباب السهر ، فمتى تغرّب الشاعر ، وتذكّر أهله ووطنه
اغتمّ لذلك قلبه وسهر له طرفه ، فهذه "أمّ موسى الكلابية"
الشاعرة الجاهلية انتقلت مع زوجها إلى "حجر" من بلاد اليمن
(١)
فقلت :

قَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ حُجْرًا أَنْ أَعِيشَ بِهَا
وَأَنْ أَعِيشَ بِأَرْضِ ذَاتِ حَيْطَانٍ
يَا حَبْدًا الْغَرَقُ الْأَعْلَى وَسَاكِنُهُ
وَمَا تَمَنَّيَ مِنْ مَاءٍ وَعِيدَانٍ
أَبَيْتُ أَرْقُبُ نَجْمَ اللَّيْلِ قَاعِدَةً
حَتَّى الصَّبَاحِ وَعِنْدَ الْبَابِ عَجْلَانٍ

الشاعرة تنكر وتكره المكان الذي انتقلت إليه وتشوق
إلى أهلها وديارها ، وتعتبر حياتها في مساكن حُجْر حياة
ذليلة مقيّدة بينما كانت حياتها في الغرق الأعلى حياة حرة
طليقة ، فإذا جنّها الليل في حجر أمست ساهرة إلى أن تلوح
تباشير الصّباح ، أمّا "ابو قطيفة" فقد أمسى مكتئباً حين
(٢)
ابتعد عن قومه :

(١) شاعرات العرب في الجاهلية ص ١٧٤ .
(٢) ديوان الشعر العربي ٣٠٨/١ .

أَقْطَعُ اللَّيْلَ كُلَّهُ بِأَكْتِنَابٍ
 وَزَفِيرٍ فَمَا أَكَادُ أَنْامُ
 نَحْوَ قَوْمِي ، إِذْ فَرَقْتِ بَيْنَنَا الدَّارُ
 وَحَادَتْ عَن قَصْدِهَا الْأَحْلَامُ

فالشاعر يمضي الليل كله - وليس بعضا منه - مكتنباً
 حزيناً لا يكاد ينام يتشوق إلى قومه حين بعدت المسافة بينه
 وبينهم ، وقد يسأل بعض الشعراء العون على الليل في غربته :

أَلَا هَلْ عَلَى اللَّيْلِ الطَّوِيلِ مُعِينُ
 إِذَا بَعُدَتْ دَارٌ ، وَشَطَّ قَرِينُ
 تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ حَتَّى كَانَتْمَا
 عَلَى نَجْمِهِ إِلَّا يَعُودَ يَمِينُ
 كَفَى حَزَنًا أَنِّي بِفَسْطَاطِ نَازِحُ

ولي نحو أَكْنَافِ الْعِرَاقِ حَنِينُ
 "فأبو نواس" عاجز عن مواجهة الليل في غربته وحيداً ،
 فيطلب العون عليه لأنه طال على غير العادة ، فكأنه لا يودُّ
 انقضاءً ، وكانما على نجومه ألا تعود يمين . ويختار "أبو
 فراس" منها كواكب الجوزاء لِيُنَادِمَهَا عِنْدَمَا كَانَ "بمَنْبَج" :
 مِنْ مَبْلَغِ النُّدْمَاءِ أَنِّي بَعْدَهُمْ أُمْسِي نَدِيمَ كَوَاكِبِ الْجَوَازِ
 ابْتَعَدَ عَن نَدْمَائِهِ ، وَتَذَكَّرَهُمْ بِاللَّيْلِ وَحِيدًا ، فَلَجَأَ إِلَى
 كَوَاكِبِ الْجَوَازِ يِنَادِمَهَا وَيَسْهَرُ مَعَهَا ، وَ"الحسن بن بابل"
 يجعل من نفسه رقيباً على النجوم حين تغرب بمصر :

- (١) ديوان أبي نواس ص ٣٠٨ .
 (٢) ديوان أبي فراس الحمداني ص ١٢ .
 (٣) يتيمة الدهر ٧٤/٢ .

وَمَابَالُ أَحْشَائِي تَوَقَّدُ لَوْعَةً
 وَمَابَالُ رَأْسِي قَدْ عَلَاهُ مَشِيبُ
 وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ رَمْتَنِي يَدُ النَّوَى
 وَأَتَيْتَنِي فِي آرْجَاءِ مَهْرٍ غَرِيبُ
 أَرَا عِي نَجُومَ اللَّيْلِ لَا أَنْفُ الْكَرَى
 كَأَنِّي عَلَى رَعِي النُّجُومِ رَقِيبُ
 إِذَا مَادَعُوتُ الدَّمْعَ يَوْمًا أَجَابَنِي
 وَإِنْ رَمْتُ دَعْوَى الصَّبْرِ لَيْسَ يُجِيبُ

يَدُ النَّوَى رَمَتْ الشَّاعِرَ فَأَبْعَدَتْهُ عَنْ دَارِهِ ، وَتَغَرَّبَ فِي مَهْرٍ
 فَإِذَا جَنَّتْهُ اللَّيْلُ بَاتَ سَاهِرًا يَرَعِي النُّجُومَ ، وَكَأَنَّهُ قَدْ كُفِّفَ
 بِذَلِكَ وَدَمَعَهُ طَيِّعٌ ، وَصَبْرَهُ عَمِيٌّ وَهِيَ مُقَابِلَةٌ تَنَمُّ عَنْ مَكَابِدَةِ
 اللَّيْلِ وَالغُرْبَةِ ، وَيَزِيدُ مِنْ مَكَابِدَةِ الشَّاعِرِ الْغَرِيبِ فِي لِيَالِيهِ
 إِلَّا يَجِدُ مَا يُؤْنِسُهُ ، فَإِذَا امْتَدَّ سَهْرُهُ وَرَامَ غَمْفًا فَلَمْ يَسْتَطِعْهُ قَدْ
 يَتَمَوَّرُ أَهْدَابَهُ إِبْرًا تَمْنَعُ جَفُونَهُ الْإِقْدَاءَ عَلَى نَحْوِ مَا تَخِيلُ «ابن
 سناء الملك»^(١) :

مَنْ لِلْغَرِيبِ هَفَّتْ بِهِ الْفِكْرُ
 لَا لِعَيْنٍ تُؤْنِسُهُ وَلَا لِأَثَرِ
 لَا تَلْتَقِي أَجْفَانُهُ سَهْرًا
 فَكَأَنَّمَا أَهْدَابُهُ إِبْرُ
 مِنْ طُولِ مَا يَرْمِي بِمُحِبَّتَيْهَا
 يَبْكِي الْبُكَاءُ وَيَسْهَرُ السَّهْرُ
 يَأْطُولُ لَيْلِي لِاصْبَاحَ لَهْ
 سَحَرُوا الظَّلَامَ فَمَالَهُ سَحَرُ

الافكار تشغل خاطر الشاعر الغريب ، وتذهب به كل مذهب
 ولا يجد السلوى عن وطنه وأهله ، ولا يلقى ما يأنس به ، فينفر
 النَّوْمُ مِنْهُ ، وَيَشْكُو طُولَ اللَّيْلِ الَّذِي غَدَا بِلَسَحَرٍ . وَمِنْ
 شِدَّةِ الْمَبَالِغَةِ فِي وَجْدِهِ جَعَلَ الْبُكَاءَ يَبْكِي وَالسَّهْرَ يَسْهَرُ ، وَهُوَ

(١) ديوان ابن سناء الملك ٥٧٨/٢ .

من آثار المنعة التي لا يبدو مظهرها على شعر السابقين .
ولأنّ الإحساس بالغربة إحساس عام وتهجس به النفس كلما
ظهرت بواعثه وأسبابه فاننا نرى "البرعي" يقول :
(١)

بَكَى الْغَرِيبُ لَفَقْدِ الدَّارِ وَالْجَارِ
إِنَّ الْغَرِيبَ غَزِيرٌ دَمْعُهُ الْجَارِي
أَهَاجَهُ الرَّكْبُ إِذْ قَالُوا الرَّحِيلُ غَدًا
أَمْ شَاقَهُ لَمَعُ ذَاكَ الْبَارِقِ السَّارِي
أَمْ بَاتَ يَرْقُبُ نَارًا بِأَلْحَمَى وَقِدَّتْ
يَا مُوقِدَ النَّارِ لَأَعَذِّبَنَّ بِالنَّارِ
فَبِتُّ وَالْقَلْبُ مَجْرُوحٌ جَوَارِحُهُ
حَيْرَانَ أَهْرَبُ أَخْمَاسًا بِأَعْشَارِ
نَامَ الْخَلِيُّونَ مِنْ حَوْلِي وَمَاعَلَمُوا
أَنْبِي سَمِيرٌ مَبَابِتٍ وَتَذَكَارِ
ذَكَرْتُ جِيرَةَ نَجْدٍ يَوْمَ دَارِهِمْ
دَارِي وَسَمَارُ ذَاكَ الْحَيِّ سَمَّارِي
وَدَبْتُ وَجَدًّا لِأَرْضِي لِي بِهَا وَطَرُّ
هَيْمَاتِ كَمْ بَيْنَ أَوْطَانِي وَأَوْطَارِي

والشاعر ينسج مشاعره على منوال السابقين ذاته ، لم
ينفرد بصورة معينة ، ولا بشعور خاص ، فهو غريب لأنه فقد داره
وجاره ، ودمعه غزير ، هاجه الركب الظاعن حين علم أن رحيله
غدًا .. أم شاقته بوارق النجوم في هذا الليل المخيم على
الركب الظاعن ، فبات مجروح القلب ، نام الخليون من حوله
ومانام .

(١) ديوان عبد الرحيم البرعي ص ١٨٨ .

ويُتَّضَح ليل الغربة في شعر «محمود سامي البارودي»
 ويعود ذلك إلى طبيعة حياته ، فقد عمل ضابطاً في الجيش
 المصري ، واشترك في عدّة معارك منها حرب الدولة العثمانية
 ضدّ الروس ، ومنها معارك جزيرة "كريت" حين شاركت على
 الدولة .

كَمَا أَنَّهُ نُفِيَ إِلَى "سرنديب" وعاش بها سبعة عشر عاماً
 "وفي المنفى قال القمائد الخالدة ، يبثها شكواه ، ويحنّ
 للوطن ويمف كل ماحوله ، ويراسل الأدباء ، ويتلهف على ذكر
 (١)
 الوطن ... " .

وعندما كان بجزيرة "كريت" أيام الحرب سنة ١٢٨٢هـ قال
 (٢)
 يتشوّق إلى مصر :

سَرَى الْبَرْقُ مِصْرِيًّا فَأَرَقَّنِي وَحَدِي
 وَأَذْكَرَّنِي مَا لَسْتُ أَنْسَاهُ مِنْ عَهْدِ
 فَيَا بَرْقُ حَدِّثْنِي ، وَأَنْتَ مُصَدِّقٌ
 عَنِ الْأَلِّ وَالْأَمْحَابِ مَا فَعَلُوا بَعْدِي
 وَعَنْ رَوْفَةِ الْمُقِيمِينَ تَجْرِي خِلَالَهَا
 جَدَّأُولُ يُسَدِّهَا الْغَمَامُ بِمَا يُسَدِّي

في الليل يلحظ "البارودي" لمع البرق ، ويجعله مِصْرِيًّا
 فلعلّه آتٍ من الناحية التي تقع بها مصر ، فذكّره داره
 وأحبائه فأرقت عينه ، ولأنّ البرق قادم من جهة مصر ، خاطبه
 كما يخاطب القادم من عند الأهل ، فيسأله عنهم وعن أخبارهم
 وعن الأصحاب وما فعلوا بعده ؟ وعن الامكنة التي ترتبط
 بالذكريات الجميلة وهذا يمثل شدة الحنين لدى «البارودي»

(١) في الأدب الحديث ١٧٧/١ .
 (٢) ديوان البارودي ٢٠٤/١ .

فحين لم يجد من يحادثه في ليليه توجه إلى البرق يحادثه
 ويسأله ، فهو كما يقول :^(١)

أَبَيْتُ أَرَعَى الدُّجَى بَعَيْنِ
 غَدَاؤَهَا مَدَمَعٌ وَسُهُدٌ
 لِصَاحِبٍ إِنْ شَكَّوتُ حَالِي
 يَرِثِي ، وَلَا سَامِعٌ يَرُدُّ

فقد اجتمع عليه الليل والغربة والوحدة ، فسر لذلك
 وبكى . أمّا إذا وجد أنيساً في بعض ليليه فإنه يتوجه
 بالأسئلة والشكاية إليه :^(٢)

خَلِيلِيَّ ، هَلْ طَالَ الدُّجَى ؟ أَمْ تَقَيَّدَتْ
 كَوَاكِبُهُ ، أَمْ سَلَّ عَنْ نَهْجِهِ الْغَدُ
 أَبَيْتُ حَزِينًا ، فِي "سَرَنْدِيب" سَاهِرًا
 طَوَالَ اللَّيَالِي ، وَالْخَلِيُونَ هُجْدُ
 أَحَاوِلُ مَا لَا اسْتَطِيْعُ طِلَابَهُ
 كَذَا النَّفْسُ تَهْوَى غَيْرَ مَا تَمْلِكُ الْيَدُ
 إِذَا خَطَرَتْ مِنْ نَحْوِ حُلْوَانَ نَسْمَةً
 نَزَتْ بَيْنَ قَلْبِي شُعْلَةٌ تَتَوَقَّدُ

بجمل استفهامية متلاحقة يصور "البارودي" ضيقه وتبرمه
 بليل الغربة ، إذ يبیت به ساهداً حزيناً والخليون من العموم
 سادرون نائمون ، يظلّ يفكّر في وطنه وأهله ، أملا العودة
 إليهم ، وآتى له بذلك وهو في المنفى ، وحين يشتد به
 الحنين ويستغرق في الذكريات ، ويطلق أشرعة الأحلام في ليله
 يفوز بتلك النسمة العليلة التي أقبلت تخطر من "حلوان"
 قاطعة كل البلاد التي بين "حلوان" و"سرنديب" ومتجاوزة كل
 الحدود والحواجز لتقمد "البارودي" بالذات غير أنّها تشب

(١) السابق ٢٥٩/١ .

(٢) السابق ٢٦٣/١ .

شعلة متوهجة في قلبه حين تصل إليه ، ويصوّر غربته ووحده
 وحاله في لياليه في موضع آخر بقوله :
 (١)

لَا فِي «سَرْنَدِيْب» لِي خَلٌّ أَلُوذُ بِهِ
 وَلَا أَنْيْسُ سِوَى هَمِّي وَإِطْرَاقِي
 أَبَيْتُ أَرَعَى نَجُومَ اللَّيْلِ مُرْتَفِعًا
 فِي قُنَّةِ عَزٍّ مَرَقَاهَا عَلَى الرَّاقِي

وهي معان يكررها بعينها ، يشكو الوحدة والعم ، ويُمضي
 الليل حزيناً يرعى نجومه ، ولكنه قد يسترسل في هذا من نحو
 (٢)
 قوله :

أَبَيْتُ عَلِيًّا فِي «سَرْنَدِيْب» سَاهِرًا
 أَعَالِجُ مَا أَلْقَاهُ مِنْ لَوْعَتِي وَحَدِي
 أَدُورُ بِعَيْنِي لَا أَرَى وَجَهَ صَاحِبِ
 يَرِيحُ لِمَوْتِي ، أَوْ يَرِقُّ لِمَا أُبْدِي
 وَمِمَّا شَجَانِي بَارِقُ طَارَ مَوْهِنًا
 كَمَا طَارَ مُنْبَثُّ الشَّرَارِ مِنَ الزُّنْدِ
 يَمَزِقُ اسْتَارَ الدُّجْنَةِ ضَوْؤُهُ
 فَيَنْسِلُهَا مَا بَيْنَ غُورٍ إِلَى نَجْدِ
 أَرَقْتُ لَهُ وَالشُّهْبُ حَيْرَى كَلِيلَةَ
 مِنَ السَّيْرِ وَالْأَفَاقِ حَالِكَةُ الْبُرْدِ
 فَبِتُّ كَأَنِّي بَيْنَ أَنْيَابِ حَيَسَةَ
 مِنَ الرُّقْطِ أَوْ فِي بُرْثَنِي أَسَدٍ وَرَدِ

(١) السابق ٣٢٧/٢ .

(٢) السابق ٢٥٣/١ .

وترسم هذه الابيات صورة واضحة المعالم لحال "البارودي" إذا جنّه الليل في غربته ، فهو ساهر مُجر ولامعين له فيمضي الليل وحيداً يرقب نجمه وبرقه ، ويكنّي عن طول ليله بقوله (والشهب حيرى كليلة من السير) فهي قد تعبت من المسير وكتّت ، وذلك من طول الليل الذي ضاق به "البارودي" فقال عن نفسه : إنه باتَ وكأنّه بين أنياب حية أو بين مخالب أسد ، رمزاً للمعاناة ، وكل هذه الصّور متكررة عند شعراء كثيرين ، ولكن غربة "البارودي" التي طالت ، واستظهاره للشعر العربي من أسباب تردد مثل هذه الصور في شعره وكثرتها ، فهو يقول كذلك :^(١)

أَبَيْتُ أَرَعَى النَّجْمَ فِي سُدْفَةٍ ضَلَّ بِهَا الْمُبْحُ فَلَمْ يَطْلُعِ
لَا أَهْتَدِي فِيهَا إِلَى حِيلَةٍ تَقِي حَيَاتِي مِنْ يَدَيِّ مَمْرَعِي
طَوْرًا أَدَارِي لَوْعَتِي بِالْمُنَى وَتَارَةً يَغْلِبُنِي مَذْمَعِي
فَهَلْ إِلَى الْأَشْوَاقِ مِنْ غَايَةٍ؟ أَمْ هَلْ إِلَى الْأُوطَانِ مِنْ مَرْجِعِ؟^(٢)

وقال "معروف الرصافي" :

تَذَكَّرْتُ فِي أُوطَانِي الْأَهْلَ وَالصَّحْبَا
فَارَسَلْتُ دَمْعًا فَاضًا وَإِبْلُهُ سَكْبَا
وَبِتُّ طَرِيدَ النَّوْمِ اخْتَلَسَ الْكَرَى
بَشَاخِمْ طَرْفٍ فِي الدُّجَى يَرْقُبُ الشُّهْبَا

تذكّرُ الأهل والصّحب والأوطان أبكى الشاعر ، وأسهر جفنه فباتَ يبحثُ عن النَّوْمِ فلا يجده ، فتوجه إلى نجوم السماء يرقبها في ليله .

(١) السابق ٢٣١/٢ .
(٢) ديوان معروف الرصافي ص ٢٠٤ .

ويرى الباحث أنّ ذاتيّة "الرّصافي" الشاعر مطموسة وأنّ صورته وتراكيبه مقترضة من سواه فلا فضل له إلاّ في إعادة النّظم وهو مالا يكفل للشعر التّأثير والخلود . وقال "أحمد محمد الشّامي" وهو في "بروملي" مخاطباً واحداً من أصدقائه في (١) موطنه :

أَنْتَ فِي الدَّارِ بَيْنَ صَحْبٍ وَأَحْبَا

بِ وَاهْلِ فَكَيْفَ تَشْكُو الْفِيَاءَ ؟
وَأَنَا أَحْصِدُ اللَّيَالِي حَزِينًا

في "بروملي" وَأَمْطَلِيهَا التِّيَاعَا

فالشاعر يعجب من صاحبه المقيم في وطنه ، وبين صحبه واهله ويشكو الفياع ، والشكوى في - رؤية الشّاعر - لاتقبل إلاّ ممّن يسهر الليالي حزيناً وشوقاً إلى اهله ووطنه .
فالإحساس بالغربة قمين أن يطرد النّوم عن الغريب ويبيّته الليل مسامراً للنّجوم يذكر الاهل والدار والمحاب ، ولكنّ لم يجد الشاعر الغريب في الليل مالم يجدّه في النّهار؟
لم يشهد ظلام الليل هذا الإحساس ويؤجّجه في نفس الشاعر؟
وفيم يختلف ظلام الليل عن بياض النهار في هذا الإحساس؟ أهو الهدوء والخلوة والتركيز الذي يجدّه الشاعر بالليل ولايجده بالنهار؟

لقد كان الإحساس بالغربة قميناً أن يجعل من بهمة الليل وظلمته وقوداً يحرك شعور الشاعر ويجدّه ، ويولد منه اشتاتاً من الصور لكنّ ممّا يؤسف له أنّ معظم الصّور - على النحو الذي سبقت الإشارة إليه - يكاد جمالها ينحصر في براعة الشاعر في

اختيار اللفاظ ذات الجرّس العالي والرنين القوي ، وما يمثل
هذا يثري الشعر ويثري الشعور .

إن الإحساس بالغربة كان قميئنا أن يجعل ظلام الليل
منطلقاً إلى آفاق النور الفسيحة ، وأن يجعله باباً من أغنى
ابواب الشعر العربي .. فما بال شعرائه قصّروا ؟!

طوارق الليل :

طوارق الليل كثيرة ، ومنها تلك الحشرات التي تطير أو تدب ليلاً فتؤذي من تلقاه ، وتسلبه النوم والراحة ، وتجعله يقضي الليل همّاً وسهراً ، والناس جميعاً يتعرضون لهذه المؤثرات فيلقون منها مايلقون ، والشاعر كغيره من الناس لكن إحساسه بها وطريقة تعبيره عنها ، وإخراجها في صور مختلفة جعلها لوحة من لوحات الفن الشعري لايمكن الغف عنها أو الإعراض عنها ، مادام الفن في حقيقته أمشاجاً مختلفة من الصور التي تتألف منها الحياة في رؤية الفنان .

ومن تلك الحشرات "البعوض" الذي اشتكى منه الخليفة

(١)

"عبد الله بن المعتز" في مواضع عدة من شعره :

يَتُّ بَجْهِدٍ سَاهَرَ الْأَجْفَانِ ، يَلْدَعُ جِلْدِي شَرَّ النَّيْرَانِ

مِنْ طَائِرٍ زَمَرَ فِي الْأَذَانِ ، مِنْ الدَّمَاءِ مُتَرَعٍ مَلَانِ

أسهر البعوض جفن الشاعر ، يلدغه ليله بلسع كأنه شرر

النار على جلده ، ويصف الشاعر موت البعوض فهو يزمر في

الأذان ويمور شكله فقد امتلا جوفه من الدماء التي شربها ،

وماظفرت به من نصوص تشكو البعوض وتموره تعود في أغلبها

إلى العصر العباسي في زمنها وإلى أرض العراق في مكانها ،

أمّا ماسبق العصر العباسي فمجرد إشارات إلى البعوض (فهو

يفغني على النطاف) كما يقول : "بشر بن أبي خازم" وله لسع (٢)

مدم حتى كما الأسد قطيفة حمراء كما يقول "الأعشى" ونحو ذلك (٣)

(١) ديوان ابن المعتز ص ٤٤٤ .

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٤٩ .

(٣) ديوان الأعشى ص ١٩١ ، ويراجع كتاب المورة الغنية في الشعر الجاهلي .

غير أنّه أخذ شكل الظاهرة في العصر العباسي فلعلّ الشعراء في الأعراس التي سبقت "ابن المعتز" كانوا يتعففون أنّ يجعلوا من "البعوض" أو ما يشبهه غرضاً فنياً من أغراضهم ، فلمّا جاء عصر التّرف والرّخاء انصرف الشعراء إلى دقائق وتفصيل لم يكن أسلافهم في عصور التّكشف يلقون لها بالا .

فلاغرّوا إذن أن يكثر "ابن المعتز" من ترداد شكواه من
(١)
آفة البعوض :

كيف نومي ، وقد حللت ببغدا د مقيماً في أرضها ، لا أريم
ببلاد فيها الرّكاييا عليها سن كالليل من بعوض تحوم

"ابن المعتز" مقيم ببغداد ، والبعوض من كثرته كأنه قطع الليل ، يلدغ الشاعر ويمنعه النوم ، ويمور "ابن المعتز" ما يعانيه من البعوض في إحدى لياليه :

بتُّ بليلاً كلّه لم اطرفه قرقيسه كالرمش المنتف
يلسنا بشعر مجوفه يعذب المّجة ، إن لم يتلف
ويتقّب الجلد وراء المطرفه حتى ترى فيه كشكل المصحف
أو مثل رشّ العصفر المدوف

بعوض صفار كأنه الرمش المنتف بات يلسع "ابن المعتز" فيحرمه النوم في تلك الليلة ويلسه بخراطيمه التي تشبه الشعر المجوف ، ويمتنع بها دمه ، فيسبب له الألم والفيق ، ولا يجد دونه حائلاً ، فهو يخترق الرداء بخراطيمه ويميل إلى الجلد فيلسعه ، ومن تكرار اللسع أصبح جلد الشاعر وكأنه حروف أو أرقام على صحيفة ، أو ألت مثل العصفر المدوف المرشوش على جلده .

(١) ديوان ابن المعتز ص ٤٠١ .

(٢) السابق ص ٣٢٧ .

وقد يسهر الشاعر ليله ، ويده تضرب بعض أعضائه ، في

(١)

محاولات متكررة للقضاء على البعوض :

بِتُّ بِجُهْدٍ لَا أذُوقُ الْغَمَضَاءُ ، مَسْهَدًا يَضْرِبُ بَعْضِي بَعْضًا
 قَدْ قَطَعَ الْقِرْقَمِ جِلْدِي عَمَّا ، مُنْتَهَشًا بِقَرْمِهِ مُنْقَمًّا
 كَشَرَّ الْقَدَحِ إِذَا مَا ارْفَضَاهُ ، يُدْمِنُ إِسْخَاطَكَ حَتَّى تَرْضَى

داوم البعوض على نهش جلد الشاعر ، فأرقه وأسهده ،

ويدافع عن نفسه فيضرب البعوض بكفه ، والضرب يقع على جسمه

فيبيت يضرب بعضه بعضا ، وقد يجتمع البعوض حتى كأنه مطر من

(٢)

كشرته :

وَتُمْطِرُنَا لِيَالِيهَا بَعُوضًا يَذُبُّ النَّوْمَ عَنَّا وَالسُّبَاتَا

أعداد هائلة من البعوض وكأنها مطر ، وقال : تمطرنا

لياليها بعوضاً إشارة إلى وقت مجيء البعوض ، إذ يقبل

مع الليل ، فَيُنْحِي النَّوْمَ عَنِ الشَّاعِرِ ، فيبيت بحال تسرُّ

(٣)

أعداءه :

وَبَاتَ كَمَا سَرَّ أَعْدَاءَهُ ، إِذَا رَامَ قَوْتًا مِنَ النَّوْمِ شَدًّا

تَغْيِيرُهُ نَزَوَاتُ الْبَعُوضِ فِي قَمَرٍ مِثْلِ ظَهْرِ الْجُرْدِ

فالحال من سوءها تسر أعداءه ، وهذه الحالة النفسية

السيئة هي التي خيَّلت القمر كظهر الجرد في ذهن "ابن

المعتز" لأنه عندما كان مسروراً جعله زورقاً من ففة ، وعندما

(٤)

ضاق بهذه الليلة لما أصابه فيها من هموم بسبب البعوض الذي

ذبَّ عنه النوم ، وأدمى جلده ، وصف القمر بظهر الجرد .

(١) السابق ص ٢٩١ .

(٢) السابق ص ١٢٠ .

(٣) السابق ص ١٩١ .

(٤) السابق ص ٢٤٧ .

و"البراغيث" من طوارق الليل وفيها يقول «أبو الشيمس الخزامي» :^(١)

تَطَاوَلَ فِي بَغْدَادَ لَيْلِي وَمَنْ يَبِتُ
بِبَغْدَادَ يَلْبَثُ لَيْلَهُ غَيْرَ رَاقِدٍ
بِلَادٍ إِذَا زَالَ النَّهَارُ تَقَافَزَتْ
بَرَاغِيثُهَا مَا بَيْنَ مَثْنَى وَوَاحِدٍ
دِيَارِجَةٌ شَهْبُ الْبُطُونِ كَانَهَا
بِفَالٍ بَرِيدٍ أُرْسِلَتْ فِي الْمَدَاوِدِ

إذا زال النهار وجاء الليل أقبلت البراغيث أزواجاً
وأفراداً ذات لون كأنه الكحل وبطونها شهب ، وهي بهذا تشبه
بفال البريد المرسله غير أنها تتجه إلى الشاعر فتظل الليل
تنهش جلده ، فتطيل ليله وتسهر جفنه ، ولقد قدم «ابن شهيد
الاندلسي» ومفصلاً دقيقاً مفصلاً لفعل البرغوث في لياليه :^(٢)

وَمَنْقَرٌ لِلنَّيُومِ مَسْكَنُهُ إِذَا
نَامَ الْمَمْلُوكُ بَيْنَ أَثْنَاءِ الشِّيَابِ
يَسْرِي إِلَى الْأَجْسَامِ يَهْتِكُ عَدُوَّهُ
عَنِ كُلِّ جِسْمٍ صِيغَ بِالنَّعْمَى جَبَابٍ
وَيَعْضُ أَرْدَافَ الْحَسَانِ وَمَالِهِ
كَفٌّ وَلَكِنْ فُوهُ مِنْ أَعْدَى الْحِرَابِ
مُتَحَكِّمٌ فِي كُلِّ جِسْمٍ نَاعِمٍ
مُتَدَلِّلٌ مَا بَيْنَ الْحَاظِ الْكَعَابِ
فَإِذَا هَمَّتْ بِزَجْرِهِ وَلَّى وَلَا
يَشْنِيهِ عَمَّا قَدْ تَعَوَّدَهُ طَلَابُ

(١) ديوان أبي الشيمس الخزامي ص ٢٤ .

(٢) ديوان ابن شهيد الاندلسي ص ٨٧ .

وَتَرَى مَوَاضِعَ عَضِّهِ مَخْضُوبَةً
 بِدَمِ الْقُلُوبِ وَمَاتَعَاوَرَهُ خِفَابُ
 قَرَمٍ مِّنَ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ مُكَوَّرٌ
 يَمْشِي الْبَرَازَ وَمَاتُورِيهِ شِيَابُ

"منقَّر النَّوْم" هو البرغوث إذ يطرد النَّوْم بقدمه متى
 اختبأ بين الشياب وأخذ طريقه إلى الجسم ، وبدأ يعض الأعضاء
 بضم كأنه حربة حادة ، يوالي الطعن بها ، فإن زجره الشاعر
 هرب غير أنه يعود سريعاً ، فيصيب مواقع كثيرة من جسمه ،
 ويترك آثار العض عليها دون أن يصيبه شيء ، وهو ذو لون
 داكن وكأنه قطعة مكورة من الليل لاغطاء عليها ، ويمفه
 بالقرم ، والقرم الفحل من الإبل الذي ترك للضراب .
 ويمور "ابن وكيع التنيسي" ماتشقي به البراغيثُ النَّاس
 (١)
 في لياليهم :

حَتَّى إِذَا مِلْتُ إِلَى الرَّقَادِ م نِمْتُ عَلَى فَرْشٍ مِنَ الْقَتَادِ
 إِنَّ الْبَرَاعِثَ عَذَابٌ مُزْعَجٌ لِكُلِّ مَاقَلْبٍ وَجَلْدٍ تُنْفِجُ
 لَايَسْتَلِدُّ جَنْبَهُ الْمَضَاجِعَا كَأَنَّمَا أَفْرَشْتَهُ مَبَاهِعَا

زيارة البراغيث تنيم الشاعر على الشوك الحاد فهي
 مصدر عذاب ثقيل مزعج يطرد النَّوْم ، ولكل قلب وجلد تنفج ،
 فلجلد عضّ ولسع ، وللقلب همّ وضيق .

و"البق" من هوام الليل أيضاً ، وفيها يقول «أبو إسحاق
 (٢)
 المابي»:

وَلَيْلَةٌ لَمْ أَذُقْ مِنْ حَرِّهَا وَسَنَا
 كَأَنَّ مِنْ جَوْهَا النَّيْرَانَ تَشْتَعَلُ

(١) يتيمة الدهر ٤٤٥/١ .
 (٢) يتيمة الدهر ٣١٦/٢ .

أَحَاطَ بِي عَسْكَرُ اللَّبَقِّ ذُو لَجْبٍ
 مَا فِيهِ إِلَّا شَجَاعٌ فَاتِكُ بَطَلُ
 مِنْ كُلِّ سَائِلَةِ الْخَرْطُومِ طَاعِنَةٍ
 لَا تَحْجُبُ السَّجْفُ مَسْرَاهَا وَلَا الْكِلَلُ
 طَافُوا عَلَيْنَا وَحَرُّ الصَّيْفِ يَطْبُخُنَا
 حَتَّى إِذَا طُبِخَتْ أَجْسَامُنَا أَكَلُوا

ليلة من ليالي الصيف الحارة هجم فيها جيش من البق على الشاعر ، جيش فرسانه من الشجعان الابطال الفاتكين ، لا يمنع مسراهم حجاب ولا استار فمدوا الشاعر ، ونالوا من جسده .

و"الشعالي" يستحسن البيت الاخير ويقول انه "املح ماسمعت في معناه" والبيت جيد المعنى إذ جعل حرارة الصيف تطبخ اجسادهم فإذا نضجت أكلها البق ، وهو بهذا يجمع بين حرارة الصيف وهجوم البق الذي يعاني منهما ، ويعبر عن ذلك بأوجز لفظ ممكن الصيف يطبخ ، والبق يأكل ، وبات "ابن المعتز" ليلة فريسة البق :

مَا ذُقْتُ طَعْمَ النَّوْمِ لَوْ تَدْرِي ، كَانَ جَنْبِي عَلَى جَمْرٍ
 فَرِيَسَةٌ لِلْبَقِّ مَنُوشَةٌ ، قَدْ ضَعُفَتْ كَفِّي عَنِ النَّمْرِ
 حُرْمَ النَّوْمِ حَتَّى لَمْ يَعْرِفْ لَهُ طَعْمًا ، وَكَانَ الْجَمْرُ عَلَى

جسده إشارة إلى حرارة لدغ البق ، الذي ضعف الشاعر أمامه ، وكأنه فريسة لاتستطيع دفاعاً عن نفسها ، فقد دافع عن نفسه بكفيه حتى كَلَّتْ ، فاستسلم للبق ينهش في جلده .

وبات "أحمد فارس الشدياق" يجاهد البق :

(١) ديوان ابن المعتز ص ٢٥٤ .
 (٢) ديوان الشعر العربي ٤٠٢/٣ .

يَا لَيْلَةَ لَمْ تَذُقْ عَيْنِي بِهَا سِنَةً
 أَجَاهِدُ الْبَقَّ أَفْرَادًا وَأَزْوَاجًا
 مثل الفُصُوصِ عَلَى جِسْمِي مَرْصَعَةً
 حَتَّى إِلَى خَاتَمِي الْغَيْنِ مِنْهَا جَا

وقد يجتمع على الشاعر أكثر من صنف من طوارق الليل فيعاني من ذلك ويبيت ساهراً مهموماً شاكياً ، قال «الناهي»^(١) :
 لَا أَعْذُرُ اللَّيْلَ فِي تَطَاوُلِهِ لَوْ كَانَ يَدْرِي مَانْحُنُ فِيهِ نَقْمُ
 لِي وَالْبَرَاعِيثُ وَالْبَعُوضُ إِذَا الْحَفَنَاءُ حَنَدَسُ الظَّلَامِ قَمَصُ
 إِذَا تَفَنَّى بَعُوضُهُ طَرِبَاءً سَاعَدَ بَرَعُوثُهُ الْغَنَاءَ فَرَقَصُ

يقول "الشعالبي" عن هذا النص عندما أورده في اليتيمة "المعنى جيد وفي اللفظ خلل" ومعه حق في ذلك لأن الشاعر يقول لأعذر الليل في تطاوله ، ثم يقول لو كان يدري مانحن فيه نقم فكان الأجدر أن يقول "قد أعذر الليل" أي : أن يوجد عذراً لطول الليل لأنه لا يعلم معاناة الشاعر فيه ، إذ لو علم بها لنقم ، وهكذا يستقيم اللفظ والمعنى . وعناء الشاعر ناتج من اجتماع البراعيث والبعوض عليه ، إذا جنه الظلام ، وفي صورة هزلية يصور مايفعل البعوض والبراعيث ، فالبعوض يغني إشارة إلى صوته أو زمره وحين يسمع البرعوث هذا الغناء يستخفه الطرب فيرقص إشارة إلى حركته السريعة وقفزاته المتلاحقة .

ولقد أورد "الشعالبي" في "خاص الخاص" ضمن الأشعار التي زعم أنه لم يسبق إلى معانيها ، كما أشرت في مقدمة هذا البحث قوله :

(١) يتيمة الدهر ٤/٤٤٣ .

وَلَيْلٍ بَتُّهُ رَهْنٌ اِحْتِنَابٍ اَقَاسِي فِيهِ اَنْوَاعَ الْعَذَابِ
اِذَا شَرِبَ الْبَعُوضُ دَمِي وَغَنَّى فَلِلْبَرْغُوثِ رَقْمٌ فِي شِيَابِي

فصاحب النص السابق من شعراء اليتيمة ، وكتب "الشعالي" عنه واطَّلَعَ على أشعاره . وأورد في "خاص الخاص" نصوصاً من نظمه زاعماً أنه لم يُسَبَقْ إلى معانيها . وهذا النص "النهاي" قد يدحض هذا الزعم ، فهو يكاد يماثله لفظاً ومعنى إلا أنَّ لفظ "الشعالي" أجود وأفضل .

ولقد اجتمع البعوض والبق والبراغيث في ليلة على "أبي علي الحسن بن أبي الطيّب" فقال :
(١)

رُبَّ لَيْلٍ كَالْفَحْمِ شَبَّ سَهِيلٌ
فِيهِ نَارًا لَهَا الْبَعُوضُ شَرَارٌ
كَمَّ عَلَى الْأَرْضِ لِلْبَرَاغِيثِ رَقَاً
مِنَ اللَّبِقِ فِي الْهَوَاءِ زُمَارٌ
وَحَزَمًا فِي الْجُسُومِ نَمٌّ عَلَيْهَا
فَأَرْتَنَّا أَشْخَاصَهَا الْأَشَارُ
كَلَفْتَنَا مَكَّ الْجَبِينِ وَلَطَمَ الـ
خَدٌّ حَتَّى تَنَاوَحَ الْأَطْيَارُ
سَهْرَتْ مَقَلَّتَايَ فِيهِ إِلَى أَنْ
نَامَ أَنْوَارُهُ وَهَبَّ النَّهَارُ

ليل أسود كالفحم شديد الحرارة وكان سهيل يشب فيه ناراً والبعوض شرر لها ، إشارة إلى كثرته في الظلام ، والبراغيث كثيرة على الأرض ويعبر عن هذا "كم" الخبرية - براغيث كثيرة الحركة والقفز كأنها ترقص ، وعاون البق

(١) دمية القصر وعمرة أهل العمر ٣٧٥/٢ .

البعوض والبراغيث في الهجوم فوخزوا الاجسام إلى أن أدموها
وبات الشاعر ومن معه يمكّون الجبين حيناً ويلطمون الخدّ حيناً
آخر في محاولة لدرء هذه الحشرات التي تؤرقهم وظلّوا هكذا
إلى طلوع الصّباح .

ثم توارثت العصور اللاحقة هذه الصور ولاسيما في العصر
المملوكي عندما شاعت آفة الفقر بين الشعراء ، فوصفوا
دورهم وبؤسها ومايلقونه من عنت هذه الآفات الليلية على نحو
مايقول «كمال الدين ابن الاعمى» :^(١)

دارٌ سكنتُ بها أقلُّ صفاتها
أن تكثر الحشرات في جنباتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته
كم أعدم الأبقان طيب سباتها
وتبيت تسعدها براغيث متى
غنت لها رقمت على نغماتها
رقم بتنغمي ، ولكن قافه
قد قدّمت فيه على أخواتها

و"العقارب والحيات" قد تطرق ليلاً متخذه من الليل
جباباً كما يقول «ابن وكيع التنيسي» :^(٢)

حتى إذا عنا انقضى نهاره
تحركت في جنبه دواهي
من عقرب يسعى كسعي اللس
وحية تنفت سماً قاتلا
وأرخت من ليله أستاره
سارية وأنت عنها ساهي
سلاحها في إبر كالشص
تزود المدوغ حتفاً عاجلا

(١) فوات الوفيات ١٦٤/٢ .
(٢) يتيمة الدهر ٤٤٣/١ .

والخوف من هذه العقارب والحيات يُسَلِّم العين للسهر كما
(١)
يقول "المعتمد بن عباد" :

وَيَا عَقَارِبَهَا لَا تَعْدِمِي أَبَدًا

شُحًّا وَعَقْرًا وَلَا نَوْعًا مِنَ الضَّرْرِ

كَمَا مَلَأْتَنِّي قَلْبِي مَذْحَلْتُ بِهَا

مَخَافَةً أَسَلَّمْتُ عَيْنِي لِلسَّهْرِ

وهكذا لم يكن الليل بالنسبة لهذه المزعجات إلا أنه
الوقت الذي تتحرك فيه ، وتسعى سعيها ، فهي تقف المضاجع ،
وتطرد النُّوم ، فيطول الليل بهذا الهم كما يطول بسواه من
الهموم .

(١) ديوان المعتمد بن عباد ص ١٠٠ .

الليل والطموح :

الليل مظنة كل من يصبو إلى المجد كما قيل "ومن طلب
العلا سهر الليالي" والحقيقة أن من يطلب العلا يجد في
النهار كما يجد في الليل ، لكن الشاعر فيما تنم عليه
العبارة حسب أن العلاء لا يطلبه إلا الشعراء وأشباههم من طلاب
العلم ، ولذلك جعل الليل سبيله إلى هذا العلاء ، يُحبر فيه ،
ويدبج ، ويميد خواطره بأسلة قلمه ، ثم يذرف قطرات المداد
على مدر القرطاس ، فيمنع بذلك مجداً وعلواً وخلوداً . إن سهر
الليالي في طلب الرفعة ، وإن كان من مقاصد الشاعر القديم
المطوية ، إلا أنه لم يمرح به ، وطوى مدره عليه . أما
الشاعر الحديث فجعله مطلباً صريحاً يستهدفه ، ويجهر به ،
ويكثر من الكلام حوله .

والسؤال الأهم هل كانت رؤية الشاعر لليل - في هذه

الحالة - مغايرة لما أطلعنا عليه في احوال أخرى ؟

لقد أبان بعض الشعراء أنهم تركوا النوم والراحة في
ليال كثيرة ، قفوها سهراً وهمًا ، طلباً للمجد والرفعة ، أو
للمال والحياة الرغدة ، والشعر أحد السبل التي تضمن
للشاعر المبدع حياة كريمة وذكرًا بعد موته ، قال "بشار بن
برد" (١)

برد " لأحد ممدوحيه :

كَسَوْتُكَ حُلَّةً مِمَّا أُسَدِّي	بُرُوداً لَا يُفَارِقُهَا بُرُودٌ
مَلَابِسٌ لَا تَرْتُّ عَلَى اللَّيَالِي	وَلَا تَبْلَى وَإِنْ بَلِيَتْ جُلُودٌ
جَلَسْتُ أَحْوَكَهَا وَاللَّيْلُ دَاجٌ	مُحَبَّرَةٌ تَبِيدُ وَلَا تَبِيدُ
يُورِثُهَا بَنُوكَ بَنِي بَنِيهِمْ	إِذَا هَلَكُوا وَمَنْشَرُهَا جَدِيدٌ

فالقמידة حلة ، وبشار يمضي الليل ساهراً ليحوكها
ويبدع نسجها ، أمّا لماذا اختار الليل ليقوم بعمله ؟ فلِمَا
يجده في الليل من هدوء وسكينة وفراغ تجعله يتفرغ لنفسه
ومشاعره ، فيتمكن من بناء القمائد التي لاتفنى على الدهر
رافعة اسم الشاعر ، واسم ممدوحيه ، إنّه مطمح يسعى إليه كل
شاعر ، والليل يساعد الشاعر في الوصول إلى مقاصده ، بِمَا
يوفر له من صفاء الفكر ، وخلو النفس وقدرة على التأمل ،
وهي أمور يمعب توفرها بالنهار مع مشاغل الحياة ولقاء
الناس و"أبو تمام" يؤكد هذا حين جعل القמידة ابنة الفكر
المهذب في الدّجى :^(١)

خُذَهَا ابْنَةَ الْفِكْرِ الْمُهَذَّبِ فِي الدُّجَى
وَاللَّيْلِ أَسْوَدُ رُقْعَةَ الْجَلَبَابِ
بِكُرّاً تَوَرَّتْ فِي الْحَيَاةِ وَتَنَثَنِي
فِي السَّلْمِ وَهِيَ كَثِيرَةُ الْأَسْلَابِ
وَيَزِيدُهَا مَرُّ اللَّيَالِي جِدَّةً
وَتَقَادِمُ الْأَيَّامِ حُسْنَ شَبَابِ

كأنّ الفكر لا يكون مهذباً صافياً إلا في الدّجى ، فسواد
الليل يُفَيِّقُ عالم الرؤية الحسيّة للشاعر ، لكنّه يوسّع عالم
الرؤية النفسية له فينظم ما يجيش بخاطره ، وما يعتلج بنفسه
فيخطف من فكره المهذب هذه البنت البكر الجميلة لكنها تورّت
من تقمده المجد وإنّ تقادم العهد . "أبو تمام" مدرك لِمَا
يمنحه الليل للشاعر من فرصة الإبداع والتجويد في شعره حتّى
جعل الشعر فرجاً ، وقمر لذته على من يفتخره على مدّ الليالي:^(٢)

(١) ديوان أبي تمام ص ٣٩ .
(٢) السابق ص ٣٦٢ .

والشعرُ فرجٌ لَيْسَتْ خَمِيمَةً طُولَ اللَّيَالِي إِلَّا لِمُفْتَرَعِهِ

للشعر لذة نفسية تعدل تلك اللذة الحسية ، وبينما

يجعل «أبو تمام» من نظم القريض ليلاً لذة ومتاعاً ، يجعله

«صفي الدين الحلبي» عناء في قوله :^(١)

وَأَسْهَرُ فِي نَظْمِ الْقَوَافِي ، وَلَمْ أَقُلْ :

خَلِيلِي هَلْ مِنْ رَقْدَةٍ أَسْتَعِيرُهَا

وعلى غرار اللذة التي يجدها "أبو تمام" ليلاً من نظم

القريض ، وجد «الانصاري» أحد شعراء اليتيمة لذة ، لكنها

تختلف عن اللذة التي عناها "أبو تمام" يقول "الانصاري" :^(٢)

وَلَرُبَّ لَيْلٍ قَدْ هَجَرَتْ رُقَادَهُ

لَكَ وَالرَّدى مُغْفٍ وَطَرْفِي سَاهِدٌ

أَتَحَلَّلُ الْكَلِمَ الْعَوَانَ تَحَلُّلاً

فَأَغَافِقُ الْمَعْنَى كَأَنِّي صَائِدٌ

الشاعر مسهد ، لا يغمض له جفن ، والشعر يعتلج في صدره ،

والمعاني تراوده وتروغ منه ، وكأنه معها الصياد ، فالصيد

عناء ، لكن له لذة نفسية ، وخاصة عندما يفوز بميد يرضى به

والشعر جهد وعناء وصياغة ومتعة في اصطيد المعنى ، وفكرة

الصياغة أوحى «المسكويه الخازن» قوله :^(٣)

إِذَا اضْطَجَعْتُ أَتَانِي الشُّعْرُ يَقْدَحُ لِي

مِنْ نَارِهِ وَأَتَانِي اللَّيْلُ بِالْفَحْمِ

وَصَائِغُ الشُّعْرِ لَا يَرْضَى سَبِيكَتَهُ

حَتَّى يَفْرِّغَهَا فِي قَالِبِ الْحَكَمِ

(١) ديوان صفي الدين الحلبي ص ٧٩ .

(٢) يتيمة الدهر ١/٥٠٤ .

(٣) السابق ١١٨/٥ .

يُمبُّ فِي مَسْمَعِيهِ مَا أَذِيبَ لَهُ

كَالْقَطْرِ أَفْرَغَهُ الْبَائِي عَلَى الرَّدْمِ

فَعَبَّرَ عَنِ صِيَاغَةِ الشُّعْرِ وَكَأَنَّهُ يَعْبُرُ عَنِ صِيَاغَةِ سَبِيكَةِ مِنْ
مَعْدِنٍ مَا ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ ، وَاضْطَجَعَ الشَّاعِرُ ، طَلِبًا لِلرَّاحَةِ
وَالنُّوْمِ جَاءَهُ الشُّعْرُ يُوْرِي لَهُ مِنْ نَارِهِ ، وَأَمَدَّهُ اللَّيْلُ بِمَا
يَشَاءُ مِنَ الْفَحْمِ ، وَلَعَلَّهُ رَأَى أَنَّ كُلَّ السَّوَادِ الَّذِي حَوْلَهُ فَحْمٌ
يَقْدَحُ الشُّعْرَ فِيهِ النَّارُ فَتَصْمُرُ عَلَيْهِ الْمَعَانِي لِيُمبِّهَا الشَّاعِرُ
سَبَائِكَ شَعْرٍ فِي قَالِبِ الْحُكْمِ .

فَالشُّعْرُ مَعَانِيَةٌ وَحِيَاكَةٌ وَصِيدٌ وَافْتِرَاعٌ وَصِيَاغَةٌ ،
وَلِلشُّعْرَاءِ فِي اللَّيْلِ مَا يَعِينُ عَلَى قَوْلِ الشُّعْرِ مِنْ فِرَاقٍ وَوَحْدَةٍ
وَصَفَاءِ فِكْرٍ وَأَدْوَاتِ صِيدٍ وَصِيَاغَةٍ .

وَلَكِنَّ هَذَا السُّهْرَ وَالْعَنَاءَ قَدْ يَذْهَبُ بِإِلْفَائِدَةٍ عِنْدَمَا يَكُونُ
سُوقُ الْمَدَائِحِ كَأَسَدًا عَلَى رَأْيِ السَّبْطِ بْنِ التَّعَاوِيذِيِّ^(١) :

لَمَّا لَمَّ اللَّهُ لَيْلًا فِي الْعِرَاقِ سَهْرَتُهُ

أُنْقَحَ فِي مَدْحِ اللَّئَامِ الْقَمَائِدَا

وَأُنْسَجَ مِنْ وَشْيِ الْقَوَافِي حَبَائِرًا

وَأُخْرِجَ مِنْ نَظْمِ الْمَعَالِي فَرَائِدَا

فَلَمَّا نَفَى عَنِّي الظَّلَامَ رَدَاءَهُ

تَيَمَّمْتُ سُوقًا لِلْمَدَائِحِ كَأَسَدَا

طَمَحَ الشَّاعِرُ إِلَى الْمَالِ أَوْ إِلَى الْمَجْدِ فَامْضَى اللَّيْلَ
سَاهِرًا يَنْقَحُ الْقَمَائِدَ ، وَيَنْسَجُ الْقَوَافِي ، إِلَى أَنْ وَلَّى الظَّلَامَ
وَجَاءَ الْمُبَّاحُ فَمَضَى يَعْزُضُ بِفَاعَتِهِ وَلَكِنَّ فِي سُوقِ كَأَسَدَةَ لَارْبِحَ
فِيهَا .

(١) ديوان سبط بن التعاويذي ص ١٤٢ .

والعلم في حد ذاته مطمح سام لكل إنسان ، ولاياتي سهلاً
 رهواً بل لابد من شحذ العزائم ، والجِدِّ والاجتهاد في طلبه ،
 وسهر الليالي ، قال "الإمام الشافعي" رحمه الله لأحد
 منافسيه :
 (١)

وَتَمَائِلِي طَرَبًا لِحَلِّ عَوِيْمَةٍ

فِي الدَّرْسِ أَشْهَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِ
 وَأَبَيْتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبِيئَتُهُ

نَوْمًا وَتَبَغْيِي بَعْدَ ذَاكَ لِحَاقِي ؟

"قال الشافعي" يسهر الليل طالباً العلم والمعرفة وغيره
 ينعيم بالنوم والراحة ، فلا بد أن يتقدم الساهر ويتأخر
 النَّائم ، ولقد كتب الدكتور "زكي مبارك" في صدر أول كتاب
 ألغاه إهداء إلى والده :
 (٢)

وَأَسَهَرَ اللَّيْلَ فِي عِلْمٍ وَفِي آدَبٍ

أَبْغِي رِفَاءَكَ عَنْ قَمِيدي وَعَنْ سَنَنِي
 وَأَسْتَقِلُّ لِأَجْلِ الْفَضْلِ مَا سَمَحَتْ

بِهِ اللَّيَالِي لِأَهْلِ الْفَضْلِ مِنْ مَحَنِ
 حَتَّى بَلَغْتُ بَجْدِي بَعْضَ مَا طَمَحْتُ

إِلَيْهِ نَفْسِي كَمَا يَرْجُوهُ لِي وَطَنِي

يسهر الليل طالباً العلم والادب ، وساعياً إلى رضى
 والده ومحققاً رجاء وطنه فيه . وقال "هاشم الرفاعي" :
 (٣)

وَرَبَّ مُذَكَّرَةٍ قَدْ سَهَرْتُ أَدْبَحُ أَسْطُرَهَا فِي السَّحَرِ

في وقت راحة النَّاسِ ، في آخر الليل يتناول العالم
 قلمه ويبدأ في الكتابة وتسطير المذكرات ، ولقد اطل

(١) ديوان الإمام الشافعي ص ٦٤ .
 (٢) ديوان زكي مبارك ص ١٠٢ .
 (٣) ديوان هاشم الرفاعي ص ٤٢٦ .

(١)

الاستاذ "العقاد" صحبة الكتب حتى خاطبها بقوله :

يَا كَتَبِي أَلْبَسْتِ جُلْدِي الْمُنَى	لَمْ يَغْنِ عَنِّي جُلْدُكَ الْمَذَهَبُ
كَمْ لَيْلَةٍ سَوْدَاءَ قَمِيَّتُهَا	سَهْرَانَ حَتَّى أَدْبَرَ الْكَوْكَبُ
كَأَنَّيَ أَلْمَحُ تَحْتَ الدُّجَى	جَمَاجِمَ الْمَوْتَى بَدَتْ تَخْطُبُ
وَالنَّاسُ إِمَّا غَارِقٌ فِي الْكُرَى	أَوْ غَارِقٌ فِي كَأْسِهِ يَشْرَبُ
أَوْ سَادِرٌ يَحْلُمُ فِي لَيْلِهِ	بِیَوْمِهِ الْمَاضِي وَمَا يَعْقُبُ
يَنْتَفِعُ الْمَرْءُ بِمَا يَقْتَنِي	وَأَنْتِ لِجَدْوَى وَلَا مَأْرَبُ
إِلَّا الْأَحَادِيثَ وَالْأَلْمُنَى	وِخْبِرَةً مَاحِبَهَا مُتَعَبُ

ياكتبي ! وما أكثر ما ينطوي عليه هذا النداء من معاني الحسرة والالفة والعزة والثقة والإحساس بالضياع . ياكتبي التي أقبلت عليها في مطلع عمري إقبال الهيم ، فماذا أخذت مني ، وماذا أخذت منها ؟ أفنيت في عشقها حياتي حتى تفضن جلدي ، وترهل بدني ، فهل يعدل عطائي عطاءها ؟ لا أنكر نعميما الذي اختلط بالشقاء .

فمن هذا النعيم أنها طوت لي بساط التاريخ ، وجمعت لي الماضي إلى الحاضر وفي دجنة الليل وأنا وإيّاها والممباح شالنا كانت تضمّ إلى مجلسنا هذا عظماء التاريخ ، علماءه ، وأدباءه ، وفنّانيه ، فتففيق إلى عمري أضعافا مضاعفة .

الناس من حولي إمّا غارق في الكرى ، لا يفكر في ماضٍ ولا يحلم بمستقبل ، وإمّا عاكف على كأسه يطفئ لوعة الإخفاق ، أو يحيي جذوة الآمال ... أمّا أنا فساهر في ليلي هذا أحلم بالماضي وأفكر في العواقب .

النَّاسَ يَنْتَفِعُونَ بِمَا حَمَلُوا أَمَا أَنْتِ يَا كَتَبِي فَلَاجِدَوِي
 وَلَا مَارِبَ إِلَّا أَحَادِيثَ وَأَمَانِي ، وَخَبِرَاتٍ تَتَعَبُ صَاحِبِيهَا .
 و"العقاد" يردد المعنى الذي سبقه به "حفني ناصف" :^(١)

إِذَا وَرَّثَ الْمَشْرُونَ أَبْنَاءَهُمْ غِنَى

وَجَاهًا فَمَا أَشَقَى بَنِي الْحُكَمَاءِ

ويبدو أنّها إفاقة القلوب الكبيرة الكادحة ، أو أنّها
 طلائع موجة التهالك على اللذات التي أغرقت من وليهم .
 إنّها الإفاقة التي لا يلبث الشاعر بعدها أن يعود أدراجه
 إلى كتبه وليله ، لأنّه على الحقيقة يجد لذته ومتعته في
 مساهرة الليل ، ومكابدة القراءة ما يجده أصحاب القلوب
 الميّنة في لهوهم وملذاتهم ولا يعني "العقاد" بقوله :

يَنْتَفِعُ الْمَرْءُ بِمَا يَقْتَنِي وَأَنْتِ لَاجِدَوِي وَلَا مَارِبُ
 إِلَّا الْأَحَادِيثَ وَالْأُمْنَى وَخَبْرَةَ صَاحِبِهَا مُتَعَبُ

شيئاً ممّا يحمله ظاهر اللفظ ، وإنّما هي إفاقة كحلم
 طائر أطلق صرخة في سكون الليل ثم عاد إلى كراه ، أي أنّه
 عاد إلى عشق الكتب التي منحتّه النور والخبرة التي يقول
 إنّها تمنحه خلود الذكر وإن كانت تتعبه .

ومن قصيدة "اللاخطل الصغير" يخاطب المعلم بقوله :^(٢)

بَيْنَ الْمَحَابِرِ وَالْمَنَابِرِ ذَابَ لَيْلِكَ فِي ضَحَاكَ
 تَشَكُّو النَّجُومَ مِنَ السَّمَاءِ دِ وَلَيْسَ تَشَكُّو مَقْلَتَاكَ
 كَمْ وَرْدَةٍ مِنْ غَرَمِ كَفِّكَ رَاحَ يَجْنِيهَا سِوَاكَ

الليل يذوب في الفحى ، وهي كناية رشيقة جميلة عن
 طولها ، والنجوم التي ينقضي الليل وهي لامعة شكّت السهاد ،

(١) ديوان حفني ناصف ص ٣٥ .
 (٢) ديوان الاخطل الصغير ص ١٨٨ .

ولم تشكُّ عينا المعلم من السهر ، فقد أدمنته وداومت عليه ،
فالمعلم تعود السهر بين محابره وكتبه طلباً لعلم يعلمه
لطلابه .

(١)
ويمور "علي الجارم" العالم في ليله بقوله :
رُبَّ شَيْخٍ أَفْنَى سَوَادِ اللَّيَالِي
سَاهَدَ الْعَيْنَ جَاهِدًا غَيْرَ وَاوِي
مِنْ بَحُوثٍ ، إِلَى كِتَابَةٍ نَقْدٍ
ثُمَّ مِنْ مَعْجَمٍ إِلَى دِيْوَانٍ
يَقْنِصُ الْأَبْدَاتِ عَزَّتْ عَلَى الصَّيِّ
دِ فَمَا سَتَّ بَيْنَ الرَّبِّ وَالرَّعَانِ
سَارِحَاتٍ كَأَنَّهَا قَطَعُ الْوَشِّ
يَ يُطَرِّزْنَ سُنْدُسَ الْقِيَعَانِ

سواد الليالي هنا ليس شيئاً كريها منغرا ، لأنها عون
لهذا الشيخ الذي يفني عمره في صحبتها قنماً لا وابد المعارف
من مظانها .

الليل هنا ليس كمثل له لدى أي شاعر أفجرتة همومه وإنما
هو شيء محبب تتنفس فيه أحلامه وأعماله كما تتنفس الأحياء في
الهواء ، وهي في الحق رؤية جديدة لليل ، كسبها الشاعر من
روح عصره ، ومن ثقافته الحية المتجددة .

وهناك مجموعة من الشعراء أصحاب همم عالية ، ونفوس
ظموحة يسعدون أنهم يمشون الليالي سهراً طلباً للمجد
والمكرمات ، قال "ابن المعتز" :
واسهرُ للمجد والمكرمات
إذا اكتحلت أعينُ بالكرى

(١) ديوان علي الجارم ص ٧٣ .
(٢) ديوان ابن المعتز ص ٢٣ .

(١)

وقال "أبو فراس الحمداني" :
إِنِّي أَبَيْتُ قَلِيلَ النَّوْمِ ، أَرَقَّنِي
قَلْبٌ ، تَمَارَعَ فِيهِ الْعَمُّ وَالْهَمُّ
وعزمةٌ ، لا يَنَامُ اللَّيْلَ صَاحِبَهَا
إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ فِي طَيْبِهِ كَرَمٌ

"فابن المعتز" يسهل للمجد إذا نام النَّاسُ ، و"أبو فراس" يؤرِّقه قلبه الذي يتمارع فيه العمُّ والهمُّ . فهو بين همٍّ وهمةٍ عاليةٍ وطموحٍ جامعٍ ، فلن يعرف النَّوْمُ إِلَّا إِذَا تَحَقَّقَ ما يصبو إليه لأنَّ بياض المجد لا يكون إِلَّا لساهر سواد الليالي كما يرى "الحسين البغوي" :

(٢)

فَلَيْسَ بِيَاضُ الْمَجْدِ إِلَّا لِمَكْتَسِي
سَوَادَ اللَّيَالِي سَاهِرًا غَيْرَ رَاقِدٍ
وَكَمْ لَيْلَةٍ رَاعَيْتُ فِيهَا فَرَاقِدًا
لَكَسْبِ عُلْدًا فَوْقَ السُّعَى وَالْفَرَاقِدِ

فطريق المجد ليس مفروشاً بالورد ، بل شاقٌّ وعسير ، ويحتاج عملاً مستمرّاً حتّى في وقت راحة النَّاسِ وهدوئهم ، في الليل ، لذا جعل الشّاعر بياض المجد للرجل الذي يكتسي الليالي شياباً فصاحب همّةٍ العاليةِ والنفسِ الطموحِ قد لا يتحقق له ما يصبو إليه إِنْ تَلَدَّدَ بِالنَّوْمِ وَالرَّاحَةِ فِي لَيَالِيهِ
قال "الملك الامجد" :

(٣)

إِذَا نَامَ عَنْ لَيْلِ الْمَطَالِبِ عَاجِزٌ
وَخَالَ كَرَاهُ نِعْمَةً يَسْتَدِيمُهَا

-
- (١) ديوان أبي فراس ص ١٥٦ .
(٢) يتيمة الدهر ٢٤٧/٥ .
(٣) ديوان الملك الامجد ص ٩٩ .

فَمَا نَامَ يَقْظَانُ أَشَارَ مَطِيَّهِ

إلى المجدِّ تَسْرِي بِالْجَاحِجِ كَوْمَهَا

مقابلة بين النَّوْمِ واليَقْظَةِ ، فالنَّوْمُ للعاجز واليقظة
للطَّامِحِ ، ومتى نام العاجز وظنَّ النومَ نعمة يستكثر منها ،
فإنَّ الطَّامِحَ يسهر الليل يسوق مطيَّه تحت أستار الظلام نحو
المجدِّ .

ويعبَّرُ "جعفر بن عثمان" عن ليله وطموحه بالصورة

(١)

التالية :

سَأَلْتُ نَجُومَ اللَّيْلِ هَلْ يَنْقِضِي الدُّجَى ؟

فَخَطَّتْ جَوَابًا بِالثَّرِيَا كَخَطِّ "لَا"

وَمَاعَنَ جَوِيَّ سَامَرْتُهَا غَيْرَ أَنَّنِي

أَنَافَسُهَا الْمَجْرَى إِلَى رُتَبِ الْعُلَا

استطال الشاعر الليل ، وَعَبَّرَ عن ضيقه بطريقة غير
مباشرة ، وبصورة تكاد تكون نادرة . سأل النجوم : هل ينقضي
الدُّجَى ؟ فأجابته النجوم بلا ، حين اتخذت نجوم الثريا شكل
هذا الحرف فهو يُعَبَّرُ عن طول الليل وعن همومه وطموحه ، فلم
يكن سهر الشاعر لاجل حبِّ يشغل خاطره ، ولكنَّه طموح إلى رتب
العُلَا .

و"أبو الطيب المتنبي" شاعر صاحب همّة عالية ونفس

متعطشة إلى المجد وطيب الذِّكْر ، يحدثنا عن أحد الليالي

التي طغى عليه الهم والطموح فيها فيقول :

أَحَادٌ أَمْ سُدَامٌ فِي أَحَادٍ لِيَيْلَتُنَا الْمَنُوطَةُ بِالتَّنَادِ
كَأَنَّ بَنَاتِ نَعْنٍ فِي دُجَاهَا خَرَانِدٌ سَافِرَاتٌ فِي حِدَادِ

(١) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص ٢٨ .

أَفْكَرُ فِي مُعَاقَرَةِ الْمَنَايَا
 وَقَوْدِ الْخَيْلِ مُشْرِفَةَ الْهَوَاذِي
 زَعِيمٌ لِقَنَا الْخَطِيءَ عَزْمِي
 بِسَفْكِ دَمِ الْحَوَاهِرِ وَالْبَوَاذِي
 إِلَى كَمِّ ذَا التَّخْلَفِ وَالتَّوَانِي
 وَكَمِّ هَذَا التَّمَادِي فِي التَّمَادِي
 وَشَغْلِ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ الْمَعَالِي
 بِبَيْعِ الشُّعْرِ فِي سُوقِ الْكَسَادِ (١)

ليلة كأنها الدهر طولاً وتمغيرها تعظيم لها ، وإشارة إلى ما يعانيه الشاعر فيها ، وبنات نعش تلك النجوم المضيئة وكأنها في الظلام وجوه جميلةات سافرات في شيا ب سود - فهن في حداد على آمال الشاعر وطموحاته الضائعة في هذه الدنيا . ولكن لماذا هو ساهر في هذه الليلة العظيمة ؟ إنّه يفكر في ملازمة الحروب ، وقود الخيل إلى أعدائه ، فهو يحمل بين جنبيه عزماً هائلاً كفيلاً بسفك دم كلّ الناس حاضرهم وباديهم ، ثم يعود باللوم إلى نفسه على تخلفها وتقاعسها عن تحقيق أحلامه وطموحه وعلى تضييع الوقت في قول الشعر مدحاً لمن لا يقدر قيمته ، فهذا العزم الهائل الطائش الذي يودّ سفك دم الناس كلهم دون رحمة أو وجل ، لابد أن يسهر "المتنبي" ويطرد عنه النوم ، وهذا العزم الذي خرج عن حدود المألوف يخاطبه "المتنبي" في قصيدة أخرى بقوله :

أَعَزْمِي ، طَالَ هَذَا اللَّيْلُ فَاَنْظُرْ
 أَمِنْكَ السُّبْحُ يَفْرَقُ أَنْ يَنْوَبَا ؟

(١) ديوان المتنبي ٧٦/٢ .
 (٢) السابق ٢٦٧/١ .

كَأَنَّ الْفَجْرَ حَبًّا مَسْتَزَارٌ
كَأَنَّ نُجُومَهُ حَلِيٌّ عَلَيَّ
كَأَنَّ الْجَوَّ قَاسَى مَا أَقَاسِي
كَأَنَّ دُجَاهَهُ يَجْدِبُهَا سُهَادِي
أَقَلَّبُ فِيهِ أَجْفَانِي كَأَنِّي
يَرَاعِي مِنْ دُجْنَتِهِ رَقِيبًا
وَقَدْ حُذِيتُ قَوَائِمُهُ الْجُبُوبَا
فَمَارَ سَوَادُهُ فِيهِ شُحُوبَا
فَلَيْسَ تَغِيبُ إِلَّا أَنْ يَغِيبَا
أَعْدُّ بِهِ عَلَى الدَّهْرِ الدُّنُوبَا

عزم هائل وطموح يفوق الوصف ، عزم يهابه حتى الصباح ،
فلا يعود إلى الظهور ، فكان الصباح حبيب يريد الزيارة ،
لكنه يرى ظلمة الليل رقيباً ، فلا ياتي مادام الليل موجوداً ،
والليل لا يودّ الرّحيل وقد اتخذ من النّجوم حلياً لاتفارقه ،
واحتذى الارض الثّقيلة واقدامه تنوء بحملها ، فسيطول الليل
ولن ياتي الصّباح مادام الشّاعر يحمل بين جنبيه كل هذا
العزم وهذا الطموح .

(١)

ويقول "البارودي" :

سِوَايَ بِتَحْنَانِ الْأَغَارِيدِ يَطْرَبُ
وَعَيْرِي بِاللِّدَاتِ يَلْهُو وَيَعْجَبُ
وَمَا أَنَا مِمَّنْ تَأَسَّرَ الْخَمْرُ لُبَّهُ
وَيَمْلِكُ سَمْعَهُمُ الْيِرَاعُ الْمُثَقَّبُ
وَلَكِنْ أَخُوهُمْ إِذَا مَاتَرَجَّحَتْ
بِهِ سُوْرَةٌ نَحْوَ الْعُلَا رَاحَ يَدَّابُ
نَفَى النَّوْمَ عَنْ عَيْنَيْهِ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ
لَهَا بَيْنَ أَطْرَافِ الْأَسْنَةِ مَطْلَبُ
بَعِيدُ مَنَاطِ الْعَمِّ فَالْغَرْبُ مَشْرِقٌ
إِذَا مَارَمَى عَيْنَيْهِ وَالشَّرْقُ مَغْرِبُ

وَمَنْ تَكَنَّ الْعَلِيَاءُ هِمَّةَ نَفْسِهِ
فَكُلُّ الَّذِي يَلْقَاهُ فِيهَا مُحِبٌّ

"البارودي" لا يغيره ما يغيري أصحاب النفوس الضعيفة التي ترضى بالدون من مطالب الحياة ، وتقتصر على الملذات ، إنما هو ذو همٍّ كبير يؤرِّقه ، ومطلب عسير بين أطراف الأُسنة ، فالوصول إليه ليس سهلاً ولكنَّ الشاعر يسعى نحوه بإرادة قوية وعزيمة ثابتة حتَّى أَنَّ الشَّرْقَ والغرب يلتقيان في مرمى عينيه ومع ذلك فهذا الومب كلّه على ما فيه من مشقة محبب إلى نفسه .
(١)

وأما "أبو العلاء" الفيلسوف الشاعر فيقول :

سَهْدَ الْفَتَى لِمَطَالِبِ مَانَالِهَا وَأَمَابَهَا مَنْ بَاتَ لَيْسَ بِسَاهِدٍ
فَهُوَ الْقَدْرُ يَعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَسْلُبُ مَنْ يَشَاءُ ، فَالسَّاهِرُونَ
يَكْدُونَ وَيَكْدَحُونَ ، وَقَدْ تَفَوَّتَهُمُ الثَّمَرَةُ ، وَيَدْرِكُهَا غَيْرُهُمْ
مُضَادِفَةٌ بِلَاعْنَاءِ . وَمَوْقِفُ الشَّاعِرِ هُنَا مَوْقِفُ مَخَايِرِ السَّابِقِينَ
إِذْ يَقِفُ مَبْهُوتاً أَمَامَ حِكْمَةِ الْقَدْرِ ، عَاجِزاً عَنِ دَرْكِ سِرِّهِ !

هموم أخرى :

سيعالج هذا المبحث بعض دوافع الهمّ والسهر ، التي لم تتفاخر نماذج كلّ حالة فتشكّل ظاهرة واضحة المعالم ، فتستحق أفرادها بمبحث خاص ، كذلك يهتمّ هذا المبحث باجتماع عدّة هموم على الشاعر ، وتلك الهموم التي لا يُعرف لها سبب واضح .

ليل الخائف المُترقّب :

لَمَّا هَمَّ "عمرو بن هند" بغزو عبد القيس قال "الممزقُ
العَبْدِيُّ" يستعطفه :
(١)

أَرَقْتُ قَلْمٌ تَخَدَعُ بَعَيْنَيَّ وَسَنَةَ
وَمَنْ يَلْقَ مَالَقَيْتُ لَابُدَّ يَأْرَقُ
تَبَيْتُ الْهُمُومُ الطَّارِقَاتُ يَعْدُنَنِي
كَمَا تَعْتَرِي الْأَهْوَالُ رَأْسَ الْمُطَلَّقِ

ليل عسير يداهم فيه الهمّ والخوف قلبَ الشاعر ، فلا يعرف النّوم إلى عينه طريقاً ، ومن يلقَ ملاقاه يسهر ويكابد ، فالهموم تعاوده المرّة تلو المرّة ، فتطرد النّوم من عينيه . ولما خاف "النابغةُ الذبياني" "النعمان بن المنذر"
(٢)
قال قميدته المشهورة :

كَلِينِي لِهَمِّ يَا أُمَيْمَةَ نَامِبِ
وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَفِي
وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بَأَيْبِ

(١) الأسمعيات ص ١٦٤ .

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ٩ .

وَمَدْرِ أَرَا حَ اللَّيْلِ عَازِبَ هَمِّهِ

تَفَاعَفَ فِيهِ الْحَزْنَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

ليل طويل ، كواكبه بطيئة لاتريم من مكانها ، هكذا
تموؤها النابغة لأنَّ الهمَّ الَّذِي يَرزح تحته يشعره بتطاول
الليل ، وبطء الكواكب ، ثم يستحضر صورة يشاهدها في بيئته
مصححاً ممسياً ، فهذه الكواكب شياء تفرقت في السماء ، غاب
عنها راعيها ، ولهذا لن تؤوب ، وستظل شاردة هائمة .
وما أمضَ الليل على صدر مشغول ، إنَّه يرد عليه عازب همِّه
فيتفَاعَف حزنه ... فكان ظلمة الليل بما تشتمل عليه من هدوء
وسكون هي التي تبعث الهمَّ الرَّاكِد ، وتجمع المفرق منه ،
لاسيما ليل الصحراء .

(١) ويشير "النابغة" إلى أسباب همِّه في نص آخر :

وَعِيدٌ أَي قَابِوْسٌ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ

أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي فَنَيْلَةٌ

مِنَ الرَّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعٌ

يَسْعَدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمٌهَا

لِحَلِيِّ النَّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ

تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سَمِّهَا

تُطَلِّقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تَرَاجِعُ

أَتَانِي - أَبَيْتَ اللَّعْنَ - أَنْكَ لُمْتَنِي

وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ

وعيد أبي قابوس وصل إلى الشاعر مع أن المسافة شاسعة
بينهما فما الذي حدث للنابغة ؟ بات تلك الليلة المهولة
وكان حية شديدة السم لدغته ، فهو أرق متالم لهذا الوعيد
الذي أصم أذنيه وبسببه يقول أيضا :
(١)

أَتَانِي - أَبَيْتَ اللَّعْنَ - أَنْكَ لُمْتَنِي
وَتَلَكَ الَّتِي أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ
فَبِتُّ كَأَنَّ الْعَائِدَاتِ فَرَشَنَ لِي
هَرَأَسًا بِهِ يُعَلَى فِرَاشِي وَيُقَشَّبُ

الوعيد أهم الشاعر واتعبه وتوجه مباشرة إلى وصف حاله
بالليل كما فعل في القصيدتين السابقتين ، ففي الأولى يرد
الليلُ الهموم إلى صدره ، فيقاسي الليل الطويل الذي لا ينقضي
وفي الثانية كان حية شديدة السم لدغته فبات مسهداً يشكو
الآلم والحمى ، وهنا يُشَبِّه نفسه بالمرضى - لأنه يذكر
العائدات - اللاتي فرشن الشوك على فراشه - فاجتمع عليه الم
المرض ووخز الشوك ، فلن يعرف النوم ولن يستطيع الغمض ولقد
تحولت هذه الليلة التي وصفها «النابغة» اثرأ لخوفه وهمه إلى
ما يشبه الرمز في الشعر العربي فليل نابغية .

وحين يتيقن «النابغة» أن لامفر من «النعمان» جعله مثل
الليل الذي يمتد إلى كل شيء على وجه الأرض ، ويصل إليه ،
وتشبيهه شخص بالليل يكاد يكون من الصور المبكرة النادرة في
الشعر العربي :

فإنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي
(٢) وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعٌ

(١) السابق ص ١٧ .

(٢) السابق ص ٨١ .

وعندما قال "حسن بن ثابت" "لابن الزبعرى" حين هرب من
"النبي" - عليه الصلاة والسلام - يوم فتح مكة :
(١)

غضب الاله على الزبعرى وابنه

وعذاب سوء فى الحياة مقيم

ولما سمع ذلك "ابن الزبعرى" رجع إلى رسول الله - صلى

الله عليه وسلم - فأسلم وقال :
(٢)

مَنْعَ الرَّقَادِ بَلَابِلٌ وَهَمُومٌ وَاللَّيْلُ مَعْتَلِجُ الرِّوَاقِ بَهِيمٌ
مِمَّا آتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لَامِنِي فِيهِ فَبِتُّ كَأَنَّ نَفْسِي مَحْمُومٌ

شدة الخوف والوسواس جلبا الهم للشاعر فاستعمى عليه
النوم في الليل المفطرب المظلم ، لان الرسول الكريم اهدر
دمه وتوعده فبات ليلته وكان الحمى لاتفارقه . وحين يفطرب
الامن وتكثر الفتن قد يصل الخوف ببعضهم إلى درجة الأليجيب
داعياً بالليل قال "عبد الله بن الرقيات" :
(٣)

فَلَنْ أُجِيبَ بَلِيلٍ دَاعِيًا أَبَدًا
أَخَشَى الْفَرُورَ كَمَا غُرَّ ابْنُ هَبَارٍ
بَاتُوا يَجْرُونَهُ فِي الْحَشِّ مُنْجِدًا

بئس الهدية لابن العم والجار

مصير "ابن هبار" الذي دعي بليل فخرج فلقى مصرعه أخاف

"ابن الرقيات" فقال: بآئه لن يجيب مناديا بليل خشية أن

يلقى مصير "ابن هبار" . وقال "الفرزدق" :
(٤)

وعيدٌ آتاني من زيادٍ فلم أنم

وسيلُ اللوى دوني وهضبُ التهام

(١) ديوان حسن بن ثابت ص ٨٠ .
(٢) ديوان عبد الله بن الزبعرى ص ٤٥ .
(٣) ديوان عبد الله بن الرقيات ص ١٨٣ .
(٤) ديوان الفرزدق ٢٦٦/٢ .

فَبِتُّ كَأَنِّي مُشَعَّرٌ خَيْبَرِيَّةً

سَرَتْ فِي عِظَامِي أَوْ لُعَابُ الْأَرَاقِمِ

خاف "الفرزدق" فلم ينم فبات وكأنته محموم أو أن سموم
الانفاعي تجري في دمه ، وهو في هذا ينظر إلى قول "النابغة" :

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي فَنِيْلَةٌ

مِنَ الرَّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعٌ

ولكنه اجتزا المورة وحجب جانباً كان يظهر كمال

تأثيرها .

وقد يخاف الشاعر منيته فيسهر لذلك طرفه كما قال

(١)

«عمرو بن الحميين العنبري» :

مَابَالُ هَمِّكَ لَيْسَ عِنْدَكَ بَعَازِبِ يَمْرِي سَوَابِقُ دَمْعِكَ الْمُتَسَاكِبِ

وَتَبَيْتُ تَكْتَلِيهِ النَّجُومُ بِمَقْلَةٍ عَبْرِي تَسْرُّ بِكُلِّ نَجْمٍ دَائِبِ

حَذَرَ الْمَنِيَّةِ أَنْ تَجِيءَ بِدَاهَةِ لَمْ أَقْضِ مِنْ تَبَعِ الشَّرَاةِ مَارِبِي

هم لا يغيب ، ودمع متساكب ، والشاعر يبدي راعياً النجوم

بمقلة باكية تسرّ بمسير كل نجم ، لأن في مسير النجم مسير

الليل ، وذاك لخوف الشاعر من مداهمة الموت قبل تحقق آماله

في هذه الحياة ، فهو يستبطيء الايام علّ الوقت يسعفه بإنجاز

آماله .

وعندما خاف «طريح بن إسماعيل الثقفي» من «الوليد»

(٢)

قال :

نَامَ الْخَلِيٌّ مِنَ الْهُمُومِ وَبَاتَ لِي

لَيْلٌ أَكَابِدُهُ ، وَهَمٌّ مُفْلِعٌ

(١) ديوان الخوارج ص ١٣٨ .

(٢) ديوان طريح بن إسماعيل ص ٩٢ .

وَسَهَرْتُ لِأَسْرِي ، وَلا فِي لَذَّةٍ
 أَرَقِي ، وَأَغْفَلُ مَا لَقِيتُ الْهَجْعُ
 أَبْغِي وَجْوهَ مَخَارِجِي مِنْ تَهْمَةٍ
 أَزِمْتُ عَلَيَّ ، وَسَدَّ مِنْهَا الْمَطَّلِعُ
 جَزَعًا لِمَعْتَبَةِ الْوَلِيدِ وَلَمْ أَكُنْ
 مِنْ قَبْلِ ذَاكَ مِنَ الْحَوَادِثِ أَجْزَعُ

السهر يلازم الشاعر فيتكبد عناء الليل ، والاخلياء
 نائمون ، وسهره لم يكن لطلب لذة ، وإنما هو تفكير في مخرج
 من تهمة اتهم بها فغضب عليه الوليد ، فالشاعر يخشى عقابه
 وغضب الحاكم ليل مع الليل كما يقول "البحثري" :

وَأَكْسَبَنِي سُخْطَ امْرِئٍ بَتَّ مَوْهِنًا
 أَرَى سُخْطَهُ لَيْلًا مَعَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا

وقال "بديع الزمان الهمداني" عندما توعدده "الصاحب بن
 عباد" :

وَعِيدٌ كَمَنْعِ النَّارِ فِي يَابِسِ الْغَضَى
 شَدَدَتْ عَلَى الْأَحْشَاءِ مِنْ خَوْفِهِ يَدِي
 وَظَلْتُ بِمَبْحِ الْيَوْمِ مِنْهُ مَهَابَةً
 وَبَتُّ لَه رَعْبًا بَلِيلَةً أَنْقَدِ

.....

وَاتَّهَمُ الظُّلْمَاءَ أَنْ لَا تَجَنَّبِي
 وَأَمَقْتُ ضَوْءَ الْبَدْرِ خَيْفَةً مَهْتَدِ
 وعيد فعل في نفس الشاعر فعل النار في الحطب اليابس ،
 فاشتد خوفه ، وبتات الليل مرعوبا ، ونهج الشاعر نهجا

(١) ديوان البحثري ١٠٩/١ .
 (٢) ديوان بديع الزمان الهمداني ص ٦١ .

مخالفاً لكثير من الشعراء ، فهو يأنس إلى الظلام ويسلو به ،
ويتمنى أن يزداد حلكة وسواداً حتى يستره ، وتوجه بمشاعر
الكراهية نحو ضوء البدر الذي يأنس إليه الناس بعامة ،
والشعراء بخاصة فقد يدل عليه أحد أعوان الوزير فيقع له
ما يخشى منه .

الليل والمرض :

المرض جالب للهم ، مدعاة للسهر والارق وقديماً قال

(١)

"امرؤ القيس" :

فَإِمَّا تَرِينِي لِأُغْمَضُ سَاعَةً مَنِ اللَّيْلِ إِلَّا أَنْ أَكْبَبَ فَانْعَسَا
تَأْوَبَنِي دَائِي الْقَدِيمُ فغَلَسَا أَحَادِرُ أَنْ يَرْتَدَّ دَائِي فأنْكَسَا

الشاعر مؤرّق ، وهمومه يقضى تحول بينه وبين النوم ،
وسببها الخوف من أن ينتكس في مرضه ، هموم تعاوده معاودة
الحمى للمريض .

(٢)

وقال "أوس بن حجر" عندما كسرت رجله :

خَذَلْتُ عَلَى لَيْلَةٍ سَاهِرَةً بِمَحَرَّاءِ شَرَجٍ إِلَى نَاطِرَةٍ
تُزَادُ لِيَالِي فِي طُولِهَا فَلَيْسَتْ بِطَلْقٍ وَلَا سَاكِرَةٍ
كَأَنَّ أَطَاوَلَ شَوْكِ السِّيَالِ تَشَكَّ بِهَا مَفْجَعِي شَاجِرَةٍ
أَنْوَاءُ بَرَجِلٍ بِهَا ذَهْنُهَا وَأَعْيَتْ بِهَا أُخْتَهَا الْغَابِرَةِ

ليلة "ابن حجر" ليلة ساهرة ، طبعي أنه الساهر لكنها
لما طالت عليه جعلها ساهرة ، ولما يلقاه بها من سهر ومرض
ومكابدة تخيل الشوك على فراشه يحول بينه وبين النوم .

(٣)

وقال بعضهم :

خَلِيلِيَّ إِنِّي قَدْ أَرِقْتُ وَنَمْتُمَا
لِبَرْقِ يَمَانٍ فَاقْعُدَا عَلَّانِيَا
خَلِيلِيَّ لَوْ كُنْتُ الصَّحِيحَ وَكُنْتُمَا
سَقِيمِينَ لَمْ أَفْعَلْ كَفِعْلِكُمَا بِيَا

(١) ديوان امرئ القيس ص ١١٧ .
(٢) ديوان أوس بن حجر ص ٣٤ .
(٣) معجم البلدان ٤٤٨/٥ .

خَلِيلِيَّ مُدًّا لِي فِرَاشِي وَارْفَعَا
 وَسَادِي لَعَلَّ النَّوْمَ يُذْهَبُ مَابِيَا
 خَلِيلِيَّ طَالَ اللَّيْلُ وَالتَّبَسَّ الْقَدَى
 بِعَيْنِيَّ وَاسْتَأْنَسْتُ بَرَقًا يَمَانِيَا

نام صاحبنا الشاعر المريض وتركاه يعاني الأرق والمرض ،
 فيخاطبها في لوعة وحسرة طالباً منهما مساعدته على ليله
 ومرضه .

(١)
 وقال «علي بن الجهم» ليلة وفاته وهو جريح :
 أَزِيدَ فِي اللَّيْلِ لَيْلٌ أَمْ سَالَ بِالصُّبْحِ سَيْلٌ ؟
 تناول ليل "ابن الجهم" لما يلقاه من ألم ويُعبّر عن
 إحساسه بطول الليل بهذا الاستفهام "أزيد في الليل ليل ؟"
 فغدا ليلين معاً ، أَمْ أَنْ السَّيْلَ سَالَ بِمَبَاحِهِ فَلَنْ يَأْتِي .
 (٢)
 وقال أحد شعراء اليتيمة :

أَشْكُو إِلَى الشَّيْخِ أَدَى دَمْلٍ أَرْقَنِي لَيْلِي مِنْ وَخْزَتِهِ
 وَيَمُورُ "أبو الطيب المتنبي" حاله مع الحمى بقوله :
 وَزَائِرَتِي كَانَ بِهَا حَيَاءٌ فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
 بَدَلْتُ لَهَا المَطَارِفَ وَالحَشَايَا فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي
 الحمى زائرة ، والحياء يغلبها ، فلاتزور إلي في الظلام
 فيبذل لها الشاعر ما يبذل للأضياف من فرش ونحوه فتعافه
 وتبيت في عظامه .

(٤)
 ويخاطب «رشيد سليم الخوري» ليلة مرض بها بقوله :

اللَّهُ أَنشَاكَ أَمْ أَبْلِيئُ أَنشَاكَ
 يَا لَيْلَةَ الشُّكِّ أَوْ يَا لَيْلَةَ الشَّاكِي

- (١) ديوان علي بن الجهم ص ١٧٠ .
 (٢) يتيمة الدهر ١٨٤/٥ .
 (٣) ديوان المتنبي ٢٧٧/٤ .
 (٤) ديوان الشاعر القروي ص ٣٤٩ .

أَسْرَفْتِ فِي عَنَتِي يَا بِنْتَ شَرِّ آبٍ
 لَأَشْكَّ أَنَّ أَبَاكَ الدَّهْرَ أَوْ مَاكَ
 حَتَّى مَ أَرْقُبُ فِيكَ الْفَجْرَ مَرْتَعِشًا
 كَانَ طَرْفِي مَعْقُودٌ بِشَبَّاكِي
 رَحْمَاكَ رَحْمَاكَ قَدْ هِجَتِ بِي الْمَاءَ
 كَأَنَّهُ فَوْضُوِي رَامَ إِهْلَاكِي
 تَشْكُو فَقَارِي لِأَضْلَاعِي تَقْرَحَهَا
 مِنْ الْفَرَاشِ فَتَشْكُو ذِي لَأُورَاكِي
 مَدْفَعٌ بَيْنَ أَعْضَائِي وَمُضْطَهَّدٌ
 كَأَنَّي عَرَبِيٌّ بَيْنَ أَتْرَاكِي

ولا يرى الباحث في هذه الصورة ما يدعو إلى الدهشة ، فهي
 مركبة من صور جزئية حسية ، فقاره تشكو لأضلعه من تقرحها ،
 ألم هاج به كأنه فوضوي يريد إهلاكى ... وهذا من هذه الليلة
 التي لا يدري إن كان الله أنشأها أم أن إبليس أنشأها ، لأنها
 أسرفت في إعناته إسرافاً شديداً .

ثم يغمز الأتراك في نهاية الأبيات لما كان يجد العرب
 غير المسلمين آنذاك من إعنات الأتراك .

والفقر من بواعث ألم التي قد تدعو إلى السهر والارق
 (١)
 قال بعضهم :

وَلَا تَرْمِيْ مِنْ عَيْشٍ بَدُونٍ وَلَا تَنَمَّ
 وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ كَانَ مُقْتَرَا
 فَاَلْمَقْتَرُ لَا يَسْتَطِيعُ النَّوْمَ فِي لَيَالِيهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَهْمُومٌ
 لِاقْتَارِهِ .

(١)

ويمصّر "راشد بن خميس الحيسي" حالَ الفقير بالليل :

الفقرُ ذلُّ الفتى ما	لِدَائِهِ مِنْ عِلاجِ
فارحَمَ إِلَهِي فَقِيرًا	يَبِيْتُ وَاللَّيْلُ داجِ
يدوسه السَّغْبُ دوسًا	وَلَيْسَ غَيْرَكَ راجِ

فهذه صورة الفقير إذا جنّ عليه الليل ، فالجوع يدوسه دوساً وليس له إلا التوجّه إلى خالقه سبحانه وتعالى راجياً وداعياً .

وقال واحد من ظرفاء اليتيمة يمصّر طول ليل الجائع إلى

(٢)

حلوى الهريسة :

مالية المَعْجُورِ بَا	م	عدت النوى عن أنيسه
أو ليلة المَلْسُوعِ حَا	م	ذر ميتة النفس النفيسة
بآمد من ليل الظريـ	م	ف إذا تجوع للهريسة

فليلة المعجور وليلة الملسوع أخف وطأة من ليلة يجوع

فيها ظريف إلى حلوى الهريسة .

ومنزل الفقير إن أطاقه منزل قديم متمدع وربما يكون

مشقق السقف ، فإن جاء المطر تسرب من الشقوق إلى داخل

المنزل ولكن ما الوضع إن جاء المطر ليلاً ؟ في هذا قال

(٣)

"المشوق" :

وليلةٍ واكف فتقت هموماً	أكابدها إلى الصبح الفتيق
حمتي فيها الكرى عيني بيت	كان سماءه "عين المشوق"
تجمعت السحاب وهو بيت	وأجلت وهو قارعة الطريق
ترق قلوب جيرتنا علينا	إذا نظروا إلى الغيم الرقيق

(١) ديوان راشد بن خميس ص ٤٩٢ .

(٢) يتيمة الدهر ٤/٤٠٢ .

(٣) المصون في الأدب ص ٨٠ .

فَجَرَّتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ الْمَطِيرَةَ هُمُومِي ، فَبِتُّ أَكَابِدُ مِنْهَا إِلَى
مَطْلَعِ الْفَجْرِ ، وَقَدْ حَمَى فِيهَا الْكُرَى عَيْنِي بَيْتَ تَسَاقُطِ الْمَطْرِ مِنْ
سَقْفِهِ كَأَنَّهُ عَيْنِي الَّتِي لَا تَكْفَى عَنْ ذَرْفِ الدَّمُوعِ ، وَفِي الْمَعْنَى
نَفْسِهِ قَالَ "دِيكَ الْجَنِّ" :
(١)

لَا بَيْتٌ ، إِخْوَانِي ، وَلَا بَيْتٌ
لَمْ يَبْقَ لِي فِي مَنْزِلِي بَقْعَةٌ
بَلَيْلَةٌ بَيْتٌ بِهَا الْبَارِحَةُ
إِلَّا وَفِيهَا لُجَّةٌ سَائِحَةٌ

أسباب الهم والسهر هنا أسباب حسية ملموسة ، وليست من
تلك الأسباب النفسية التي مرت بنا ، فالشاعر ان يعيشان
الليل تحت هذه السقوف التي لاتمنع تسرب ماء المطر إليهما ،
فالتجربة حية صادقة ، ومكابدة الليل بهومومه جلية ، وإدعاء
السهر والهم إدعاء حقيقي لامراء فيه ، فالنوم لن يزورهم
وهم تحت هذا السقف الذي لا يمنعها ماء المطر ، فهم ولاشك
يحاولون إتقاء الماء ويحاولون انقاذ ما يمكن انقاذه من
الغرق والبلل ، وربما تكون الصورة من خيال الشاعر الذي
يقلب الواقع ويغيره إلى نقيضه وفق إحساسه الشخصي .

وعندما يطعن بعض الشعراء ، وينقشع عنهم رداء الشباب
بقوته وفتوته ويدب الضعف إلى أجسادهم ، والوهن إلى عظامهم
يتألمون لذلك ويسهرون الليل هماً بما آلت إليه حالهم ، قال
«الأسود بن يعفر النهشلي» لأنه كان أعشى ومسا :
(٢)

نَامَ الْخَلِيٌّ وَمَا أَحْسَ رُقَادِي
مِنْ غَيْرِ مَاسَمٍ وَلَكِنْ شَفْنِي
وَالْهَمُّ مُحْتَفِرٌ لَدَيَّ وَسَادِي
هَمُّ أَرَاهُ قَدْ أَصَابَ قُوَادِي
وَمِنَ الْحَوَادِثِ لَا أَبَالِكِ أَنْتِي
ضُرِبَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِالْأَسْدَادِ

(١) السابق ص ٨١ .

(٢) المفغليات ص ٢١٦ .

لَا أَهْتَدِي فِيهَا لِمَوْضِعِ تَلْعَةٍ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَبَيْنَ أَرْضِ مُرَادٍ
 وَلَقَدْ عَلِمْتُ سِوَى الَّذِي نَبَّأْتَنِي أَنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ ذِي الْأَعْمَادِ
 إِنَّ الْمَنِيَّةَ وَالْحُتُوفَ كِلَاهُمَا يُوفِي الْمَخَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادِي
 لَنْ يَرْضِيَا مِنِّي وَقَاءَ رَهِينَةٍ مِنْ دُونِ نَفْسِي ، طَارِفِي وَتِلَادِي
 نَامَ مِنْ لَا يَحْمِلُ الْهَمَّ ، وَالشَّاعِرُ لَا يَحْمِلُ النَّوْمَ أَثْرًا ، لِأَنَّ

الهمَّ حاضرٌ لديه ويطرُد النَّوْمَ عنه ، وليس الهم والسهر لمرض
 أصابه إنَّما بسبب العمى الذي أصابه في كِبَرِهِ ، فلم يعد
 يهتدي إلى المواضع التي يعرفها وكان الحواجز قامت تحوطه
 من كل ناحية ، ثم هو يَعْلَمُ نهايته فالموت نهاية كلِّ إنسان
 مهما طال العمر ، والشاعر وصل إلى مرحلة من مراحل العمر
 وسوء الحال تجعله يوقن أنَّ التَّهَيُّةَ قريبة ، فالموت والحتوف
 يرقبانه ، ولن يرضيا منه بغدية مهما كانت ، وإنَّما يطلبان
 روحه ولا مناص من ذلك ، أما «عدي بن الرَّقاع العاملي» فلم
 يسهر الليل خوف المنية ، وإنَّما هو يبكي سنيَّ شبابه فيقول :
 (١)

طَارَ الْكَرَى وَالْمَ الْهَمُّ فَامْتَنَعَا

وَحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوْمِ فَامْتَنَعَا

كَانَ الشَّبَابُ قِنَاعًا اسْتَكَنُّ بِهِ

وَاسْتَظَلُّ زَمَانًا ثُمَّتْ أَنْقَشَعَا

فَاسْتَبَدَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا بَعْدَ دَاجِيَةٍ

فَيُنَانَةٍ مَاتَرَى فِي مَدْغِهَا نَزَعَا

ذهب النَّوْمُ وأقبل الهمُّ ، وباعث الهمُّ ذلك الشيب الذي
 غزا رأس الشاعر بعد الشباب الذي كان قناعاً يستكنُّ به ،
 ولكن مرور السنين قشع هذا الرداء عنه ، وبدل شعره الأسود

(١) ديوان عدي بن الرَّقاع ص ٥٩ .

الكثيف بشعر أبيض قليل ، والتفكير في ما آلت إليه حاله
أورشه الهمّ الذي حال بينه وبين النوم . وفي نفس المعنى
(١)
يقول "جرير" :

أَبَيْتُ اللَّيْلَ أَرْقُبُ كُلَّ نَجْمٍ مَكَابِدَةَ لَهْمِي وَاحْتِمَامًا
لِمَرِّ سِنِينَ قَدْ لَبَسَتْ شَبَابِي وَأَبْلَتُ بَعْدَ جَدَّتِهَا الْعِظَامَا
مَشَيْتُ عَلَى الْعَمَا وَحَنَوْنَ ظَهْرِي وَوَدَّعْتُ الْمَوَارِكَ وَالزَّمَامَا

سنتين مرت وأخذت معها شباب الشاعر وقوته فمار شيخاً
كبيراً يمشي على العما بعد أن انحنى ظهره ، وبعد أن كان
يمتطي الخيل ويجيد ركوبها ، ومقارنته بين الحالين أسعرت
جفنه وحملته الهموم فبات يراقب نجوم الليل علها تُسرّي عنه
بعض الذي يحسّ به ، و"بشار" يزيد على ذلك أن الشيب يمدّ عنه
النساء فيسهر الليل باكياً مهنوماً :

قَالَ : أَدْرَى الْمُرَعْتُ الدَّمْعَ قَانَهَ

لَنْ نِظَامًا وَكَانَ عَهْدِي جَلِيدًا
مَا لِعَيْنِكَ لَمْ تَذُوقَا مِنَ اللَّيْلِ

لَنْ رُقَادًا وَلَمْ تُرِيدَا جُمُودًا
قُلْتُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنَ الشَّيْبِ إِذْ حَلَّ

وَآخَرَى مِمَّنْ يُرِينِي الصَّدُودَا

فالسائل يسأل عن سبب بكاء "بشار" وسهره وأرقه ،
ويعجب من ذلك لأنه يعلم أنه رجل صبور جلد ، فيخبره "بشار"
بسبب السهر والبكاء وهو الشيب الذي كسا رأسه ، ولاجله مدّت
الحبيبة .

(١) ديوان جرير ص ٤٠٩ .
(٢) ديوان بشار ١٣٦/٢ .

وفراق الاصحاب من بواعث الهم ودواعي السهر ، قال ابن المعتز^(١) يصف حاله في إحدى ليلائه بعد فراق أصحابه :

طَارَ نَوْمِي ، وَعَاوَدَ الْقَلْبَ عَيْدُ
 وَابَى لِي الرَّقَادَ حُزْنَ شَدِيدُ
 جَلَّ مَا بِي ، وَقَلَّ مَبْرِي فِي قَلْبِ
 بِي جِرَاحٌ وَحَشْوٌ جَفَنِي السُّهُودُ
 سَهْرٌ يَفْتَقُ الْجَفُونَ ، وَنِيرَا
 نٌ تَلْظَى ، قَلْبِي لَهْنٌ وَقَوْدُ
 لَامَنِي مَاحِبِي ، وَقَلْبِي عَمِيدُ
 أَيْنَ مِمَّا يُرِيدُهُ مَا أُرِيدُ
 شَيْبَتَنِي وَمَا شَيْبَنِي السَّ
 نُّ هُمُومٌ تَتَرَى ، وَدَهْرٌ مَرِيدُ
 فَتَرَانِي مِثْلَ الصَّحِيفَةِ قَدْ أَخُ
 لَمَهَا عِنْدَ مَقْلِحِهَا تَرْدِيدُ
 أَيْنَ إِخْوَانِي الْأُولَى كُنْتُ أَصْفِي
 هِمٌ وَدَادِي وَكُلُّهُمْ لِي وَدُودُ
 شَرَدْتَهُمْ كَفَّ الْحَوَادِثِ وَالْأَيُّ
 مٌ مِنْ بَعْدِ جَمْعِهِمْ تَشْرِيدُ
 فَلَقَدْ أَصْبَحُوا وَأَصْبَحْتُ مِنْهُمْ
 كَلِحَاءِ اسْتَلَّ مِنْهُ الْعُودُ

مع الليل تعتاد الهموم الشاعر فيفرّ النوم من عينيه ،
 ويأبى له الحزن الشديد الرقاد ، مما باب عظيم ، وصبر قليل ،

قلب مثقل بالجراح ، وجفون حشين بالسَّهْدِ حتَّى تفتقت ، والقلب
وقود النيران المتأججة في صدره ، فقد غاب عن الشاعر
أصحابه الذين كانوا يُصَفُّونَه الودادَ وهو الصادق في ودِّهم ،
ولكن الزمان فرق بينهم ، وأورثهم بعد الاجتماع فرقة ، حتَّى
أن الشاعر يرى نفسه من بعدهم عوداً سَلَّ لحاؤه ، فاهتمَّ
لغيابهم وسهر الليل الطويل .

وعلى لسان رجل غاب ابنه زمناً قال «ابن المقرب
العيوني» :^(١)

بُنِّيَ مَدْ غَبْتَ عَنْ عَيْنِي مَا عَرَفْتُ
غَمًّا وَلَا بَتُّ إِلَّا سَاهِرًا دَنِفًا

المفارق يتعاضم إحساسه بالفراق ليلاً ، فيتأبَّى الغمض
عليه ويلزمه السهر والمرض .

وجفاء الأصدقاء ومقاطعتهم تجلب الهم وتسهر الشاعر ،
وفي القطيعة قال «حافظ إبراهيم» :^(٢)

طَالَ الْحَدِيثُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا السَّمَرُ
وَلَاحَ لِلنَّوْمِ فِي أَجْفَانِكُمْ أَشْرُ
وَدَلِكَ اللَّيْلِ قَدْ ضَاعَتْ رَوَاحِلُهُ
فَلَيْسَ يُرْجَى لَهُ مِنْ بَعْدِهَا سَفَرُ
هَذِي مَفَاجِعُكُمْ يَا قَوْمُ فَالْتَقَطُوا
طَيْبَ الْكَرَى بَعْيُونَ شَابَهَا السَّمَرُ
هَلْ يُنْكِرُ النَّوْمَ جَفَنٌ لَوْ أُتِيحَ لَهُ
إِلَّا أَنَا وَنُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرُ ؟

(١) ديوان ابن المقرب العيوني ص ٢٩٠ .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم ١/١٩٤ .

أَبَيْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي كَيْفَ قَاطَعَنِي .

هذا الصديق ومالي عنه مضطرب

تسامر الشاعر مع ثلثة من أصدقائه زمناً من الليل إلى أن دبّ النعاس إلى عيونهم ، فطلب منهم الإخلاء إلى النوم والراحة ، أمّا هو فلن ينام ، وسيظل رفيق القمر والنجوم ، ويتعاضد إحساسه بطول الليل وهو يمور هذا الإحساس من خلال صورة الليل الذي ضاعت منه راحته ، فلا يرجى سفره ، فهي صورة تنقل لنا إحساس الشاعر بطول الليل وضجره منه ، بعد أن نام الرفاق فلا شيء يشغل بالهم ، أمّا الشاعر فمشغول ومهموم بصديقه المهاجر مع أنه يحبه ويوده ولا يطيق لبعده مبداً ، ويمور حالته في هذا الليل بحمامة صيدت عند الغروب وبات فرخها وحيداً مروّعا :

فَمَا مَطْوَقَةٌ قَدْ نَالَهَا شَرِكٌ

عند الغروب إليه ساقها القدر

باتت تجاهد هماً وهي آيسمة

من النجاة وجنح الليل معتكر

وبات زغلولها في وكرها قزعا

مروّعا لرجوع الأم ينتظر

يحفز الخوف أحشاءه وتزعجه

إذا سرت نسمة أو وسوس الشجر

مني بأسواً حالاً حين قاطعني

هذا الصديق ، فهلاً كان يذكر

"حافظ إبراهيم" يمور حاله السيء وقد جفاه صديقه بحال

مطوقة قضت يوماً بهجة مفردة ، وعند الغروب حين قفلت إلى

وكرها تنشد الأمن في الليل الساجي ، إذا بها في شراك مائد

ساقها قدرها إليه . وتلك حال محزنة ، ثم يضاعف من هذا الحزن أن فرخها بات طول ليله مغزعاً ينتظر أوبة أمه ، يحفز أحشاه الخوف وتزعجه وسوسة الشجر أو هبة النسيم .
 فمورة هذه المطوقة وفزع فرخها عليها في ظلمة الليل استعان بها الشاعر ليطلعنا على ما أصابه من أسى حين جفاه صديقه ، وليوحى إلينا بأنه في ظلمة مروعة مثل هذه الظلمة .
 ونجد لبعض الشعراء نموصاً يصفون فيها ليالي أطبقت عليهم فيها العموم ، ولم تشر تلك النصوص إلى دوافع الهم وأسبابه فقد يكون همّاً واحداً ، أو هموماً مجتمعة ، وربما كان السهر والعناء نتاجاً لطبيعة الشاعر المتميزة ونفسه المزاجية دون أسباب واضحة ، وما يهمننا هو رؤية الشاعر لليل أكثر من دوافع السهر والمعاناة ، وهي متنوعة متعددة .

(١)

ومن تلك النصوص قول "امرئ القيس" :

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سدولَه

عليّ بأنواعِ العمومِ ليبتلي

فقلتُ له لَمَّا تَمَطَّى بِمُأْبِهِ

وَأَرَدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءً بِكَلِّ

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي

بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

فِيَالِكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَه

بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَحْلِ شُدَّتْ بِيَدِ بُلِّ

الليل كامواج البحر موجة وراء موجة كلما توهمتها

انتجت داهمتني أخرى ، وهو كخيمة هائلة ترخي عليّ أستارها ،

ولعلَّ الهموم التي كالاستار على قلبه ، صوّرت له اللّيل بهذه الصورة ، ولمْ يكفه أنْ جعل اللّيل كموج البحر المتردد المتكرر ، وجعل له أستاراً عظيمة يُسدُّها عليه ، بل زاد على ذلك فجعله جملاً باركاً أردف متأخيره وناء بكلّكته كالتعب المثقل . وتحت وطأة هذه الاثقال يتوجّه الشاعر إلى اللّيل يرجوه أنْ ينجلي عن فجر عسى أنْ يكون فيه راحة ، غير أنَّ الهموم المجتمعة في قلب الشاعر تشعره ألا فرج في ليل أو في نهار ، ولما زاد ضيق الشاعر بطول اللّيل تخيل نجومه مؤثفات بحبال مثبتة إلى مخور صلبة فلن ينمرم .

ويجعل «أبو دؤاد الإيادي» الهمّ علة السهر :

مَنَعَ النَّوْمَ - مَآوِيَ - التَّهَمَامُ

وجديرٌ بالهمِّ مَنْ لَا يَنَامُ

مَنْ يَنَمُ لَيْلُهُ فَقَدْ أَعْمَلَ اللَّيْلَ

سَلَّ وَذُو الْبَثِّ سَاهِرٌ مُسْتَهَامُ

الهمّ يمنع النَّوْمَ ويطرده من العيون وهما لا يجتمعان ، وإذا نام الأخليااء حتّى الشاعرُ رواحلَ اللّيل علّها تمضي به فيتخلّص الشاعر من همومه وأحزانه التي تسهره ، بل تكرر عليه اللّيل كما يقول «المُرَقِّشُ الأصفَرُ» :

وَلَيْلَةٌ بِتُّهَا مُسَهْرَةٌ قَدْ كَرَّرَتْهَا عَلَى عَيْنِي الهموم

لَمْ أَعْتَمِمْ طَوْلَهَا حَتَّى انْقَفَتْ أَكَلُهَا بَعْدَ مَا نَامَ السَّالِيمُ

تَبَكِّي عَلَى الدَّهْرِ وَالدُّهْرِ الَّذِي أَبْكَأكَ فَالِدَمْعُ كَالشَّنِّ الهزيم

كلما يمضي اللّيل تعيده الهموم مرة أخرى وتكرره على عين الشاعر لأنّه ساهر مهموم ، فتوجه إلى النّجوم يرقبها

(١) الأصفهيات ص ١٨٥ .

(٢) المغفليات ص ٢٤٩ .

ويأمل زوالها ، ففي ذلك غياب هذه الليلة الطويلة التي نام فيها حتى اللدغ الذي يتوقع سحره لمرضه ، ولهول الليلة التي تجتمع فيها العموم على الشاعر يجعلها بعض الشعراء صورة عامة يشبه بها بعض الحالات النفسية التي يفوق بها (١)
وذلك من نحو قول "المثقب العبيدي" عندما بكى الاطلاق فقال :

ظَلَمْتُ أَرْدُ الْعَيْنَ عَنْ عَبْرَاتِهَا
إِذَا نُزِفَتْ كَانَتْ سِرَاعًا جُمُومًا
كَأَنِّي أَقَاسِي مِنْ سَوَابِقِ عَبْرَةٍ
وَمِنْ لَيْلَةٍ قَدْ ضَافَ صَدْرِي هُمُومًا
تَرَدُّ بِأَثْنَاءِ كَأَنَّ نُجُومَهَا
حَيَارَى إِذَا مَا قُلْتُ غَابَ نُجُومَهَا

وإذا أمعنا النظر في هذه الليلة استطعنا أن نعرف حالة الشاعر التي يشبهها بهذه الليلة ، ليلة تنزل فيها العموم ضيفاً على صدر الشاعر أو هو الذي ضافها بالتفكير فيها وجعل العموم ضيفاً إشارة إلى أنه لا يمكن ردها لأن العربي لا يستطيع أن يردّ ضيفاً مهما كانت الحالة ، ولكن العمّ ضيف ثقيل يسهر العين ويطيل الليلة التي يزور بها فلاتمضي كأنها متراكمة على بعضها بعضاً كل مارتع منها جزءاً وجد تحته جزءاً آخر ، وهكذا لاتنتهي ، ونجومها تآبى المسير حيارى في كبد السماء فلاتغرب ، ولايمضي الليل ، فإذا تأملنا هذه الليلة المهولة وماتمليه على النفس من ألم وضيّق أدركنا حالة "المثقب العبيدي" عندما جلس يبكي أطلاق الراحلين .

(١) ديوان المثقب العبيدي ص ٢٣٦ .

ويصف «بَيْهَمُ بْنُ صُهَيْبٍ» معاناته في إحدى الليالي التي

(١)

اهتم بها :

وَبِتُّ وَبَاتَ النَّاسُ حَوْلِي هَجْدًا
كَأَنَّ عَلَيَّ اللَّيْلَ مِنْ طُولِهِ شَهْرًا
إِذَا قُلْتُ هَذَا حِينَ أَهْجَعُ سَاعَةً
تَطَاوَلَ بِي لَيْلٌ كَوَاكِبُهُ زُهْرًا
أَقُولُ إِذَا مَا الْجَنْبُ مَلَّ مَكَانَهُ
أَشُوكُ يُجَافِي الْجَنْبَ أَمْ تَحْتَهُ جَمْرًا
فَلَوْ أَنَّ صَخْرًا مِنْ عُمَانَةَ رَاسِيًا
يُقَاسِي الَّذِي أَلْقَى لَقَدْ مَلَّ الصُّخْرُ

نام الناس من حول الشاعر وظلَّ ساهرًا مهمومًا فاستطال الليل حتى جعله شهرًا ، ولهذا الإحساس ملَّ جنبه مكانه فتساءل هل على الفراش شوك أو جمر يمنع النوم والراحة ؟ ولكن لاهذا ولذاك وإنما هي الهموم التي تقلقه وتمنع النوم عنه ، والتي لن يحتملها حتى الصخر القلب ، فكيف الحال بإنسان شاعر ؟

(٢)

ويرى «بشار» أن الليل طال حتى كأنه وصل بليلين :

وطالَ عَلَيَّ اللَّيْلُ حَتَّى كَأَنَّهُ

بِلَيْلَيْنِ مَوْصُولٌ فَمَا يَتَزَحَّزَحُ

فهل هذه الليلة طالت حتى غدت ثلاث ليالٍ؟ أم أن «بشارا» الأعمى يرى أن العمر ليل كله ، فمتى وصل الليل بليل قبله وبليل بعده غدا الدهر كله ليلاً واحداً فما يتزحزح .

(١) ديوان الخوارج ص ٣٤ .

(٢) ديوان بشار بن برد ٤٢/٤ .

(١)

ويعبر "أبو العلاء" عن طول الليل بصورة نادرة :
طَالَ لَيْلٌ ، كَأَنَّمَا قَتَلَ الْعَقْرُ

رَبَّ سَاطِرٍ ، فَغَابَ عَنْهَا الدَّيْبُ

العقرب المقصود برج من أبراج السماء ، وهو أحد منازل القمر ، والشاعر يربط بين العقرب الحشرة التي جرت العادة بقتلها عند رؤيتها وبين العقرب البرج في تورية جيدة ، فالقمر لا يسير في برج العقرب لأن معتديا قتله فكف عن المسير فالليل طويل والقمر لن يمضي .

أما "صندح المرّي" فلم يكفه وصف الليل بالطول ليعبر

(٢)

عن معاناته بل جعل له مع الطول عرضا :

فِي لَيْلٍ مَوَّلٍ تَنَاهَى الْعَرَضُ وَالطُّولُ

كَأَنَّمَا لَيْلُهُ بِاللَّيْلِ مَوْسُولٌ

لَا فَارِقَ الصُّبْحُ كَفِّي إِنْ ظَفِرْتُ بِهِ

وَإِنْ بَدَتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وَتَحْجِيلٌ

لِسَاهِرٍ طَالَ فِي مَوَّلٍ تَمَلُّمُهُ

كَأَنَّهُ حَيَاةٌ بِالسَّوْطِ مَقْتُولٌ

مَتَى أَرَى الصُّبْحَ قَدْ لَاحَتْ مَخَايِلُهُ

وَاللَّيْلُ قَدْ مَزَّقَتْ عَنْهُ السَّرَابِيلُ

لَيْلٌ تَحْيِرُ مَا يَنْحَطُّ فِي جَهَةِ

كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الْأَرْضِ مَشْكُولٌ

نَجْوَاهُ رُكْدٌ لَيْسَتْ بِزَاثِلَةٍ

كَأَنَّمَا هُنَّ فِي الْجَوِّ الْقَنَادِيلُ

(١) اللزوميات ١١١/١ .

(٢) الحماسة لأبي تمام ٤٢٠/٢ .

ليل صول وما هو ؟ لقد تناهى عرضاً وطولاً كأنما لأول له
ولآخر ، أو كأنه موصول بمعنى الليل الذي لا ينتهي ، لقد صرّت
من شدة ما أكابد أتمنى لقاء الصبح وإن ظفرت كفي به لأفوته
ولأقوّط فيه ، معما بدا لي منه ما يوجب تركه ومسامحته ، وهي
من أعذب الصور التي وقعت عليها في قلبي الليل ، وفي التشوق
للصبح من غير ضجيج في الوصف ولا إغراق .

ويمور الشاعر الفجر سعادته في ليل صول الممل ،
وما يلقاه من سام بأنه يشبه حياة مقتولة بسوط ، وهذا
التشبيه يستكنّ فيه شعور جدّ غريب ، فالشاعر الفجر المتقزز
الذي لا يملك - مع ما يجده من لوعة - حيلة ينجو بها ، ولو
كان الليل شيئاً محسّاً يقتل لقتله ، كالحياة المقتولة التي
تتلمس ما تفرغ فيه سمها من شدة ألمها ، ثم يعود للتشوق
للصبح مرة أخرى فيتحسر ويتشوق لسراويل الليل قد تمزقت عن
الصبح ، والصبح تلوح مخايله جميلة أخاذاً ، ذلك الليل الذي
تخايله ما ينحط في جهة بعينها ، وإنما هو في كل جهة لا يريم
كأنه مقيّد فوق ظهر الأرض ، نجومه راكدة لاتزول ، ثابتة
كأنها قناديل في سقف معلقة .

وإحساس الشاعر نحو الليل ذاته مشبع بالكره والضجر من
كراهته للمدينة التي يقيم بها .

ونجد اتجاهها آخر يصور المعاناة بطول الليل بمور
معنوية - غير محسوسة - ومن هذا قول "القاضي التنوخي" في

(١)

وصف إحدى لياليه :

ظلامها كالدهر مافيه خلل	وليلة كأنها يوم أميل
أزهقه الله بحق فبطل	كأنما الإصباح فيها باطل

سَاعَاتُهَا أَطْوَلُ مِنْ يَوْمِ النَّوَى وَلَيْلَةَ الْهَجْرِ وَسَاعَاتِ الْعَدَلِ
مُؤَمِّدَةً عَلَى الْوَرَى أَبْوَابُهَا كَالنَّارِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا مَنْ دَخَلَ

ليلة تشبه يوم الأمل ، وساعاتها أطول من يوم النوى
وساعات العدل وليلة الهجر ، وكلّ هذه معانٍ نفسية يندر أن
نجد إنساناً لم يمرّ به شيء منها ، وعمامة الناس تعرف أنّها
أوقات ثقيلة على النفس يفريق بها خاطر لذا فقد نجح
الشاعر في نقل إحساسه بالليل إلى نفوس المتلقين ، لأنّه
استخدم في إخراج الصورة معاني يشترك في الإحساس بها معظم
الناس ولكنّه لم يكتف بهذا ، بل جعل ليلته كجهنّم لا يخرج
منها من دخل ، فأبوابها مؤمّدة على الناس وهو في هذا ينظر
إلى قوله تعالى : { إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤَمِّدَةٌ } (١) .

أمّا "الشريف الرضي" فكأنّه حين ضاق بالليل أرمَد أو
ناظر الرّمَد على حدّ قوله : (٢)

لَيْلِي بِبَغْدَادَ لَا أَقْرَبُ بِهِ كَأَنَّي فِيهِ نَاطِرُ الرَّمَدِ
يَنْفِرُ نَوْمِي كَأَنَّ مَقْلَتَهُ تَشْرُجُ أَجْفَانُهَا عَلَى صَمَدِ

ولأدري ماذا كان بين "الشريف الرضي" وبين ليالي
بغداد ، فهو لا يقر بليل بغداد وكأنّه ناظر الرّمَد ، ونومه
ينفر منه وكأن أجفانه مقرحة وعليها صمد .

وكذلك شكى الشاعر ذاته ليل العراق في قصيدة أخرى
فقال : (٣)

أَلَا إِنَّ لَيْلِي بِالْعِرَاقِ كَأَنَّهُ طَلِيحٌ تَجَافَاهُ الرَّجَالُ ظَلِيحٌ
مُقِيمٌ يُعَاطِينِي الْهُمُومَ وَنَاطِرِي بِأَعْجَازِ النَّجُومِ وَلُؤَعٌ

(١) سورة الهمزة : آية ٨
(٢) ديوان الشريف الرضي ٣٠١/١ .
(٣) السابق ص ٦٢٢ .

فإذا كان في المورة السابقة أرمذ مقرح الأجنان فإن
 ليله هنا طليح تجافاه الرجال ظليح ، والشاعر تفترسه
 الهموم وعينه مولعة بالنظر في ادبار النجوم .

(١)
 أما ليل "أبي الحسن التهامي" فأقسم يميناً لا يزول :
 وليل كسا الآفاق ثوباً ظلامه

وآلى يميناً في الإقامة يَمَكْتُ
 ثويتُ وقلبي فيه لهم حلفه
 أكابده والحتف بالنفس يعبتُ
 أقول لنفسي لاتراعي وامبري
 سيدركه نور الصباح فيحنثُ

ليل يقبل ويغطي النواحي بظلامه ، ويقسم يميناً ألا يبرح
 والشاعر بهذا يصور إحساسه بطول الليل لأن الهم لازم قلبه
 فيه ، وفي غمرة الضيق بالليل يأمل الشاعر في زواله ويحاول
 تهدئة نفسه الفأثقة به وبهمومه ، فيتمنى ظهور الصباح
 ليحنث الليل في قسمه بالإقامة الدائمة .

(٢)
 و"البهاء زهير" يقدر ليلته بألف سنة فيقول :

وليلة قد يتها	لم أدر فيها ما السنة
سيئة ما تركت	للدهر عندي حسنة
طالت فكم قد دار في	ها من فصول الأزمنة
قدرتها اليوم الذي	مقداره ألف سنة

ليلة قاسية عاشها الشاعر ساهرا ، ولم يعرف فيها حتى
 النعاس الخفيف ، ومن سوؤها غطت على كل حسنات الدهر لأنها

(١) ديوان أبي الحسن التهامي ص ١٢٧ .

(٢) ديوان البهاء زهير ص ٢٦٠ .

طالت وجشمت على قلب الشاعر، حتى تخيلها فصلاً من الزمان
تتابع حتى غدت تلك الليلة ألف سنة ، وحالة الشاعر النفسية
وراء هذا التقدير ، وقال في قصيدة أخرى :

حَدَّثُوا عَنْ طُولِ لَيْلِ بَيْتِهِ هَلْ رَأَيْتُمْ هَلْ سَمِعْتُمْ هَلْ عُدُّهُ
لِرَعَاةِ اللَّهِ مَا طَوَّلَهُ تَحَبَّلُ الْمَرْأَةُ فِيهِ وَتَلِدُ
لَيْسَ مَا أَشْكُوهُ مِنْهُ وَاحِدًا كُلُّ شَيْءٍ مَرَّبِي فِيهِ نَكِدُ

الشاعر يحاول تصوير ضيقه وتبرمه بوصف الليل بفترات
زمنية طويلة فكما قدره في النقص السابق بألف سنة جعل
المرأة هنا تحبب فيه وتلد ، وصفاً لليل بالطول ، وإشارة
إلى الانتظار الذي يحبب حبب المرأة إلى يوم ولادتها .

(٣)
وكما يقول "أسامة بن منقذ" :

إِذَا نَامَ الْخَلِيُّ آرَاحَ هَمِّي وَأَسْرَرَ لَيْلِي الْحَزْنَ الدَّخِيلُ
كَأَنَّ نَجُومَ لَيْلِي مُوثِقَاتٌ فَلَيْسَتْ مِنْ أَمَاكِنِهَا تَزُولُ

الحزن الذي يلبس نفس الشاعر يعيد الهم عليه مع مجيء
الليل فيسهره فيغدو الليل طويلاً وتربط نجومه فلاتسير ولا تزول
فلا ينقضي الليل "والبارودي" يقول: إِنَّ النُّجُومَ وَنَتُّ فَلَمْ تَعُدْ
قادرة على السباحة :

يَا كَوَكَبَ الْمُبْحِ مَتَى يَنْقُضِي عُمُرُ الدَّجَى ؟ يَا كَوَكَبَ الصُّبْحِ
قَدْ سَدَّ حِضْنَ اللَّيْلِ أَبْوَابَهُ فَاتْلُ عَلَيْهِ سُورَةَ الْفَتْحِ
إِنِّي أَرَى أَنْجَمَهُ قَدْ وَنَتُّ فَمَا لَهَا أَيْدٌ عَلَى السَّبْحِ

- (١) نظر إلى قوله تعالى : {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ
مِمَّا تَعُدُّونَ} . الحج : ٤٧ .
(٢) ديوان البهاء زهير ص ٧٥ .
(٣) ديوان أسامة بن منقذ ص ٣٥٤ .
(٤) ديوان البارودي ١٧٤/١ .

يكرر الشاعر نداء كوكب الصبح سائلاً إياه عن انقضاء
الليل الثقيل الجاثم عليه ، والشاعر الفارس حين رأى في
الليل عدوًّا حاربه ولكن الليل سدَّ أبوابَ حصنه فصعبَ اقتحامه
فطلب الشاعر العون من كوكب الصبح العاجز هو الآخر عن اقتحام
أبواب الحصن ، فطلب منه تلاوة سورة الفتح علَّها تساعد على
اقتحام حصن الليل الذي طال طولاً غير مألوف حتى تعبت نجومه
فلم تعد تستطيع السباحة ، فترحل بالليل .

الفصل الثاني

الليل وهموم الشاعر الإنسانية

- * حال الأمة .
- * الاستعمار .
- * الحروب .
- * الآفات الاجتماعية .

اللَّيْلُ وَهَمُومُ الشَّاعِرِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

حسبتُ أن يكون هذا الفصل زاخراً إلى الحدِّ الذي يوازي به الفصل السابق - اللَّيْلُ وَهَمُومُ الشَّاعِرِ الشَّخْصِيَّةِ - غير أنني فوجئتُ به ضئيلاً ، ولأَتَّهَمُ الشَّعْرَاءَ بِعَدَمِ اِهْتِمَامِهِمْ بِآلَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَبِهَمُومِ مَجْتَمَعَاتِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ ، فَقَدْ عَالَجَوْهَا فِي مَوَاضِعَ عَدَّةٍ مِنْ أَشْعَارِهِمْ ، غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ تَبْرُزْ لِي ^{فِي مَجْمَعَاتِهَا} خِلالَ صُورَةِ اللَّيْلِ ، وَأُحْسِبُ أَنَّ مَرَدَّ ذَلِكَ أَنَّ الشَّاعِرَ عِنْدَمَا يَخْلُو بِنَفْسِهِ لَيْلًا تَطْفَى عَلَيْهِ هَمُومَةُ الشَّخْصِيَّةِ وَمَوَاجِعُهُ الذَّاتِيَّةِ ، كَمَا رَأَيْنَا فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ - كَمَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ مَوَاجِعُ الْحُبِّ وَآلَامِ الْفِرَاقِ وَالْغُرَامِ ، عَلَى نَحْوِ مَا سَنَرَى فِي بَابِ اللَّيْلِ وَالشَّاعِرِ الْمَحَبِّ ، ثُمَّ إِنَّ النَّزْعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي الشَّعْرِ لَمْ تَتَفَحَّ مَعَالِمَهَا إِلَّا عِنْدَ شِعْرَاءِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ إِذْ اِهْتَمَوْا بِمَشَاكِلِ أُمَّتِهِمْ وَمَجْتَمَعَاتِهِمْ وَمَمَائِبِ أَوْطَانِهِمْ .

ومع كلِّ ما تقدم فقد ظفر الباحث بمجموعة من النصوص أبانَ فيها الشَّعْرَاءُ عَنِ هَمُومِهِمُ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ خِلالِ اسْتِخْدَامِ اللَّيْلِ عُنْصُرًا بَارِزًا مِنْ عُنْصُرِ الصُّورَةِ . وَمِنْ أَبْرَزِ ذَلِكَ : اِهْتِمَامُ الشَّعْرَاءِ بِحَالِ أُمَّتِهِمْ وَمَشْكَلاتِ أَوْطَانِهِمْ ، قَالَ "حَافِظُ إِبْرَاهِيمَ" مَعْبِرًا عَنِ آلَامِ الْأُمَّةِ الْمِصْرِيَّةِ وَآمَالِهَا :
(١)

لَقَدْ نَصَلَ الدُّجَى فَمَتَى تَنَامُ	أَهْمُ ذَادَ نَوْمَكَ أَمْ هِيَامُ
غَمًّا الْمَحْزُونُ وَالشَّاكِي وَأَغْفَى	أَخُو الْبَلَوَى وَنَامَ الْمُسْتَهَامُ
وَأَنْتَ تَقَلِّبُ الْكَفَّيْنَ آنَاءً	وَأَوْنَةَ يُقَلِّبُكَ السُّقَامُ

تَعَلَّمَ مِنْ مَحَاجِرِكَ الْغَمَامُ
وَأَشْفَقَ مِنْ تَلْهُفِكَ الظَّلَامُ
وَعَيْنُ الْكَوْنِ رَنَّقَهَا الْمَنَامُ
أَذَاعَ الصَّمْتُ مَا أَخْفَى الْكَلَامُ

تَحَدَّرَتْ الْمَدَامِعُ مِنْكَ حَتَّى
وَضَجَّتْ مِنْ تَقَلُّبِكَ الْحَشَايَا
تَبَيَّتْ تُسَاجِلُ الْإِفْلَاقَ سُهْدًا
وَتَكْتُمُنَا حَدِيثَ هَوَاكَ حَتَّى

.....

بُكَاءُ الطِّفْلِ أَرْهَقَهُ الْغِطَامُ
وَمِصْرُ فِى يَدِ الْبَاغِي تَضَامُ ؟
هُوَى بَيْنَ الْفُلُوعِ لَهُ ضِرَامُ

أَيَجْمَلُ بِالْأَدِيبِ أَدِيبِ مِصْرٍ
وَيَمِصْرُهُ الْهُوَى عَنْ ذِكْرِ مِصْرٍ
عَدِمْتُ يَرَاعَتِي إِنْ كَانَ مَابِي

.....

وَمَالِي دُونَهَا أَمَلٌ يُرَامُ
تَمُولُ بِهَا الْفِرَاعِينَةُ الْعِظَامُ
وَأَيَّامَ الزَّمَانِ لَهَا غُلَامُ
وَبَاتَتْ مِصْرُ فِيهِ ، فَهَلْ أُلَامُ ؟
تَمَخَّخَ عَظْمَهُ دَاءٌ عُقَامُ
أَطَلَّ عَلَيْهِ بِالْبِئْسَاءِ عَامُ
تَخَطَّفَ رِزْقَهُ ذَاكَ الزَّحَامُ
وَمَوْتُ الشَّعْبِ مَنْشُؤُهُ انْقِسَامُ

لَعَمْرُكَ مَا أَرِقْتُ لغيرِ مِصْرٍ
ذَكَرْتُ جَلَالَهَا أَيَّامَ كَانَتْ
وَأَيَّامَ الرَّجَالِ بِهَا رِجَالُ
فَأَقْلُقَ مَفْجَعِي مَابَاتَ فِيهَا
أَرَى شَعْبًا بِمَدْرَجَةِ الْعَوَادِي
إِذَا مَامَرَ بِالْبِئْسَاءِ عَامُ
سَرَى دَاءُ التَّوَاكُلِ فِيهِ حَتَّى
هَلَكَ الْفَرْدُ مَنْشُؤُهُ تَوَانُ

يستهل الشاعر قصيدته بقوله "لقد نمل الدجى" فالليل

قد مضى والمباح قريب ، والشاعر ساهد لم ينم ، ويتساءل عن
سبب سهره ، أهو الهم أم العشق ؟ فقد نام كل الناس حتى
المحزون والشاكي ، وأخو البلوى والعاشق ، والشاعر ساهر
آنأ يقلب كفيه ، وآونة يقلبه السقام ، ومدامعه كأنها
الغمام الذي لا يكف ، وضجت الحشاييا من تقلبه وأشفق الظلام من
لهفته ، يشارك النجوم في السهر ، ويعود باللائمة على نفسه
فلا يجمل به وهو أديب مصر المشهور أن يبكي بكاء طفل حريم

الرّضاع ، كما لايجمل به أن يصرفه الهوى عن ذكر بلاده وهي
تضام تحت وطأة الاستعمار والاحتلال ، وتذكر عزّها الماضي
وأمجادها التليدة من أيام الغراعة ، وقارن ذلك بحالها
وهي تئن من جور الاحتلال فأقلق ذلك مضجعه ، وأورشه الارق ،
وليلام في ذلك ، فالاعداء في البلاد والبؤس لاينتهي ، وإن مرّت
الاعوام ، فيحاول استنهاض العمم ناعياً على شعب مصر تواكلهم
وانقسامهم .

وعلى نحو من قول "حافظ إبراهيم" السابق ، يقول
"معروف الرّصافي" من قصيدة بعنوان "إلى الأمة العربية" :^(١)

هُوَ اللَّيْلُ يُغْرِيه الأَسَى فَيَطْوِلُ
وَيُرْخِي وَمَاغَيْرُ الهُمومِ سُدُولُ
أَبَيْتٌ بِهِ لالِغَارِبَاتُ طَوَالِعُ
عَلَيَّ وَلِلطَّالِعَاتِ أَقْوَلُ
وَيَنْشُرُ فِيهِ الصَّمْتُ لِبَدَأٍ مُضَاعَفًا
فَتَطْوِيهِ مِنِّي رَنَّةٌ وَعَوِيلُ
وَلِي فِيهِ دَمْعٌ يَلْدَعُ الخَدَّ حَرُّهُ
وَحُزْنٌ كَمَا امْتَدَّ الظَّلامُ طَوِيلُ
بَكَيتُ عَلَى كُلِّ ابْنِ أَرُوعٍ مَا جَدِ
لَهُ نَسَبٌ فِي الأَكْرَمِينَ جَلِيلُ
يُلِيحُ مِنَ الفَيْمِ المُذَلِّ بِغُرَّةٍ
لَهَا البَدْرُ تَرَبُّبٌ وَالنُّجُومُ قَبِيلُ

(١) ديوان معروف الرّصافي ص ٣٩٤ .

مِنْ الْعَرَبِ أَمَّا عَرَضُهُ فَمَوْفِرٌ
 مَمُونٌ ، وَأَمَّا جِسْمُهُ فَهَزِيلٌ
 لَهُ سَلْفٌ عَزُؤًا فَبَزُوا نَبَاهَةً
 وَلَمْ تَعْتَوِرْهُمْ فَتْرَةٌ وَخُمُولٌ
 وَكَانُوا إِذَا مَا أَظْلَمَ الدَّهْرُ أَشْرَقَتْ
 بِهِ غِرْرٌ مِنْ مَجْدِهِمْ وَحَجُولٌ
 أَوْلِيكَ قَوْمٌ قَدْ ذَوَى رَوْضٌ مَجْدِهِمْ
 وَلَمْ تَسْرُ فِيهِ نَسْمَةٌ وَقُبُولٌ
 رَعَى اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْفَصَاحَةِ مَعْشَرًا
 لَهُمْ كَانَ فَوْقَ الْفَرَقِدِينَ مَقِيلٌ
 تَرَامَى بِهِمْ رَيْبُ الزَّمَانِ كَأَنَّمَا
 لَهُ عِنْدَهُمْ دُونَ الْإِتْمَامِ دُحُولٌ
 فَأَمَسَتْ مِنَ الْعُمَرَانِ خُلُوعًا بِلَادِهِمْ
 فَهُنَّ حَزُونٌ قَفَرَةٌ وَسُهُولٌ
 وَعَادَتْ مَعَانِي الْعِلْمِ فِيهَا دَوَارِسًا
 تُجْرُ بِهَا لِلرَّامِسَاتِ ذُيُولٌ
 وَقَوَّضَتْ الْإِيَّامُ بُنْيَانَ مَجْدِهَا
 فَرَبَعُ الْمَعَالِي بَيْنَهُنَّ مَحُولٌ

الأسى يغري الليل بالطول فيطول ، ويسدل الهموم على
 الشاعر وتثبت نجومه في السماء فلاتطلع الغاربات ولا تغيب
 الطالعات ، وينتشر فيه الصمت ، فلا صوت إلا بكاء الشاعر
 وعويله إذ يبكي بدموع حارة تلذع خده ، وتمتد همومه
 واحزانه تحت أستار الظلام المتلبد فوقه ، يبكي رجال أمته
 السالفين الذين بنوا الحضارة ، وصنعوا المجد ، وحافظوا
 على أعراسهم ، يسعون في درب المكرمات والعزة دون خمول أو

كسل ، وَلَكِنْ خَلَفَهُمْ خَلْفَ أَضَاعُوا أَمْجَادَهُمْ ، فَبَاتَتْ بِلَادَهُمْ خَلْوًا
 مِنَ الْعِمْرَانِ وَالْحَفَارَةِ ، وَانْتَشَرَ فِيهِمُ الْجَهْلُ ، فَقَوَّضُوا بَنِيَانِ
 مَجْدِ أَسْلَافِهِمْ وَهَذَا مَا سَهَرَ جَفْنَ الشَّاعِرِ وَأَبْكَاهُ ، وَأَطَالَ عَلَيْهِ
 اللَّيْلُ . ثُمَّ يَبِينُ حَالِ قَوْمِهِ وَبِلَادِهِ فِي الْقَمِيْدَةِ نَفْسَهَا :
 (١)

نَظَرْتُ إِلَى عَرَضِ الْبِلَادِ وَطُولِهَا
 فَمَا رَأَيْتُ عَرَضٌ هُنَاكَ وَطُولُ
 وَلَمْ تَبْدُ لِي فِيهَا مَعَاهِدٌ عَزَّهَا
 وَلَكِنْ رُسُومٌ رَثَّةٌ وَطُلُوعُ
 نَظَرْتُ إِلَيْهَا مِنْ خِلَالِ ذَوَارِفِ
 مِنَ الدَّمْعِ طَرْفِي بَيْنَهُنَّ كَلِيلُ
 فَكُنْتُ كَرَاءٍ مِنْ وِرَاءِ زُجَاجَةٍ
 بَعَيْنَيْهِ كَيْمَا يَسْتَبِينُ ضَيْلُ
 وَلَمْ أَتَبَيَّنْ مَا هُنَاكَ مِنْ عُلَى
 لِكثْرَةِ مَا قَدَّ دَبَّ فِيهِ نُحُولُ
 وَأَرْسَلْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ فَانْهَلَّ جَارِيًا
 لَهُ بَيْنَ أَطْلَالِ الدِّيَارِ مَسِيلُ
 أَمْنَعُ عَيْنِي أَنْ تَجُودَ بِدَمْعِهَا
 عَلَى وَطَنِي إِنْني إِذْنُ لِبَخِيلُ

فبعد أن شكى الشاعر طول الليل ووصف حاله فيه ودموعه
 وبكى أمجاد السالفين وضياعها ، عاد بالنظر إلى أحوال بلاده
 فنظر إلى عرضها وطولها فلم يرقه لاعرض ولاطول ، فلم يعد يرى
 رسوم عزها ، ولم ير إلا أطلالا رثة أكل عليها الدهر وشرب ،
 مما أبكاه وهاج عينيه ، فأرسل دموعه الغزار ، ولايرى غضاضة

في ذلك ، بل يرى نفسه بخيلاً إِنْ منع عينيه البكاء ، والمورة
التي أتى بها هنا جدٌ جميلة لأنّ الدّموع حالت بينه وبين أن
يرى الأشياء على حقيقتها ، إنّما هي رؤية مقلوبة زائفة .

وحين نُعِيَتْ إليه "طرابلس" وعرف ما حاق بها قال :
(١)

حَيَّاكُمْ اللَّهُ أَيُّهَا الْعَرَبُ	فاسْتَمِعُوا لِي فَقَصِّتِي عَجَبُ
قَدْ بَتَّهَا لَيْلَةً مَطْوَلَةً	يَعْقِدُ جَفْنِي بِنَجْمِهَا الْوَصْبُ
أَنْجُمَهَا الزُّهْرُ غَيْرَ سَائِرَةٍ	كَأَنَّمَا كُلُّ نَجْمَةٍ قُطْبُ
تَحْسَبُنِي فِي مَفَاجِعِي حَسَكُ	يَقْلِبُنِي وَخَزَهُ فَأَنْقَلِبُ
أَمْشِي إِلَى النَّوْمِ وَهُوَ مُنْهَزِمٌ	مَشِي دَبِيبٍ مَشِيَّةٌ خَبَبُ

الشاعر مغموم لنكبة "طرابلس" لما احتلها الطليان ،

وانزلوا بأهلها الدمار والهلاك .

فالليل هنا يعين الشاعر على تذكر المأساة ، وتذكير

الناس بها عسى أن يخفوا لمواساتهم ونجدتهم .

وقال "الجواهري" يبكي حال أمته :
(٢)

طَوَتْ الْخُطُوبُ مِنَ الشَّبَابِ صَحِيفَةً
لَمْ أَلْقَ مِنْهَا مَا يُعِزُّ فِرَاقَهَا
وَمَسْعِدِ رَاعِ الظَّلَامِ بِخَاطِرِ
لَوْ كَانَ بِالْجُوزَاءِ حَلَّ نِطَاقَهَا
تَرَنُّوْهُ زُهْرُ النُّجُومِ وَإِنَّهَا
لَوْ أَنْصَفَتْهُ لَسَوَدَّتْ أَحْدَاقَهَا
أَفْدِي الضُّلُوعَ الْخَافِقَاتِ يُرْوَعُنِي
أَنَّ الرَّقَادَ مُسْكِنٌ خَفَاقَهَا

(١) ديوان معروف الرصافي ص ٤٩٢ .

(٢) ديوان الجواهري ١/١٨١ .

وَأَنَا الْمُوَاخِذُ فِي شَطَايَا مُعْجَةٍ
 حُمَلْتُ مَا لَا تَسْتَطِيعُ ، رَقَايَا
 هَزَجٌ إِذَا مَا الْوُرُقُ نُحْنُ لِأَنْبِي
 خَالَفْتُ فِي حُبِّ الْأَسَى أَدْوَايَا
 كَمْ نَفْتَةٍ لِي قَنَعْتُ وَجْهَ الدُّجَى
 هَمًّا وَأَوْحَتْ لَلسُّهَا إِخْفَايَا

... ..

يَا مَهْبِطَ الرُّسُلِ الدُّعَاةِ إِلَى الْهُدَى
 عَلَيَا بَنِيكَ عَنِ الْعُلَى مَا عَايَا
 زَحَفَتْ بِمَدْرَجَةِ الْخُطُوبِ فَفَاتَهَا
 شَاؤُ الْمَجْدِ مِنَ الشُّعُوبِ وَفَايَا
 لِحَقَّتْ فِلَسْطِينَ بِأَنْدَلُسِ أَسَى
 وَالشَّامِ سَاوَتْ مَمْرَهَا وَعِرَايَا
 مَهْمُومَةٌ مَنْ ذَا يَرُدُّ حَقُوقَهَا
 وَأَسِيرَةٌ مَنْ ذَا يَفُكُّ وَشَايَا

فالشاعر لهجٌ بأحزان أمته ، مسهد ترنوه زهر النجوم
 أفزعته خطوب وطنه الذي فاقتته الشعوب ، وفاته المجد ،
 وصارت بلاده يتبع بعضها بعضها في المحنة ، فلسطين لحقت
 باندلس ، والشام ضارعت مصر والعراق في الاسى والاسر .

وعلى نحو من هذا يقول "محمد بهجة الاثري" من قصيدة
 بعنوان "الامة العربية في مهب الريح" :
 (١)

مَنْ لِحُرٍّ .. بَاتَ يَشْكُو الْوَصْبَا
 زَا فِرَاً أَنْفَاسُهُ كَاللَّهَبِ ؟

هَاجَتِ الذُّكْرَى شَجَاهُ ، فَمَبَا
 رَبَّ لَيْلٍ .. بَتُّ مَوْصُولِ الْإِنِينُ
 بَاكِياً مَجْدَ الشُّمُوسِ الْإَفْلِينُ
 أُمَّةٌ ... عَزَّتْ بِدُنْيَا وَبِدِينُ
 وَأَنْثَنَى يَنْدُبُ حَظَّ الْعَرَبِ
 يَتَنَزَّى شَجَنِي مُقَطَّرِ مَا
 وَزَمَاناً بِالْمَعَالِي مُعَلِّمًا
 كَيْفَ دَلَّتْ وَاسْتَحَالَتْ أُمَّةٌ ؟

سَامَهَا مَسَامَ أَقْوَامَ "سَبَا"
 فِي اللَّيَالِي زَمَنُ دُو رِيْبِ
 مَثَلَمَا تَعَمَّفُ رِيْحُ بَدَبِي
 سَالَتِ الْبَيْدُ بِهِ مُصْطَخِبَا
 جَائِشًا فَوْقَ وَهَادٍ وَرُبَا

فمواجه "الاشري" تضارع مواجع "الرصافي" و"الجواهري"
 أسى على حال أمتهم المضيعة ، كما أن هذا الاسى موصول في
 حقيقته بأسى "حافظ إبراهيم" ، وكل من هؤلاء صادق في شعوره
 مَفْتَنٌ في تكوين صورته بسبب من هذا الصدق .

"فالاشري" يبئ قلقلًا ساهداً يندب حظ قومه ، باكياً
 أمجاد أجدادهم الأفلة ، وزمانهم الذي حمدوا فيه المعالي ،
 وارتقوا فيه سلام المجد حين دانت لهم الأمم ، وحين كانوا
 أمة واحدة يسعون في ظل لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ،
 ويعجب من حال أُمَّته كيف دَلَّتْ ؟ وتمزقت أُمَّةً فغدت مثل أقوام
 "سبأ" وهم قبائل اليمن الذين أغرقوا بسيل العرم ، وتبددوا
 في البلاد ، ففُربَ بهم المثل في التفريق ، أو كأنهم جراد
 صغير عمفت به الرياح ، فشتته في السهول والروابي ، وعندما
 تمثل في ليله حال أمته السابق قال :
 (١)

صَحْتُ لَمَّا ضَمْتُ ذُرْعًا بِالشَّجَا
 أَرْقُبُ النَّجْمَ بِرَقْرَاقِ الدُّمُوعِ :
 أَيُّهَا اللَّيْلُ ... أَمَا فِيكَ رَجَا ؟
 أَوْ مَا لِلصُّبْحِ مِنْ بَعْدِ طُلُوعِ ؟
 ثُمَّ أَغْفَيْتُ عَلَى هَمِّ دَجَا

بِفؤادي ، وَأَنَا مُعِي جَزُوعِ
 فَعَرَانِي مِثْلُ أَحْلَامِ الْمَبَا
 طَائِفٌ فِي رَقْدَتِي طَوَّافٌ بِي
 هَزَّ أَشْوَاقِي إِلَيْهِ طَرَبَا
 لَيْتَهُ فِي الصَّحْوِ يُحْيِي طَرَبِي

نقد مبر الشاعر من السهر والبكاء في ليلته التي اهتم
 فيها لحال أمته فصاح بالليل يسأله : أما فيك رجا ؟ يرجو
 أن يمضي الليل الذي عناه فيه هموم أمته المتفرقة الذليلة
 أملاً في طلوع صباح مشرق عليه وعلى أمته . غير أن الليل لم
 يمش ، فهدد التعب الشاعر فأغفى وهمومه مستقرة بفؤاده ،
 فطاف به طائف في رقدته سره وأعجبه فتمنى أن يراه على
 (١)
 الحقيقة وفي حال يقظته وهو :

قَدْ تَنَوَّرْتُ مَعَ الْفَجْرِ سَنَا طَبَقَ الشَّرْقَ وَعَمَّ الْمَغْرِبَا
 أَطْلَعْتَهُ الْبَيْدُ مِنْهَا مَوْهِنَا مُشْرِقًا بَيْنَ "حِرَاءٍ" وَ"قُبَا"
 سَاطِعًا يَغْمُرُ آفَاقَ الدُّنَا بَاهِرَ الْحُسْنِ يَرُوعُ الْغَيْهَبَا

فَاضَ يَهْدِي فِي طَرِيقِ مَوْكِبَا
 يَتَلَلَا فِي الْقَلَا كَالشُّهْبَا

سَالَتِ الْبَيْدُ بِهِ مَمْطَخِبَا
جَائِشًا فَوْقَ وَهَادٍ وَرُبَا

فِيَّانَهُ لَمَّا تَمَنَّى الْفَجْرَ وَالنُّورَ فِي لَيْلَتِهِ ، حَلَمَ بِهِ عِنْدَمَا
أَغْفَى بَعْدَ أَنْ هَدَّهَ التَّعَبُ وَأَعْيَتَهُ الْهَمُومُ ، فَأَبْصَرَ فِي مَنَامِهِ
نُورًا سَاطِعًا أَشْرَقَ عَلَى أُمَّتِهِ شَرْقَهَا وَغَرْبَهَا ، نُورَ سَطَعَ مِنْ
صَحْرَاءِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، مَشْرِقًا بَيْنَ حِرَاءِ وَقُبَا غَمْرِ الدُّنْيَا
بِالنُّورِ وَالْهُدَايَةِ ، وَالشَّاعِرِ يَقْدُمُ نُورَ الْإِسْلَامِ الَّذِي انْتَشَرَ فِي
الْأَرْضِ وَأَخْرَجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ . ثُمَّ يَشِيرُ الشَّاعِرُ إِلَى بَعْضِ
فُصُولِ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْعَطْرَةِ ، وَإِلَى بَعْضِ صَحْبِ الرَّسُولِ الْكِرَامِ
رِضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِمُ الَّذِينَ تَحْمَلُوا عِبَاءَ النُّهُوضِ بِالْإِيمَانِ وَنَشَرُوا
وَهْدَايَةَ الْأُمَّةِ "كَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ" وَ"عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ" رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى شَبَابِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ مُسْتَنْهَضًا هِمَّتَهُمْ
وَشَاحِدًا عَزَائِمَهُمْ :
(١)

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ فِي شَتَى الْبِلَادِ

لَسْتُ أَخْتَمُّ "شَامًا" أَوْ "عِرَاقًا"

إِنَّ لِي فِيكُمْ وَإِنْ عَمَّ الْفَسَادُ

أَمَلًا أَنْ تَحْطُمُوا عَنْهَا الْوَشَاقُ

إِنَّ جَرَحَ الْعَرَبِ مُحْتَاجٌ ضَمَادًا

فَمَدِّوهُ بِدَمٍ مِنْكُمْ يُرَاقُ

فَالشَّبَابُ هُمْ أَمَلُ الْأُمَّةِ وَعِمَادُهَا الَّذِي تَرْتَكِزُ عَلَيْهِ ، وَمَتَى
اسْتَيْقِظَ الشَّبَابُ ، وَتَوَقَّأَ إِلَى الْمَجْدِ ، صَحَّتْ الْأُمَّةُ كُلُّهَا ، وَبُنَتْ
لَهَا مَجْدًا تَعْتَزُّ بِهِ ، وَتُفَاخِرُ بِهِ الْأُمَّةُ .

فَهَمُومُ الْوَطْنِ ، وَهِيَ هَمُومُ عَامَّةٍ تَجَاوَزَتْ ذَوَاتِ الشُّعْرَاءِ
ثَقَلَتْ عَلَى جَيْلِ "شُوقِي" وَ"حَافِظِ" وَ"مُحَرَّمِ" وَ"عَبْدِ الْمَطْلَبِ" ، وَ"الْكَاسِمِيِّ"
وَ"الرِّمَافِيِّ" وَ"الزُّهَاوِيِّ" ، وَ"رَفِيقِ الْمَهْدَوِيِّ" ، وَ"الشَّابِيِّ" وَأَنْدَادَهُمْ

مَمَّنْ أَرَقَّتْهُمُ مَحْنَةُ الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ فَأَرْسَلُوا زَفْرَاتِهِمُ الْحَرَى فِي
 دَجَى اللَّيْلِ ، أُنَيْنًا مَتَمَّلًا ، وَشِعْرًا يَلْهَبُونَ بِهِ قُلُوبَ الشَّبَابِ ،
 مَوْقِظِينَ فِيهَا الْعَوَاطِفَ الْوَطَنِيَّةَ الشَّرِيفَةَ . وَمِنْهُمْ «مُحَمَّدُ
 الْعَدْنَانِيُّ» الَّذِي يَرَى تَفْرُقَ الْأُمَّةَ لَيْلًا طَالَ عَلَى أَبْنَائِهَا وَيَحْلُمُ
 بِفَجْرِ جَمِيلٍ يَجْتَمِعُ فِيهِ شَتَاتُهَا :^(١)

يَا لَيْلُ طُلَّتْ عَلَى الْعُرُوبَةِ فَاَنْحَسِرُ
 إِنَّ الظَّلَامَ خُطُوبُهُ سَوْدَاءُ
 لَابَدًا مِنْ فَجْرِ يَفُومُ شَتَاتِنَا
 فِي وَحْدَةٍ لَيْلَاتُهَا أَهْوَاءُ

فَتَفَرَّقُ الْأُمَّةَ لَيْلَ ذُو ظِلَامٍ خُطُوبُهُ سَوْدَاءُ ، كَانَ مِنْ آثَارِهِ
 ضَعْفَ الْأُمَّةِ وَتَخَلُّفَهَا ، وَطَمَعُ أَعْدَائِهَا فِيهَا ، غَيْرَ أَنَّ الشَّاعِرَ
 يَحْلُمُ بِزَوَالِ لَيْلِ الْفِرْقَةِ وَالشَّتَاتِ وَأَنَّ يَعْقِبَهُ فَجْرٌ وَحْدَةٌ يَلْمُ
 شَتَاتِ الْأُمَّةِ وَيَجْبِرُ كَسُورَهَا .

و«مُحَمَّدُ غَنِيمٌ» يَبْكِي حَالَ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ
 (٢)
 فَيَقُولُ :

مَالِي وَلِلنَّجْمِ يَرَعَانِي وَأَرَعَاهُ
 أَمْسَى كِلَانَا يِعَافُ الْغَمُّضَ جَفْنَاهُ
 لِي فِيكَ يَا لَيْلُ آهَاتُ أَرَدِدُهَا
 آوَاهُ لَوْ أَجَدْتُ الْمَحْزُونَ آوَاهُ
 لَا تَحْسَبْنِي مُحِبًّا أَشْتَكِي وَمَبِيًّا
 أَهْوَنُ بِمَا فِي سَبِيلِ الْحُبِّ أَلْقَاهُ

(١) ديوان محمد العدناني ص ١٣١ .

(٢) شعر الدعوة الإسلامية في العصر الحديث ص ٦٤ .

إِنِّي تَذَكَّرْتُ وَالدُّكْرَى مُؤرِّقَةٌ
 مَجْدًا تَلِيدًا بِأَيْدِينَا أَمْعَنَاهُ
 وَيَحِ العُرُوبَةَ كَانَ الكَوْنُ مَسْرَحَهَا
 فَأَصْبَحَتْ تَتَوَارَى فِي زَوَايَاهُ
 أَنَّى اتَّجَهْتَ إِلَى الإِسْلَامِ فِي بَلَدٍ
 تَجْدُهُ كَالطَّيْرِ مَقْمُومًا جَنَاحَاهُ
 كَمْ مَرَّفَتْنَا يَدًا كُنَّا نَمَرِّفُهَا
 وَبَاتَ يَحْكُمُنَا شَعْبٌ مَلَكَانَاهُ

النَّجْمُ وَالشَّاعِرُ كِلَاهُمَا يَرَعَى الآخَرَ ، وَكِلَاهُمَا يَعَافُ الغَمَضَ
 جَفْنَهُ وَبِهَذِهِ الصُّورَةَ يَعْبِّرُ الشَّاعِرُ عَنِ امْرَيْنِ ؛ الأولُ أَنَّهُ سَاهِرٌ
 مَهْمُومٌ لِأَنَّهُ يَرَعَى النَّجْمَ فِي لَيْلَتِهِ ، وَالأَمْرُ الثَّانِي : اللَّيْلُ طَوِيلٌ
 لِأَنَّ نَجْمَهُ لَا يَنَامُ ، وَلِلشَّاعِرِ فِي اللَّيْلِ الطَّوِيلِ آهَاتٌ يَرُدُّهَا غَيْرُ
 أَنَّهُمَا لَا تَنْفَعُ الحَزِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا السَّهْرُ وَالغَمُّ لِأَجْلِ الحَبِّ
 وَالفِرَامِ ، فَهُوَ شَيْءٌ هِينٌ فِي مَقَابِلِ مَا هَمُّ الشَّاعِرِ ، وَاسْهَرَ
 جَفْنَهُ ، وَأَطَالَ لَيْلَهُ ، وَهُوَ تَذَكَّرَ حَالَ أُمَّتِهِ الَّتِي ضَاعَتْ مِنْهَا
 أَمْجَادُهَا التَّلِيدَةُ الَّتِي حَقَّقَهَا رِجَالُهَا السَّابِقُونَ ، فَكَانَتْ
 العُرُوبَةُ سَيِّدَةَ الأَرْضِ عَلَى أَيَّامِهِمْ أَمَّا الآنَ فَأَصْبَحَتْ تَتَوَارَى فِي
 الزَّوَايَا لِضَعْفِهَا وَقِلَّةِ حِيلَةِ أبنَائِهَا ، وَالإِسْلَامُ الَّذِي كَانَ
 عَزِيزًا قَوِيًّا بِحِرَاسَةِ أبنَاءِ الأُمَّةِ السَّابِقِينَ ، بَاتَ ضَعِيفًا كَطَيْرٍ
 قُصِّتْ جَنَاحَاهُ بَعْدَ رَحِيلِهِمْ ، وَالأُمُورُ تَبَدَّلَ عَهْدُهَا فَأَصْبَحَ يُمَرِّفُ
 أُمُورَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَيْدٍ كَانَتْ تَعَابَهَا وَتَرَهَّبَهَا ، وَبَاتَ يَحْكُمُهَا
 شُعُوبٌ كَانَتْ تَحْكُمُهَا وَتَسِيرُ أُمُورَهَا ، ثُمَّ يَبِينُ الشَّاعِرُ أَنَّ عِزَّةَ
 هَذِهِ الأُمَّةِ فِي تَمَسُّكِهَا بِدِينِهَا :
 (١)

يَا مَنْ رَأَى عُمَرًا تَكْسُوهُ بُرْدَتُهُ
 وَالزَّيْتُ أَدَمَ لَهُ وَالكَوْخُ مَأْوَاهُ
 يَهْتَزُّ كِمَسْرَى عَلَى كُرْسِيِّهِ فَرَقَا
 مِنْ بَأْسِهِ وَمُلُوكُ الرُّومِ تَخْشَاهُ
 هِيَ الْحَنِيفِيَّةُ عَيْنُ اللَّهِ تَكَلُّوْهَا
 فَكَلَّمَا حَاوَلُوا تَشْوِيْهَهَا شَاهُوا

فَعُمَرُ مَاحِبُ الْبُرْدَةِ ، الَّذِي إِدَامَهُ الزَّيْتُ ، وَسَاكِنُ الْكَوْخِ
 كَانَ يَخَافُهُ جَبَابِرَةُ الْأُمَّمِ لِأَنَّهُ مُسْلِمٌ صَادِقٌ ، فَلَيْسَ الْعَزَّ بِاللَّبِيسِ
 أَوْ بِنُوعِ الْأَكْلِ وَإِنَّمَا عَزُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِإِسْلَامِهَا فَمَتَى تَرَكْتَ شَيْئًا
 مِنْ أُمُورِهِ ضَعُفَتْ وَهَانَتْ عَلَى الْأُمَّمِ الْآخَرَى ، وَهَذَا مَا هَمَّ الشَّاعِرُ
 وَأَطَالَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ .

(١)

وفى قصيدة "نحن في لبنان" يقول "الخط المغير" :

طَلَّتْ يَا لَيْلِي أَوْ لَمْ تَطُلْ
 مِثْلَكَ الْفَجْرُ الَّذِي سَوْفَ يَلِي
 أَيُّهَا اللَّيْلُ اسْتَطِلْ مَعَهَا تَشَا
 وَتَحَكَّمْ يَا كَرِي فِي الْمَقَلِ
 مَا يُفِيدُ النُّورُ فِي إِشْرَاقِهِ
 إِنْ يَكُنْ أُطْفِئْ نَوْرَ الْأَمَلِ
 أَنَا مَعَهَا تَطْرُدِ الشَّمْسُ الدُّجَى
 لَا تَزَلْ نَفْسِي بِلَيْلِ الْيَلِ
 أَعْشَقُ اللَّيْلَ وَمَالِي وَالْفُحَى
 عَشْتُ يَا لَيْلُ : أَلَا فَا نَسَدِلِ

اِنْسِدِلْ تَحَجُّبًا عَنِ الطَّرْفِ الشَّقَا
 يَا لَطَرْفٍ بِالشَّقَا مُكْتَحِلٍ
 لَا يَرَى ، إِذْ تَطَلَّعُ الشَّمْسُ سِوَى
 سَائِلٍ أَوْ عَاجِزٍ أَوْ وَكِلٍ
 عَمَقَ الْفَقْرِ بِهِمْ ، فَانْتَشَرُوا
 كَانَتْ شَارِ الوَابِيَةِ الْمُسْتَفْجِلِ
 يَلْهَمُونَ الْعُشْبَ مِنْ جُوعِهِمْ
 وَيَحْتَمُّ مَا تَرَكَوا لِلْهَمَلِ ؟
 بِجُسُومٍ هَزَلٍ ، تَحْمِلُهَا
 بَعِيَاءٌ وَاهِيَاتُ الْأَرْجُلِ
 وَوُجُوهِ ، كَتَبَ الْمَوْتُ عَلَى
 مَفْحَتَيْهَا : هَذِهِ الْأَوْجُهُ لِي
 مَدَقَ الْمَوْتُ بِمَا قَدْ قَالَهُ
 مَا تَرَى أَشْلَاءَهُمْ فِي السَّبِيلِ ؟

"الاخلط الصغير" يُبْرِزُ هُمُومَهُ وَمَوَاجِعَهُ لِمَا يَرَاهُ مِنْ حَالِ
 النَّاسِ فِي لَبْنَانَ مِنْ خِلَالِ اسْتِخْدَامِ اللَّيْلِ كَعَنْصَرٍ يَارِزُ مِنْ عُنَاوِرِ
 الصُّورَةِ الْفَنِّيَّةِ ، فَيَبْدَأُ النَّصَّ مَخَاطَبًا اللَّيْلِ "ظَلَّتْ يَا لَيْلِي أَوْ
 لَمْ تَطَلْ" فَلَا فَرْقَ بَيْنَ طَوْلِ اللَّيْلِ وَقِصْرِهِ ، فَحَالِ النَّاسِ لِاتْتَفِيرِ
 فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، فَلْيَطَلِ اللَّيْلُ كَيْفَمَا شَاءَ وَلْيَتَحَكَّمِ الْكُرَى فِي
 الْمَقْلِ ، وَلَا فَائِدَةَ فِي إِشْرَاقِ النَّوْرِ ، لِأَنَّ الْأَمَلَ قَدْ انْطَفَأَ فِي
 النَّفْسِ ، وَالشَّاعِرُ يَرَى اللَّيْلَ مُسْتَمِرًّا فِي نَفْسِهِ لَا يَنْتَهِي ، إِلَّا
 بِانْتِهَاءِ مَحَنِ قَوْمِهِ وَمَمَائِبِهِمْ ، وَلَكِنَّهُ يَتَحَوَّلُ إِلَى عَاشِقٍ لِلَّيْلِ
 مَعْرِضًا عَنِ النَّهَارِ ، فَيَدْعُو لِلَّيْلِ بِطَوْلِ الْعَمْرِ ، وَيَتَمَنَّى
 اسْتِمْرَارَهُ وَانْسِدَالَ حَجَبِهِ ، وَهَذِهِ الصُّورَةُ مِنْ الصُّورِ الْمُمَيِّزَةِ
 لِلَّيْلِ الْمَهْمُومِينَ . فَالشَّاعِرُ يَعِشُقُ اللَّيْلَ ، وَيَأْنَسُ إِلَى ظِلَامِهِ ،

لأنه يحجب عنه رؤية ما يدمي فؤاده ، ويشغل خاطره ، من مناظر
النَّاس الذين عصف بهم الفقر والحاجة والمرض ، فغدوا يأكلون
العشب من جوعهم ، وأجسامهم هزيلة تحملها أرجل واهيات ،
والموت قد كتب على صفحات وجوههم "هذه الأوجه لي" ، والشاعر
لا يودُّ رؤية هذه المناظر لما تُحدِثه في نفسه من ألم وحسرة
ولذلك تمنى استمرار الليل وطول عمره ، وأعرض عن النَّهار
الذي يكشف له تلك المناظر التي يهرب من رؤيتها . وإذا كان
"الأخطل الصغير" لا يرى مواجع النَّاس في الليل في لبنان ،
ويطلب من الليل أن يستمر حتى يسترها عنه ، فان "إبراهيم
ناجي" يحدِّق فيها من خلال الظلام في مصر ويصوِّرها بقوله :^(١)

كَأَنَّ عَلَى مَمَرٍ ظَلَامًا مُعَلَّقًا

بِأَخْرَ مِنْ خَابِي الْمَقَادِيرِ مُرَبِدٍ
رُكُودٌ وَإِبْهَامٌ وَصَمْتٌ وَوَحْشَةٌ
وَقَدْ لَقَّهَا الْغَيْبُ الْمَحْجَبُ فِي بُرْدٍ
أَهَذَا الرَّبِيعِ الْفَخْمُ وَالْجَنَّةُ الَّتِي
أَكَادُ بِهَا أَسْتَأْفُ رَائِحَةَ الْخُلْدِ
تَمِيرُ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ وَلَقَّهَا
بِجُنْحٍ مِنَ الْأَحْلَامِ وَالصَّمْتِ مُمْتَدِّ
مَبَاءَةَ خَمَارٍ وَحَانُوتٍ بَائِعٍ
شَقِيٍّ الْأَمَانِي يَشْتَرِي الرِّزْقَ بِالسُّهْدِ
وَقَدْ وَقَفَ الْمِمْبَاحُ وَقْفَةً حَارِسٍ
رَقِيبٍ عَلَى الْأَسْرَارِ دَاعٍ إِلَى الْجِدِّ

كَانَ تَقِيًّا غَارِقًا فِي عِبَادَةٍ
 يَمُومُ الدُّجَى أَوْ يَقَطَعُ اللَّيْلَ فِي الزُّهْدِ
 فَيَحَارِسُ الْأَخْلَاقَ فِي الْحَيِّ نَائِمٌ
 قَضَى يَوْمَهُ فِي حَوْمَةِ الْبُؤْسِ يَسْتَجِدِّي
 وَسَادَتُهُ الْأَحْجَارُ وَالْمَفْجَعُ الثَّرَى
 وَيَفْتَرِشُ الْإَفْرِيزَ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ
 مَتَى يَنْجَلِي هَذَا الضَّنَى عَنْ مَسَالِكِ
 مَرْنَقَةٍ بِالْجُوعِ وَالْمَبْرِ وَالْكَدِّ
 يَنْقَبُ كَلْبٌ فِي الْحُطَامِ وَرَبَّمَا
 رَعَى اللَّيْلَ هَرُّ سَاهِرٌ وَغَفَا الْجُنْدِي
 أَيَا مَصْرُ مَا فِيكَ الْعَشِيَّةَ سَامِرٌ
 وَلَا فِيكَ مِنْ مُمْغٍ لِشَاعِرِكِ الْفَرْدِ

ظلامان متملان بعضهم بعض يخيمان على مصر ، الأول ظلام
 الليل والثاني ظلام المقادير المخبأة لها ، فعلى البلاد
 ركود وإبهام وصمت ووحشة وما يراه الشاعر في النهار من ربيع
 زاه وجنان مورقة ، لا يجده بالليل إذا امتد الظلام وستر
 الكون بأستاره فلا يرى إلا بعض الأشقياء الذين أضعوا الليل
 سكرًا ، وبعض الباعة الذين يشترون الرزق بالسهد ، ويصور
 الشاعر حال ممباح يقف وقفة حارس في أحد الأحياء ، وكأنه
 عابد غارق في عبادته ، ثم يلمح الشاعر فقيرًا نائمًا قضى
 يومه مستجدياً ولم يجد مكاناً يأوي إليه فاضطجع على الثرى
 وتوسد الأحجار ، وهو مثال لكثيرين مما دعا الشاعر إلى أن
 يتساءل متى ينجلي الضنى عن دروب مصر المليئة بالجوعى
 الصابرين الكادحين ؟

ثمَّ يكمل الشاعر جزئيات الصورة لتلك الليلة ، فهناك
 كلب ينقب في المخلفات عمّا يسدّ به جوعه ، وهرّ ساهر يرمى
 الليل في الوقت الذي غفا فيه من يجب أن يكون يقظاً في
 ليلته وهو الجندي .

فلم يعد من يُمفي إلى الشاعر المتفرد ، فالمعربدون
 مشغولون بلهوهم وسكرهم ، وطالبو الرزق مهتمون بتجارتهم ،
 والكادحون توسدوا الأحجار وناموا ، والجندي الذي هو رمز
 السلطة أو الحكومة يغطّ في سبات عميق ، فليس هناك من يمفي
 إلى الشاعر .

ويقول الشاعر اليمني "أحمد محمد الشامي" (١) :

عَمَّ الظَّلَامُ فَكُلُّ شَيْءٍ	م	مُرْعَبٌ ، وَالِاتِقُ حَاكٍ
لَانْجَمَ ، لَامْصَبَاحٍ .. لَا		خَرَّيْتَ يَكْتَنُهُ الْمَسَالِكُ
وَالْفَجْرُ يَنْدُبُهُ الْيَتَا	م	مَى بَيْنَ مَسْئُولٍ وَهَالِكٍ
لَا شِعْرَ لَا أَلْحَانَ ، لَا		ذِكْرِي ، فَهَلْ نَأْسَى لِذِكِّكَ ؟
نَحْنُ الرَّعَايَا وَالْعَبِيدُ		لِكُلِّ مُغْتَمِبٍ وَمَالِكٍ

فلاستبداد بالنّاس شيءٌ مقيتٌ يُمسي كالليل في عيون

الشعراء على نحو ما يقول الشاعر العراقي "هلال ناجي" (٢) :

وَأَنْ يَطُلَ لَيْلٌ بِدِجَلِهِ	الْفَجْرُ آتٍ يَا عِرَاقُ
وَأَمَدٌ فِي الظُّلُمَاتِ مُقْلَهُ	مَا زِلْتُ أُنْمِضُ مُقْلَهُ
وَتَظَلُّ تَرْتَقِبُ الْإِهْلَهُ	تَجْتَابُ أَسْتَارَ الدُّجَى
فَشَعْبُنَا يَا أَبَى الْمَذَلَّةِ	حَاشَا لِشَعْبِكَ أَنْ يَذِلَّ
خَرُّ فَجْرٍ يَوْمَ مَا أَجَلَهُ	لِكِنَّهَا الْأَقْدَارُ تَذُ
طَمَسَ الطُّغَاةُ هَدِيرَ دِجَلِهِ	فَاحْمِلْ سَلَاحَكَ لَا تَقْلُ

(١) اطياف ص ١٠١ .

(٢) ديوان الفجر آت ياعراق ص ١٥ .

ومع أَنَّ الشَّاعِرَ يَرَى العِرَاقَ يَعيِشُ في لَيلٍ مَظْلَمٍ طَوِيلٍ إِلاَّ
 أَنَّ الأَمَلَ في فِجْرِ مَشرِقٍ يَخْلَمُهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ لايَفَارِقُ خيَالَهُ ، فَهُوَ
 يَحلمُ بِهِ دَائِماً يَمُدُّ نَظْرَهُ في الظُّلُمَاتِ ، مَرْتَقِباً هَلالاً يَرفَعُ عَن
 صَدْرِ العِرَاقِ هَذَا اللَّيْلَ الجَاشِمِ فَشَعَبَ العِرَاقِ لايذِلُّ وَيأبى
 المَذَلَّةَ لَكِنَّ الأَقْدَارَ أَقْوَى مِنْهُ وَمَعَ هَذَا فَهِيَ تَذخِرُ فِجْرَ يَوْمٍ
 جَميلٍ يَعمَلُ بِذَلِكَ اللَّيْلَ الغَاشِمِ ، وَلايكونُ ذَلِكَ إِلاَّ بِأَنَّ يَحْمِلُ
 الشَّعْبَ سِلاحَهُ وَيَقِفُ في وَجهِ الطَّغَاةِ ، وَيَزَلْزَلُ مَوَاقِعَ أَقْدَامِهِمْ
 وَيَزِيلُ مِنَ الوجودِ ذَلِكَ اللَّيْلَ الأَسودَ الجَاشِمِ عَلى صَدْرِ العِرَاقِ
 وَاهلِهِ ، وَيَكُورُ "هَلالِ نَاجِي" هَذَا المَعنى في قَوْلِهِ :
 (١)

إِنْ طَالَ يَاجِفُنِي	كَيْلٌ عَلى أَرَفِينَا
فَاللَّيْلُ يانَجِمَتِي	يَهْزِمُهُ مَبْحُنَا

الاستعمار :

والاستعمار ليل جثم على أجزاء غالية من الوطن العربي
في فترات زمنية ممتدّة قال «صالح الشرنوبى» ممثلاً وجدان الشعب
(١)
المصري عام ١٩٤٧ م :

أَسْبَقِي الشَّمْسَ كَالشُّعَاعِ وَتُوبَاً
وَاسْأَلِيهَا يَا أُخْتَهَا أَنْ تَشُوبَا
طَالَ هَذَا الدُّجَى عَلَيْنَا وَحَالَتْ
ضِحْكَاتُ الْحَيَاةِ فِينَا نَعِيبَا
كُلُّ لَيْلٍ لَابُدَّ يَعْقُبُهُ الْفَجْرُ
رُفْلَاتَا خُذِي الْحَيَاةَ قُطُوبَا
وَأَنْسَخِي ظُلْمَةَ الْمَقَادِيرِ فَجْرًا
رَائِعَ النُّورِ سَاحِرًا مَوْهُوبَا
وَدَعِي الثَّيْلَ ذَلِكَ الصَّامِتَ الشَّرَّ
شَارَ يَمْرُحَ عَلَى الصُّفَافِ طُرُوبَا

فلاستعمار ليل دجا على أرض مصر ، وأحال ضحكات الحياة
إلى نعيب وبكاء ، ولكن الليل مهما امتدّ لابدّ وأن يعقبه فجر
جميل بخروج المستعمر ورحيله ، ومتى نالت البلاد حرّيتها
وعادت إليها كرامتها كان ذلك "فجرًا رائع النور ساحرًا
موهوبًا" ولا يتحقق ذلك إلا بإرادة الشعوب التي امتدّت إلى
أوطانها ليل الاستعمار كما يقول الشاعر التونسي "أبو القاسم
الشّابّي" (٢) :

(١) ديوان صالح الشرنوبى ص ٣٩٩ .
(٢) أبو القاسم الشّابّي ص ١٩ .

إِذَا الشَّعْبُ يَوْمًا أَرَادَ الْحَيَاةَ
فَلَابُدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ الْقَدْرَ
وَلَابُدَّ لِلَّيْلِ أَنْ يَنْجَلِي
وَلَابُدَّ لِلْقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِرَ

ارادة الشعوب الصادقة والمتعطشة إلى الحرية والاستقلال

تمنع المعجزات وتكسر القيود وتجلو ليل الاستعمار عن

أوطانها أو كما يقول "أبو القاسم" في نص آخر :
(١)

الْفَجْرُ يَسْطَعُ بَعْدَ الدُّجَى	م	س ، وَيَأْتِي الضِّيَاءُ
وَيَرْقُدُ اللَّيْلُ قَسْرًا		عَلَى مِهَادِ الْعَفَاءِ
وَالشُّعُوبُ حَيَاةٌ		حَيْنًا وَحَيْنًا فَنَاءُ
وَالْيَأْسُ مَوْتٌُ وَلَكِنْ		مَوْتٌُ يُثِيرُ الشَّقَاءَ
وَالجِدُّ للشُّعْبِ رُوحٌ		تُوجِي إِلَيْهِ الْهَنَاءُ

جِدُّ الشعوب روح توجي إليه الهناء ، واليأس موت يثير
فيه الشقاء فمتى جدت الشعوب إلى حريتها سطع لها الفجر
الجميل وأتى إليها الضياء الذي يُمَكِّلُ حُرِيَّتَهَا ورقد الليل
الذي يمثل الاستعمار قسراً على مهاد الزوال والهلاك .

ولقد كانت "فلسطين" وما زالت جرحاً دامياً في قلب كل
عربي ولقد أخذت القفية الفلسطينية قسماً كبيراً من اهتمام
شعراء العصر الحديث ، ويهمننا في هذا السياق مشاعر بعض
الشعراء نحوها من خلال استخدام الليل عنصراً من عناصر
المورة الغنّية من نحو قول "عبد الله الطيّب"^(٢) :

(١) السابق ص ٧٧ .
(٢) ديوان أصداء النيل ص ١٧٥ .

مَبَالُ هَمِّكَ جُنَحَ اللَّيْلِ مُنْتَابَا .
 أَمْ مَا لِدَمْعِكَ لَا يَنْفَكُ مَبَابَا
 أَمَا تَسَلَّى بِكَأْسٍ مِنْ مُعْتَقَةٍ
 مَفْرَاءَ قَدْ حُبِسَتْ فِي الدَّنِّ أَحْقَابَا
 وَكَيْفَ يَسْلُو أَخُوهُمْ تُوْرُقُهُ
 لَوَاعِجُ الِهَمِّ لِاتْلُوهُ إِهَابَا
 فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ إِخْوَانُ أَلَمَ بِهِمْ
 صَرْفُ الزَّمَانِ فَأَنْحَى الظُّفْرَ وَالنَّابَا
 مُشَرَّدِينَ بِأَفَاقٍ رَجَاؤُهُمْ
 دَاجٍ أَلَا حَ جَبِينُ الشَّمْسِ أَمْ غَابَا
 كَمْ فِي فِلَسْطِينَ مَوْتَوْرٌ وَشَاكِلَةٌ
 وَيَأْتِسُ شَكَّ فِي الرَّحْمَانِ وَارْتَابَا
 الدُّورُ صَارَتْ لِاسْرَائِيلَ خَالِمَةً
 وَالْمَالُ غُودَرَ أَنْقَالًا وَأَسْلَابَا
 وَأَصْبَحَ الْقَوْمُ فِي دَهْيَاءَ جَانِحَةٍ
 يُفْغَالِبُونَ مِنْ الْاِقْتِدَارِ غَلَابَا
 الِهَمُّ يَنْتَابُ الشَّاعِرَ مَعَ اللَّيْلِ فَيُسْهِرُ عَيْنَهُ وَيُبْكِيهَا ،
 وَلَا يَجِدُ سَلْوَةَ فِي أَيِّ شَيْءٍ ، وَالْهَمُّومُ تَمَاحِبُهُ ، وَتَقْضُ مَضْجَعَهُ ،
 وَهَمُّومُهُ لِإِخْوَتِهِ فِي الدِّينِ وَالِدَّمِّ أَبْنَاءَ فِلَسْطِينَ الْمَشْرَدِينَ غَرْبًا
 وَشَرْقًا فِي الْاِفَاقِ وَالْاِقْطَارِ ، وَمَنْ بَقِيَ فِيهَا فَهُوَ إِمَّا مَوْتَوْرٌ أَوْ
 شَاكِلٌ بَعْدَ أَنْ اِعْتَدَى الْيَهُودَ عَلَى أَرْضِهِمْ وَاغْتَصَبُوا حَقُوقَهُمْ
 وَأَمْوَالَهُمْ بِقُوَّةِ السَّلَاحِ ، وَمَنْ قَصِيدَةٌ بِعَنْوَانِ "فِلَسْطِينَ فِي لَيْلِ
 الْاِسْتِعْمَارِ" يَقُولُ "أَمْحَدُ بِهَجَةِ الْاَثْرِيِّ" :
 (١)

ياليلُ .. هل لبياض الصُّبحِ ايماءُ ؟
 سُمِّرَتَ ؟ أَمْ ذَهَبَتْ بِالصُّبْحِ عَنقَاءُ ؟
 طَالَ اشْتِيَاقِي إِلَى الْأَضْوَاءِ أَلْمَحُّهَا
 وَأَيْنَ مَنْ بَمَرِي لِلصُّبْحِ أَضْوَاءُ ؟
 زُلُّ يَظْلَامٌ عَنِ الْأَحْدَاقِ مَبْتَعِدًا
 قُرْبُ الْبَغِيضِ لِمَنْ لَمْ يَهْوَهُ دَاءُ
 ياليلُ .. حَاكَتْ أَدِيمًا رَاعَ أَسْحَمَهُ
 طَوِيَّةٌ مِنْكَ رَشَّتْ وَهِيَ سَحْمَاءُ
 يَامْنَبَعِ اللُّؤْمِ وَالْأَرْجَاسِ مَا خَبِثَتْ
 إِلَّا بِأَفْعَالِكِ الْبَيْضِ الْأَرْقَاءُ ؟

الشاعر يمثل الاستعمار بالليل ويخاطبه بقوله ياليل .. ويسأله عن موعد زواله بسؤاله عن ايماء بياض الصُّبح ، ولكنه لا يرى لبياض الصبح أشراً ، فلعلَّ الليلُ سُمِّرَ على الأرض ، أو أنَّ الصُّبحَ ذهبَ به العنقاء ، والعنقاء طير وهمي ويقال في الأمثال لما يكس منه "حلقت به العنقاء" ، وطال شوق الشاعر إلى الأضواء لكنّه لم يرها ، والفجر والأضواء من رموز الحرية وزوال عهد الاستعمار ، ويقابلها الليل أو الظلام والذي رمز الشاعر به للاستعمار فهو يطلب من الظلام أن يزول من الوجود لأنّه يكرهه وقرب من لاتوده النفس داء .

ويستمر "الأثري" في قصيدته السابقة مخاطباً الاستعمار

(١)

في صورة الليل :

ياليلُ .. ياغادراً غثتْ سِريرتهُ
 وللحقودِ بها سيرٌ وإرساءُ

كَمْ لَدَا خَلْفَكَ بِالْأَسْتَارِ مُحْتَجِبًا
 بغى، وغدر، وبغضاء، وشحناء
 تَأْوِي إِلَيْكَ الرَّزَايَا مِثْلَمَا انْكَفَأَتْ
 إِلَى الْمَوَاقِيرِ شَذَادٌ وَغَوَاةٌ
 مَتَى أَحْسَنَ لِبُومٍ خَفَقَ أَجْنَحَةً
 عَلَى سِوَاكَ ، وَنَدَّتْ مِنْهُ فُؤَادٌ ؟
 وَهَلْ سَرَتْ مِنْ خَشَائِشِ الْأَرْضِ سَارِيَةً
 إِلَّا إِذَا غَمَرَ الْأَكْوَانَ إِيمَاءٌ ؟
 كَمْ فِي حَوَاشِيكَ مِنْ رِقَطَاءِ سَارِيَةٍ
 لَوْلَاكَ دَيْسَتْ فَاضَحَتْ وَهِيَ أَشْلَاءُ
 تَلُوذُ مِنْكَ بِأَكْنَافِ مُنْتَعَةٍ
 وَسُمُّهَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ مَشَاءُ
 أَمِخْ إِلَى الْوَطَنِ الْمَرْزُوءِ أَهْلُهُ
 فَتَمَّ مِنْهُ مَنَاحَاتٌ وَأَمْدَاءُ
 هُنَا دَمٌ لِلشَّبَابِ الْحُرِّ مَقْطَرَمٌ
 عَلَى الشَّرَى وَهُنَا دَمْعٌ وَلَاوَاءُ
 لَوْلَاكَ يَا لَيْلُ ، لَمْ تَفْزَعِ أَوَانِسُهُ
 وَلا جَفَا أَقْقَاهُ الْوَضَّاحَ لِأَلَاءُ
 رَأَيْتُ عَلَى جَوْهٍ ظَلَمَّاكَ عَاكِفَةً
 وَالظُّلْمَ حَسْبُ بِلَادِي مِنْكَ ظَلْمَاءُ
 فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ شَرٌّ يَجِيئُ بِهَا
 مِمَّا تَحُوكِ ، وَأَحْدَاثُ ، وَأَرْزَاءُ
 اللَّيْلِ غَادِرٌ فَسُدَّتْ سَرِيرَتَهُ ، يَسْتَرُ بَيْنَ جَوَانِحِهِ الْبَغْيِ
 وَالغَدْرِ وَاللُّؤْمُ وَالْعَدَاوَةَ ... يَحْمِلُ لَهُ الشَّاعِرُ أَقْصَى دَرَجَاتِ
 الْكِرَاهِيَةِ وَالْبَغْضِ حَالِمًا بِزَوَالِهِ وَذَهَابِهِ ، وَالشَّاعِرُ يَرْمِزُ

بالليل للاستعمار ، وإنّما مثّل له بالليل وخاطبه في صورته لأنّ الليل كما يرى الشاعر يستر حشرات الأرض التي تسري تحت أستاره وتسعى إلى أذى النَّاس ، ولولا ستر الليل لها لديست تلك الهوام وغدت أشلاء مبعثرة ، لكن الليل يؤمّن لها الحماية والستر حتى عثت في الأرض وأصبح سمها يمشي في قلوب النَّاس .

فالليل هو الاستعمار والحشرات والهوام التي يحميها هي العمابات اليهودية التي آذت العرب في فلسطين ، ويصف الشاعر أرض الوطن طالباً من الاستعمار أن يصيح السمع إلى مناحات النَّاس ، وأصداء مصائبهم وأرزائهم ، قدم الشباب الحر يغسل وجه الأرض ، ودموع النَّاس لاتجف ، والأمراض سارية فيهم ، ولولا الليل مافزعت أوانس الوطن ، ولاجفا النور جبينه الوضاح ، فقد انتشر الظلام والظلم على يد الاستعمار ففي كل ناحية شر يجيش بالوطن ، وأحداث وأرزاء ، مما يحوك له الاستعمار . فالليل بظلامه ورهبته ، وبما يستر في جوفه من حشرات وهوام تسعى إلى أذية النَّاس ، هو الذي جعل "الاشري" وغيره من الشعراء يصورون الاستعمار في صورته .

ولقد ظفرت "فلسطين" أكثر من غيرها من الاقطار العربية بكثير من مواجع الشعراء ، حيث صورها بصور أليمة مفاجئة كان الليل عنصراً أساسياً فيها وقد سقّت في النصفحات السابقة أمثلة لها . ومن هؤلاء الشعراء "أحمد محرم" الذي يمزج مواجده بعاطفة دينية مميزة يقول :
(١)

أَتَبَيْتُ أُولَى الْقِبْلَتَيْنِ حَزِينَةً

وَأَبَيْتُ وَسْطَانَ الْجُفُونِ مُنَعَّمًا ؟

فالشاعر المسلم يعزّ عليه أن يبیت الليل منعمًا ،
والمسجد الاقصى قبله المسلمين الاولى ينوء بافعال اليهود
وجرائمهم .

ومن خلال هذه السياحة في ربوع بعض الاقطار العربية

ندرك :

(١) أن الشاعر كان ضمير أمته الذي تنبّه لمواجهها ، ونبه

إلى مواضع الفقد فيها ، من خلال الليل وهو عنصر مشترك

في جميع الصور التي تناولها هذا المبحث .

(٢) كما ندرك أيضاً أن رقعة الليل انداحت وترامت آفاقها ،

وصار الليل رمزاً معنويّاً لأشياء كثيرة غير ماكان عليه

الحال قبل العصر الحديث ، وذلك يعود بطبيعة الحال

إلى ثقافة الشاعر وإلى تغير ظروف البيئة .

الحروب :

والحروب من الهموم الإنسانية التي اهتم بها الشاعر العربي وكشف بعضهم عن سمره وأرقه لأجلها ، فعندما شبت نار الحرب العالمية الأولى ، وشاعت الأخبار بومف ويلاتهما وأرزائهما اهتم الشاعر العربي "علي الجارم" لما يصيب الإنسانية في سبيل أطماعها فأنشأ يقول :^(١)

مَنْ سَلَبَ الْأَعْيُنَ أَنْ تَهَجَّعَا ؟
 وَبَزَّ ذَاتَ الطَّوْقِ أَنْ تَسْجَعَا ؟
 وَمَنْ رَمَى بِالشُّوكِ فِي مَفْجَعِي
 فَبِتُّ مَكْلُومَ الْحَشَا مُوجَّعَا ؟
 رَوَّعَنِي وَاللَّيْلُ فِي زِيِّي
 مِنْ مُرْجِفَاتِ الْخَطْبِ مَارَوْعَا
 طَاحَتْ بِأَهْلِ الْغَرْبِ نَارُ الْوَعَى
 وَهَبَّتْ الرِّيحُ بِهِمْ زَعَزَعَا
 طَافَ عَلَيْهِمُ بِالرَّدَى طَائِفُ
 فَاخْتَرَمَ الْأَنْفُسَ لَمَّا سَعَى
 وَمَا حَ فِيهِمْ لِلتَّوَى مَائِحُ
 قَصَمَّتِ الْأَسْمَاعُ مِذَّ أَسْمَعَا
 فِي الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ وَمِنْ فَوْقِهِمْ
 لَمْ يَتْرِكِ الْمَوْتُ لَهُمْ مَوْضِعَا
 يَجْمَعُهُمْ جَبَّارُهُمْ عِنْوَةً
 وَإِنَّمَا لِلْمَوْتِ مَنْ جَمَعَا

(١) ديوان علي الجارم ص ٢٤٦ .

يَحْسُو دَمَ الْقَتْلِ ، فَأَظْمِيءُ بِهِ
وَيَنْهَشُ اللَّحْمَ ، فَمَا أَجْشَعَا

يموّر الشاعر حاله بالليل وهو ساهر مغموم لا يغمض له
جفن وكانّ الشوك في مضعه ، وسبب ذلك ماروعه من أخبار
الحرب العالمية الأولى فاهتمّ لما أصاب أهلها ، فقد اهلكت
الحرب أهلها وشتتت الناس وشردتهم ، والموت يتخطفهم في كل
حين ، والهلاك يسري فيهم ، وقد جاءهم من كل مكان من البر
والبحر والجو ، وقادتهم يجمعونهم عنوة وقهراً للموت ، وكان
هؤلاء القادة يلذّ لهم منظر الدم المسفوح وأشلاء الجثث
المبعثرة .

أمّا الشاعر "محمد الأسمر" فيموّر بعض ما يحدث في ليالي
الحرب في العصر الحديث ، قال يصف طائرة مغيرة في الليل
وقد حاصرتها الأشعة الكاشفة :^(١)

وجالت في دياجره عقابا	وطائرة سرت في الليل تسعى
كمثل البرق يخترق السحابا	فخف لها ولاحقها شعاع
وقد من النهار لها إهابا	أحاط بها فالبسها ضياء
فما تدرى المجيء ولا الذهابا	وباتت وهي بين الفؤء حيرى
راى من أمرها عجباً عجابا	فمن يرها به والليل داغ
فمادت وهي تنسجها ذبابا	كانّ عناكباً نسجت خيوطاً

الطائرة أغارت ليلاً ، وسلط عليها الشعاع الكاشف ،
ويموّرها الشاعر بصورة طريفة فهي في الليل إذا سلطت عليها
الأشعة كأنها ذبابة وقعت في بيت عنكبوت . وفي ليالي
الغارات تطلق أجهزة الدفاع صفارات قوية للإنذار تحذّر الناس

(١) ديوان محمد الأسمر ص ١٤٥ .

(١) من الغارات ، وفيها يقول «محمد الأسمر» أيضاً :

وَنَاعِبَةٌ فِي اللَّيْلِ يَسْرِي نَعِيبُهَا
تَحْدَرُ شَرَّ الطَّائِرَاتِ وَتُنْذِرُ
نَهْمَنَا لَهَا مُسْتَيْقِظِينَ وَعَلِمَتْ
أَخَا النَّوْمِ فِيمَا عَلِمَتْ كَيْفَ يَسْهَرُ
وَنُطْفِيءُ أَوْ نُخْفِي الْمَصَابِيحَ نَتَقِي
عَوَاقِبَ بَعْضِ النُّورِ وَالنَّجْمِ يَنْظُرُ
وَلَوْ نَالَهُ مَا نَالَنَا لَمْ تَلُحْ لَهُ
مِمَابِيحُ مِثْلُ الرَّوْضِ وَهُوَ مُنَوَّرُ
وَبَاتَ كَمَا بَتْنَا عَلَى شَرِّ حَالَةٍ
نُعَانِي ظِلَامَ اللَّيْلِ وَاللَّيْلُ أَعْكَرُ
أَبَابِيلُ طَيْرِ كَالْقِلَاعِ إِذَا سَكَرَتْ
سَرَى الْمَوْتَ مِنْهَا ، مُحْرِقٌ وَمُدْمِرٌ
سَحَابٌ شَرٌّ حَامِلَاتٌ مَوَاعِقَاءً
إِذَا أَمْطَرَتْ فَالْوَيْلُ سَاعَةً تُمَطِّرُ

عندما تُغِيرُ الطَّائِرَاتُ المَعَادِيَةَ يَطْلُقُ المَرَاقِبُونَ فِي
أَجْهَزَةِ الدَّفَاعِ مَقَارَاتِ الإِنذَارِ عَلَى شَكْلِ مَغِيرِ عَالٍ مُتَقَطِّعٍ لِتَحْدَرُ
النَّاسُ شَرَّ الطَّائِرَاتِ المَغِيرَةِ ، فَيَتَجَهَّوْا إِلَى المَخَابِيءِ طَلِبَاءً
لِلْحِمَايَةِ ، غَيْرَ أَنَّ الشَّاعِرَ يَرَى هَذِهِ المَقَارَاتِ نَاعِبَةً بِاللَّيْلِ
وَنَعِيبَهَا يَسْرِي ، لِأَنَّهَا تَسْبِقُ قَدُومَ الشَّرِّ وَتُوقِظُ النَّاسَ مِنْ
مَنَامِهِمْ ، وَتَسْهَرُ أَجْفَانَهُمْ فَقَدْ عَلِمَتْ السَّهْرَ مِنْ لَإِعْرَفِهِ فِي
لَيَالِيهِ ، وَيَمُورُ الشَّاعِرُ مَا يَفْعَلُهُ النَّاسُ ، فَيَطْفِئُونَ المَصَابِيحَ
أَوْ يَخْفُونَهَا اتِّقَاءً لِلْعَوَاقِبِ ، ثُمَّ يَتَجَهَّوْنَ لِتَصْوِيرِ النُّجُومِ فِيهِ

تنظر إليهم غير مُكرثة بما يحدث ، ونورها يضيء وكأنها ورد
في روض ، ويرى الشاعر أنّ النجوم لو أصابها ما أصابهم لخفتت
أنوارها وباتت مثل من تغير عليهم الطائرات يعانون الظلام
الحالك ، ثم يصف الطائرات المفيرة فهي تغير في جماعات
تنشر الموت حرقاً وتدميراً وهي سحائب شر تحمل صواعقاً وإذا
أمطرت أمطرت بالويل والهلاك .

ويموّر الشاعر «سعد الدين فوزي» ليلة اهتم فيها لما

(١)

يميب النَّاس من شرِّ الحروب فيقول :

وقف الشَّاعِرُ والليْلَةُ مِنْ قَلْبِ الشَّتَاءِ
طَوَّفَتْ فِيهَا الرِّيحُ العُوجُ مِنْ وادي الفَنَاءِ
والمزَامِيرُ فِيهَا أَمَانِي الرُّوحِ مِنْ بَعْدِ التَّنَاءِ
والدَّجَى موكبُ أَحلامِ لأرواحِ ظَمَاءِ
ذَهَبَتْ فِي فَجَّةِ الحَرْبِ قَرَابِينِ فِدَاءِ
كَفَّنَتْ بِالظُّلْمَةِ الرَّعْنَاءِ حُلْمَ الأَبْرِيَاءِ
ومفتت لم تدرِ ما قبل وما بعد الدَّمَاءِ

.....

أَطْرَقَ الشَّاعِرُ مَشْدُوهُ الحِجَى مِمَّا يَرَاهُ
حاسرَ الرّأْسِ وَقَدْ دَقَّتْ عَلَى الأَرْضِ عَصَاهُ
حَارَ فِي الإِنْسَانِ مَاذَا يَبْتَغِي مِمَّا أَتَاهُ
كَالْفَرَّاشِ الغَرِّ يَسْعَى لِلظِّيِّ وَهُوَ رَدَاهُ
عمفتت بالنُّورِ فِي دُنْيَا الأَضَالِيلِ يَدَاهُ
وَمَشَى بِالمِعْوَلِ الهدَّامِ يَفْنِي ما بَنَاهُ
وَيَحَهُ مِنْ مَارِدٍ يُمْلِي عَلَى الدُّنْيَا هَوَاهُ

عَادَ بِالْخَيْبَةِ لَمْ يَدْرِكْ مِنْ الْبَطْشِ مَنَاهُ
لَوْ سَمَى يَوْمًا لَعَاقَتْ قَطْرَةُ الطِّينِ خُطَاهُ
وَمَضَى الشَّاعِرُ فِي صَمْتٍ وَقَدْ أَرَبَى أَسَاهُ

الليلة من ليالي الشتاء الباردة ذات ريح هوجاء
وكأنها آتية من وادي الغناء ، لها مزامير حزينة يُسمعُ في
نغماتها صوت البكاء ، والدَّجَى موكب أحلام أرواح رحلت وهي
ظماء ، ذهب قراييناً وأفدية للحروب ، فكان الظلام أكفان
أحلام الأبرياء الذين يذهبون ضحية حروب لا ذنب لهم فيها ،
أمور تدهش الشاعر فيسهر ويهتم لها ويعجب من أمر الإنسان
الذي يسعى للحرب وكأنه فراش يمضي إلى اللظى ليلقى حتفه ،
تعصف يداه بالثور ، ويهدم في ساعات ما بناه في سنين طويلة
يسعى إلى أمان خائبة بالبطش وبالقوة ولكنه لا يدرك غير
الخراب والموت ، ويظل عنصره الطيني يعوق خطى روحه للسمو
عن الاطماع والشهوات ، فيتقاتل بني آدم ، ويغني بعضهم بعضا
ويتفنون في أساليب الحرب والدمار وهلاك الإنسانية ، واهتم
«شفيق جبري» لهذا الأمر في إحدى لياليه فقال :
(١)

وَدُمُوعِي فِي اللَّيَالِي ذُلُّ	إِيهِ يَا لَيْلٍ ، فِقَلْبِي وَجِلُّ
مُقَلَّةٌ تَحْنُو عَلَيْهَا الْمُقَلُّ	فَإِذَا اللَّيْلُ سَجَا هَامَتْ بِهِ
خَطْبُهُ وَاللَّهُ خَطْبٌ جَلَلُ	مَا أُرَجِّي فِي غَدٍ ، إِنْ غَدَا
خَيْلَةُ الدُّنْبِ فَبئسَ الْحَيْلُ	حَيْلٌ تَخْتَلُ فِي جَيْئَتِهِ
وَشِبَّةٌ يَذْهَبُ فِيهَا الْحَمَلُ	يَشِبُّ الدُّنْبُ عَلَى حُمْلَانِهِ
عَبَثًا تَدْرُجُ مِنْهُ دَوْلُ	دَوْلٌ تَعَبَتْ فِي آفَاقِهَا

يَتَفَانِي الْقَوْمُ فِي عُدْوَانِهِمْ جَحْفَلٌ يُخْنِي عَلَيْهِ جَحْفَلٌ
فَإِذَا الْجَنْدُ تَلَاقَوْا فِي الْوَعَى بَدَلُوا مِنْ دَمِهِمْ مَا بَدَلُوا
فَيْسِيلُ الدَّمِّ فِي أَعْطَافِهِمْ يِرْتَوِي مِنْهُ الْقَنَا وَالْأَسْلُ
يَتَرَاءَى لَكَ فِي ضَوْفَائِهِمْ دَوْلَةٌ تَعْلُو وَأُخْرَى تَسْفَلُ
إِيهِ يَا لَيْلُ تَمَهَّلْ فِي الدُّجَى وَعَسَى أَنْ يَتِمَادَى الْمَهْلُ
لَيْسَ فِي الْفَجْرِ لَطْرَفِي أَمَلٌ أَنْتَ يَا لَيْلُ الْمُنَى وَالْأَمَلُ

مع أن الشاعر يعبر عن همومه إلا أنه يميل بعاطفة الحب والموودة تجاه الليل فيناديه ، ويشكو إليه حاله من شجو قلبه الخائف ودموعه الطيعة المنقادة . ومتى سجي الليل هامت به مقلعة الشاعر المهموم ، ويتمنى أن يدوم الليل له ، ولا يود أن يأتي النهار فخطبه خطب جلل ، فكله مماثب على الإنسانية فالدول تتحارب عبثاً ، حتى كادت تفتى . جحافل تتقاتل هنا وهناك ، بعضها يهلك بعضاً ، يبذلون دماهم رخيصة حتى سالت كالسيول ، وارتوت منها السيوف والرماح ، دول تعلو ودول تسفل ... وهذا ما يهّم الشاعر ، فيعود مرة أخرى لمناجاة الليل ويطلب منه أن يمكث ، فليس لطرف الشاعر أمل في الفجر بصلاح حال الإنسانية ، لذا غدا الليل أمله ومناه .

الآفات الاجتماعية :

واهتم بعض الشعراء لبعض الآفات الاجتماعية التي تصيب بعضاً من أفراد المجتمع كالمرض والعمى واليتيم والكوارث ... وأبانوا عن تلك الهموم من خلال استخدام الليل عنصراً من عناصر الصورة ، ومن هؤلاء "معروف الرصافي" الذي يقول في قصيدة بعنوان "الفقر والسقام" (١) :

أَيُّ مَفْنَى يَمِدُّهَا بَاكْتِنَابُ أَنَّةُ تَتْرَكَ الْحِشَا فِي التَّهَابِ
يَتَشَكَّى وَاللَّيْلُ وَحَفَّ الْإِهَابُ فَمَنْ بَيْتِ جِشَا عَلَى الْإِعْقَابِ
مَفْعَتُهُ فَمَا لَ كَفُّ الْخِرَابِ

تَسْمَعُ الْإِذْنَ مِنْهُ صَوْتًا حَزِينًا رَاجِعًا فِي حَشَا الظَّلَامِ كَمِينًا
يَمَلُّ اللَّيْلَ بِالذُّعَاءِ أَنِينًا رَبِّ كُنْ لِي عَلَى الْحَيَاةِ مُعِينًا
رَبِّ إِنَّ الْحَيَاةَ أَضْلُّ عَذَابِي

وَجَعْتُ فِي مَخَامِلِي دَقَّ عَظْمِي وَدَهَانِي وَلَمْ يَرَقْ لِعُدْمِي
عَاقَنِي عَنْ تَكْسُّبِي قَوْتَ يَوْمِي رَبِّ فَارْحَمْ فَقْرِي بِمِحَّةِ جَسْمِي
إِنْ فَقْرِي أَشَدُّ مِنْ أَوْصَابِي

بِاطْبِيبًا وَأَيْنَ مَنِّي الطَّبِيبُ حَالَ دُونَ الطَّبِيبِ فَقْرٌ عَمِيبٌ

"الرَّصَافِي" يَصَوِّرُ حَالَ رَجُلٍ فَقِيرٍ مَرِيضٍ يَتَنَزَّلُ فِي أَحْشَاءِ الظَّلَامِ أَنَّاتِ الْهَبْتِ حَشَا الشَّاعِرِ ، يَشْكِي حَالَهُ تَحْتَ الظَّلَامِ ، إِذْ يَسْكُنُ بَيْتًا قَدِيمًا يَكَادُ يَتَهَدَّمُ ، وَهُوَ رَجُلٌ مَرِيضٌ وَفَقِيرٌ لَا يَجِدُ مَا يَأْكُلُهُ أَوْ مَا يَدْفَعُهُ لَطَّبِيبٍ ثَمَنًا لِعِلَاجِهِ ، فَيَبِيتُ اللَّيْلَ رَافِعًا أَكْفَ الصَّرَاعَةِ إِلَى خَالِقِهِ "رَبِّ كُنْ لِي عَلَى الْحَيَاةِ مُعِينًا" ثُمَّ يَصَوِّرُ الشَّاعِرُ بِكَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْفَقِيرِ الْمَرِيضِ تَحْتَ أَذْيَالِ (٢) الظَّلَامِ :

(١) ديوان معروف الرصافي ص ٩٥ .

(٢) السابق ص ٩٦ .

بات يبكي إذا له الليل آوى بعيون من السهادِ نشاوى
فترى وهو بالبكا يتداوى قطراتٍ من عينه تتهاوى
كشهاب ينقض أثرَ شهابٍ

ويصور "الرّصافي" مشاعره في ليلة اهتم بها لاجل أمّ
(١)
اليتميم :

رمت مسمعي ليلاً بانة مؤلم
فالقت فؤادي بين انيابٍ مُيغم
وباتت توالي في الظلام انينها
وبت لها مرهمى بنهشة أرقم
فيهمو بقلبي صوتها مثلما هفت
بقلب فقير القوم رنة درهم
إذا بعثت لي آنة عن توجع
بعثت إليها آنة عن ترحم
تقطع في الليل الانين كأنها
تقطع احشائي بسيفٍ مثلم
يهز نياط القلب بالحزن صوتها
إذا اهتز في جوف الظلام المخيم
تردده والسمت في الليل سائد
بلحن ضئيل في الدجنة مبهم
كان نجوم الليل عند ارتجافها
تصيح إذ ذاك الانين المجمع
فما خفان النجم إلا لاجلها
وما الشهب إلا أدمع النجم ترحمي

لقد تركتني موجع القلبِ ساهراً
 أفا مَدْمَعِ جَارٍ ورأسٍ مُهَوِّمٍ
 أرى فحمةَ الظَّلماءِ عند انيحتها
 فاعجبُ منها كيف لم تتفَرِّمِ
 فاصبحتُ ظمآنَ الجفونِ إلى الكرى
 وإن كنتُ رِيَّانَ الحشا من تَأْمِي
 لجأ "الرّصافي" إلى الليل رمزاً للحزن واليتم والتكلم
 ونسج من ظلامه عباءة لام اليتيم ، عسى أن تستدرّ إشفاق النَّاسِ
 عليها ، فيكون أدعى لمواساتها والبرُّ بها .

ويبدو من تتبع الحركة الأدبية في أواسط العصر الحديث
 أنّ الجمعيات الخيرية قد كثرت كثرة ملحوظة ، وصارت تدعو
 الشعراء للإسهام بقصائدهم في ندواتها ، حتّى للنَّاسِ على
 الإحسان .

ومن عجب أنّ جمهرة من الشعراء وجدوا في الليل وظلامه
 رمزاً لتموير بؤس البائسين ، واستشارة للعطف عليهم ومن ذلك
 أيضاً مايقوله "محمد عبد المطّلب" في مناسبة كهذه :^(١)

أسألتَ باكيةً الدّياجي مالها
 أَرَقَّتْ فَأَرَقَّتْ النُّجُومَ حِيَالَهَا
 باتتْ تكفكفُ بالوقارِ مدامعاً
 غلب الآسى عبراتها فأسألتها
 تبكي إذا انقطعَ الأنيسُ لصبيةٍ
 يتضورونَ يمينها وشمالها

ويمضي الشاعر في قمة هذه المرأة المحتاجة الباكية
 المؤرّقة ، وينتهي بالحديث عن جمعية المواساة وآثارها
 الجليلة في المجتمع .

(١) في الأدب الحديث ، عمر الدسوقي ٤٠٧/٢ .

واقامتُ جمعيةً رعاية العميان بمصر سنة ١٩٣٧م حفلة
بدار الأوبرا ، لحقَّ المحسنين على مدِّ يد الإحسان للعميان ،
قال «علي الجارم»^(١) في تلك الحفلة على لسان الأعمى :

مَنْ مَجِيرِي مَنْ حَالِكَاتِ اللَّيَالِي
نُوبَ الدَّهْرِ مَالِكِنَ وَمَالِي
قَدْ طَوَّانِي الظَّلَامُ حَتَّى كَانَنِّي
فِي دَيَّاجِي الوجودِ طَيْفُ خَيَالِ
كُلُّ لَيْلٍ لَهُ زَوَالٌ وَلَيْلِي
دَقَّ أَظْنَابَهُ لِغَيْرِ زَوَالِ
كُلُّ لَيْلٍ لَهُ نَجْوَمٌ ، وَلَكِنُّ
أَيْنَ امثَالِهِنَّ مِنْ أَمْثَالِي ؟

واستقنَّ شعراء عديدون نفس السنن جاعلين من عنصر الليل
سُدَى لصورهم التي ينسجونها .

(١) ديوان علي الجارم ص ٥٥ .

الباب الثّاني

الليل والشاعر المحبّ

الفصل الأول : مشابه بين الحبيب والليل

الفصل الثّاني : ليالي الوصل .

الفصل الثّالث : ليالي الحرمان .

الفصل الرّابع : خصائص الصورة الفنّيّة في إطار البحث .

الفصل الأول

مشابه بين الحبيب والليل

أولاً : القمر ووجه الحبيب .

- (١) المساواة بين الحبيب والقمر .
- (٢) رفع منزلة الحبيب على منزلة القمر من خلال :
 - (أ) التعبير المباشر .
 - (ب) بيان عيوب القمر .
 - (ج) إبراز صفات الحبيب التي لا توجد بالقمر .
 - (د) القمر يفار من الحبيب .
- (٣) رفض المشابهة بين الحبيب والقمر .

ثانياً : سواد الليل وشعر الحبيب .

ثالثاً : النجوم والحبيب .

مشابه بين الليل والحبيب

أولاً : القمر ووجه الحبيب .

فتنَّ القمرُ الشعراءَ بجماله فرأى فيه كثير منهم المثل
لوجه الحبيب ، بياضاً واستدارة ، ولازم القمرُ أشعار المحبين
ملازمة ظاهرة ، واظنُّ أنَّ القمر ووجه الحبيب - باعتبارهما
طرفي تشبيه - هما أكثر أطراف التشبيه تلازماً ووروداً في
الشعر العربي ، فلانكاد نظفر بشاعر محباً لم يمف حبيبته
بالقمر أو بشيء من صفاته .

ولقد سار هذا التلازم في عدة اتجاهات منها :

(١) اتجاه يساوي بين القمر والحبيب في المنزلة ، أو يرفع

منزلة الحبيب إلى منزلة القمر ، قال "عنتره" (١) :

وقالَ لها البدرُ المنيرُ ألا أسفري

فإنَّك مثلي في الكمالِ وفي السعدِ

(٢)
وقال :

لعوبٌ بأبوابِ الرِّجالِ ، كأنَّها

إذا سَفَرَتْ بدرٌ بدا في المَجاسِدِ

"عنتره" يستعين بالتشبيه ليرفع منزلة فتاته إلى
منزلة القمر ، فيشَبِّهها به ، ولأنَّ المشبَّه به أعلى منزلة من
المشبَّه في المغة التي تجمعهما ، فالقمر هنا أعلى منزلة ،
وعن طريق التشبيه يحاول الشاعر إلحاق فتاته بهذه المنزلة

(١) ديوان عنتره بن شداد ص ١٣٩ .
(٢) السابق ص ٢٦ ، النجوم في الشعر العربي القديم ص ١٢٤ .

واستمر هذا الاتجاه في الشعر العربي فنجد هذه الصورة بعينها عند أغلب الشعراء ، "فالأحوص" يقول عن وجه فتاته (١) (كأنه البدر) ، و"جميل بثينة" يجعلها (كالبدر) ، وكذلك (٢) "عمر بن أبي ربيعة" . وكان الشعراء ينظرون إلى شعر بعضهم بعضاً في هذه الصورة فنجدها عند "العبّاس بن الأحنف" الذي يرى في وجه فتاته هلالاً كل يوم ، و"بشار بن برد" يجعل وجهها الأبيض وقناعها الأسود في موازاة البدر الذي يحيط به الظلام (كالبدر إذا قنعت عليها الرّداء) ، والصورة ليست جديدة عند "بشار" ، "فقيس بن الملوح" ممن سبقه إليها (قمر توسط جنح ليل أسود) . (٣) (٤) (٥) (٦)

وبعض الشعراء يدخل الحبيب إلى جنس القمر بالنداء (ياقمر الليل إذا أظلما) ، وقد يشاكل الحبيب أو طيفه القمر حتى لا يستطيع الشاعر التمييز بينهما ، يقول (٧) "البحثري" : (٨)

قَدَ اشكَلَ القَمْرُ السَّارِي عَلَيَّ فَمَا

بَيَّنْتُ طَلَعَتَهُ مِنْ طَيْفِكَ السَّارِي

(٩)

و"أبو فراس الحمداني" يجعل وجه فتاته والبدر بدرين :

وَجْهُكَ وَالبَدْرُ ، إِذَا أُبْرِزَا
لَاعَيْنِ العَالَمِ ، بَدْرَانِ

وهذه المشاكلة نجدها كذلك عند "الأرجاني" :

-
- (١) ديوان الأحوص الأنصاري ص ١٤١ .
 (٢) ديوان جميل بثينة ص ١٠٣ .
 (٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٠٣ .
 (٤) ديوان العباس بن الأحنف ص ٢٥٧ .
 (٥) ديوان بشار بن برد ١/١٤٢ .
 (٦) ديوان قيس بن الملوح ص ٩٢ .
 (٧) ديوان أبي نواس ١/٥٠٢ .
 (٨) ديوان البحثري ١/١٣٦ .
 (٩) ديوان أبي فراس الحمداني ص ١٧٧ .
 (١٠) مختارات البارودي ٤/٣٥٩ .

إِذَا وَجَّهَهَا وَالْبَدْرُ لَاحًا بَلِيلَةَ

فَمَا أَحَدٌ يَدْرِي مَنِ الْبَدْرُ مِنْهُمَا ؟

أَمَّا "التَّهَامِي" فَإِنَّ فَتَاتَهُ تَمَاطِلُ الْبَدْرِ فِي تَدْوِيرِهِ
(١) وَضِيَائِهِ ، وَلَكِنَّهَا لَا تَمَاطِلُهُ فِي ظُهُورِهِ وَسُفُورِهِ :
(٢)

هِيَ الْبَدْرُ لَكِنْ تَسْتَتِرُ مَدَى الدَّهْرِ

وَكُلُّ سِرَّارِ الْبَدْرِ يَوْمَانِ فِي الشَّهْرِ

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ شَعْرِ "التَّهَامِي" نَجِدُ احْتِجَابَ الْحَبِيبِ
(٣)

مِمَّا يَقْوِي عِلَاقَةَ الْمَشَابَهَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَمَرِ :

عَذْرَتُكَ إِذْ حُجِبْتَ وَأَنْتَ بَدْرٌ لَهُ فِي كُلِّ أَوْقَاتِ سِرَّارٍ

وَاسْتَمَرَ هَذَا الْإِتِّجَاهُ الَّذِي يَأْخُذُ الْحَبِيبُ إِلَى مَنْزِلَةِ

مَسَاوِيَةِ لِمَنْزِلَةِ الْقَمَرِ ، أَوْ قَرِيبَةً مِنْهَا فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ .

"فَالْبَارُودِي" يَقُولُ (أَهْلَالٌ بَيْنَ هَالِهِ) ، (كَالْبَدْرِ إِنْ سَفَرَتْ)
(٤) (٥)

فَهُوَ إِمَّا أَنْ يَدْخُلَهُ إِلَى جِنْسِ الْهَلَالِ بِالِاسْتِعَارَةِ أَوْ يَقْرَبَهُ
بِالتَّشْبِيهِ .

(٦)

وَقَالَ "مُحَمَّدُ عَبْدُ الْمُنْعَمِ خَفَاجِي" :

يَاشَبِيهِ الْبَدْرُ حُسْنًا وَأَخَا الشَّمْسِ جَمَالًا

فَالْحُسْنُ هُوَ مَا يَجْمَعُ الْحَبِيبَ وَالْقَمَرَ وَقَدْ تَبَدُّوا قَمْرًا كَمَا

يَقُولُ "إِسْمَاعِيلُ صَبْرِي" (بَدْتُ قَمْرًا) ، وَهِيَ صُورَةٌ مَنْقُولَةٌ بِلَفْظِهَا
(٧) (٨)

عَنْ "الْمُتَنَبِّي" .

-
- (١) ديوان التهامي ص ٢١١ .
(٢) السابق ص ٣٦٤ .
(٣) السابق ص ٢٢٧ .
(٤) ديوان البارودي ١٩٣/٣ .
(٥) السابق ١٦٥/١ .
(٦) ديوان أشواق الحياة ص ١٦٣ . والمصورة بلفظها في
اليتيمة ٢٢٦/٢ .
(٧) ديوان إسماعيل صبري ص ٢٢٣ .
(٨) ديوان المتنبي ٣٤٠/٣ .

والمشاكلة التي وجدناها عند "البحثري" و"الأرجاني"
 و"الخيزراني" نجدها عند "العقاد" ^(١) الذي يقول :
 عَلَى وَجَنَّتِيهِ ضِيَاءُ الْقَمَرِ نَظِيرَانِ يَسْتَبِقَانِ النَّظْرَ
 ومن هنا يتضح الاتجاه الذي يشاكل بين الحبيب والقمر
 فيجعلهما في منزلة واحدة ، أو يقرب الحبيب إلى منزلة
 القمر في البياض واستدارة الوجه . فهي (بدر بدا) ، والبدر
 يقول لها (إنك مثلي) ، وكأنها قمر ... أو بنادئها (ياقمر
 الليل) ... أو بالمشاكلة والمماثلة . أو بايجاد صلة رحم
 وقربى بينهما : (أخاك البدر) ^(٢) ، (شقيقك البدر) ^(٣) ، ياخا
 البدر ^(٤) ، يا ابنة البدر ^(٥) ...

(٢) اتجاه يرفع الحبيب إلى منزلة أعلى من منزلة القمر :
 ولكي يرفع الشعراء أحبابهم إلى منزلة أعلى من منزلة
 القمر سلكوا طرقاً منها :

(١) حفظ منزلة القمر وجعل الحبيب في منزلة أعلى منه .
^(٦)
 قال "بشار بن برد" :

غَرَاءُ كَالْقَمَرِ الْمَشْهُورِ حِينَ بَدَتْ

لَا بَلُّ بَدَا مِثْلَهَا حِينَ اسْتَوَى الْقَمَرُ

فبعد أن شبهها بالقمر حين بدت نفي ذلك "بلا" واستدرك
 ب"بل" وجعل القمر حين استوى مثلها ، فقلب التشبيه وجعلها
 هي المشبه به بعد أن كانت المشبه ، والمشبه به هو الأعلى
 منزلة .

-
- (١) ديوان العقاد . ٤٨٩١ .
 (٢) ديوان ابن سهل الأندلسي ص ١٤٨ .
 (٣) السابق ص ١٧٠ .
 (٤) ديوان ابن زيدون ص ٩٤ .
 (٥) ديوان وحي الحرمان ، الأمير عبد الله الفيصل ص ٦٤ .
 (٦) ديوان بشار بن برد ١٤٥/٣ .

(١)

وقال "العباس بن الأحنف" :

إِذَا أَنَا نَادَمْتُهُ مَرَّةً كَفَانِي بِهِ اللَّهُ ضَوْءَ الْقَمَرِ

فإذا لقي الحبيب لم يعد له حاجة لضوء القمر ، لأن وجه

الحبيب سوف يضيء نيابة عن القمر ، فهو أكثر ضياء ولمعانا

لذا فهي تزهو على القمر كما يقول "أبو الحسن التهامي" :

(٢)

تَزْهُو عَلَى الْقَمَرِ الْمُنِيرِ بِوَجْهِهَا

وَتَتِيهُ مِنْ حُسْنِ عَلَى الثَّقَلَيْنِ

فهي في منزلة من الحسن والجمال أعلى من منزلة القمر

وهذا ما جعلها تزهو عليه بحسنها ، فقد فاقته حسناً وجمالاً ،

(٣)

كما يقول "ابن زيدون" :

لَئِنْ كُنْتَ فِي السَّنِّ ، تَرَبَّ الْهِلَالِ

لَقَدْ فُقِّتَ فِي الْحُسْنِ بَدْرَ الْكَمَالِ

أو أن الهلال يقتبس من أنوار وجهها كما قال أحد شعراء

(٤)

اليتيمة :

كَمَلْتُ مَحَاسِنُ وَجْهِهِ فَكَأَنَّمَا أَقْمُ

حَبَسَ الْهِلَالُ النُّورَ مِنْ أَنْوَارِهِ

(٥)

وقال أحد شعراء اليتيمة أيضا :

شَبَّهَتْهُ قَمَرًا فَكَانَ حَقِيقَةً وَغَدَا لَهُ قَمَرُ السَّمَاءِ مَجَازًا

قمر السماء هو القمر الحقيقي وتشبيهه الحبيب به من

باب المجاز ، ولكن الشاعر قلب الوضع هنا ، فحبيبته القمر

الحقيقي وغدا قمر السماء مجازاً ، وذاك لأن الحبيب أجمل

وأعلى منزلة في الحسن .

(١) ديوان العباس بن الأحنف ص ١٥٥ .

(٢) ديوان التهامي ص ٥٥٣ .

(٣) ديوان ابن زيدون ص ٥٧ .

(٤) يتيمة الدهر ١/٣١٧ .

(٥) السابق ٤/٤٩٢ .

(١)

وقال "صفي الدين الحلبي" :
كَفَى الْبَدْرَ حُسْنًا أَنْ يُقَالَ نَظِيرُهَا
فَيُزْهَى وَلَكِنَّا بِذَاكَ نَضِيرُهَا

فهذه الفتاة بلغت من الجمال درجة عالية فلم يقل هي نظيرة القمر ، ولكن جعل القمرَ نظيرها ، وتشبيه القمر بهذه الحسناء يزيده فخراً وجمالاً .

و"الشّاب الظّريف" لا يرى غيبة للقمر أو سلباً لشيء من

منزلته إن قال لمن يحبّ: وجهك أجمل .

بِلاَ غَيْبَةٍ لِلْبَدْرِ وَجْهَكَ أَجْمَلُ

وما أَنَا فيما قُلْتَهُ مُتَجَمِّلُ

(٢)

وقال "صفي الدين الحلبي" :

كَانَ بَدْرُ السَّمَاءِ يَكْتَسِبُ النُّورَ

رَ مِنْ الشَّمْسِ كِي يَحُورَ الْبَهَاءَ

فَهُوَ الْيَوْمَ يَسْتَعِيرُ ضِيَا وَجْهِ

هَكَ ، إِذْ قُتِّعَتْهُ سَنًا وَسَنَاءَ

وَإِذَا مَارَاكَ مَدَّ عَنِ الشَّمْسِ

سِ ، وَوَأَفَاكَ يَسْتَمِدُّ الضِّيَاءَ

فبعد أن أشار الشاعر إلى الحقيقة الفلكية وهي أن

القمر يستمدّ ضيائه من أشعة الشمس ، لأنّه كوكب معتم والضوء

الذي يرى عليه ماهو إلا انعكاس لأشعة الشمس ، رفض هذا وجعل

القمر يستعير ضوءه من وجهه حبّه الذي فاق القمر حسناً وجمالاً

فإذا مشاهده مدّ عن الشمس واستقبل وجهه الحبيب يستمدّ منه

(١) ديوان صفي الدين الحلبي ص ٧٣ .

(٢) ديوان الشاب الظريف ص ١٧٣ .

(٣) ديوان صفي الدين الحلبي ص ٤٣١ .

النُّورَ وَالضِّيَاءَ .

وقال "البارودي" :

(١)
"وفي البدرِ منها إِنَّ تَجَلَّتْ مَلَامِحَ" .

فليست المحبوبة هي التي تشبه البدر ولكن البدر هو

الذي يشبهها ويشاكلها ويحمل بعض ملامحها .

(١) ديوان البارودي ١٥٧/١ .

(ب) عيوب القمر التي لا توجد بالحبيب:

ولكسي يرفع الشعراء منزلة من يحبون على منزلة القمر
بينوا عيوباً بالقمر ونزهوا عنها أحبابهم ومن ذلك :
"الكَلَفُ" أو السّواد الذي يشاهد على صفحة القمر :
قال "التهامي" : "هي البدرُ لولا كُلفُهُ في أديمه" (١)

فوجه الحبيبة لامع ساطع بأكمله ، ولا يوجد به ذلك الكلف
الذي يشاهد على صفحة القمر ، ومثل هذا قول "البهاء زهير" :
(٢)

أَشْبَهَ الْبَدْرَ وَحَا م كَاهُ إِلَّا كَلْفَهُ

فلقد أشبه هذا الحبيب القمر وحاكاه ، ويستثنى الشاعر
ذلك الكلف الذي يسود وجه القمر ، وهذا الاستثناء إشارة إلى
أنّ الحبيب أجمل من القمر بخلوه من ذلك السّواد ، فلو قال
أشبه البدرَ وسكت لكان مثل البدر حتى في الكلف .
(٣)

وقال أحد شعراء اليتيمة :

فَوَاوِيْلَاهُ مِنْ قَمَرٍ يُرِيكَ مَسَاوِي الْقَمَرِ

ومن هذه المساويء والعيوب التي تلحق بالقمر محاقه
وسراره اللّذان لا يميّبان وجه الحبيب ولا يظهران عليه ، قال
(٤)
"أبو تمام" :

بَدْرٌ يُضِيءُ لِعَاشِقِيهِ م هِ وَمَا يَطِيفُ بِهِ الْمَحَاقُ

فالمحاق الذي يلحق بالقمر فيحجبه عن النّاس لا يعرف وجه
الحبيب وإنّ مرت اللّيالي ، قال "التهامي" :
(٥)

يَتَحَيَّفُ الْقَمَرَ الْمَحَاقُ تَحَيِّفًا وَهَلَالُ خَدِّكَ كُلُّ وَقْتٍ مُبَدَّرُ

-
- (١) ديوان التهامي ص ٥٢٤ .
(٢) ديوان البهاء زهير ص ١٦٣ .
(٣) يتيمة الدهر ٤٩٢/١ .
(٤) ديوان أبي تمام ص ٧٥٧ .
(٥) ديوان التهامي ص ٢٤١ .

(١)

وقال "ابن زيدون" :

وَبِنَفْسِي وَإِنْ أَضْرَّ بِنَفْسِي قَمَرٌ لَا يِنَالُ مِنْهُ السَّرَارُ

فوجه الحبيب كامل الاستدارة والإشراق ليعروه نقص ، بل

(٢)

هو محافظ على حالته كما قال أحدهم :

يَابَدْرُ إِنَّكَ قَدْ كُسِيتَ مَشَابِهًا

مِنْ وَجْهِ أُمِّ مُحَمَّدٍ ابْنَةِ صَالِحٍ

وَأَرَاكَ تَمَمَّحٌ فِي الْمَحَاقِ وَحُسْنُهَا

بَاقٍ عَلَى الْإِيَامِ لَيْسَ بِمَاصِحٍ

● فالبدر قد كُسي بعض ملامح "أم محمد" ومع هذا فهي أرفع

منزلة منه ، لأنَّ حسنها باق ، وحسنه يزول ، لِمَا يلحقه من

المحاق في آخر كل شهر ، فالبدر إذا تم حسنه واكتملت

استدارته ، بدأ يخاف النقص الذي سوف يلحق به في الأيام

(٣)

التالية كَمَا يَقُولُ "الملك الأمجد" :

هُوَ الْبَدْرُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ خَائِفٍ

مِنَ النَّقْصِ يَوْمًا حِينَ تَمَّ تَمَامُهُ

فإذا قورن وجه الحبيب مع البدر في صفة الاستدارة كانت

منزلة وجه الحبيب أعلى ، لأنه محافظ على استدارته ولمعانه

وضيائه ، أمَّا القمر فيعروه النقص ولا يكون بدرًا إلا في ليال

(٤)

معدودة كما يقول "علي بن الجهم" :

وَفَفَحَتْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي

يَابَدْرُ كَيْفَ مَنَعْتَ بِالْبَدْرِ

وَلِذَاكَ لَيْلَتُهُ مِنَ الشَّهْرِ

الدَّهْرِ أَنْتَ بِأَسْرِهِ قَمَرٌ

- (١) ديوان ابن زيدون ص ٢٨٥ .
(٢) ديوان المعاني ٢٣١/١ .
(٣) ديوان الملك الأمجد ص ٣٦٨ .
(٤) ديوان علي بن الجهم ص ١٤٨ .

فالنقص الذي يتحيف البدر عيب لا يلحق وجه الحبيب فهو
يبدو كامل الاستدارة ماعاش ، قال "ابن الزقاق البلنسي" :^(١)

اتطلبك الأيمارُ في الجوّ ناقِماً

وأنتَ كذا تَمْشي على الأرضِ كامِلاً

والمصورة هنا أروع ، وأفعل بالنفس ، لأنّ "ابن الجهم" جعلها قافية وذهب يعلل لمحتها ، فحبيبة بدر العمر كله ، أما بدر السماء فلا يكون مبدراً غير ليلة كل شهر ، ثم ينتقص سائر الليالي ، أمّا "ابن الزقاق" فجعل بدر السماء هو بعينه البدر الذي يمشي على الأرض ، بل حبيبته لاتكون إلاّ بدمراً دائماً ، ولهذا لايمح أنّ يطلب في السماء في كل وقت ، لأنّ النقص يعتريه هناك .

(١) ديوان ابن الزقاق البلنسي ص ٢٣٨ .

(ج) أوصاف جميلة للحبيب ليست للقمر :

للحبيب محاسن وأوصاف ليست للقمر ، فالحبيب أجمل ،
(١)
وأعلى منزلة ، قال "بشار بن برد" :

كَأَنَّهَا قَمَرٌ رَابٍ رَوَادِفُهُ
عَذْبُ الثَّنَائِيَا بَدَا فِي عَيْنِهِ دَعَجٌ

شَبَّهَا بالقمر ، لكن صورة القمر لم تف بالغرض وبصورة
الحبيب التي في ضمير الشاعر فجعلها قمرًا رابي الروادف ،
عذب الثنايا ، في عينيه دعج ... وهذه الصفات من مظاهر
الحسن ، وليست للقمر وحين شبها بالقمر أضاف له صفاتها
الحسية حتى يتمكن من تمثيل صورتها التي في ذهنه ، وهذا
يشير إلى عشق بعض الشعراء للصفات الحسية ، وتقديما على
الصفات المعنوية ، ولذا ففلوا من يحبون على القمر في
الجمال ، قال "إبراهيم بن النّظام" (٢) :

هو البدرُ إلا أن فيه رقائقا

من الحُسنِ ليست في هلالٍ ولا بدرٍ

(٣)
وقال "الشّابّ الظّريف" :

بدرٌ يفوقُ البدرَ منظرُهُ إذا
جُليتْ محاسنُهُ على الجلاسِ

(٤)
والفحك أو الابتسام ليسا من صفات البدر قال "المتنبي"

فلم أرَ بَدْرًا ضاحكًا قبلَ وجْهِها

ولم ترَ قبلي مَيِّتًا يتكلمُ

(١) ديوان بشار بن برد ٥٨/٢ .

(٢) الزهرة ١٣١/١ .

(٣) ديوان الشّابّ الظّريف ص ١٣٠ .

(٤) ديوان المتنبي ٢٠٢/٤ .

وقال "العباس بن الأحنف" (١) :

البدرُ ليسَ لهُ عينٌ مكحَّلةٌ^٢ ولامحاسنٌ لفظٌ يبعثُ السَّما
وتنمُّ هذه الشواهد على أَنَّ الشاعرَ العربيَّ يَجْنَحُ إلى
الجمالِ الحسيِّ ويؤثره على غيره ، وقليلًا ما يميلُ إلى الناحية
المعنوية ، أو إلى التجريد ، وهذا الحال يسهُلُ على الباحثِ
تعليلَ اتجاهِ بعضِ الشعراءِ إلى الصاقِ علاماتِ الجمالِ البشريِّ
الحسيِّ للقمرِ ، فله ردفٌ ثقيلٌ وعينانِ دعجاوانِ ، ومصدرٌ
ناهدٌ ... الخ .

والحقُّ أَنَّ الإسلامَ كانَ قميناً أنْ يخففَ من غلواءِ الشعراءِ
في هذا الاتجاهِ الحسيِّ والاعتدالَ في الميلِ إليه ، ويتَّضحُ هذا
الميلُ الحسيِّ في قولِ "أبي^{علي} تميم بن معد" (٢) :

شَبَّهْتُهَا بِالْبَدْرِ فَاسْتَفْحَكْتُ	وَقَابَلْتُ قَوْلِي بِالنُّكْرِ
وَسَقَّهْتُ قَوْلِي وَقَالْتُ : مَتَى	سَمَجْتُ حَتَّى مَرْتُ كَالْبَدْرِ ؟
وَالْبَدْرُ لَا يَرْنُو بَعِينَ كَمَا	أَرْنُو ، وَلَا يَبْسُمُ عَنْ ثَفْرِ
وَلَا يَمِيطُ الْمُرْطَ عَنْ نَاهِدِ	وَلَا يَشُدُّ الْعَقْدَ فِي نَحْرِ
مَنْ قَامَ بِالْبَدْرِ مَفَاتِي فَلَا	زَالَ أَسِيرًا فِي يَدِي هَجْرِي

حبِيبَةُ الشَّاعِرِ - عَلَى حَدِّ زَعْمِهِ - تَنْكُرُ أَنْ يَشْبَهَهَا بِالْبَدْرِ
وَسَقَّهْتُ قَوْلَهُ فِي ذَلِكَ ، لِأَنَّهَا إِنْ أَصْبَحَتْ كَالْبَدْرِ فَقَدْ انْحَطَّتْ
مَنْزِلَةَ جَمَالِهَا "مَتَى سَمَجْتُ ؟" لِأَنَّ لَهَا مَفَاتِي هِيَ سَبَبُ جَمَالِهَا ،
وَأَرْكَانُ حَسْنِهَا لَيْسَتْ مَوْجُودَةً فِي الْقَمَرِ ، فَهُوَ لَا يَرْنُو مِثْلَهَا ،
وَلَا يَبْتَسِمُ عَنْ ثَفْرِ جَمِيلٍ ... الخ

(١) ديوان المعاني للعسكري ص ٢٣١ .

(٢) يتيمة الدهر ٥٢٩/١ .

فهي ترفض أن تشبه بالبدر ، بل تلحق هذا الرفض بالتهديد بهجر من قام صفاتها بمفات البدر ، فهي فوق البدر بمراحل كثيرة لا يستطيع الوصول إليها .

وفي قول "أبي علي" ما يؤكد الجنوح إلى الناحية الحسية التي تستهوي عدداً كبيراً من شعراء العربية الذين لم ينتفعوا كثيراً بمنهج الإسلام في الاعتدال والتوازن ، ولم يتدبروا مافي القرآن الكريم والحديث الشريف في هذا الباب .

(د) القمر يغار من الحبيب :

في العادة أن يغار من الأعلى في الصفة ، فإذا غار القمر أو حسدَ أحداً من البشر بسبب جماله ، فلان هذا البشر قد فاقه حسناً وجمالاً ، ومنزلته أعلى من منزلة القمر . قال "ابن عبد ربّه" (١) :

ووجهٌ أعارَ البدرَ حُلّةً حاسِدٍ

فمنه الذي يسودُّ في صَفْحَةِ البدرِ

وجه بلغ الغاية في الجمال ، وفاق البدر في حسنه ، فحسده البدر ، ودليل حسد البدر له ذلك السواد الذي يلوح على وجه البدر . وقد يخجل منها إذا أقبلت كما يقول "السري الرفاء" (٢) :

فجاءت تخجلُ البدرَ وغمنَ البائِقُ اللدنا

فالبدر يخجل إذا جاءت ، لأنها أجمل منه ، ولا يحق له

أن يفخر بجماله وهناك من هو أجمل منه ، فمتى ظهر وجهها ،

أخجل البدرَ وردّه إلى قيمته كما يقول "أبو إسحاق المابّي" (٣) :

لما رأَتْ بدرَ الدُّجَى تائهاً وغازها ذلك من شيمته

أزاحت البرقعَ عن وجهها فردّت البدرَ إلى قيمته

لا يحق للبدر أن يتيه بجماله ، وهناك من هو أجمل منه ،

فمتى رآها كان من حاسديها على حسنها كما يقول "الابريودي" (٤) :

"وبدرُ الدُّجَى من حاسديها على الحُسنِ" .

(١) ديوان ابن عبد ربه ص ٨٤ .

(٢) يتيمة الدهر ١٨٤/٢ .

(٣) يتيمة الدهر ٣٠٦/٢ .

(٤) مختارات البارودي ٣٨١/٤ .

(١)

وقال "أسامة بن منقذ" :

مهفهفٌ يخجلُ بدرَ الدُّجَى فإنَّ رآهُ اكتنَّ في السُّحبِ

فما اختبأء البدر بين السحب إلا خجلاً من الوجه الذي

يفوقه حسناً وجمالاً ، فهو يتوارى عن الاعين خجلاً من الحبيب

الجميل كما يقول "الشَّابُّ الظَّرِيفُ" :

ولي قمرٌ مابدا في الدُّجَى وأبصره البدرُ إلا أقلَّ

(٢)

وقال "إسماعيل صبري" :

ياجمالاً كلُّ أقمارِ السَّما غيرَةً منه تولَّاهَا الخَجَلُ

ومن هنا نلاحظ هذا الاتجاه الذي يجعل المحبوب في منزلة

أعلى من منزلة القمر في الحسن ، كما نلاحظ ارتباط القيم

الجمالية بالمنازع الحسية في رؤية الشاعر العربي .

-
- (١) ديوان أسامة بن منقذ ص ٥٦ .
(٢) ديوان الشَّابُّ الظَّرِيفُ ص ٢٠١ .
(٣) ديوان إسماعيل صبري ص ١٩٥ .

الاتجاه الثالث : رفض المشابهة .

ونظفر ببعض النصوص التي ترفض المشابهة بين الحبيب والقمر ، وتنص على أن القمر لايساوي شيئاً بجانب الحبيب في جماله وبهائه قال "عمر بن أبي ربيعة" :

(١)

إِنَّ الْكَوَاكِبَ لَا يُشْبِهَنَّ صُورَتَهَا

وَهَنَّ أَسْوَأُ مِنْهَا بَعْدُ أَخْبَارًا

"فعمر" في هذا البيت ينفي المشابهة على إطلاقها ، ولايرضي بأيّ مقارنة في الصورة بين الكواكب وبين حبيبته ، ولاسيما أن النجوم - في زعم المنجمين - كثيراً ماتحمل انباء سيئة . قال "ابن المعتز" :

(٢)

كَدْتُ أَقُولُ : الْبَدْرُ شَبَّهُ لَهَا

اجْعَلُهَا كَالْبَدْرِ ؟ حَاشَاهَا

فقوله حاشاها تنزيه لها عن تشبيهها بالبدر ، ويرى "التّهامي" أن وصف الجميلات بالبدور ظلم لهن :

(٣)

وَاطْلِمُنَّ إِنْ نَادَيْتُ يَوْمًا بِإِحْدَاهُنَّ يَا بَدْرَ التَّمَامِ

ويرى بعض الشعراء أن تشبيه الحبيب بالبدر ، يعيب الحبيب ، ويحطّ من منزلته على نحو قول بعضهم :

(٤)

إِذَا عَبَّتْهَا شَبَّهْتُهَا الْبَدْرَ طَالِعًا

وَحَسْبُكَ مِنْ عَيْبِ لَهَا شَبَّهُ الْبَدْرِ

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٤٣ .

(٢) ديوان عبد الله بن المعتز ص ٢٥ .

(٣) ديوان التّهامي ص ٤٩٨ .

(٤) ديوان المعاني ١/٢٣١ .

فالشاعر يرفض تشبيه الحبيب بالبدر على الإطلاق ، بل يرى أنه يعيبها إن شَبَّها بالبدر . ويرى "البهاء زهير" أن محاولة المشابهة بين حبيبه والبدر نوع من الشطط :
(١)

يَا بَدْرُ إِن رُمْتَ بِهِ
تَشَبَّهًا رُمْتَ الشَّطَطُ
(٢)
وقال "علي الجارم" :

أَبْصَرُوا الْبَدْرَ فَقَالُوا: وَجْهًا

فَتَغَشَّيْتُ بِثَوْبِي هَرَبًا

ويرى الباحث أنها صورة قبيحة وغير صادقة وتحسين وجه الفتاة لا يكون بتهجين وجه القمر على هذا النحو الذي أوقعه في الصورة المردولة ، لاسيما أنه تغشَّى بثوبه .

(١) ديوان البهاء زهير ص ١٥٠ .
(٢) ديوان علي الجارم ص ١٤٦ .

ثانياً : سواد الليل وشعر الحبيب :

لقد أغرم الشعراءُ العرب بالشعر الأسود دون الألوان الأخرى ، وربما يعود هذا إلى أن الجنس العربي تميز بالشعر الأسود ، ولغرام الشعراء بالشعر الأسود وجدوا في سواد الليل أفضل مثال يشبهون به شعر من يحبون ، فلا شيء أكثر سواداً من الليل ، وإذا تمثلنا ملامح الطبيعة التي تعود الشعراء أن يستخدموا عناصرها لإبراز صورهم ، فلن نجد غير الليل ما يمكن أن يشبه به الشعر ، فالسما والبحر يميلان إلى اللون الأزرق والأشجار خضراء ، وزهورها ذات ألوان مختلفة يندر أن يكون بينها الأسود ... لذا لجأ الشعراء بطريقة شبه جبرية إلى الليل يصفون به شعر أحبائهم ، وقديماً قال "عنتره" (١) :

كَأَنَّهَا عِنْدَمَا أَرَحَتْ ذَوَائِبَهَا

بَدَا بَدْرٌ وَظِلَامُ اللَّيْلِ مُعْتَكِرٌ

فكَأَنَّ شَعْرَهَا ظِلَامُ اللَّيْلِ إِذَا اعْتَكَرَ .

وقال "قيس بن الملوح" (٢) :

بِيفَاءٍ بَاكَرَهَا النَّعِيمُ كَأَنَّهَا قَمْرٌ تَوَسَّطَ جُنْحَ لَيْلٍ مُظْلِمٍ

فَوَجَّهَهَا قَمْرٌ فِي وَسْطِ شَعْرَهَا الَّذِي كَأَنَّهُ قَطَعَ مِنَ اللَّيْلِ

المظلم .

وقال "يزيد بن معاوية" (٣) :

أَلَيْلٌ دَجَى أَمَّ شَعْرُكَ الْفَاحِمِ الْجَعْدِ

وَبَدْرٌ بَدَا أَمَّ وَجْهِكَ الْمُشْرِقِ السَّعْدِ ؟

(١) ديوان عنتره ص ٧٣ .

(٢) ديوان قيس بن الملوح ص ٩٣ .

(٣) تزيين الأسواق ص ٥٠٠ .

ويقلب "أبو فراص الحمداني" التشبيه فيجعل الليل
 مشبها لشعرها فيقول :^(١)

وليلٍ كَفَرُعيها قَطَعْتُ وصَاحِبِي

رَقِيقٌ غَرَارٍ ، مَخْدَمٌ الحَدِّ صَارِمِه

ويرى "المتنبي" أن شعرها يعيد الليل وإن كان الوقت
 نهاراً :^(٢)

بَفَرَعٍ يُعِيدُ اللَّيْلَ وَالصُّبْحُ نَيْرٌ

وَوَجْهٍ يُعِيدُ الصُّبْحَ وَاللَّيْلُ مُظْلَمٌ

بل إنه جعل كل ذؤابة من شعرها ليلة مستقلة فقال :^(٣)

كَشَفْتُ ثَلَاثَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهَا

فِي لَيْلَةٍ فَأُرْتُ لِيَالِي أَرْبَعًا

فلما حبته ثلاث ذوائب مسدلة بلونها الفاحم ، فلما كشفت
 عنها أثناء الليل أرتته أربع ليال في وقت معاً ، الليلة
 التي كانوا في ظلامها وتلك الذوائب الثلاث .

ويخبر "التّهامي" أن صاحبه تسحب ليلاً وراءها :^(٤)

بِيفَاءٍ تَسْحَبُ لَيْلًا حُسْنُهُ أَبَدًا

فِي الطُّولِ مِنْهُ وَحُسْنُ اللَّيْلِ فِي القِمْرِ

فشعرها ليل تسحبه خلفها فهو شعر أسود طويل وهذا
 الطول يحسن في الشعر ، ولا يحسن في الليل لأنّ الليل لا يطول إلا
 مع العم أو الحرمان .

وفي موضع آخر من شعر "التّهامي" نجد ففائرها بعضاً من

(١) ديوان أبي فراص الحمداني ص ١٥٢ .

(٢) ديوان المتنبي ٢٠٣/٤ .

(٣) السابق ٤/٣ .

(٤) ديوان التّهامي ص ٣٥٥ .

(١)

حكك الليل يقول :

لَهَا مِنْ سَنَا الْفَجْرِ الْمَوْرِدِ غُرَّةٌ

وَمِنْ حَلَكِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ فَبَائِرُ

فهي فبائير حالكة السواد لأنها من حكك الليل البهيم .

ويعكس "عمارة اليمني" الصورة فيجعل الليل يستعير سواده من

(٢)

شعر الحبيب :

ظَبِيٌّ أَعَارَ اللَّيْلَ طُرَّةَ شَعْرِهِ

وَأَمَدَّ ضَوْءَ الصُّبْحِ بِالْإِشْرَاقِ

(٣)

وقال بعضهم :

نَشَرْتُ عَلَيَّ ذَوَائِبًا مِنْ شَعْرِهَا

حَذَرَ الْكَوَاشِحِ وَالْعَدُوِّ الْمُحَنِّقِ

فَكَأَنَّيَ وَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّه

مُبْحَانٍ بَاتَا تَحْتَ لَيْلٍ مُطْبِقِ

فالشاعر يخبر عن شعر فتاته بأنه شعر غدا مثل الليل

في سواده ، يدريء به من الكواشح والاعداء .

(٤)

وقال "الدمشقي" :

وهو مِنَ اللَّيْلِ وَمِنْ طَرْفِهِ وشعره في ظلمات ثلاث

الليل الظلمة الأولى ، وطرفه الثانية ، وشعره الثالثة

(٥)

ويقول "ابن المعتز" :

فَمَا زِلْتُ فِي لَيْلَيْنِ مِنْ شَعْرٍ وَمِنْ دُجَى

.....

(١) السابق ص ٢٤٨ .

(٢) مختارات البارودي ٣٨٣/٤ .

(٣) ديوان المعاني ٢٤٥/١ .

(٤) السابق .

(٥) خاص الخاص ص ١٣٢ .

على أنّ وجه الشبه الغالب بين الشعر والليل فيما سبق
من نصوص هو السواد ، وقد يصرّح به بعض الشعراء كقول "علي
ابن جبلة" : "والشعرُ مثل الليلِ مسودُّ" .^(١)

وقال "الملك الامجد" :^(٢)

مِنْ شَعْرِهِ وَجَبَيْنِهِ أَنَا نَاطِرٌ

لَيْلًا أَفْضَلُ بِهِ وَصَبْحًا مَسْفِرًا

أفيلُّ به تشير إلى غزارة هذا الشعر ، وشدة سواده فغدا
وكأنه الليل الذي يفضلُّ به السارون .^(٣)

وقال "البهاء زهير" :

إِنَّ لَيْلًا قَدْ دَجَى مِنْ شَعْرِهِ فِيهِ مَا أَحْلَى الضَّنَى وَالسَّهْرَا

ولقد استمر تشبيه الشعر بالليل في الشعر العربي عبر

عصوره المختلفة وفي تراكيب وألفاظ متقاربة إلى حد كبير .^(٤)

قال "راشد الحيسي" :

كَالشَّمْسِ وَجْهًا وَكَلَوْنَ الدُّجَى فَرَعَا

وقال "حسين العشاري" : "إذا نشرْتُ ليلَ الذوائبِ في

الضحى"^(٥)

^(٦)

وقال "خليل مطران" :

لَهَا شَعْرٌ كَاللَّيْلِ يَجْلُو سَوَادَهُ

بِيَاضِ نَهَارٍ يَبْهَرُ الْمُتَوَسِّمًا

^(٧)

وقال "أحمد شوقي" : "ودخلتُ في ليلين: فَرَعَكِ والدُّجَى" .

-
- (١) ديوان الشعر العربي ١٧٢/٢ .
 - (٢) ديوان الملك الامجد ص ٢٨١ .
 - (٣) ديوان البهاء زهير ص ١١٢ .
 - (٤) ديوان راشد الحيسي ص ٣٦٣ .
 - (٥) ديوان العشاري ص ٥٥٩ .
 - (٦) ديوان خليل مطران ١١٣/١ .
 - (٧) الشوقيات ١٧٩/٢ .

(١)
وقال الأمير "عبد الله الفيصل" :
"والشعرُ كالليلِ أسودٌ" .

ويلاحظ على نماذج العصر الحديث أنها تكاد تكون نماذج
مكررة للنماذج السابقة في العصور السابقة ، بل تكرر بعضها
لفظاً ومعنى .

والصدغُ بعض شعر الرأس المتدلي فيما بين العين والاذن
وقد فُتِنَ به جملة من الشعراء ، ووصفوه ، وكما أسلفتُ فقد
كان تشبيهه سواد الشعر بالليل هو الغالب على الشعر بعامة .

(٢)
ويصف "أبو هلال العسكري" الصدغ بقوله :

ومدغٌ يَنَاجِي الأذنَ وهو مُعقِرِب

وطوراً يُنَاغِي الخدَّ غير مُعقِرِب

لهُ مِنْ ظلامِ اللَّيْلِ أَحسنُ ملبسِ

وفوق ضياءِ الصُّبحِ أَحسنُ مَلْعَبِ

ويهمُّ الباحث قوله "له من ظلام الليل أحسن ملبس" فهو

يصف شعر الصدغ بالسواد وكأنه اقتطع بعض الليل لباساً له .

(٣)

وقال أحد شعراء اليتيمة :

لَيْتَ أَنَّ اللَّيْلَ دامتْ ظلمه

فلقد جلتْ لدينا نعمه

مثلتْ صدغيك لي ظلمته

وأرتْ خديك عيني أنجمه

مدغاً الحبيب السوداوان المتدليان أشبها الليل الفاحم

فأحبّه الشّاعر من حبّه إيّاهما ، وخدا الحبيب أشبها نجوم

الليل ، فالشاعر يتمنى استمرار الليل ليرى في ظلامه وفي

نجومه ما يذكره بحسن الحبيب .

(٤)

وقال "أبو الفغل أحمد الكاتب" :

(١) ديوان وحي الحرمان ص ٤٠ .

(٢) ديوان المعاني ٢٤٨/١ .

(٣) يتيمة الدهر ١٥٧/٥ .

(٤) يتيمة الدهر ٢٨٥/٥ .

قَدْ قَلْتُ وَالصَّدْغُ عَلَى خَدِّهِ كَاللَّيْلِ يَبْدُو تَحْتَهُ الْفَجْرُ

(الصَّدْغُ كَاللَّيْلِ) : يَشْبَهُ الصَّدْغُ بِاللَّيْلِ وَذَاكَ وَصْفٌ لَهُ

بِالسَّوَادِ ، وَقَدْ يَنْسَبُ الصَّدْغُ إِلَى اللَّيْلِ قَالَ "ابْنُ الْحَدَادِ
(١)

الْأَنْدَلِسِيِّ" :

وَفِي مُدْغِهِ اللَّيْلِ نَارٌ حُبَابِي

مِنَ الْقُرْطِ يَمْلَاهَا حِبَابٌ مِنَ الْعَقْدِ

فَهُوَ يَجْعَلُ الصَّدْغَ لَيْلِيًّا لِيَجْعَلَهُ مِنْ جِنْسِ اللَّيْلِ فَهُوَ أَسْوَدُ

وَلَا يَمَيِّزُ بَيْنَهُمَا . وَ"الْقَاضِي الْفَاضِلُ" يَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ الشَّعْرَ

الْقَلِيلَ الْمَتَدَلِّيَّ عَلَى وَجْهِهَا قَدْ أَسْبَلَهُ اللَّيْلِ عَلَى خَدِّهَا .
(٢)

سَرَتْ ، فَكَأَنَّ اللَّيْلَ قَبَّلَ خَدَّهَا

فَأَبْقَى بِهِ قِطْعًا وَأَسْبَلَ عَقْرَبًا

وَهِيَ كغَيْرِهَا مِنَ الصُّورِ الْمَوْلُودَةِ عَنْ شِبْهِ الصَّدْغِ بِاللَّيْلِ

لِكِنِّي أَرَى التَّوْلِيدَ هُنَا ظَاهِرَ التَّكْلِيفِ ، فَلَوْ قَبَلْنَا تَقْبِيلَ

اللَّيْلِ خَدَّهَا ، فَكَيْفَ يَبْقَى مِنْهُ قِطْعَةٌ ، وَيَسْبَلُ عَقْرَبًا ؟ إِنَّهَا

لِقَبْلَةٍ قَاتِلَةٌ إِذْنُ !! وَقَاتَلَ اللَّهُ التَّكْلِفَ الَّذِي يَحِيلُ الْجَمَالَ

قَبْحًا .

(١) ديوان ابن الحداد ص ٥٥ .

(٢) ديوان الشعر العربي ١٤٠/٣ .

النُّجُومُ وَالْحَبِيبُ :

اشتقَّ الشعراءُ صوراً كثيرةً من الليل وما يحويه ومفوا
بها أحبابهم فشبهوا بالقمر الوجوه أو شبهوها به ، وجعلوا
من وصفه طريقاً يبينون به جمال أحبابهم .

والتفتوا إلى النُّجُوم فأعجبهم لمعانها وميضها
فاشتقوا منها صوراً بيانية يصفون بها الحليَّ التي تزيِّن
الحبيب وقديما قال "عنتره" :

كَأَنَّ الثُّرَيَّا حِينَ لَاحَتْ عَشِيَةً

على نحرها منظومةً في القلائدِ

لهذه الفتاة قلائد تلمع وكأنها نجوم الثريا .
وقال "قيس بن الخطيم" :

كَأَنَّ الثُّرَيَّا فَوْقَ ثُغْرَةٍ نَحْرُهَا

تَوَقَّدُ فِي الظُّلْمَاءِ أَيَّ تَوَقَّدِ

وقال "سحيم عبد بني الحسام" :

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فَوْقَ نَحْرِهَا

وجمر غمًا هبَّتْ له الرِّيحُ ذَاكِيَا

التفت الشاعر إلى لمعان النُّجُوم فشبه بها الحليَّ ،
وفاته أن سواد الليل من خلف النُّجُوم هو الذي يزيد لها لمعاناً
بل ويظهرها لأنه متى جاء النهار اختفت النُّجُوم . وعندما
يقول على نحرها ، فهو يحطُّ من منزلة الفتاة التي يصفها ،
فلو كان نحرها أبيض كبياض النهار لما أخذت الحليَّ اللمعة

(١) ديوان عنتره ص ٢٦ ، النُّجُوم في الشعر العربي القديم
ص ١٢٤ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ص ٧٠ .

(٣) ديوان الشعر العربي ١/٢٣٠ .

هذا البروز من الصورة ، ولربّما لم تثر اهتمام الشاعر بها ولكن المَدَّ يظهر حسنه المَدُّ ، وبهذا قلل هؤلاء الشعراء من منزلة تلك النسوة في الجمال ، فكأنَّ الشاعر يصف إحدى القيان وليست التي يدّعي لها الجمال والبياض .

ولقد تنبّه "العرجي" في ذكاء شديد إلى هذا الأمر :
 (١)
 كَأَنَّمَا الْحَلِيُّ عَلَى نَحْرِهَا نُجُومٌ فَجَّرٍ سَاطِعٍ أْبْلَجِ
 فعندما قال كَأَنَّ الْحَلِيَّ نُجُومٌ تَنْبَهُ إِلَى أَنَّ النُّجُومَ تَظْهَرُ
 ليلاً وسواد الليل هو الذي يبرز حسنها ويجليه فيكون نحرها
 بذاك كالليل للنجوم ، فاحترز عن ذلك فقال نجوم فجر فالفجر
 أبيض وهو هنا نحرها ولم يكتفِ بقوله نجوم فجر فقد يكون
 الفجر في أوله فيكون به شيء من الغبش فجعله فجراً ساطعاً -
 وفجراً أبلج ، وهذه لفظة جيّدة من الشاعر أبدع فيها ، حيث
 جعل حليها نجوماً وجعل نحرها فجراً ساطعاً أبلج .
 وكان جديراً بهذه اللفظة من "العرجي" أن تَنْبَهُ الشعراء
 من بعده إليها غير أنهم ساروا في ركاب الجاهلين ، فقال
 "أبو العلاء المعرّي" :
 (٢)

زارتُ عليها للظلامِ رِوَاقُ

ومِنَ النُّجُومِ قَلَانِدٌ وَنِظَاقُ

(٣)

وقال "ابن زيدون" :

ولَدَيْكَ أَمْشَالُ النُّجُومِ قَلَانِدٌ

أَلْفَتِ سَمَاءُكَ لَبَّةً وَتَرِيبًا

(٤)

وقال "البهاء زهير" :

-
- (١) ديوان الشعر العربي ٤٥٣/١ .
 (٢) سقط الزند ص ٢١٠ .
 (٣) ديوان ابن زيدون ص ١٣٠ .
 (٤) ديوان البهاء زهير ص ٩٤ .

رَعَيْتُ نَجُومَ اللَّيْلِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا

على جِيدِهَا مِنْهَا عَقُودٌ تُدِيرُهَا

الصُّورَةُ الْأَصْلِيَّةُ هِيَ تَشْبِيهُ الْقَلَانِدِ بِالنَّجُومِ ، ثُمَّ دَارَ
الشُّعْرَاءُ فِي فِكْرِ هَذِهِ الصُّورَةِ يُولَدُونَ مِنْهَا دُونَ أَنْ نَجِدَ مِنْ بَيْنِ
هَذِهِ الصُّوَرِ مَا يَنْبَغِي عَنْ إِبْدَاعِ حَقِيقِي ، فَكَانَ الشُّعْرَاءُ هُنَا يَكْرُرُ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا .

ولقد وصف بعض الشعراء قرط الحبيب ببعض النجوم :

قال "أحمد الأرجاني" : "أَلَا طَرَقْتَنَا وَالثَّرِيَّا كَقُرْطِهَا" (١) .

وقال :

تَذَكَّرْكُمْ لَيْلٍ لَنَا سَالِفٍ
قُرْطُكَ قَدْ كَانَ ثُرِيَّاهُ (٢)

وقال :

هو البدرُ وافي ، والثريَّا كأنَّها

على الأفقِ مُلْقَى مِنْهُ - مِنْ عَجَلٍ - قُرْطُ (٣)

ففي البيت الأول يشبه الثريَّا بقرطها وهو تشبيه مقلوب
وفي البيت الثاني يجعل قرطها ثريَّا الليل ، وفي الثالث
يشبه الثريَّا بقرطها ، ووجه الشبه هو اللّمعان فلمعان
أقراطها يشبه لمعان الثريَّا .

وإذا كان الأرجاني يكثر من تشبيه أقراط الحبيب بنجوم
الثريَّا فإنّ غيره قد اختار نجومًا أخرى ومنهم "الرمّافي
البلنسي" الذي يقول : "وفي أذنك الجوزاءُ قُرْطًا مَعْلَقًا" فهو
يجعل قرطها مثل نجم الجوزاء .

(١) ديوان الأرجاني ص ٨٨٠ .

(٢) السابق ص ١٥١٦ .

(٣) السابق ص ٨٥١ .

(٤) ديوان الرّمّافي البلنسي ص ٩٥ .

(١)
وشبه "منصور كيبلغ" القرط بالمشتري فقال :
كَأَنَّهَا وَالْقُرْطُ فِي أُذُنِهَا بَدْرُ الدُّجَى قُرْطٌ بِالمُشْتَرِي
فصورة الحبيبة والقرط معلق بأذنها تشبه البدر قرط
بكوكب المشتري . ولو عاش صاحبنا إلى أيامنا وعرف شيئا عن
المشتري لتورّع وانكر واستنكف من تشبيهه القبيح .
وكما نجح "العرجي" في إبراز صورة حلي الحبيبة بأن
جعلها نجوم فجرٍ ساطعٍ أبلج نجد "البارودي" يصف قرط الحبيبة
(٢)
بقوله :

كَأَنَّ اهْتِزَازَ الْقُرْطِ فِي صَفْحِ جِيدِهَا
سَنَا كوكبٍ فِي مَطْلَعِ الْفَجْرِ لَانِحُ
فقرطها عندما اهتزّ على جانب عنقها كأنه سنا كوكب ،
وليس هذا بالليل وإنما ذلك عندما يلوح في مطلع الفجر ،
فاحترز أن يصف عنقها بالسّواد بقوله في مطلع الفجر .
ورأى كوكبة من الشعراء ، في لمعان الكواكب والنجوم ،
وظهور نورها مثلاً أعلى للحسن والجمال ، فشبها بها بعض
أعضاء من يحبون ، شبها بالخدود بالنجوم ، قال أحد شعراء
اليتيمة عن الليل :
(٣)
مَثَلْتُ صَدْعِيكَ لِي ظَلَمْتُهُ وَأَرَتْ خَدَيْكَ عَيْنِي أَنْجُمُهُ
فالشاعر يشبه خدود الحبيب بالنجوم ، ويقصر "الحلي"
تشبيهه خد الحبيب بالمريخ دون سائر الكواكب :
(٤)
وَحَكَى "المريخ" فِي مَنَعَتِهِ خَدَّ مَحْبُوبٍ بِلِحْظِ خُدْشَا

-
- (١) يتيمة الدهر ١/١٢٠ .
(٢) ديوان البارودي ١/١٥٧ .
(٣) يتيمة الدهر ٥/١٥٧ .
(٤) ديوان الحلي ص ٢٩٧ .

وشبهوا الثنايا بالنجوم ، قال "ابن عنين" : "وأبدى
من ثناياه أنجماً" .

وقال "الشَّابُّ الظَّرِيفُ" : "وإنَّ ثَنَايَاهُ نَجُومٌ لِبَدْرِهِ" .
ويشيرُ الانتباه قول "إبراهيم ناجي" : "وتأَلَقْتُ كَالنَّجْمِ
عَيْنَاهَا" لأنه أخذ من النَّجْمِ القه ولمعانه ، ووصف بهما عيني
صاحبتَه ، ولعلَّه نظر إلى قول "أبي العلاء" في سهيل :
(٤)

وَسُهَيْلٌ كَوْجَنَةُ الْحَبِّ فِي اللَّوِّ م

نِ وَقَلْبِ الْمُحِبِّ فِي الْخَفَقَانِ

يُسْرِعُ اللَّحْمَ فِي أَحْمِرَارٍ كَمَا تُسْمُ م

سِرْعُ فِي اللَّحْمِ مُقَلَّةُ الْغَضْبَانِ

وقد يشبَّهُ الحبيبُ بالنجوم لعلاقة أكثر دقة وخفاء غير

هذه العلاقة المحسَّة القريبة التي عرضتها لهؤلاء الشعراء ،
وذلك من نحو قول البحثري :
(٥)

أَيْنَ تَلَكَ الظُّبَاءُ أَشْبَهْنَ فِي الْحُضِّ م

نِ بُدُورًا وَفِي الْبِعَادِ نُجُومًا

فجمالهنَّ رائع كجمال البذور ، ومنالهن صعب كمنال
النجوم .

وقد يقتصر على اللمعان والبياض في وجه الشبه من نحو
(٦)

قول "التهامي" :

وَسَفَرْنَ فِي جُنْحِ الدُّجَى فَتَشَابَهَتْ
بِاللَّيْلِ أَنْجُمُ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ

-
- (١) مختارات البارودي ٤/٤٠٠ .
(٢) ديوان الشاب الظريف ص ٨٦ .
(٣) ليالي القاهرة ص ٢٧ .
(٤) ديوان سقط الزند ص ٩٥ .
(٥) ديوان البحثري ١/٣٠٩ .
(٦) ديوان التهامي ص ٦١ .

فمن يشتركن مع النجوم في اللعان والإساءة كما يقول
(١)
"معروف الرصافي" :

لَهَا جَيْدٌ ظَبِّيٌّ وَأَعْتِدَالٌ وَشِجَّةٌ
وَعَيْنٌ مَهَاةٌ وَائْتِلاقُ الْكَوَاكِبِ

وتلح فكرة شبه الحبيبة بالنجم على ذهن "الاخلطل
(٢)
المغير" فيعبر عنها في إبداع وتميز بقوله :

وَتَمَّتْ نَجْمَةٌ فِي أُذُنِ جَارَتِهَا
لَمَّا رَأَتْهَا وَجُنَّتْ عِنْدَ مَرَأَتِهَا:
أَنْظُرْنَ يَا إِخْوَتَا هَذِي شَقِيقَتُنَا
فَمَنْ تَرَاهُ عَلَى الْغَبْرَاءِ أَلْقَاهَا؟
أَتِلْكَ مَنْ حَدَّثَتْ عَنْهَا عَجَائِزُنَا
وَقُلْنَ : إِنْ مَلِكِ الْجِنِّ يَهْوَاهَا
فَأَطْلِقِ الْمَارِدَ الْجَبَّارَ عَاصِفَةً
تَغْزُو النُّجُومَ فَكَانَتْ مِنْ سَبَايَاهَا؟

فاتنة على الأرض ، تشاهدها النجوم ، فتهمس إحداهن
مستغربة في أذن الأخرى : هذه شقيقتنا . فمن ألقاها على
الأرض ؟ فتبحث عن علّة لذاك ، فتجد المخرج في حكاية روتها
عجائز النجوم ، وهي أنّ نجمة عشقها ملك الجن ، فأرسل
المارِدَ الجبّارَ عاصفةً غزت النجوم ، فسبا تلك النجمة ،
وأخذها إلى الأرض ، فكانت تلك الفتاة التي يمفها الشاعر
... والشاعر هنا يتحرّر من الطريقة التقليدية في التعبير
عند كثير من الشعراء كأن يقول : هي نجمة .. ولكنه أطلق

(١) ديوان معروف الرصافي ص ٥٤١ .

(٢) ديوان الاخلطل المغير ص ٥٢ .

لخياله العنان ، فحلَّق إلى أعالي السَّماء وسمع حديث النّجوم
وجاء بهذه الصورة الرائعة عن هذه الفتاة ، فبلغ الغاية في
الوصف ، وساعدته اللغة بياناً عمّافي خاطره ، فقوله على
لسان النّجوم "هذه شقيقتنا" أدخلها في جنس النّجوم ثمّ تفجّع
عليها : من ألقاها على الأرض ؟ وعلل وجودها على الأرض بتلك
الحكاية أو الاسطورة التي زادت الموصوفة جمالاً على جمال .

الفصل الثاني

ليالي الوصل

* ترقب الزيارة .

* الزيارة وملابسها .

* الوداع .

ليالى الوصل

ترقب الزّيارة :

مع أنّ العرب قبل إسلامهم ، كانوا يعيشون حياة جاهلية فقد كان لهم بعض العادات التي يحافظون عليها ، ومن ذلك المحافظة على أعراضهم ، يبذلون أرواحهم رخيصة في سبيلها ، فوصول رجل غريب إلى نساءهم أو قريباتهم معناه الفضيحة والعار والدّل ، فغالوا في المحافظة على العرض ، حتّى وأدوا البنات في المهمل ، خشية العار والفضيحة .

ثمّ جاء الإسلام وعزّز المحافظة على العرض، ولكن في غير وأد ، إنّما بالتربية الحسنة والتوجيه السليم ، وتنظيم علاقة الرّجل بالمرأة ، وإيقاع العقاب بمن يخالف النّظام الإسلامى ، وقد حرّم الإسلام لقاء الرّجل بالمرأة في خلوة مالم يكن من محارمها .

هذا الواقع دفع العاشقين إلى طلب الستر والهرب من النّور إلى الظلام ، فكان اللّيل بهدوئه وظلامه ، وحجبه الأعين مظنّة لقاء العاشقين ، وكلّ ما سبق انعكس على وجدان الشّاعر وضميره ، فانطلق في التعبير من خلال ذلك سواء كانت تجاربه التي يمورها حقيقة أو خيالا .

وانعكست هذه المؤشرات كلّها على لغة الشاعر ومعانيه وتراكيبه وأخيلته مما سأشير إليه خلال هذا الفصل ، فقد كشف كثير من الشّعراء عن سبب اختيار الليل موعداً للزّيارة .

(١)
يقول "امرؤ القيس" :

تَجَاوَزْتُ أَحْرَاسًا إِلَيْهَا وَمَعَشَرًا
عَلَيَّ حِرَامًا لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلِي
إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ
تَعَرُّضَ أَثْنَاءِ الْوِشَاحِ الْمُفَصَّلِ

فأهل الفتاة لا يرضون أن يمل إليها رجل غريب ، والشاعر
يوّد أن يملها ، غير أنّه خائف منهم ، فلو ظفروا به فقد
يلقى مصرعه على أيديهم ، فاختر اللّيل ليزورها فيه مؤملاً
أنّ يستره عن أعينهم ، ويختار من اللّيل وقت نوم أهلها كما
يقول :^(١)

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا

سُمُوَّ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالٍ

في ظلام اللّيل يمشي الشاعر خائفاً على مهل ، يترقب في
حركة هادئة وكأنّه حباب الماء الذي لا يكاد يسمع أحد حركته ،
وفي قوله : "سموتُ إليها" إشعار لنا بالعراقيل والعقاب
التي تجاوزها في خفة ورشاقة ودهاء ولفظ ، كأنّه في ذلك
حباب الماء الذي يطفو على السطح دون صخب أو ضجة . فما
أوجد هذه الصورة العجيبة ، إلا اللّيل ، وإلا المؤثرات التي
صنعتها البيئة والظروف .

والخوف لا يقتصر على الشاعر وحده ، فالمرأة التي
يزورها ليست أقل خوفاً منه ، فبعد أن تحمّل "امرؤ القيس" تلك
الرحلة حتّى دخل على فتاته فتفاجئه بخوفها :^(٢)

(١) السابق ص ٣١ .
(٢) السابق

فَقَالَتْ : سَبَاكَ اللَّهُ ، إِنَّكَ فَاضِحِي .

أَلَسْتَ تَرَى السَّمَارَ وَالنَّاسَ أُخْوَالِي ؟

فهي تخشى الغضيحة والعار لو كشف أمرهما بعضُ السَّمار .

و"الأعشى" ينتظر نوم الرقيب ليدخل على فتاته :^(١)

فَدَخَلْتُ ، إِذْ نَامَ الرَّقِيبُ — م — سُبُ فَبِتُّ دُونَ شِيَابِهَا

والرقيب ويقظته أو نومه من هذه الصُّور التي تشيع في

ليل الشاعر المحبِّ ، والذي مَكَّن "الأعشى" هنا من الزيارة ليلاً

هو نوم الرقيب الذي ظلَّ النَّهار يحوط صاحبه :^(٢)

فَظَلْتُ أَرَعَاهَا ، وَظَلَّ يَحُوطُهَا

حَتَّى دَنَوْتُ إِذَا الظَّلَامُ دَنَا لَهَا

فَرَمَيْتُ غَفْلَةً عَيْنِهِ عَنِ شَاتِهِ

فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطَحَالَهَا

حَفِظَ النَّهَارَ وَبَاتَ عَنْهَا غَافِلًا

فَخَلْتُ لِمَا حِبِ لَدَّةٍ وَخَلَالَهَا

لم يجدَّ الشاعرُ في النَّهار فرمة اللقاء ، وذلك الرَّجل

يحافظ على الفتاة ، ويقوم على حراستها ، فلا بدَّ من تحين

غفلته فكان ذلك مع الليل ، فلا يستطيع حارس الفتاة أن يصل

الليل بالنَّهار مراقبة ، فغلبه النَّوم بالليل فنام ، واغتتم

الشاعر نومَ الرَّاعي عن شاته ، فأصاب حبة قلبها وطحالها .

"وعمر بن أبي ربيعة" من أكثر شعراء العربية غزلاً

وصواحباً ، يزورهنَّ ، ويلقاهنَّ ، وشعره حافل بكثير من ذلك ،

وبمغامراته اللَّيلية ، حتَّى ليوشك أنْ يتميِّز من شعراء

(١) ديوان الأعشى الكبير ص ١٧ .

(٢) السابق ص ١٤٤ .

العربية بآنّه شاعر اللّيل ، ولقد أبان في مواضع كثيرة من شعره أنّ خوفه أو خوف اللّاتي يلقاهنّ من الأعمين جعله يتّخذ اللّيل ستراً لمغامراته ، ولزيارة من يحب ، فيضرب المواعيد (١) فيه :

فأتاها ، فقال : ميعادك السّرّ ح ، إذا اللّيل سدّلت الأستارا
بلغ الرسول الرسالة ، وضرب لها موعدا ، أمّا المكان
فهو السّرح ، وأمّا الزمان فهو اللّيل ، غير أنّ الشاعر يهيف
إذا أسدل الأستار إمعاناً في التّخفي عن عيون الرّقباء وغيرهم
ويمف "عمر" الطريقة التي جاء بها للمكان : (٢)

ثُمَّ أَقْبَلْتُ رَافِعَ الدَّيْلِ ، أُخْفِي

الوَطءَ ، أُخْشَى العيونَ والنُّظَّارا

ومع أنّ "عمر" جاء تحت أستار اللّيل ، إلا أنّ الخوف من العيون والأسماع مسيطر عليه ، لذلك هو رافع طرف ثوبه ، حتّى يخفي وقع أقدامه ، خشية أن يبصره أحد فيصبح مطلوباً لأهل صاحبتّه ، ونراه في كل مناسبة كهذه يطلب غفلة العيون : (٣)

حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ ظِلَامُهُ

وَرَقَبْتُ غَفْلَةَ كَاشِحٍ أَنْ يَمْحُلَا

وَاسْتَنكَحَ النَّوْمُ الَّذِينَ نَخَافُهُمْ

وَرَمَى الكَرَى بَوَابَهُمْ فَتَخَبَّلَا

خَرَجَتْ تَأَطَّرُ فِي الثِّيَابِ كَأَنَّهَا

أَيُّمْ يَسِيبُ عَلَى كَثِيبٍ أَهْيَلَا

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٦٢ .

(٢) السابق ص ١٦٢ .

(٣) السابق ص ٣١٢ .

ساد الظلامُ وستر الشاعرَ العاشقَ الَّذي يرقب غفلةَ العيون
ونام الذين يخافهم ، وكان بوابهم في إعياء شديد من السهر
والنَّعاس يغالبه ، فكأنَّه المخبول ، فحركته ليست دليل يقظة
بل هو غافل عمّا حوله ، فلمّا حانت ساعة اللقاء ، خرجت
الفتاة وهي حريصة ألا يصدر عنها صوت أو حركة تنبه أحداً ،
تسير سيرة الحيّة على الرَّمَل دون أن تُسمع لها نأمة .
فالشاعر يرسم بخطوط واضحة حالته النفسية وحال فتاته
يمّا يعتلج فيهما من مشاعر الخوف والقلق ممّن حولهما ،
عندما يجمعهما اللقاءُ تحت أستار الظلام ، وبعد أن نام
النَّاس ، وغلب النَّعاس على الحارس ، ومن هنا ندرك اهتمام
الشاعر العربي العاشق بالليل ، واختياره مسرحاً للزيارة
واللقاء .

ويحدد "عمر بن أبي ربيعة" أفضل أوقات الليل للزيارة
(١)
بقوله :

فَلَمَّا مَمَّتْ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ هَجَعَةً
وَأَيَقَنْتُ مِنْ حِسِّ الْعَيْونِ غَفولاً
دَخَلْتُ عَلَى خَوْفٍ ، فَأَرَقْتُ كَاعِباً
هَفِيمَ الْحَشَا رِيّاً الْعِظَامِ كَسولاً
فَعَمَّتْ عَلَى الْإِبْهَامِ مِنْهَا مَخَافَةٌ
عَلِيٍّ ، وَقَالَتْ : قَدْ عَجِلْتَ دَخولاً
ليس سهلاً أن يزورها أول الليل فلا بدّ من الانتظار حتّى
يتيقن أن من حولها قد ناموا وغفلوا ، فيجد في ذلك فرسة

الدخول إليها ، ولكنه دخل على خوف ، وهو بهذا يبيِّن حالته
النفسية ، التي طفى عليها الخوف ، غير أنَّ رغبة اللقاء
تغلبت على الخوف ، فدخل إليها ، فالحب يكلف صاحبه الهول
(١)
كما يقول :

وليلةٍ ذي دَورانٍ جَشمتني السَّرى
وقد يَجشمُ الهولَ المُحبُّ المُغرَّر
فَبِتُّ رَقِيباً للرِّفاقِ على شَفا
أُحاذِرُ منهمُ من يَطُوفُ ، وَأَنظُرُ
إِليهمُ متى يَسْتَمِكُنُ النَّومُ مِنْهُمُ
وَلِي مَجْلِسٌ ، نَوَلَا اللُّبَّانَةَ أَوَّعِرُ
لقد كلفه الحبُّ الهولَ والعناء ، فبات ساهراً يراقب
القوم ، حذراً منهم ناظراً إليهم ، منتظراً ساعة نومهم ، علَّه
يفوز بزيارة محبوبته وأمَّا ناقتة فقد باتت بالعراء ، وهو
أعون على التخفي :
(٢)

وَبَاتَتْ قَلُومِي بِالْعَرَاءِ وَرَحَلُهَا
لِطَارِقِ لَيْلٍ ، أَوْ لِمَنْ جَاءَ ، مُعَوِّرُ
باتت بالعراء مكشوفة ، وقد تذهب نهبا ، لأنَّه ابتعد
عنها ودخل بين بيوت أهل الحبيبة ، ويمف حيرته النفسية فهو
لايعرف خباءها تحديداً ، ويخشى أن يدخل غير منزلها فيفتضح
(٣)
أمره :

وَبِتُّ أَنَا جِي النَّفْسِ : أَيَّنَ خِبَاؤُهَا ؟
وكيف لِمَا آتِي مِنَ الْأَمْرِ مَمْدَرُ ؟

(١) السابق ص ١٢٢ .

(٢) السابق .

(٣) السابق .

قَدَلَّ عَلَيَّهَا الْقَلْبَ رِيًّا عَرَفْتُهَا .
 لَهَا ، وَهَوَى النَّفْسِ الَّذِي كَادَ يَظْهَرُ
 وبعد أَنْ عَرَفَ خِبَاءَهَا تَفَقَّدَ أَحْوَالَ أَهْلِهَا وَمَا حَوْلَهُ :
 فَلَمَّا فَقَدَتْ الصَّوْتَ مِنْهُمْ وَأُطْفِئَتْ
 مَصَابِيحُ شُبَّتْ فِي الْعِشَاءِ وَأَنْوَرُ
 وَغَابَ قَمِيرٌ كُنْتُ أَرْجُو غُيُوبَهُ
 وَرَوَّحَ رُعْيَانَ ، وَنَوَّمَ سَمَرَ

لقد غلب عليه وجده ، والتمس الأمان فيما حوله ومن حوله
 حتَّى لا يُفْتَضِحَ أَمْرُهُ وَأَمْرُ صَاحِبَتِهِ ، فَاسْتَخْفَى حَتَّى رَوَّحَ الرُّعْيَانَ ،
 وَنَوَّمَ السَّمَارَ ، وَغَابَ قَمِيرٌ كَانَ يَرْجُو غِيَابَهُ ، وَأُطْفِئَتْ
 المصابيح ، فتدرَّع بظلام الليل ، فهو جنة من الرقباء ، وكم
 لظلام الليل من يد على "عمر" أشاد بها في لياليه المريبة
 (١)
 هذه :

وَنَفَّضْتُ عَنِّي النَّوْمَ ، أَقْبَلْتُ مَشِيَةَ الْ
 حُبَابِ ، وَرُكِنِي ، خَشِيَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ
 فَحَيِّتُ إِذْ فَاجَأَتْهَا ، فَتَوَلَّعَتْ
 وَكَادَتْ بِمَخْفُوضِ التَّحِيَّةِ تَجْمَرُ

مضى من اللَّيْلِ الكَثِيرِ ، وَ"عمر" يَرْقُبُ مِنْ حَوْلِهِ حَتَّى أَوْشَكَ
 أَنْ تَأْخُذَهُ سِنَةٌ ، يَلْجُ بِهِ خَوْفٌ يَمَلَأُ قَلْبَهُ ، فَأَزَالَهَا عَنْ عَيْنَيْهِ ،
 وَتَقَدَّمَ إِلَى خِبَاءِ صَاحِبَتِهِ ، يَمْشِي مَشِيَةَ التَّعْبَانِ خَوْفًا وَحَذَرًا
 إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَيْهَا ، وَكَانَ لَهُ اللَّيْلُ مَجْنًا وَسَاتِرًا ، وَهَذَا
 الْخَوْفُ لَيْسَ قَاصِرًا عَلَى الشَّاعِرِ وَحْدَهُ ، فَصَاحِبَتُهُ لَيْسَتْ أَقَلَّ مِنْهُ
 خَوْفًا ، قَالَ "عمر" عَلَى لِسَانِهَا عِنْدَمَا رَأَتْهُ :
 (٢)

(١) السابق

(٢) السابق ص ١٢٣ .

وَقَالَتْ وَعَفَّتْ بِالْبَنَانِ : فَفَحَّتَنِي

وَأَنْتَ امْرُؤٌ ، مَيْسُورٌ أَمْرِكَ أَعْسَرُ

عَفَّتْ بِنَانَهَا ، حُرْكَةٌ تَمْدُرُ عِنْدَ الْخَوْفِ ، أَوْ عِنْدَ تَكْلُفِ
الْخَوْفِ ، وَقَالَتْ : فَفَحَّتَنِي فَهِيَ تَخَافُ الْفُضِيحَةَ ، وَتَخْشَاهَا ، فَلَنْ
يَرْحَمَهَا أَهْلُهَا لَوْ عَلِمُوا بِحَالِهَا ، وَلَنْ يَغْفِرُوا لِعَمْرِ سَطْوِهِ عَلَى
أَعْرَاضِهِمْ .

وَالْعَاشِقَاتُ يَدْرِكُنَ أَحْوَالَ اللَّيْلِ السَّاتِرَةَ ، فَيَضْرِبُنَ

المواعيد فيه قال "عمر" على لسان إحداهن :
(١)

أَخْشَى عَلَيْهِ الْعَيْنَ إِنْ بَصُرَتْ بِهِ

وَتَرَى مَبَابِتَنَا بِهِ ، فَتَهَابُهُ

إِنَّ النَّهَارَ ، وَذَاكَ حَقٌّ وَاضِحٌ

وَاللَّيْلُ يَخْفَى بِالظَّلَامِ رِكَابُهُ

فَاللَّيْلُ مِظَنَّةٌ لِقَاءِ الْعَاشِقِينَ ، وَأُرْسِلَتْ إِلَى "عمر" إِحْدَى

صَوَاحِبِهِ فَقَالَ عَلَى لِسَانِهَا :
(٢)

بِأَنْ بَتَّ عَسَى أَنْ يَسْتَرَّ اللَّيْلُ مَقْعِدًا

وَيَغْفُلَ عَنَّا ذُو الرَّدَى الْمُتَهَجِّدِ

فِي اللَّيْلِ تَغْفُلُ الْعَيُونَ ، وَيَغْطِي الظَّلَامُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَقَدْ

يُشِيرُ بَعْضُهُنَّ إِلَى هَذِهِ الْمَعَانِي ، إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْنَ الْكَلَامَ خَشْيَةَ مِنْ

(٣)
حَوْلَهُنَّ :

فَأَبَانَ رَجْعُ الطَّرْفِ : أَنْ لَا تَرْحَلْنَ

حَتَّى يَجُنَّ النَّاسَ لَيْلٌ مُظْلِمٌ

فَلَعَلَّ غِبَّ اللَّيْلِ يَسْتُرُ مَجْلِسًا

فِيهِ يُوَدِّعُ عَاشِقٌ وَيَسْلَمُ

(١) السابق ص ٣٨ .

(٢) السابق ص ١٠٨ .

(٣) السابق ص ٣٦٣ .

ليس اللقاء في النهار ميسوراً ، لكن الليل سائر
المحبين سهل ذلك ، فجعله "عمر" لباساً يرتديه عند زيارة
الحبيب :
(١)

لَبَسَ الظَّلامَ إِلَيْكَ مُكْتَتِمًا خَفِرًا لِحَاجَةِ آفِ مَبِّ
فالليل لباس يرتديه الشاعر العاشق الخائف ، عندما
يوّد زيارة الحبيب ، فيستره عن العيون .

واقع الشعراء أو عادات مجتمعهم العربي والإسلامي والتي
تمنع لقاء الرجل بالأنثى ما لم يكن من محارمها ، والتي جعلت
العقاب شديداً وأحياناً مروّعاً لمن يخالف ذلك ، انعكس على
خيال الشعراء فسواء كانت التجارب التي ينطلقون منها
حقيقية أم خيالاً ، فإنها تعكس واقع مجتمعهم وعاداته ، فما
دام المجتمع يمنع لقاء الرجل بالأنثى كان لابدّ من طلب السّتر
وسرقة اللقاء وتجنّب الأعين وإخفاء الأكثر ، ووجد الشعراء في
الليل مظنة اللقاء لظلامه الذي يخفيهم عن العيون من ناحية
ولأنّ النّاس ينامون فيه من ناحية أخرى . قال "قيس بن
الملوح" :
(٢)

وَقَدْ أَرْسَلْتُ لَيْلَى إِلَيَّ رَسُولَهَا

بِأَنَّ آتِنَا سِرًّا إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمَا

فَجِئْتُ عَلَى خَوْفٍ وَكُنْتُ مُعْوِذًا

أُحَادِرُ أَيَقَاطًا عُدَاةً وَنَوْمًا

ومع أنّ الليل مظلم إلا أنّ قيساً يقول "فجئت على خوف"
الخوف من أنّ يشعر أهل ليلى به فيقع له مايكره ، وهذا

(١) السابق ص ٢٣ .

(٢) ديوان قيس بن الملوح ص ٢٠١ .

يذكرنا بقول "عمر بن أبي ربيعة" "دخلتُ على خوف" فكلاهما على خوف يأتي ، فالعاشقون يخشون الفضيحة والعار وما يتبع ذلك ، قال "الفرزدق" :
(١)

وَقُلْنَ لَهَا : يَا هِنْدُ ! لَا تَبْعِدِي بِنَا
فَاتْنَا نَخَافُ اللَّيْلَ أَنْ يَتَقَفَّرَا
عَلَيْنَا وَنَخْشَى النَّاسَ أَنْ يَشْعُرُوا بِنَا
فَيُفْهِمَ مَا نَخْشَى عَلَيْنَا مُشَرَّارَا

خرجت هند في صواحبها ليلاً للقاء "الفرزدق" ولكن صواحبها يخشين الفضيحة والعار لو اتبع أشهرن ، أو كشف أمرهن . وقال "العكوك" :
(٢)

بِأَبِي مَنْ زَارَ مُكْتَتِمَا
زائر نمّ عليّه عرفه
رمد الغفلة حتى أمكنت
ركب الأخطار في زورته
خائفاً من كل شيء فزعاً
كيف يخفي الليل بذراً طلعا
ورعى الساهر حتى هجعاً
ثم ما سلم حتى ودعاً

فالشاعر يصور زيارة من حبيب تحت أستار الظلام ، فهو خائف فزع من كل شيء ، ولم يخرج للزيارة حتى أمن العيون والساهرين .

"وابن المعتز" يرى أن ليل قميماً يستر زائر الليل العاشق :
(٣)

وَجَاءَنِي فِي قَمِيمِ اللَّيْلِ مُسْتَتِرَا
يَسْتَعْجِلُ الْخَطْوَ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ حَذَرٍ
ولاح ضوء هلالٍ كاد يفحسه
مثل القلامة قد قمت من الظفر

-
- (١) ديوان الفرزدق ٢٨٧/١ .
(٢) تزيين الأسواق ص ٤٣١ .
(٣) المصون في الأدب ص ٣٦ .

أخفى الليلُ الزائرَ العاشقَ وكأنَّه ألبسه قميصاً اسود ،
يستره عن الأعين فلا يرى ، ولكن مع هذا الستر نلقاه يستعجل
الخطو خوفاً وحذراً ، يخشى حتى من النور القليل . و"ابن
المعتز" يخشى نور الهلال أن يفضح الحبيبَ القادم ، مع أنه
ضعيف جداً ، وكأنَّه قلامة قُدَّت من الظفر فهو إما في أول الشهر
وإما في آخره ، ويجعل الهلال مثل القلامة ليبين شدة حذره
وخوفه على محبوبه ، فمع أن الهلال بهذا الحجم إلا أن له
نوراً يلوح قد يفضح الحبيبَ القادم الذي يتخذ من سواد الليل
قميصاً يتخفى به من الأعين ، فهو لا يريد أي نور حتى وإن كان
هلالاً صغيراً كقلامة الظفر .

ويصور "ابن المعتز" في موضع آخر العواطف التي تتمارع
في نفس الحبيب القادم تحت الظلام :^(١)

يَقُودُهُ الشَّوْقُ خَائِفاً وَجِلًّا تحت الدَّجَى والعُيُونُ في سُغْلٍ

عاطفتان تتمارعان داخل نفس الحبيب ، شوق يدفعه إلى
الخروج ليلقى من يحب ، وخوف من الناس يرعبه لكن عاطفة
الشَّوْق تغلب الخوف فقد ساعدها ظلام الليل ، وانشغال عيون
النَّاس ، فقاده الشَّوْق إلى من يحب ، وقال "ابن المعتز" :^(٢)

وَلَمْ أَزَلْ ، وَاللَّيْلُ سَتْرٌ لَنَا مِنْ دُونِ رُقَابٍ وَحُرَّاسٍ
وقال في موضع آخر :^(٣)

قَدْ بَتَّ أَلْشَمُهُ ، وَاللَّيْلُ حَارِسُنَا

حتى بدأ الصُّبْحُ مُبَيِّنَ المَقَادِيمِ

فعبارات "ابن المعتز" قميص الليل - تحت الدَّجَى -
الليل ستر لنا - الليل حارِسُنَا توحى بمكانة الليل في نفسه

(١) ديوان ابن المعتز ص ٣٦٨ .

(٢) السابق ص ٢٦٩ .

(٣) السابق ص ٤٠٥ .

فهو يسهل له لقاء من يهوى ويحرسهما ويسترهما عن أعين
النَّاسِ ، وهذا الإحساس امتدَّ في خيال "ابن المعتز" حتى جعل
الليل قوَّاداً فقال :^(١)

لَاتَلَقَ إِلَّا بَلِيلٍ مَنْ تُوَامِلُهُ فَالشمسُ نَمَامَةٌ وَاللَّيْلُ قَوَّادٌ
كَمْ عَاشِقٍ وَظَلَامُ اللَّيْلِ يَسْتُرُهُ لاقَى أَحَبَّتَهُ ، وَالنَّاسُ رُقَّادٌ

ومع هجئة لفظتي "نمَّام وقوَّاد" إلا أنَّهما يصوران بوضوح
إحساسَ الشَّاعرِ العاشقِ تجاه اللَّيْلِ والنَّهارِ إنَّ كان هناك لقاء
بيْنَ عاشقين ، فالنَّهارُ بِشَمْسِهِ يَنُومُ عن كلِّ شيءٍ ، وَيُجَلِّيه
للعيون ، فليس يسيراً لقاءُ عاشقين في مجتمعٍ يحرمُ دينُهُ
وترفضُ عاداته هذا اللقاء ، ولكن هذا النَّهارُ يقابله اللَّيْلُ
الَّذي يسترُ كلَّ شيءٍ بظلامه حتى لا يكاد تُمَيِّزُ الشخوصُ القريبة ،
وينام النَّاسُ فيه ، ولا يخرجون إلا لِمَا فيمكن للعاشقين
اللقاء ولكن هل يستحقُّ أنْ يوصفَ بقوَّاد ؟

يرى "ابن جنِّي" أنَّ قول "ابن المعتز" فالشمسُ نَمَامَةٌ
والليلُ قَوَّادٌ "الفظ لِين صغِير جداً" ، غير أنَّ "المتنبي" أخذ
هذا المعنى فقال :

أزورهم وسوادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لي
وأُنثني وبَيَاضُ السُّبْحِ يُغْرِئُ بي

ويرى أنَّ بيتَ "المتنبي" جليل اللفظ حسن التقسيم ،
وشاطره "الشَّعْلبِي" هذا الرَّأْيُ حتى جعل البيت المذكور أمير
شعر "المتنبي" ويقول : "فلله درّه ، وناهيك بشرف لفظه ،
وبراعة نسجه " .

(١) السابق ص ١٦٦ .

(٢) يتيمة الدهر ١/١٧٠ .

ويقول مؤلف "نشار الأزهار" : "قد أحسنَ "أبو الطَّيِّب" هذا المعنى وأزال عنه هجنة لفظتي نمام وقواد" .^(١)

ويرى "الأنطاكي" أن في بيت "المتنبي" حسن المقابلة وهو من دقائق "المتنبي" اللطيفة .^(٢)

ولقد عدّه شارح الديوان من معجزات "المتنبي" .^(٣)

واهتمام النقاد وبعض الشراح بهذا البيت إلى هذا الحدّ يعكس ما في نفوس النقاد من ميل تجاه الليل ، فقد رفضوا أن يكون قوادا كما قال "ابن المعتز" وأطربهم قول "المتنبي" "يشفع لي" كذلك يرى "المتنبي" الليل يستر الحبيب فيتخذه غطاءً للزيارة (وَزَارَكَ فِيهِ ذُو الدَّلَالِ الْمُحَجَّبِ)^(٤) .

وقال "ابن هانيء الأندلسي" :^(٥)
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا سَامِرُ اللَّيْلِ هَادِرٌ

من البُزْلِ أَوْ غَرِيدُ سَرْبٍ مِنَ البَعَمِ

طَرَقَتْ فَتَاةَ الحَيِّ إِذْ نَامَ أَهْلُهَا

وقد قام ليلُ العاشقينَ على قَدَمِ

"ابن هانيء الأندلسي" يحدو حدو المشاركة في شعره فيقول إنّه انتظر حتى نام من حول فتاته ولم يعد يسمع من الأموات إلا صوت جمل هادر ، أو صوت بهم لم تنم ، فدخل على فتاته في غفلة من أهلها ، وتحت ستار الليل وحجبه ، وهذا عمل كثير من الشعراء .

و"إسماعيل بن يسار النسائي" من خوفه يخافت المشي

(١) نشار الأزهار ص ٣١ .

(٢) تزيين الاسواق ص ٤٢٣ .

(٣) ديوان المتنبي ٢٩٠/١ .

(٤) السابق ٣٠٢/١ .

(٥) ديوان ابن هانيء الأندلسي ص ٣٤٤ .

(١)
فيقول :

أَخَافُ الْمَشِيَّ حِذَارَ السَّرْدَى
وَاللَّيْلُ دَاجٌ حَالِكٌ مُظْلِمٌ
حَتَّى دَخَلْتُ الْبَيْتَ ، فَاسْتَدْرَقْتُ
مِنْ شَقِّ عَيْنَاكِ لِي تَسْجُمُ

توارد مذهب على التخفي وإظهار الخوف ، واختيار الليل عند زيارة الحبيب ، غير أننا نظفر ببعض التمايز في التعبير عن ذلك فقوله "أخافت المشي" يرسم لنا صورة الشاعر تحت جناح الظلام وهو خائف حذر ينقل قدمه من مكانها دون أن تحدث صوتاً أو جلبلة تدلّ عليه ، فهو يخافت المشي وقد استفاد من ظلام الليل وما يقدمه له من ستر وغطاء فلم يشعر به أحد ، ومثل هذا الإحساس بالليل دفع "يحيى بن خالد" ليقول لابنه "الفضل" عندما بلغه عنه إقباله على القمص وإهمال أمور الناس :^(٢)

انمبَّ نهاراً في طلب العُلا	واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل دنا مقبلاً	وانحسرت فيه عيون الرقيب
فاخل مع الليل بما تشتهي	فإنما الليل نهار الأريب
كم فاتك تحسبه ناسكاً	يستقبل الليل بأمر عجيب
غطى عليه الليل أثوابه	فبات في أمن وعيش خميب
ولذة الأحمق مكشوفة	يسعى بها كل عدو رقيب

"يحيى بن خالد" يوصي ابنه أن يطلب الستر إن ابتلي بالمعاصي فيوصيه أن يلتزم درب الجادة في النهار ، وأن يصبر عن الأمور التي يعيبها المجتمع من حوله وأن يتركها حتى يأتي الليل ، فالليل نهار الأريب ، والحبيب الذي صبر على فقده نهاراً يمكن أن يلقاه ليلاً في ستر وخفاء ، ونجد أن

(١) ديوان الشعر العربي ١/٤٨٠ .
(٢) نثار الأزهار ص ٣٥ .

لفظ "اللَّيْلُ" قد تكرر ستّ مرات في هذه المقطوعة التي هي وصية من والد إلى ولده ، وهذا يدلّ على مدى تعمق الإحساس بما يمكن أن يخفيه اللَّيْلُ عن أعين النَّاسِ .

ومن خاف عيون الأعمادي يتّخذ اللَّيْلُ سلّماً على حدّ تعبير بعضهم :^(١)

فَقَالَتْ : كَذَاكَ الْعَاشِقُونَ وَمَنْ يَخْفُ

عِيُونَ الْأَعْمَادِي يَجْعَلِ اللَّيْلُ سَلْمًا

سلّماً يوصله إلى ما يشتهي ويحبّ ، في حذر ويقظة حتّى أن بعضهم يخشى أن يدلّ عليه أيُّ صوتٍ من الأصوات التي تصدر عنه ، ومن هذه الأصوات "صوت الحليّ" قال "المعلّى بن أبي زرعة الدمشقي" :^(٢)

اسْتَكْتَمَتْ خُلْخَالَهَا وَمَشَتْ تَحْتَ الظَّلَامِ بِهِ فَمَا نَطَقَ

فهي تسير ببطءٍ شديد تحت الظلام ، حتّى لا يصدر عن خُلْخَالَهَا صوت يدل على مكانها فيفضحها ، ومن هذا قول "أبي فراس الحمداني" :^(٣)

أَيَّارَبِّ حَتَّى الْحَلِيِّ مِمَّا نَخَافُهُ وَحَتَّى بِيَاضِ الصُّبْحِ مِمَّا نَحَادِرُ

فالحليّ التي يحبها الإنسان ويتمنّى اقتناءها أصبحت في هذا الموقف ممّا يخاف ويكره ، لأنّ عاطفة الخوف مسيطرة عليهما تحت جنح الظلام أساساً ، وأي صوت قد يفضحهما ويقع ما يكرهان ، والحليّ بطبعها تموت بحركة المرأة فيكون لها وسوسة ، ولهذا خافا من الحليّ ، وكذلك الحذر من بياض الصبح الذي سيرفع عنهما ستر اللَّيْلِ وحجابه فتراهما الأعين ، ولذا فإن "أبا فراس" جعل اللَّيْلُ رداءً يرتديه :^(٤)

(١) مصارع العشاق ٧/٢ .

(٢) ديوان الشعر العربي ٢٥١/٢ .

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني ص ٨٢ .

(٤) السابق ص ٣٥ .

لِبِسْنَا رِداً اللَّيْلِ وَاللَّيْلِ راضِعٌ

إلى أَنْ تَرَدِّي رَأْسَهُ بِمَشِيْبِ

فَاللَّيْلِ رِداً يَلْبِسُهُ "أَبُو فِرَاسٍ" كَمَا لَبَسَهُ "عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ" مِنْ قَبْلِهِ وَ"ابْنُ الْمَعْتَزِ" يَجْعَلُهُ قَمِيماً يَسْتَتِرُ بِهِ مِنْ حُبِّ كَمَا جَعَلَهُ حَارِساً لَهُ ، وَوَصَلَ الْأَمْرُ بِهِ أَنْ جَعَلَهُ قَوَادِ .

أَمَّا "الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ" فَإِنَّهُ قَدْ وَجَدَ أَهْلَ الْحَيِّ نِيَاماً وَلَكِنَّ كَلْبَهُمْ مَتَيْقِظٌ فَظَلَّ يَمَانَعُهُ :
(١)

أَمَانِعُ الْكَلْبِ أَنْ يُبَدِيَ عَقِيرَتَهُ

وَالْحَيِّ مَنِّي ، إِذَا أُغْفُوا عَلَى غَرَرٍ

"فَالشَّرِيفُ الرَّضِيُّ" يَرَسُمُ لِنَفْسِهِ صُورَةَ هَزْلِيَّةٍ ، تَحْتَ جَنَحِ الظَّلَامِ ، فَيَسْتَرْمِي الْكَلْبَ وَيَمَانَعُهُ حَتَّى لَا يَفْضَحَهُ وَيُشِي بِهِ نَبَاحَهُ . وَيَصُورُ "الْأَبِيُورْدِي" خَوْفَ الْفَتَاةِ الَّتِي زَارَهَا لَيْلاً مَمَّنْ
(٢)
حَوْلَهَا :

سَمَوْتُ لَهَا وَاللَّيْلُ حَارَتْ نَجْوْمُهُ

عَلَى أَفْقٍ عَارٍ بِظِلِّ الدُّجَى كَاسٍ

فَهَبَّتْ كَمَا ارْتَاعَ الْغَزَالُ وَأَوْجَسَتْ

مِنْ ابْنِ أَبِيهَا خَيْفَةً أَيْجَاسٍ

تُشِيرُ إِلَى مُهْرِي حِذَارَ مَهِيلِيهِ

وَتَسْتَكْتِمُ الْأَرْضُ الْخُطَى خَشْيَةَ النَّاسِ

فَسَمَوَتْ إِلَيْهَا وَنَجُومُ اللَّيْلِ حَائِرَةٌ ، أَيُّ بَعْدِ هَجُوعِ النَّاسِ وَرِقَادِ السَّمَارِ ، وَارْتِيَاعِ الْفَتَاةِ وَتَوَجُّسِهَا ، وَتَخَافَتِ مَشِيْهَا ... كُلُّهَا مَعَانٍ مَنقُولَةٌ عَنِ السَّابِقِينَ ، إِلَّا أَنَّ الشَّاعِرَ أَضَافَ إِلَى هَذِهِ الْمَعَانِي ، وَأَخْرَجَهَا مَخْرَجاً يَجْعَلُهَا كَأَنَّهَا صَاحِبُهَا وَمَبْدَعُهَا . وَمِنْ هُنَا تَتَجَلَّى مَوْهَبَةُ الشَّاعِرِ وَمَقْدَرَتُهُ الْفُنِّيَّةُ .

(١) ديوان الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ ٤٥٩/١ .

(٢) مختارات البارودي ٣٧٢/٤ .

ولو تأملنا التشخيص الذي صاغ فيه البيت الأول لوجدناه قد انفراد بإبداعه .. فالنجوم حائرة على أفق رحب عار ، ليس به إلا الدجى يكسوه .. لو تأملنا هذه الصورة البديعة لاكتشفنا امتلاء حسّ الشاعر بالمعنى ، وانفعاله العميق به ، ومن ثمّ أُتيح له إخراجها في هذا الخيال الخصب المعجب .

وكذا قوله "وتستكتم الأرض الخطى خشية الناس" إنّه من المعاني التي يجود بها شيطان الشعر على المبدعين ، ولا يكون ذلك كثيرا .

ويمصّر "ابن زيدون" مسراه في إحدى الليالي بسرى
(١)
الحية :

وَلَيْلَةٌ وَاقَيْنَا الْكَثِيبَ لِمَوْعِدِ
سُرَى الْأَيْمِ لَمْ يُعْلَمَ لِمَسْرَاهُ مَزْحَفٌ

وماحبة "ابن زيدون" التي لقيها تحت جناح الظلام ليست
(٢)
اقل خوفاً منه يقول عنها :

وَلَيْلَةٌ وَاقَيْنَا الْكَثِيبَ لِمَوْعِدِ
كَمَا رِيحَ وَسَنَانَ الْعَشِيَّاتِ حَاذِلٌ

فزعمة خائفة ، وكأنّها ظبية انفردت عن قطيعها . أمّا
(٣)
إذا اجتمعا فهما سرّان في خاطر الظلّماء :

سِرَّانِ فِي خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا
حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُقَشِينَا

فالمصباح له لسان وهو نوره الساطع الذي يسهل للعيون
رؤيته فينفخ مستورا أمره ، بعكس الليل الذي يأخذه في
(٤)
جنانه كما يقول "الطغرائي" :

(١) ديوان ابن زيدون ص ١٠٢ .
(٢) السابق ص ١٥٤ .
(٣) السابق ص ١٢ .
(٤) مختارات البارودي ٣٣٤/٤ .

ياوقفةً في جنانِ اللَّيْلِ خَافِيَةً

عن الوشاةِ فلأرقبى ولأعدلُ

فظام الليل هو المطلوب وليس الليل في ذاته ، لأنَّ
الظلام يقدم السّتر وهو ما يطلبه الشّاعر العاشق في الوصل ،
وهو يطلب هذه الليالي ، وإن لم يجدها سرقها على حدّ تعبير
"الأرجاني" :^(١)

لَمَّا اسْتَرْقْنَا مِنَ الْغَيْرَانِ لَيْلَتَنَا

وباتَ كُلُّ بِيْمَنْ يَهْوَاهُ جَدَلَنَا

راقب العيونَ حتّى غفلتُ ، وغنم تلك الليلة ، أو على حدّ
تعبيره استرقها من الغيران ، ولأأدرى كيف واثت "الأرجاني"
- غفر الله له كل زلاته الفنيّة - هذه الصورة المعجبة التي
لاتواتي شاعراً إلا في أقسى حالات الاستغراق الفنّي كيف سرقت
ليلتك الجدلى من الغيران يا أرجاني ؟ إنّها عبقرية الخيال
البكر الرائع يهبها الله لمن يشاء .

وفكرة أنّ الليل غطاء ورداء على العاشقين فكرة

تداولها الشعراء ، غير أنّ "الأرجاني" يجعله درعا :^(٢)

وَرُبَّ لَيْلٍ قَدْ تَدَرَّعَتْهُ رَهِينُ شَوْقٍ نَحُوكِمِ وَارْتِيَا حِ

وأرى أنّ جعل الليل درعاً أبلغ من وصفه بالرداء

والقميص لأنّ الدّرع يغطّي ويحمي ، والرداء يغطي فقط .

و"ابن خفاجة" يصف الليل بالحجاب فيقول : "والليلُ دونَ

الكاشحينِ حِجَابٍ" . حجاب يحمي ويستتر ، ولهذا ضرب فيه^(٣)

العاشقون مواعيدهم . قال "البهاء زهير" :^(٤)

وَزَائِرَةٌ زَارَتْ وَقَدْ هَجَمَ الدُّجَى وَكُنْتُ لِمِيعَادِ لَهَا مُتَرَقِّبًا

(١) السابق ٣٦٢/٤ .

(٢) مختارات البارودي ٣٤٨/٤ .

(٣) ديوان ابن خفاجة ص ٣٥ .

(٤) ديوان البهاء زهير ص ٣٧ .

(١)
 ومثله "حازم القرطاجني" الذي يقول :
 وَأَعْلَمْتَنِي بِأَنَّ اللَّيْلَ مَوْعِدُنَا
 فَظَلْتُ مَرْتَقِبًا مِيقَاتَ لُقْيَانَا
 حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ أَخْفَى الشَّخْصَ غِيْهْبُهُ
 فَلَمْ يَكُنْ يُبْصِرُ الْإِنْسَانَ إِنْسَانًا
 وَافِيَتْ مُنْزَلَهَا وَالنَّجْمُ يَرْمُقُنِي
 حَتَّى لَكَدْتُ أَظْنَ النَّجْمَ غَيْرَانَا

ضربت له الليل موعداً ، فانتظر حتى دنا الليل الذي
 يخفي الشخص ، حين لا يستطيع الإنسان أن يبصر غيره ، وأقدم
 إلى منزلها ، وقوله "والنجم يرمقني" يوحي بمقدار خوفه ،
 حتى يظن كل من حوله يرمقه بالنظر ، والخشية ليست من
 الرؤية ولكن مما يتبع الرؤية من فضيحة وعقاب ، ويظل الليل
 مظنة لقاء العاشقين . قال "الشاب الظريف" :
 (٢)

رَعَى اللَّهُ لَيْلًا زَارَنِي فِيهِ وَالذُّجَى يُكْتَمُهُ لَوْلَا تَفْوَعُ نَدِّهِ
 فَايَةَ نِعْمَةٍ كَانَتْ تَرْفُلُ فِيهَا فَتَاةُ "الشاب الظريف" التي
 لاينم عليها بالليل إلا عطرها ، فهو عطر لا يشتهه بغيره من
 العطور ، ولقد عرفنا مآيشي بالإنسان ليلاً موته أو ملامحه .
 لكن أن يدل عليه بالليل عطره ، فهذا سر لا يكشفه إلا تجار
 العطور ، والعبير الذي ينم على صاحبه معنى متداول بين
 العامة والخاصة ، لكن وضعه في مكانه يكسبه طرافة تنفي
 عنه الابتذال ، كما ستجد هذا المعنى ذاته عند "الحلي" في
 الأسطر اللاحقة .

ومثل صاحبة "الشاب الظريف" صاحبة "الحلي" التي تخشى
 أن يصدر عنها ما يدل على مكانها كما يقول :
 (٣)

(١) ديوان حازم القرطاجني ص ١١٨ .
 (٢) ديوان الشاب الظريف ص ٨٩ .
 (٣) ديوان صفي الدين الحلي ص ٧٢٥ .

زار، واللَّيْلُ مُؤَذِّنٌ بِالْبِرَازِ وهو من أَعْيِنِ الْعِدَى فِي احْتِرَازِ
 زَائِرٌ جَاءَ تَحْتَ جِلْبَابِ لَيْلٍ شَفَقُ الصُّبْحِ فَوْقَهُ كَالطَّرَازِ
 الاحتراز - دفع الحبيب ليزور ليلاً - ومع أنه تحت ستر
 اللّيل إلا أنه يخشى عيون الرّقباء فهو يحترز منها ، وقول
 الشاعر - جلباب ليل - تشير إلى فكرة الغطاء والستر التي
 أخذت حيزاً كبيراً من فكر الشعراء ، عند حديثهم عن ليالي
 الوصل ، فيقول "الحلي" :^(١)

أَبَتِ الْوِصَالَ مَخَافَةَ الرَّقَبَاءِ وَأَتَتْكَ تَحْتَ مَدَارِعِ الظُّلْمَاءِ
 ويتحدث عن ماينم على العاشقين :^(٢)

وَلَمَّا أَلَمَّتْ لِلزِّيَارَةِ خِلْسَةً وَسَجْفُ الدِّيَاجِي مُسْبَلَاتٌ سُتُورُهَا
 سَعَتْ بِنَا الْوَاشُونَ حَتَّى حُجُولِهَا وَنَمَتْ بِنَا الْأَعْدَاءُ حَتَّى عَبِيرُهَا
 اغتنمت ظلام الليل فزارت خلسة والتقيا ، لكنّ الخوف
 المسيطر على تفكير الشاعر صور له حجالها من الواشين بها ،
 وعطرها من الأعداء لها ، لأنها قد تدلّ عليهما فإن فعلت كانت
 كذلك ، فموتُ الحجال قد يسمع ، وعطرها قد يشمّ فيدل عليها
 وعلى مكانها فيقع لها ولمن زارته مايكرهان .

وإذا ماوصلنا إلى مشارف العمر الحديث نجد "البارودي"^(٣)
 يقول :

بَلْ رُبَّ غَانِيَةٍ طَرَقَتْ خِبَاءَهَا وَالنَّجْمُ يَطْرَفُ عَنْ لَوَاحِظِ أَرْمَدِ
 قَالَتْ وَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيَّ: فَضَحْتَنِي فَارْجِعْ لِشَأْنِكَ فَالرَّجَالُ بِمَرْمَدِ
 فأبي قرّق بين "البارودي" و"امريء القيس" ألم يطرق
 منازل المحبوبة ليلاً ؟ وتقول له : فضحتني ، ألم تقل صاحبة
 "عمر" هذا القول نفسه ؟ ألم تقل صاحبة "امريء القيس" ألا
 ترى النَّاسَ وَالسَّمَارَ أُحْوَالِي ؟

(١) السابق ص ٧٠٥ .

(٢) السابق ص ٧٤ .

(٣) ديوان البارودي ٢٠٧/١ .

إنَّ "البارودي" ولاشكَّ يقتفي سنن الشعراء السابقين أو
فلنقل، إنَّه يتمثّل عمود الشعر العربي ونهجه وأساليبه ،
وقوله خبائها أكبر دليل على ما نقول ، فأين مغاني القاهرة
وقصورها على النيل من الأخبية في المحاري ؟ وكذلك قوله :
(١)

وياربَّ ليلٍ لَقْنَا بردائِهِ

عِنَاقًا كَمَا لَقَّا الصَّبَا البَانَ والرَّندَا

وقوله "لَقْنَا بردائه" توحى بالفكرة التي توارد عليها
السابقون وهي أَنَّ اللَّيْلَ غطاءٌ وسترٌ ، وكأنَّه شيءٌ من القماش
يلف به العاشقون ؟ ألم يقل "ابن المعتز" قميص الليل ،
ألم يقل "أبو فراس" : لبسنا رداء الليل، ألم يقل غيرهما
أسدل الأستارا، ألم يقل الأرجاني : "ليل قد تدرعته" ؟ ومثل
هذا قول "حسين العشاري" وهو من شعراء العصر الحديث :
(٢)

وَلَمَّا تَعَانَقْنَا وَغَابَ حَسُودُنَا

وَأُسْبَلَ صَبْغُ اللَّيْلِ مِنْ فَوْقِنَا سِتْرَا

فالفكرة هي ستر المحبين وحجبهم عن الاعين ، وقول
"العشاري" "صبغ الليل" يقصد لون الليل أي السواد الذي
يستر الشاعر ومن معه ، وقال "خليل الخوري" :
(٣)

لَا تَخْتَشِي فَسْتَارُ اللَّيْلِ مَنْسَدٌ وَقَدْ مَفَا الْوَقْتُ فِي شَمْلِ يُجَمِّعُهُ

ومثله قول "شوقي" :
(٤)

لَوْ رَأَوْنَا وَالْهَوَى شَالَتْهَا وَالذُّجَى يُرْخِي عَلَيْنَا الْحُجْبَا

وكذلك قول "أبي القاسم الشَّابِّي" :
(٥)

فَدَخَلْتُ الْحَيَّ ، وَالسُّتْرُ الدُّجَى وَوَلَجْتُ الْخَدْرَ وَاللَّيْلُ صَبِي

وقول "إسماعيل صبري" :
(٦)

-
- (١) السابق ٢٦٥/١ .
(٢) ديوان حسين العشاري ص ٣٥٨ .
(٣) ديوان الشعر العربي ٤٠٣/٣ .
(٤) الشوقيات ١١٦/٢ .
(٥) ديوان أبي القاسم ص ٥٠٨ .
(٦) ديوان إسماعيل صبري ص ١٦١ .

هل تذكُرِين ليَالِينَا الَّتِي سَلَفَتْ
وليلةً لستُ أنسَاهَا إِلى الأَبَدِ
سَرَقْتُ فِيهَا مِنْ الوَاشِينِ خَلْوَتَنَا
ونَلَّتْهَا مِنْكَ عن وَعْدِ يَدَا بِيدِ
وقال "إبراهيم ناجي" :^(١)

قلتُ لليلِ الَّذِي جَلَّلَنَا
والَّذِي كَانَ على السِّرِّ أُمِينَا
فكلُّ هذه النَّمُوصِ تدور حول فكرة الشعراء السابقين التي
بينتها وهي أَنَّ الليلَ سترٌ وغطاءٌ يحمي العاشقين من عيون
النَّاسِ ، لذا كان الليلُ هو مظنةً لقاء العاشقين ، فاختاروه
وقتاً ملائماً للزيارة .
وفيما يلي سوف أُعرض لملازمات الزيارة بالقدر الَّذِي
لا يرى فيه الباحثُ تبذلاً أو خروجاً عن منهجية البحث .

(١) ديوان الطائر الجريح ص ١٨ .

الزيارة وملابساتها :

أمن الشعراء العاشقون لليل ، لما منحهم من ستر وغطاء
أخفاهم عن العيون ، فجعلوه موعد لقاءاتهم ، ومسرح
غرامياتهم ، والمطلع على الشعر العربي سوف يصدم بكثير من
التموص التي يعف عنها اللسان والقلم ، والتي تمور مواضع
يربأ القلم عن الإشارة إليها ، وسوف نتجاهل الكثير منها ،
وفي أضيق الحدود نشير إلى ما يخدم موضوع الليل في رؤية الشاعر المحب .

وقديما اختار "امرؤ القيس" الليل موعداً للزيارة ،
وأبان أنه قد جاء يسترق الخطى ، وكأته حباب الماء حتى دخل
على صاحبته ، وهذا من روعها ، واقسم لها فاجراً أن الجميع
ناموا ، ثم قال :
(١)

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ وَاسْمَحَتْ هَمَّرْتُ بَغْمِنِ ذِي شَمَارِيخِ مِيَالِ
وَمَرْنَا إِلَى الْحُسْنَى وَرَقَّ كَلَامُنَا وَرُمْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيَّ إِدْلَالِ

ولست مطالباً بالتحقق من صدق الشاعر في تجربته ، لكنني
استطيع القول أن الشاعر كان صادقاً مع نفسه ، ومع المجتمع
من حوله ، فقد صور ما في تصويره بمدق ثم ما كان من اختيار
الليل للقائه في مجتمعه الذي يأبى عليه هذا اللقاء جهاراً
نهاراً ، أما كتجربة واقعية فإنه يصعب تصديقه وهو يقول قبل
عدة أبيات "تنورتها من اذرعاتي وأهلها بيثرب" ، ولكن أقول
إنه بلغ غاية المدق الفني في تموير مشاعره وأحاسيسه .

ووصف الزيارة وملابساتها ، و"مذهب اللذة" كما يسميه
الدكتور "ظه حسين" كان موجوداً في الشعر العربي على قلة ،
غير أن شاعراً هو "عمر بن أبي ربيعة" قد فتق هذا الاتجاه
وأكثر القول فيه وردده كثيراً ، يقول عن إحدى لياليه :
(٢)

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٤١ .
(٢) حديث الأربعاء ١٩/٢ .
(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٣٦٣ .

فَأَتَيْتُ أُمِّي ، بعدما نَامَ الْعِدَى وَأَجَنَّهُمُ لِلنَّوْمِ جُونٌ أَدْهَمُ
فَإِذَا مَعَاةٌ ، فِي مَهَاءَ ، بِخَمِيلَةٍ أَدَمِ ، أَطَاعَ لَهْنٌ وَادٍ مُلْحِمِ
حَيْثُهَا ، فَتَبَسَّمتُ ، فَكَانَهَا عِنْدَ التَّبَسُّمِ مُزْنَةٌ تَتَبَسَّمُ
(١)
وَيَصُورُ آثَامَهُ فِي لَيْلَةٍ أُخْرَى :

فَتَقَمَّتْ لَيْلَتِي فِي نِعْمَةٍ مَرَّةً أَلْثَمَهَا غَيْرَ حَمِيرٍ
وَأَفْرِي مِرْطَهَا عَنِ مُخْطَفٍ ضَامِرِ الْأَحْشَاءِ ، فَعَمِ الْمُؤْتَزِرُ
(٢)
وَيَبْدَأُ الْلِقَاءَ بِالترْحِيبِ :

رَحَبْتُ حِينَ لَقَيْتُهَا ، فَتَبَسَّمْتُ وَكَذَاكُمْ مَايَفْعَلُ الْمُحْبَبُ
(٣)
وَقَدْ يَكُونُ لِلْعِتَابِ جَانِبٌ مِنَ الْلِقَاءِ :

ثُمَّ قَالَتْ عِنْدَ الْعِتَابِ : رَأَيْنَا مِنْكَ عَنَّا تَجَدُّدًا وَازْوِرَارًا
ثُمَّ يَبَيِّنُ لَهَا سَبَبَ الْجَفَاءِ وَهُوَ خَوْفُهُ مِنْ أَحَادِيثِ النَّاسِ ،
وَمِنْ وَشَايَةِ الرَّقَبَاءِ ، فَلِذَاكَ كَانَ إِعْرَاضَهُ عَنْهَا ، وَبَعْدَ أَنْ
(٤)
قَبِلَتْ عَذْرَهُ :

ثُمَّ لَانَتْ ، وَسَامَحَتْ بَعْدَ مَنْعٍ وَأَرْتَنِي كَفًّا تَزِينُ السَّوَارَا
فَتَنَاوَلْتُهَا ، فَمَالَتْ كَفُضْنِ حَرَكَتَهُ رِيحٌ عَلَيْهِ قَحَارَا
وَأَذَاقَتْ ، بَعْدَ الْعِلَاجِ لِذِيذًا كَجَنَى النَّحْلِ شَابَ مِرْفًا عُقَارَا

ولقد أكثر "عمر بن أبي ربيعة" من تصوير تلك الآثام
واللذات وديوانه حافل بشيء كثير من ذلك من نحو قوله :
(٥)

بَاتَتْ ، وَلِي مِنْ بَذْلِهَا حَمْمٌ اللَّشَاتِ ، أَعْجَفُ
أَخَالَ ثَلْجًا طَعْمَهُ قَدْ خَالَطَتْهُ قَرَقَفُ

ولقد سار في هذا الاتجاه جمع كبير من الشعراء ، قال
(٦)
"إسماعيل بن يسار" :

-
- (١) السابق ص ١٧٢ .
 - (٢) السابق ص ١٥٣ .
 - (٣) السابق ص ١٦٢ .
 - (٤) السابق ص ١٦٣ .
 - (٥) السابق ص ٢٥٣ .
 - (٦) ديوان الشعر العربي ٤٨١/١ .

فَبِتُّ فِيمَا شِئْتُ مِنْ نِعْمَةٍ جَادَ بِهَا لِي نَحْرُهَا وَالْقَمُ

(١)

وتلحّ فكرة الالتماق على "بشار بن برد" :

فَبِتْنَا كَأَنَّا لَوْ تَرَأَقُ زَجَاةٌ مِنْ الْمَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسْرَبْ

(٢)

وقال في نفس المعنى :

خَلَوْتُ بِهَا لَا يَخْلُصُ الْمَاءُ بَيْنَنَا إِلَى الصُّبْحِ دُونِي حَاجِبٌ وَسُتُورٌ

(٣)

وقال "علي بن الجهم" في نفس المعنى :

وَبِتْنَا عَلَى رَغْمِ الْوُشَاةِ ، كَأَنَّنا

خَلِيطَانٍ مِنْ مَاءِ الْغَمَامَةِ وَالْخَمْرِ

فالفكرة هي الالتماق بالحبیب في ليلة الوصل ، وعنها

(٤)

يقول "ابن سناء الملك" :

وَبِتْنَا كَجِسْمٍ وَاحِدٍ فِي عِنَاقِنَا وَكَالْحَرْفِ فِي لَفْظِ الْكَلَامِ الْمَشْدَدِ

(٥)

وحول المعنى يقول "الأنطاكي" :

رُبَّ لَيْلٍ فَمَمَّتْهَا فِيهِ حَتَّى لَوْ فَرَقْنَا كُنَّا هَيُولِي وَصُورَةَ

ويعلق عليه بقوله : "هو معنى فوق ما قصد من لطف الخمر

والكرى إذ لا يتصور افتراق الهيولي والمورة بوجه" ، فكل

مايهم "الأنطاكي" أن يعبر عن فكرة الالتماق التي دار حولها

الشعراء المتقدمون ، ويحسب أنه قد بلغ الغاية عندما جعل

نفسه والحبیبة في ليلهما كالهیولي والمورة . و"أبو القاسم

(٦)

الكاتب" يصورهما بجسمين استودعا في جسم واحد :

(١) ديوان بشار بن برد ٢٢/٤ .

(٢) السابق ٩٢/٤ .

(٣) ديوان علي بن الجهم ص ١٤٤ .

(٤) تزيين الاسواق ص ٤٥٨ .

(٥) السابق ص ٤٥٩ .

(٦) يتيمة الدهر ٤٨٨/١ .

وَلَمْ نَزَلْ وَالظَّلَامُ حَارِسُنَا جِسْمَيْنِ مُسْتَوْدَعَيْنِ فِي جِسْمِ

وقد يشير بعض الشعراء إلى ما يحدث في تلك الليالي دون

شرح وتفصيل ، قال "الحسين بن الضحاك" (١) :

أَفْعَلُ مَا شِئْتُ بِهَا لَيْلَتِي وَمَلَأْتُ عَيْنِي نِعْمَةً ظَاهِرَةً

فقوله "أفعلُ ما شئتُ بها" يشير إلى أفعال كثيرة ترك

الشاعر للمتلقي تصوورها وتخيلها ، و"البحثري" ينفها (٢)

بالهنات :

وَلَيْلَةُ الشَّكِّ وَهُوَ شَائِئِنَا كَانَتْ هَنَاتٌ ، وَاللَّهُ يَغْفِرُهَا

فما حدث في تلك الليلة يراه "البحثري" أمورا هينة ،

وتغلب عليه العاطفة الدينية والخوف من الله فيسأله أن

يغفرها له . أمّا "ابن المعتز" فقد نال فوق ماتمنى في (٣)

ليلته :

يَقُودُهُ الشُّوقُ خَائِفًا وَجِلًّا تَحْتَ الدُّجَى ، وَالْعَيُونُ فِي شَغَلِ

فَنِلْتُ مِنْهُ الَّذِي أُؤْمَلُهُ بَلْ الَّذِي كَانَ دُونَهُ أَمَلِي

و"القاضي الفاضل" لا يمكنه الشرح : (٤)

بِتَّنَا عَلَى حَالِ يَسْرُ الْهَوَى وَرُبَّمَا لَا يَمُكِنُ الشَّرْحُ

وذهب كثير من الشعراء إلى تموير ملذاتهم الحسية في

لياليهم في ألفاظ وصور يعف اللسان والقلم عن ذكرها

وتمويرها ، والمتصفح لدواوين الشعر العربي يصدم بشيء كثير

من ذلك ويخيل إليه أن الشعراء لم يكن لهم هم إلا تموير تلك

الملذات الحسية والتفنن في التعبير عنها ، وطبيعة هذا

البحث تجبرنا على الإشارة إلى شيء من ذلك حتى تكتمل لنا

أبعاد رؤية الشاعر العربي لليل مهموماً ومحباً . ومما كان

(١) ديوان الشعر العربي ٢٧٠/٢ .

(٢) ديوان البحتري ١٤٣/٢ .

(٣) ديوان ابن المعتز ص ٣٦٨ .

(٤) تزيين الاسواق ص ٤٢٢ .

(١)

يحدث في تلك الليالي مايموّره "ابو تمام" بقوله :

لاشيء أحسنُ منه ليلةً ومِلْنَا وقد اتَّخَذْتُ مَخَدَّةً مِنْ خَدِّهِ
 وقَمِي على فَمِهِ يُسَامِرُ رِيْقَهُ ويَدِي تَنْزَهُ فِي حَدَائِقِ جِلْدِهِ

(٢)

ومايموّره "علي بن الجهم" :

بِتُّ فِي اللَّهْوِ وَاللَّذَاذَةِ لَيْلِي أَرَشَفُ الشَّهَدَ مِنْ ثَنَائِيَا عِدَابِ

(٣)

وقول "ابن الرومي" :

رُبَّمَا التَّقَّتْ إِلَى الْمُبِّ م ح لَنَا سَاقٌ بِسَاقٍ
 فِي نِقَابٍ مِنْ لِيَامٍ وَإِزَارٍ مِنْ عِنَاقٍ

صورة كثيرة عن الهم ، والقبلات والاعتناق ... تمور

مايحدث في ليالي الوصل ، مبثوثة في دواوين الشعر العربي

في ظاهرة تلفت النظر وتحكير الفكر ، فإلى جانب الامثلة

(٤)

السابقة قول "البحثري" :

قَطَعْنَا اللَّيْلَ لَثْمًا وَاعْتِنَاقًا وَأَفْنَيْنَاهُ فَمًّا وَالتِّزَامَا

(٥)

وقول "ابي فراس الحمداني" :

بَاتَ الْحَبِيبُ إِلَى الْمَبَا م حِ مَعَانِقِي خَدًّا لَخَدِّ

(٦)

وقول "الرقبي" :

وَكَمْ لَيْلَةٍ طَالَ التَّعَانُقُ بَيْنَنَا كِلَانَا بِهِ بِنْنَا غَرِيمَ غَرَامِ
 وَمَنْطِقَتِي كَفَاهُ وَاللَّيْلُ أَدْهَمِي وَقَامَتُهُ رُمْحِي وَفُوهُ لِيَامِي

ولقد تكثر هذه الصور وتشابهت ولمح بها الشعراء

(٧)

العرب .

(١) ديوان أبي تمام ص ٧٣٣ .

(٢) ديوان علي بن الجهم ص ١١٧ .

(٣) مختارات البارودي ٢٤٤/٤ .

(٤) ديوان البحثري ٣٨/١ .

(٥) ديوان أبي فراس الحمداني ص ٦١ .

(٦) يتيمة الدهر ٦٣/٥ .

(٧) ومن ذلك : ديوان ابن المعتز ص ١٦٥ ، ديوان أبي فراس

ص ٧١،٣٥ ، ديوان ابن هاني، الاندلسي ص ٣٤٤ ، ديوان

المتنبي ١٦١،٢٠٢/٣ ، تزيين الاسواق ص ٤٨٤ ، ديوان

التهامي ص ٣٥٣،٤٠٥ ، ديوان ابن زيدون ص ١٤٥،٩٧ ،

مختارات البارودي ٥١٣،٣٧٩/٤ ، ديوان ابن الزقاق =

واستمر هذا الاتجاه في الشعر العربي عبر عصوره
المتتالية ، حتى نصل إلى مشارف العصر الحديث فنجد
"البارودي" يقول :
(١)

فَبِتُّ مَنْ وَمِثْلَهَا فِي نِعْمَةٍ عَظُمَتْ
مَا شِئْتُ ، أَوْ جَنَّةٍ أَبْوَابُهَا فُتِحَتْ
أَنَالَ مِنْ شَفْرِهَا الدَّرِّيِّ مَا سَأَلْتُ
نَفْسِي ، وَمَنْ خَدَّهَا الوَرْدِي مَا اقْتَرَحْتُ
فهو يصوّر على غرار سابقه آثامه وملذّاته الحسيّة في
لياليه ، ومن نحو هذا قوله :
(٢)

وَيَارِبُّ لَيْلٍ لَقَنَّا بَرْدَائِهِ
عِنَاقًا ، كَمَا لَقَّ الْمَبَا الْبَانَ وَالرَّئِدَا
وَلِثْمٍ تَوَالِي إِشْرٍ لَثْمٍ بِشَفْرِهَا
كَمَا شَاقَهُ الْبَازِي عَلَى ظَمَأٍ وَرَدَا
ويموّر "عباس محمود العقاد" إحدى ليالي الوصل بقوله :
(٣)

وَيَا لَيْلِي لَمَّا أَنْسَتُ بِقُرْبِهِ
وَقَدْ مَلَأَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ الْأَعْيَا
تَطَلَّعَ لَا يَثْنِي عَنِ الْبَدْرِ طَرْفَهُ
فَقَلْتُ حَيَاءً مَا أَرَى أُمَّ تَغَاضِيَا
وَأَلْتُمُّهُ كَيْمَا أُبَرِّدُ غُلَّتِي
وَهِيهَاتَ لَا تَلْقَى مَعَ النَّارِ رَوَايَا
فَقَبَّلْتُ كَفَّيْهِ وَقَبَّلْتُ شَفْرَهُ
وَقَبَّلْتُ خَدَّيْهِ وَمَا زِلْتُ مَادِيَا

=
البلنسي ص ١٠٦ ، ١٣٣ ، ديوان سبط التعاويذي ص ١٠٦ ،
ديوان ابن سهل الأندلسي ص ٣٤٩ ، ديوان الشاب الظريف
ص ٢٠٣ ، ٨٩ ، ٦٣١ ، صفي الدين الحلبي ص ٧٤٩ ، ١٦٩ ، ١٢٢ ،
حسين العشاري ص ٣٥٨ ، ٥٣٦ ، الأخرس ص ٣٤٤ .
(١) ديوان البارودي ١٦٧/١ .
(٢) السابق ص ٢٦٦ .
(٣) ديوان العقاد ٩٢/١ .

كَأَنَّ نَدْوُدُ الْبَيْنَ بِالْقَرَبِ بَيْنَنَا
 فَنَشْتَدُّ مِنْ خَوْفِ الْفِرَاقِ تَدَانِيَا
 كَأَنَّ فَوَادِي طَائِرٍ عَادَ إِلَيْهِ
 إِلَيْهِ فَأَمْسَى آخِرَ اللَّيْلِ شَادِيَا
 إِذَا مَا تَفَامَمْنَا لَيْسَكُنْ خَفَقُهُ
 تَنْزَى فَيَزِدَادُ الْخَفُوقُ تَوَالِيَا
 أَوْشَجُ فِي كَلْتَا يَدَيْهِ رَوَاجِبِي
 وَشَيْجَا يَظَلُّ الدَّهْرَ أَخْضَرَ نَامِيَا
 وَتَلْمَسُ كَفِّي شَعْرَهُ فَكَأَنِّي
 أُعَارِضُ سَلْسَلًا مِنَ الْمَاءِ مَافِيَا
 وَأَشْكُوهُ مَا يَجْنِي ، فَيَنْفِرُ غَاضِبًا
 وَأَعْطِفُهُ نَحْوِي ، فَيَعْطِفُ رَاضِيَا

فقد أنس الشاعر بقرب الحبيب ، وكان له ما أراد من
 طرائق الوصل التي أشار إليها من ضمّ ولثمّ ولمس ، غير أنّه
 مازال صاديا ، فالخوف من الفراق يفسد عليه ما هو فيه من
 غبطة بوصل الحبيب فيشتدّ دنوه منه .

(١)

ويقول "علي محمود طه" عن إحدى لياليه :

رَبِّ لَيْلٍ مَرَّ أَفْنِيَاهُ ضَمًّا وَعِنَاقَا
 وَأُدرْنَا مِنْ حَدِيثِ الْحَبِّ خَمْرًا نَتَسَاقِي

وقد تحرّر بعض شعراء العصر الحديث - إلى حدّ ما - في
 بعض قصائدهم من سيطرة الصور القديمة التي تصور ليل الوصل
 والتي عني أصحابها بتصوير الملذّات والآثام ، واتجهوا إلى
 بعض عناصر الطبيعة يَمُورونها من خلال تصوير ليالي الوصل ،
 (٢)
 ومن هذا قول "صلاح لبكي" :

(١) ديوان علي محمود طه ص ٢٧ .
 (٢) ديوان صلاح لبكي ص ١٢ .

هَـمَا اللَّيْلُ قومي نَهَزُ المُنَى
ونفَلتُ أحلامنا الرَّاقِمَاتِ
فتسْرُحُ فوقَ فراشي الغَمَامِ
وتحملها زفراءُ النَّسِيمِ
فالشاعر يطلب من فتاته أن يقوما بهزَّ المنى في أرجوحة
اتخذها من ضياء القمر ، وأن يطلقوا الأحلام الراقمة لتصعد
إلى النجوم وتمضي فوق الغمام ، وتعود إلى الأرض لتمرح تحت
غمون الشجر ، وهو بهذا يتحرَّر من الصور القديمة التي تُعنى
بالظم والاعتناق والقبل ، وما إلى ذلك ، ومن نحو ذلك قول
(١)
"عزيز أباطة" :

تعالِي فَإِنَّ اللَّيْلَ جُنَّ وَهَذِهِ
مَرَّاشُهُ ظَمَأى إِلَى قَبْلِ البَدْرِ
وَيَالَيْلُ .. سَتَرُ اللهُ أَنْتَ وَسِرُّهُ
ومهدُّ الهوى ياليلُ أَنْتَ فَعَلْ تَدْرِي ؟
وَيَالَيْلُ هَذِي مُنِيَّةُ النَّفْسِ أَسَمَحَتْ
فَهَاتِ الحلالَ العذبَ من سحرِ الطَّهرِ
(٢)
وكذلك قول "إبراهيم ناجي" :

فنامَ الضوءُ جَلاناً
قريراً لا تنبهُهُ
وكانَ اللَّيْلُ مرتَمياً
تلصصَ خُلُسَةً يرنو
فشاعَ السُّرُّ بينَ اللَّيْلِ م
وإذَ بالفجرِ بِسَاماً
على مصباحِ نشوانِ
سوى أناتِ تحنانِ * * *
على النَّافذةِ الوَسْنَى
إلى معبدينا الأسنَى * * *
لِـ والأنجمِ والزَّهرِ
إلى الغينِ في خَدَرِ

(١) ديوان عزيز أباطة ص ٨٥ .
(٢) ديوان في معبد الليل ص ٢٥ .

ويبيّن بعض الشعراء أنهم لقوا أحبابهم في بعض الليالي وأنهم جنحوا للعفاف ، وتجنّبوا ما حرّم عليهم ، قال "قيس بن الملوّح" :^(١)

فَبِتُّ وَبَاتَتْ لَمْ نَهْمُ بِرَيْبَةٍ وَلَمْ نَجْتَرِحْ بِأَمَاحِ وَاللَّهِ مَحْرَمًا
اجتمع قيس وليلى في ليلة في خلوة من الناس ، وكان العفاف يحقّ بهما ، فقيس يقول : لم نهمّ ولم نجترح شيئاً يخدش العفة ، ولم يكتف بنفي الفعلين المضارعين دليلاً على عفافهما ، بل الحق ذلك بقسم ليقطع الطريق أمام أية بادرة شكّ فيهما .

ويتمنى "أبو مخر الهذلي" أن يلقى الحبيبة في ليلة لا يكون بها رفق أو إثم يقول :^(٢)

وَلَيْلَةٌ مِنْهَا تَعُودُ لَنَا فِي غَيْرِ مَارَقَةٍ وَلَا إِشْمِ
أَهْوَى إِلَى نَفْسِي وَلَوْ نَزَحَتْ مِمَّا مَلَكْتُ وَمِنْ بَنِي سَهْمِ

فالشاعر يودّ أن يلقى من يحب في أية ليلة ، في عفة وطهارة دون أن يقربا إثمًا أو محرّمًا ، و"ما" هنا تفيد التقليل فهو لا يرضى بأيّ إثم ، مهما يكن قليلاً .

"وبشار بن برد" الذي يقول: إنّه بات ليال ملتصقاً بمن يهوى حتّى أنّ الماء لا يمكن أن يتسرب من بينهما من شدة التماقهما كما رأينا في هذا البحث ، نظفر له بنص يقول^(٣) فيه :

كَمْ لَيْلَةٍ قَدْ شَقَّ إِصْبَاحُهَا عَنَّا نَعِيمًا كَانَ زُحْرًا حَا
لَمْ نَنْبَسِطْ فِيهِ إِلَى مَحْرَمِ حَتَّى رَأَيْنَا الصُّبْحَ وَمَآحَا
إِلَّا حَدِيثًا مُعْجَبًا أَنْسَهُ أَكْبَرْتُهُ غُنْمًا وَأَرْبَاحَا

فعلنى أنّ (بشارا) وصل صاحبته هذه الليلة لكنّه يقول: إنّ

(١) ديوان قيس بن الملوّح ص ٢٠١ .

(٢) كتاب الزهرة ١١٩/١ .

(٣) ديوان بشار بن برد ١١٣/٢ .

المُبْح يَأْتِي وَلَمْ يَمِيلُوا إِلَىٰ مُحْرَمٍ ، وَأَكْبَرُ رِبْحٍ فَازَا بِهِ هُوَ
 الْحَدِيثُ وَالْمُؤَانِمَةُ . وَحَوْلَ هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ "أَبُو فِرَاسٍ" (١) :

فَلَمَّا خَلَوْنَا يَعْلَمُ اللَّهُ وَحْدَهُ
 لَقَدْ كَرُمْتَ نَجْوَى وَعَقَّتْ سَرَائِرُ
 وَبِتُّ يَظُنُّ النَّاسُ فِي ظُنُونِهِمْ
 وَثَوْبِي مِمَّا يَرْجُمُ النَّاسُ طَاهِرُ
 وَكَمْ لَيْلَةٍ مَاشَيْتُ بَدْرَ تَمَامِهَا
 إِلَى الْمُبْحِ لَمْ يَشْعُرْ بِأَمْرِي شَاعِرُ
 وَلَا رَيْبَةَ إِلَّا الْحَدِيثَ كَأَنَّهُ
 جُمَانٌ وَهِيَ ، أَوْ لَوْلُؤُ مَتَنَاشِرُ

فقد خلا العاشقان تحت جنح الظلام ، ولكن "أبا فراس" يبين أنّ العفة ردتّهما فلم يجنحا إلى ما يخذش الحياء أو الكرامة ، ويستخدم الفاظاً توضح ذلك وهي كَرُمْتَ ، عَقَّتْ ، طَاهِرُ ، لَارَيْبَةُ ، فلم يجاوز اللقاء الحديث الذي يمفه باللؤلؤ المتناشر ، وربما كان هذا الحديث عتاباً أو ملاماً (٢)
 كما يقول "الشّريف الرّضي" :

أَبْكِي وَيَبْسِمُ وَالذُّجَى مَا بَيْنَنَا
 تَقْلِي أَنَامِلُهُ التُّرَابَ تَعَلُّلاً
 قَمَرٌ إِذَا اسْتَحْجَلْتَهُ بَعْتَابِهِ
 لَوْ حَيْثُ يَسْتَمَعُ السَّرَارُ وَقَفْتُمَا
 مَا كَانَ إِلَّا قُبْلَةَ التَّسْلِيمِ أَرَمَ
 دَفَعَا الْفِرَاقَ بِمَمَّةِ التَّوَدِيعِ
 تصوير رائع من الشّريف الرّضي لموقفه مع من يحبّ في جنح الظلام ، فلقد بات يعاتبه ولكن الحال مختلف بينهما ،

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ص ٨٢ .
 (٢) ديوان الشّريف الرّضي ٦٥٢/١ .

فالشاعر يبكي والحبیب یضحك ، ثم یصوّر ذلك تصویراً رائعاً بقوله :

تغلي أنامله التُّرابَ تعلّلا . وأناملي في سنيّ المقروع
فالحبيب لاهٍ كأنّما بانامله يفلي التراب ، والشاعر
متألم أشدّ الألم يقرع بسنّه أنامله ، فكلاهما يحرك أنامله ،
ويقرع بها ومكان قرع كل واحد منهما مختلف ويكشف عن حالته
النفسية ، فالذي يفلي التُّراب غير مكترث ، والذي يقرع
أسنانه يعتمره الألم والحسرة ، وأرى أن هذا يميز الشاعر من
كثير ممن طرقوا هذا الموضوع ، ويشير الشاعر إلى عفتها ،
ولا يرى ما يجرحها في قبلة أو ضمة عند الوداع .

وفي نص آخر يقول : إنَّ عيون النهى ومسامعه تراقبهما
أي أنَّ العقل يكبّهما إذا فازا بفرصة لقاء تحت أستار الظلام :
وكم ليلةً بتنا على غير ريبةٍ علينا عيونٌ ، للنهى ومسامعٍ
نفضّ حديثاً عن ختام مودةٍ معاقلها أحشاؤنا والأمالعُ
يكادُ غرابُ الليلِ عندَ حديثنا
يطيرُ ارتياحاً وهو في الوكرِ واقعٌ
خلوناً فكانت عفةٌ لاتعففُ
وقد رفعت في الحيّ عنا الموانعُ
سلوا مفعلي عني وعنّها فإننا
رضينا بما يُخبرنُ عنا المفاجعُ

بتنا على غير ريبة ، تجافيا عن الإثم وما يرتاب منه ،
وكان العقل حاضراً معهما يسمع ويرى ، فلم يكن إلاّ الحديث عن
حبهما الساكن أحشاءهما ، والعفة من طبائعهما ، فلم تكن
تعففاً حيث لا يوجد ما يكفهما عن مشيئة الهوى ، ويستشهد
بالمكان الذي باتا فيه ، والشاعر راض بشهادته إذ لا سواه

يمكن أن يخبر عنهما ، و"أبو المطاع ناصر الدولة" يجعل
الظرف والكرم مراقباً لهما في ليلتهما :
(١)

لَمَّا التَّقِينَا مَعًا وَاللَّيْلُ يَسْتُرُنَا
مِنْ جُنْحِهِ ظَلَمٌ فِي طَيْهَا نَعَمْ
بِتَّنَا أَعَزَّ مَبِيتِ بَاتِهِ بِشَرِّ
وَلَا مُرَاقِبَ إِلَّا الظَّرْفُ وَالكَرْمُ

وأرى أنّ قول "الشّريف الرّضي" "علينا للنّهي عيون
ومسامع" أدقّ في التّعبير وتموير اللقاء بالعفة من قول "أبي
المطاع" "ولامراقب إلا الظرف والكرم" ، لأنّ العقل يفصل بين
الأمر ، أمّا الظرف والكرم فقد يتجاوزان عن كثير .
أمّا "السّراج" فقد جعل التّمون حاجزاً بينهما ، وأمفيا
الليل في طاعته :
(٢)

بِتَّنَا جَمِيعًا فِي مَلَاءَةِ عِقَّةٍ وَرَقِيبُنَا نَاءٍ وَإِزْرٍ مِيَانَةٍ
نَشْكُو هَوَانًا وَالتَّمُونُ حَاجِزٌ مَا بَيْنَنَا ، نَعْنُو لَهُ بِالطَّاعَةِ
لَقَدْ تَدَشَّرَا بَرْدَاءَ الْعِقَّةِ ، وَكَانَتِ الصِّيَانَةُ إِزَارَهُمَا ،
وَالتَّمُونُ حَاجِزٌ بَيْنَهُمَا ، فَلَمْ يَزِدِ اللِّقَاءَ عَلَى تَشَاكِيِ الْهَوَى
وَتَرْدِيدِ الْحَدِيثِ ، مَعَ أَنَّهُمَا فِي خُلُوةٍ .

وكان التّقي ثالث "الإبيوردي" ومحابته في خلوتهما :
(٣)

خَلُوتُ بِهَا وَحْدِي وَشَالْتُنَا التَّقَى
وَرَابِعُنَا مَا فِي الْغِرَارِينَ فِي الْجَفْنِ
يَذُودُ الْكَرَى عَنَّا حَدِيثٌ كَعَقْدِهَا
فَلَمَّا افْتَرَقْنَا صَارَ كَالْقُرْطِ لِلْأَذْنِ
كُنَّا أَرْبَعَةً ، أَنَا وَمَحَابَتِي وَالتَّقَى وَالسِّيفُ ، وَتَزْهِينِي
هَذِهِ الصُّورَةُ ، بِمَا فِيهَا مِنْ وَرَعٍ ، مَظْهَرِهِ التَّقَى ، وَمَافِيهَا مِنْ

(١) من غاب عنه المطرب ص ٢٠٧ .
(٢) مصارع العشاق ٢١٢/٢ .
(٣) مختارات البارودي ٣٨١/٤ .

قوة مظهرها السيف ، لأنّ التقى يكفّ مافي النفس ، والسيف يكفّ
عنهما من الخارج .

في هذا اللقاء المونق الممتع كان حديثها الشهي يدود
الكرى عنا ، فلما افترقنا بقيت أصداء هذا الحديث يرُنُّ كأنّه
قرط في الأذن . أمّا الليل فقد أمضياه في خلوتهما منزهين عن
الخنا كما يقول "الطغرائي" :
(١)

ظَنُّوا بِنَا السُّوءَ وَارْتَابُوا فَنَزَّهَنَا

بُرَدَ الْمَفَاجِعِ عَمَّا رَابَ مِنْ تَهُمِ

فالإنسان يستطيع أن ينزّه نفسه عما يريبها متى أطاع
عفاه وعصى هواه كما يقول "ابن سهل الأندلسي" :
(٢)

مَا فَحَّتْهُ وَاللَّيْلُ يُذَكِّي تَحْتَنَا نَارِينَ مِنْ نَفْسِي وَمِنْ وَجَنَاتِهِ
عَزَمَ الْغَرَامُ عَلَيَّ فِي تَقْبِيلِهِ فَجَعَلْتُ أُبْدِي الطَّوْعَ عَنْ عَزَمَاتِهِ
وَأَبَى عَفَافِي أَنْ أُقْبَلَ شَفْرَهُ وَالْقَلْبُ مَطْوِيٌّ عَلَى جَمَرَاتِهِ
فَاعْجَبَ لِمَلْتَهَبِ الْجَوَانِحِ غَلَّةً يَشْكُو الظَّمَا وَالْمَاءَ فِي لَهَوَاتِهِ

التقى الشاعر بمن يحبّ بعد أن ساعد الليل على جمع
الشّمل وتسهيل اللقاء ، ولكنّه يصور بمهارة ما يدور في نفسه
من صراع بين عاطفتين تتجادبانّه أشدّ التجاذب ، الأولى
عاطفة الغرام التي تدفعه إلى قطف اللّذة ، والثانية عاطفة
العفاف التي تأبى هذا وتمنعه ، ويستمرّ الصّراع ، غير أنّ
العفاف يفوز على طلب اللّذة ويمسي الشاعر في ظمأ شديد ،
والماء أقرب من يده لغمه ، وماذاك إلاّ طاعة للعفاف الذي
تمكن من نفس "ابن سهل الأندلسي" في ليلته تلك ، وتفتح هذه
العاطفة الدينية عند "البهاء زهير" متى ما خلا بالحبيب تحت
ستر الظلام فلنستمع إليه يقول :
(٣)

(١) السابق ٣٣٥/٤ .
(٢) ديوان ابن سهل الأندلسي ص ٣٤٩ .
(٣) ديوان البهاء زهير ص ١٦٧ .

وَكَمْ لَيْلَةٍ بَيْنَنَا عَلَى غَيْرِ رَيْبَةٍ
 يَحْفُ بِنَا فِيهَا التُّقَى وَالتَّعَفُّ
 تَرَكْنَا الْهَوَى لِمَا خَلَوْنَا بِمَعَزِلِ
 وَبَاتَ عَلَيْنَا لِلْمَبَابَةِ مُشْرِفُ
 ظَفَرْنَا بِمَا نَهَوَى مِنْ الْأَنْسِ وَحَدَه
 وَلَسْنَا إِلَى مَا خَلَفَهُ نَتَطَرَّفُ
 سَلُوا الدَّارَ عَمَّا يَزْعُمُ النَّاسُ بَيْنَنَا
 لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّيَ أَعِيفُ وَأَظْرَفُ
 وَهَلْ أَنْسَتَ مِنْ وَهْلِنَا مَا يَشِينُنَا
 وَيُنْكِرُهُ مِنَّا الْعَفَافُ وَيَأْنَفُ
 سِوَى خَمَلَةٍ نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّنَا
 لِيَحْلُو لَنَا ذَاكَ الْحَدِيثُ الْمُزْخَرَفُ
 حَدِيثٌ تَخَالَ الدَّوْحَ عِنْدَ سَمَاعِهِ
 لَمَا هَزَّ مِنْ أُعْطَافِهِ يَتَقَمَّمُ
 حَفَّ بِهِمَا التُّقَى وَلَا زَمَمَا فَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا يَرِيبُ ،
 وَاقْتَمَرَ الْإِقْدَامُ عَلَى الْحَدِيثِ الْمَنْمُقِ الَّذِي يَهْفُو الدَّوْحُ لِسَمَاعِهِ
 وَمَعَ هَذَا فَالشَّاعِرُ يَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ جَرِيرَةَ هَذَا
 الْحَدِيثِ .

(١)

وقال "أحمد شوقي" :

لو رَأَوْنَا وَالْهَوَى شَالِئُنَا
 فِي جِوَارِ اللَّيْلِ فِي ذَمَّتِهِ
 مِلءُ بُرْدَيْنَا عَفَافٌ وَهَوَى
 وَهَكَذَا يَلْتَقِي هَذَانِ الْوَجْهَانِ فِي لَيْلِ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ
 عِنْدَمَا يَلْتَنِمُ شَمْلَهُ بِأَحْبَابِهِ ، فَلَيْلٌ أَرْضَى فِيهِ الشَّاعِرُ عِنَانِ

الموى ، فأطاع دعوته وعكف على صياغة ما شمه بأرق الألفاظ ،
وأعذب التراكيب .

وليل عصى فيه الشاعر هواه ، وقدّم أنبل الصور التي
تسمو بأخلاق شاعر حرص على الطهر والعفة .

الوداع :

عرفنا في صدر هذا الفصل سرّ اختيار الشعراء العاشقين
 اللّيل زمناً للوصل ، ومسرحاً للغرام ، ثم تعرّفنا على ماكان
 يجري في تلك الليالي ونصل الآن إلى ساعة الوداع والفرار ،
 وكثيراً ما ترتبط هذه الساعة بالصباح . قال "الأخوص الأنصاري"^(١)
 باتاً بأنعم ليلةٍ وألذّها حتّى إذا وضح الصّباحُ تفرّقا
 ولما كان "عمر بن ربّيعه" من أكثر شعراء العربية
 صواحب يلقاهن ويقضي اللّيالي معهن ، كان من أكثر من وصف
 ساعات الوداع وما دارَ فيها . فقد يقطع عليه الصّباح نعيمَ
 اللّيل كما يقول :^(٢)

ياليلةً ، قطع الصّباحُ نعيمها عودي عليّ ، فقد أُصبتِ صميمي
 والنّعيم الذي قطعه الصّباح هو الوصل ، والسعادة بقاء
 الحبيب ، وهذا النّعيم مستمر مادام اللّيل مستمرا :^(٣)
 بئنا بأنعم ليلةٍ وألذّها للنّفسِ ، ماستر الصّباحُ حجابهُ
 وحجاب الصّباح هو اللّيل .

وكثيراً ما تحدث "عمرا" صواحيبه على الرحيل متى انقضى
 اللّيل ودنا الصّباح :^(٤)

ثمّ قالت ، وبان ضوءٍ من الصّبِّ
 ح ، منيرٌ ، للنّاظرين أنارا :
 يا ابن عمّي ، فدتك نَفْسِي ، إنّي
 أتقيّ كاشحاً ، إذا قال ، جارا

ضوء الصّباح قد اقبل وسوف يكشف غطاء اللّيل عنهما وقد

(١) ديوان الاخوص الانصاري ص ١١١ .
 (٢) ديوان عمر ص ٣٧٦ .
 (٣) السابق ص ٣٨ .
 (٤) السابق ص ١٦٣ .

(١)

تبصرهما العيون فيقع ما يكرهان :

فَلَمَّا تَقَمَّى اللَّيْلُ ، إِلَّا أَقْلَهُ

وَأَعْنَقَ تَالِي نَجْمِهِ ، فَتَمَوَّبَا

وَقَالَتْ تَكْفَتٌ : حَانَ مِنْ عَيْنِ كَاشِحٍ

هَبُوبٌ ، وَأَخْشَى الصُّبْحَ أَنْ يَتَمَوَّبَا

فسوف يستيقظ الناس في الصباح وتفتح عيونهم المغمضة

طوال الليل ، وقد يكون صوت الديك إيذاناً بالفراق : (٢)

فَلَهَوْنَا لَيْلَنَا ، حَتَّى إِذَا

طَرَّبَ الدَّيْكَ ، وَهَاجَ المُدَكِّرُ

حَرَكْتَنِي ، ثُمَّ قَالَتْ جَزَعًا

وَدُمُوعُ الْعَيْنِ مِنْهَا تَبْتَدِرُ :

قُمْ مَعِيَ النَّفْسِ ، لَا تَفْخُحْنِي

قَدْ بَدَأَ الصُّبْحُ وَذَا بَرْدُ السَّحَرِ

(٣)

وقال "عمر" :

فَلَمَّا دَنَا الإِصْبَاحُ ، قَالَتْ : فَضَحْتَنِي

فَقُمْ غَيْرَ مَطْرُودٍ وَإِنْ شِئْتَ قَارِدِدِ

فكرة الخوف من أن يُكشَفَ سرُّ العاشقين واخبارهم سيطرت

على جزء كبير من الشعر ، واختير الليل ليكون موعد الزيارة

وعرفنا سرُّ ذلك ، ولكن هذا الخوف يظل مسيطراً حتى ساعة

الوداع ويمتدُّ هذا إلى إخفاء الأثر ، قال "عمر" : (٤)

تُعَقِّي عَلَى الأَثَارِ ، أَنْ تُعْرِفَ الخُطَى

ذُيُولُ شِيَابِ يَمْنَةٍ ، وَمَطَارِفُ

(٥)

وقال "عمر" :

فَقَامَتْ تُعَقِّي بِالرِّدَاءِ مَكَانَهَا

وَتَطَلَّبُ شَدْرًا مِنْ جَمَانٍ مُبَدِّدِ

(٦)

وقد يقومان بهذا العمل معا :

-
- (١) السابق ص ٤١ .
(٢) السابق ص ١٧٣ .
(٣) السابق ص ١١٣ .
(٤) السابق ص ٢٥٥ .
(٥) السابق ص ١١٣ .
(٦) السابق ص ٢٥ .

ثُمَّ قُمْنَا لَمَّا تَجَلَّى لَنَا الصُّبْحُ مَحَّ نَعَى آشَارَتَا بِالتُّرَابِ
 لا يودان ترك أي أثر يدل عليهما ، فقد تمت الزيارة تحت
 جناح الظلام وستره ، وأخفيا آشارهما ، ومضيا قبل أن ينتبه
 لأمرهما أحد ، ولكن ما الأمر إذا لم يفادر الزائر العاشق إلى
 أن يظهر الصبح ويستيقظ النائمون ، هذا الموقف حدث
 (١)
 "العمر" :

فَمَا رَاعِنِي إِلَّا مُنَادٍ : "تَرَحَّلُوا"
 وَقَدْ لَاحَ مَفْتُوقٌ مِنَ الصُّبْحِ أَشْقَرُ
 فَلَمَّا رَأَتْ مَنْ قَدْ تَنَبَّهَ مِنْهُمْ
 وَأَيَّقَاظَهُمْ ، قَالَتْ : أَشْرُ كَيْفَ تَأْمُرُ

مضى الليل وجاء الصبح بنوره الذي يكشف كل شيء ،
 وعمر لم يزل في ديار القوم وقد تنبَّهوا من نومهم ، فلو خرج
 من خباء صاحبتة فسوف يرونه ، فشاورها في الأمر ، وأراد أن
 يجاهر قومها ، ويخرج ويتحمل العاقبة ، غير أنها أبت ،
 (٢)
 وشاورت أخواتها :

فَقَالَتْ لَهَا الْمُغْرَى : سَأُعْطِيهِ مِطْرَفِي
 وَدِرْعِي وَهَذَا الْبُرْدَ إِنْ كَانَ يَحْدَرُ
 يَقُومُ ، فَيَمْشِي بَيْنَنَا مُتَنَكِّرًا
 فَلَا سِرَّنَا يَفْشُو وَلَا هُوَ يَظْهَرُ
 فارتدى ثياب النساء وخرج في حمايتهن إلى أن زال
 الخطر .

ويمف "إسماعيل بن يسار" خروجه من ديار الحبيبة
 (٣)
 بانسياب الأرقم من مكمته :

(١) السابق ص ١٢٤ .
 (٢) السابق ص ١٢٥ .
 (٣) ديوان الشعر العربي ٤٨١/١ .

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ بَدَأَ ضَوْؤُهُ وَاغَارَتِ الْجَوَازُءُ وَالْمِرْزَمُ
خَرَجْتُ وَالْبُوطُ خَفِيٌّ كَمَا يَنْسَابُ مِنَ مَكْمَنِهِ الْأَرْقَمُ

يكاد يكون الحال واحداً عند الإقدام للزيارة ، وعند الانصراف منها فكلاهما فيه حذر وترقب ، وكلّهم الشّاعر التّخفي وتصيّد غفلة العيون وألّا يصدر منه صوت أو حركة تدلّ عليه ، فهو ينساب انسياب الأرقم في رفق ولين وتلصص ، آخذاً بأسباب الحيلة والحذر ، فعّل السّراق واللموص ولاعجب في ذلك فقد سرق وانتقص من أعراض قوم يحافظون عليها أشدّ الحفاظ ، ولو بصروا به ، أو عرفوا ماكان منه فلن يكون للرحمة مكان وسوف يكون العقاب شديداً ، ولذا نرى كلّ هذا التّخفي والحيلة والحذر . وقد يقول قائل: إنّي أغفلت جانب الخيال في الشعر ولكنّي أقول: إنّ الشّاعر العربي مرآة صادقة للمجتمع الذي يعيش فيه ويعكسه حتّى في تجاربه الخيالية منها ، أفلو عاش هؤلاء الشّعراء في مجتمع لا يقيم للدين الإسلامي وللعبادات العربية القيّمة وزناً ، فهل كُنّا واجدين كلّ هذا التّخفي والميل نحو اللّيل وترديد ذكره عند زيارة الحبيب ؟

ثمّ لانفعل جانباً آخر هو سيطرة الشعر القديم على شعر العصور اللاحقة ، أو مايسمّى بتمثّل عمود الشعر العربي ، فقد كان له أكبر الأثر وذاك مالمسناه في توارد الشّعراء على صور وألفاظ بعينها ، وكأنّ أغلبهم عاش في فترة زمنية واحدة .

(١)
وهذا "بشار" الأعمى يقول في الوداع :

حَتَّى إِذَا شُقَّ عَنْهُ اللَّيْلُ وَدَعَانِي بِعَبْرَةٍ وَلِشَامٍ فِي التَّنَائِيرِ
فَلَمَّا تَمَثَّلَ الْفِكْرَةَ السَّابِقَةَ الَّتِي تَقُولُ: إِنَّ اللَّيْلَ رِءَاءَ
يَسْتَرِ مَا تَحْتَهُ جَعَلَهُ يُشَقُّ ، فَمَادَامَ رِءَاءَ فَيُمْكِنُ شَقُّهُ لِيُكْشَفَ
مَا تَحْتَهُ ، وَهُوَ يَقْصِدُ ظُهُورَ الصُّبْحِ ، وَيَعْجِبُنِي قَوْلُهُ "دَنَا وَجْهَ"

(١)
الوداع " .

فَلَمَّا دَنَا وَجْهَ الْوَدَاعِ تَفَجَّعْتُ عَلَى لَيْلَةٍ طَابَتْ وَسِرٌّ مُوَلِّجٍ
فقد جعل للوداع وجهاً ولكنّه وجه مخيف ، أفجع الحبيبة
على ليلتها الطيبة ، وقال "بشار" :
(٢)

إِذَا نَادَى الْمُنَادِي كَادَ يَقْفِي حِذَارَ الْبَيْنِ لَوْ نَفَعَ الْحِذَارُ
قد يكون المنادي مؤذّن الفجر أو قد يكون منادي الرحيل
وما يهمننا هو قوله كاد يقفي حذار البين ، فهو يخاف الوداع
والتفرّق ، وقد يكون المنبّه إلى انقضاء الليل صياح الديك .
قال "ابن المعتز" :
(٣)

وَقَامَ نَاعِي الدَّجَى فَوْقَ الْجِدَارِ كَمَا

نَادَى عَلَى مَرَقَبٍ شَادٍ بِتَحْكِيمٍ

فهو يحبّ الظلام في ليل الوصل ، حتّى تخيل صوت الديك
نعياً له عندما انقضى . ولقد بات "أبو فراس الحمداني" :
(٤)

بِحَالٍ تَرَدُّ الْحَاسِدِينَ بَغِيظِهِمْ وَتَطْرُقُ عَنَّا عَيْنَ كُلِّ رَقِيبٍ
إِلَى أَنْ بَدَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ كَأَنَّهُ مَبَادِي نَصُولٍ فِي عِدَارِ خُضَيْبٍ

فقد جاء الصّباح وهو لا يريد في هذا الموقف فجعله
كالشيب إذا ظهر في العذار ، فالصّباح يعني الوداع والتفرّق
ولقد جاهر "أبو فراس" الحمداني" بعداوة صباغ ليلة الوصل
فقال :
(٥)

دَنَا ذَاكَ الصَّبَاحُ ، فَلَسْتُ أُدْرِي أَشَوْقٌ كَانَ مِنْهُ ؟ أَمْ هَرَارٌ ؟
وَقَدْ عَادَيْتُ ضَوْءَ الصُّبْحِ حَتَّى لِطَرْفِي ، عَنْ مَطَالِعِهِ اِزْوَارُ
"أبو فراس" يعادي الصّباح حتّى لا يريد النّظر إليه ويزور
عنه ، فقد كشف عنه ستر اللّيل ، وأنهى اللقاء والوصل ،

(١) السابق ٦٠/٢ .

(٢) السابق ٨٨/٤ .

(٣) ديوان ابن المعتز ص ٤٠٥ .

(٤) ديوان أبي فراس الحمداني ص ٣٥ .

(٥) السابق ص ٧١ .

وبدأ وقتُ الفراق كما يقول "الشَّريف الرُّضي" (١) :

حَتَّى إِذَا نَسَمْتُ رِيًّا م حُ الصُّبْحِ تُوذِنُ بِالْفِرَاقِ
بَرْدَ السَّوَارِ لَهَا ، فَأَحْ م مَيِّتُ القَلَائِدِ بِالْعِنَاقِ

ولايميل من له بصر بمواضع الجمال إلى هذه المقابلة ،
فهي ثقيلة متكلِّفة في زعم الباحث ، أبرد السَّحرِ سِوَارَ صاحبته
فأحْمى قلاندها بطول العناق ، إنَّها مقابلة لا تتجاوز المخالفة
بين الجملتين ، وماوراء ذلك فلا يحمل أدنى قيمة للمعنى .

ولو تمخَّلنا للرجل قلنا : إنَّ إجماع القلائد لم يكن
بسبب برد السَّوار ، ولاعلاقة للثانية بالأولى ، وإنَّما الأمر أنَّ
ساعة الوداع حانت !! فلم يمل الشَّعراء إلى صباح ليلة الوصل
على كلِّ حال وجاهروه بالكراهية والعداء ، قال "التهامي" (٢) :

حَتَّى أَضَاءَ لَنَا الصَّبَاحُ ففُرِّقَتْ مَنَا كِتَابُ شَمْلِهِ المَجْمُوعِ
مَتَى دَنَا الصَّبَاحُ تَفَرَّقَ المَحْبُوبُونَ ، ففِي دَنُوهِ انْقِضَاءُ
السَّعَادَةِ وَفِيهِ يَقُولُ "ابن رَشِيْق" (٣) :

كَيْفَ لَا أَبْغِضُ الصَّبَاحَ وَفِيهِ غَابَ عَنِّي أُولُو الوُجُوهِ المِلاَحِ
الشَّاعِرُ يَصْرَحُ بِبِغْضِ الصَّبَاحِ الَّذِي مَعَهُ يَغِيْبُ الأَحْبَابُ ، بَلْ
وَصَلَ الأَمْرُ بِبَعْضِ العَاشِقِينَ أَنْ تَمَنَّى أَنْ بِياضَ الصُّبْحِ لَمْ يَخْلُقْ
حَتَّى لَا يَقْطَعُ عَلَيْهِ سَعَادَتَهُ : (٤)

قَالَتْ تَوَدِّعْنِي وَالْعَيْنُ بَاكِيةٌ يَا لَيْتَ أَنْ بِياضَ الصُّبْحِ مَا خَلِقَا
وَلَمَّا يَفْعَلُهُ الصَّبَاحُ بِالعَاشِقِينَ جَعَلَهُ "الأَبْيُورْدِي" كَالسَّيْفِ
(٥)
حِينَ يَسِلُ :

فَمَا رَاعَنَا إِلَّا الصَّبَاحُ كَمَا بَدَا
مِنَ الغَمِّ حَدُّ المَندَوَانِي ذِي الأَثَرِ

- (١) ديوان الشَّريف الرُّضي ٧٧/٢ .
- (٢) ديوان التهامي ص ٤٠٥ .
- (٣) نثار الأزهار ص ٢٨ .
- (٤) يتيمة الدهر ٢٨٨/٥ .
- (٥) مختارات البارودي ٣٧١/٤ .

فالمصباح يأتي مرعباً يخيف العاشقين في نهاية ليل
الوصل ، كما يخيف السيف من يستحق العقاب قبل أن يحلّ به ،
فالتشبيه هنا فعل فعله في الإيحاء بالمعنى الذي يرمي إليه
الشاعر بحلول الصباح ... والرّوع الذي يسكنه الصباح قلوب
العاشقين في ليل وصلهم يقول فيه "ابن حمديس" :
(١)

تَنهَدْتُ مَرْتَعِ الْفَوَادِ وَإِنَّمَا تَنهَدْتُ لِلصَّبْحِ الَّذِي يَتَنَفَسُ
فِيَا صَبْحٍ لَا تُقْبِلُ فَإِنَّكَ مَوْحِشٌ وَيَالَيْلُ لَا تُدْبِرُ فَإِنَّكَ مُؤَنَسٌ

هذه المقابلة بين موحش ومؤنس لاتشير إلى طبائع الأشياء
ولكنها تشي بحالة الشاعر النفسية ، فالليل يؤنس قرب
الحبيب ، وفي الصباح يرحل الحبيب ، وتقبل الوحشة ، لذا
يقول للمصباح لاتقبل ، ففي إقباله زوال الأنس وفراق الحبيب ،
أمّا الليل فلا يدبر ، ففي بقائه امتداد الوصل واستمرار
اللقاء . وقد جعل "الأزجاني" الصباح يقبل بسيف يقتل به
الليل :
(٢)

قَبْتُ مِنْ وَصْلِكَ فِي لَيْلَةٍ حَتَّى جَلَا الصُّبْحُ مُحْيَاهُ
وَاللَّيْلُ سَيْفُ الْفَجْرِ فِي فَرْقِهِ يَقْتُلُهُ وَالذِّيكُ يَنْعَاهُ

بات ناعماً بماحبته حتى ظهرت طلائع الفجر ، وفي يده
سيفه يسله على مفرق الليل ، فأراق دمه ، وبقيت آثار
الدماء على وجه الشفق ، فنعاه الذّيك مؤذناً بهذه القتلة
التي بددت الشمل ، وفرقت الأحباب ، وربما تكون فكرة العقاب
جزاء ماصنع في ليلته قد دارت بفكره ، فجاءت بألفاظ القتل
السيف ، النعي ، وسبب الثغور من صباح ليلة الوصل يبينه
"الرّصافي البلنسي" بقوله :
(٣)

أَمَكَنْتَنِي مِنَ الْعِنَاقِ فَلَمَّا جَلَبَ الْفَجْرُ سَاعَةَ التَّوَدِيعِ

(١) ديوان الشعر العربي ٦٠/٣ .
(٢) ديوان الأزجاني ص ١٥١٦ .
(٣) ديوان الرّصافي البلنسي ص ١٠٦ .

إذا كره الإنسان شيئاً فقد تمتدّ الكراهية لما يتصل به
ولما كان الصّباح يأتي بالوداع أو يجلبه على حدّ تعبيره ،
والوداع ممّا يكره ، اتجه بعواطف الكراهية والمقت تجاه
الصّباح ، وقد تلوّن نفسيّةُ الشّاعر المنمذعة من الفراق في
الصّباح الأشياء من حوله ، في تلك اللحظة قال "سبط
التّعاويذي" (١) :

حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ شَابَ مَفْرُقَهُ الْـ م جَوْنٌ وَرَثَتْ أَثْوَابَهُ الْجُدُدُ
وَقُوِّمَتْ خَيْمَةُ الدُّجَى وَعَلَا لِلْفَجْرِ فِي الْجَوِّ سَاطِعًا عُمْدُ
وَرِيحَ سَرْبِ النُّجُومِ وَاسْتَبَقَتْ فِي أُخْرِيَاتِ الظَّلَامِ تَطَرُّدُ
وَأَنْحَلَ عَقْدُ الْجُوزَاءِ وَأَنْتَشَرَتْ فِي الْغَرَبِ مِنْهُ لَالِيٌّ بَدَدُ

ومع أنّ الشّاعر يصف ما حوله في ساعة الفجر إلا أنّه
يلوّنه بألوانٍ قاتمة تأخذ صبغها من الوداع ، والحزن ،
والخوف ، فالليل قد شاب ، وثيابه رثت ، وقوّمت خيمةُ الدّجى
ريحَ سربِ النّجوم ، انحلّ عقد الجوزاء ، والألم المسيطر على
نفسيةُ الشّاعر في صباح ليلة الوصل جعله ينظر بهذا المنظر
الأسود إلى الأشياء من حوله ، والفّيع والحزن الذي بداخله ،
هو مانراه على الأشياء من حوله ، وفي نهاية ليل وصل آخر
قال عن النّجوم وعن الفجر :

كَأَنَّهَا نَقَدٌ بِالذَّوِّ نَفَرَهَا لَمَّا بَدَا ذَنْبُ السَّرْحَانِ سِرْحَانِ (٢)

النّجوم عندما جاء الفجر كأنّها غنم في فلاة جفلت ونفرت
من ذئب بدا فجأة ، فالصّباح ذئب يهجم فجأة يطرد النّجوم ،
ويطرد سعادة الشّاعر بوصل الحبيب .

(٣) و"الشّابّ الظّريف" يجعله واشيا :

فَلَمَّا بَدَا وَاشِي الصَّبَاحِ بَوْشِيهِ وَنَيْطَ عَلَيْنَا مِنْ يَدِ الْجَوِّ بُرْدَهُ

(١) ديوان سبط التّعاويذي ص ١٥٢ .

(٢) السابق ص ٤١٣ .

(٣) ديوان الشّابّ الظّريف ص ٨٩ .

جاء الصّباح وكشف ما كان مستوراً باللّيل ، فهو يشي
 بالمحبين إذ يكشف سترهما ، ويمكن العيون من رؤيتهم ، لذا
 جعله "صفي الدّين الحلّي" عدواً أزرق (١) :
 حتّى بدّا فلقُ الصّباحِ ، فراعهُ إنّ الصّباح هو العدوُّ الأزرقُ
 صباح ليلة الوصل يروّع المحبّين ، إذ يهجم عليهم هجوم
 الأعداء فيفرّقهم ، ويشتت شملهم ، ويصف "الحلّي" صباح ليل
 وصل آخر بقوله : (٢)

وتعلّب الصّبحِ واقى فاغراً فمهُ

إذ قابلتهُ الثّريّا شبه عنقودِ

الثّريّا بعض ليل الوصل الذي يأنس إليه الشّاعر فجعلها
 عنقوداً يقبلُ عليها شعلبُ الصّبحِ فاغراً فمه ليلتهمها ،
 ويلتهم سعادة الشّاعر بليل الوصل . ففي قدوم الصّباح نهاية
 الوصل وانقضاء السّعادة ، فناصره الشّعراء العداة ، ومالوا
 بعاطف الكراهية نحوه . ومما سبق فإنّي أرى التوفيق لم
 يحالف "محمد بن وهيب" عندما قال : (٣)

وبدّا الصّباح كأنّ غرتهُ وجهُ الخليفة حين يمتدحُ

فالشاعر يمدح الخليفة ، وجعل الصّباح كوجهه ، غير أنّه

صباح ليلة وصل ، فقبله يقول :

ربّما أبيتُ معانقي قمرُ

لأنّ فيه مخايلُ تفتحُ

فقد علمنا أنّ الشّعراء كرهوا صباح ليلة الوصل وناصبوه
 العداة ، ولو أنّ "محمد بن وهيب" جعل اللّيلة ليلة هجر أو
 ليلة همّ ، ثم قال : وبدّا الصّباح كأنّ غرته ... لأحسن وأجاد
 لأنّ هذا الصّباح هو مخلصُ الشّعراء من همومهم وآلامهم ، فيكون
 صباحاً محبوباً ، فيصف وجه الخليفة به .

(١) ديوان صفي الدّين الحلّي ص ١٢٢ .

(٢) السابق ص ٤١٤ .

(٣) المصون في الأدب ص ١٢٢ .

ولقد استمرت كراهية الشعراء لمباح ليلة الوصل في الشعر العربي فهو يذبح ليالي الوصل كما يقول "البارودي" (١) :
 وليلةٍ سالَ في أعقابِها شفقٌ كأنَّها بحسامِ الفجرِ قدْ دُبِحَتْ
 لما كان مجيء الصِّباح قطعاً للسَّعادة ، وإنهاءً للأنس جعل
 الشَّاعر له حساماً يذبح به ليلة الوصل ، ويقفي عليها فتسيل
 دماؤها على هيئة الشفق .

(٢)
 و"ابو القاسم الشَّابِّي" يجعل للصِّبح ذنباً كذنب العقرب :
 حتَّى إذا رَوَّعنا ذنبُ الصُّبحِ كذنبِ العُقرَبِ
 عندما رأى الشَّاعر الصِّباح ارتاع منه وكأنَّه يرى ذنباً

عقرب تقترب منه . واستخدام "ذنب العقرب" تجسّد مدى نفور
 الشَّاعر من صباح ليلة الوصل ، فذنب العقرب يحمل السُّمَّ الَّذِي
 يسبب الموت . فقد قتل الصِّباح الليلة التي يمل بها الشَّاعرُ
 الحبيبَ فلا بدّ من الوداع ، فقد حانتْ ساعته بطلوع الصِّبح :
 (٣)

قَبَّلْتَنِي ، وَلَهَيْبُ الْأَكْمِ الْمُرِّ فِي مَدْمَعِهَا الْمُنْسَكِبِ
 مِثْلَ طَلٍّ ، فَوْقَ وَرْدٍ ، وَيَلْتِي مِنْ جَرَا طَلْعَةِ ذَاكَ الذَّنْبِ
 طلوع الصِّباح معناه الوداع والفرق ، ويموّر "عبّاس

محمود العقاد" لحظات الوداع والفرق بقوله :
 (٤)

وَلَمَّا تَقَمَّى اللَّيْلُ إِلَّا أَقْلَهُ
 وَحَانَ التَّنَائِي جَشْتُ بِالذَّمْعِ بَاكِياً
 فَأَقْبَلَ يِرْعَانِي وَيَبْكِي وَرَبَّماً
 بَكَى الطِّفْلُ لِلبَاكِى وَإِنْ كَانَ لَاهِياً
 وَزَحَزَحَنِي عَنْهُ بِكَفِّ رَفِيقَةٍ
 وَأَسْبَلَ أَهْدَابَ الْجُفُونِ السَّوَاجِيَا

(١) ديوان البارودي ١/١٦٨ .
 (٢) ديوان أبي القاسم الشَّابِّي ص ٥٠٩ .
 (٣) السابق .
 (٤) ديوان العقاد ١/٩٣ .

يقولُ لقد رَانَ الكرى وتفرقتُ
 نجومُ الدُّجَى والدَّيْكَ أصبحَ دَاعِيَا
 وَأَسْلَمْتُ كَفِّي كَفَّهُ فَأَعَادَهَا
 وَقَلْبِي ! فهِلَّا أَرْجَعِ الْقَلْبَ ثَانِيَا
 فلمَ أَرُ لَيْلًا كَانَ أَطْيَبَ مَطْلَعًا
 وَأَكْأَبَ أَعْقَابًا وَأُشْجَى مَعَانِيَا

الصورة لوحة مفصلة قد لايعنى بمثلها الشاعر القديم
 الذي ألفنا منه أن يقدم لنا تقريراً عن الشجن الذي يلقاه
 في مثل هذا اللقاء ، لكن العقاد خلع على الموقف حياة
 جعلته أكثر شجناً وتأثيراً ، كمورة الطفل التي أشبتها في
 الموقف دون إقحام ، لكنها جزء لايتجزأ منه ، وأراق كل
 عواطف الأسى على ماكان بينه وبين الطفل "وأسلمتُ كفي كفه
 فأعادها" لكنه أخذ قلبي فلم يرده .

ومن ثم كان ليله طيباً في مطالعه ، كئيباً في أعقابه
 وفي هذه اللحظات يقول "العقاد" :

أقولُ أَلَا فَانظُرْ إِلَى اللَّيْلِ إِنَّهُ
 يودِّعُ وَجْهَ الْأُفُقِ أَسْفَعِ كَابِيَا
 وَهَذِي النُّجُومُ الْفَرُّ يَطْرُقْنَ فَوْقَهُ
 ذَوَاهِلَ مَنْ هَوْلِ الْفِرَاقِ سَوَاهِيَا
 أَتَخْبُو الدَّرَارِي سَاعَةَ الْبَيْنِ لَوْعَةً
 وَتَسْهُو الدِّيَاجِي شَمَ أُصْبِرُ جَافِيَا
 وَلَيْتَ لِقَائِي مِنْ فِرَاقِكَ كَانَ لِي
 وَشِيكاً كَتُودِيْعِ الظَّلَامِ الدَّرَارِيَا
 وَلَيْتَ النَّوَى وَالْقُرْبَ يَعْتَوِرَانِنَا
 تَبَاعاً كَمَا يَتَلَوُ الْمَبَاحُ الدِّيَاجِيَا

وفي هذا المقطع يخرج علينا الشاعر بلمحة جديدة ، فهو يتمنى أن يتعاوره النوى والقرب ، كما يتعاقب الليل والنهار ، وهذا ما يمكن تسميته بالنفج الوجداني ، فهو لا يندب حظّه ، ويبكي بكاء الطفل على ذهاب الليل ، لكنه يتمنى أن يأتي ليل بعد النهار كذلك الليل .

وفي الفجر ، حانت ساعة الوداع ، وفي هذا يقول

(١)

"إبراهيم ناجي" :

وَأَقْفْنَا لَيْتَ أَنَّا لَانْفِيقُ	وَأَنْتَبَهْنَا بَعْدَمَا زَالَ الرَّجِيقُ
وَتَوَلَّى اللَّيْلُ وَاللَّيْلُ مَدِيقُ	يَقْظَةُ طَاحَتْ بِأَحْلَامِ الْكَرَى
وَإِذَا الْفَجْرُ مُطْلٌ كَالْحَرِيقُ	وَإِذَا النُّورُ نَذِيرٌ طَالِعٌ
وَإِذَا الْأَحْبَابُ كُلُّ فِي طَرِيقُ	وَإِذَا الدُّنْيَا كَمَا نَعْرِفُهَا

وهذه الصورة على غرار سابقتها ، علامة على نفج

الوجدان ، وبراءته من الافتعال والتكلف ، والتلاعب بألفاظ

لاتنقل شعوراً حقيقياً للشاعر .. فما أطفه في هذه الصورة :

وَتَوَلَّى اللَّيْلُ وَاللَّيْلُ مَدِيقُ	يَقْظَةُ طَاحَتْ بِأَحْلَامِ الْكَرَى
وَإِذَا الْفَجْرُ مُطْلٌ كَالْحَرِيقُ	وَإِذَا النُّورُ نَذِيرٌ طَالِعٌ

فالليل صديق أليف ، ونور الصبح نذير ، وإطلالة الفجر

حريق لأنهما يقومان لحظة المسرة . ثم نتأمل :

وَإِذَا الدُّنْيَا كَمَا نَعْرِفُهَا	وَإِذَا الْأَحْبَابُ كُلُّ فِي طَرِيقُ
--------------------------------------	--

فالشاعر لم ينهمك في انفعال مارخ ، ولم يقم الدنيا

ويقعدها لأن صاحبته مضت عنه .

فكم تمنى الشعراء أن يمتدّ ليل الوصل وألا يكون بعده

صباح أو نهار ، لأنّ النهار ارتبط بمجيء البين ، ودنو ساعة

(١) الوداع ، قال "بشار بن برد" :

إِذَا نَادَى الْمُنَادِي كَادَ يَقْضِي حِذَارَ الْبَيْنِ لَوْ نَفَعَ الْحِذَارُ
وَوَدَّ اللَّيْلَ زَيْدَ إِلَيْهِ لَيْلٌ وَلَمْ يُخْلَقْ لَهُ أَبَدًا نَهَارٌ

لقد انقضى الليل وكاد المحبّ يقضي معه من خشية الفراق فيتمنى أن يمتدّ الليل ليمتدّ الوصل الذي يعيش فيه ، أمّا النهار فليته لم يخلق حتى لايقطع سعادة الشاعر وأنسه بوصل الحبيب ، ومثل هذا قول "العبّاس بن الأحنف" (٢) :

قَوَدَدْتُ أَنْ اللَّيْلَ دَامَ وَأَنَّه ذَهَبَ النَّهَارُ فَلَايَكُونُ نَهَارٌ

أمّا الليل فيبقى وأمّا النهار فلايكون ولايأتي ، وليس هذا حبّاً في الليل لذاته أو كرهاً في النهار لذاته ، ولكن للحال التي يوجد بها كلّ منهما ، ففي الليل تمّ اللقاء بين المحبين تحت أستار الظلام ، ومجيء النهار سوف يقطع اللقاء ويفرق المحبين ، ويكشف بنوره ستر الليل ، وسوف يقوم الناس من نومهم ، ولهذا يرجو "عبد الصّمد بن المعذل" النهار ألاّ يدنو من ليلته : (٣)

وَيَاغِدُ إِنْ كُنْتُ لِي رَاحِمًا فَلَاتَدْنُ مِنْ لَيْلَتِي يَاغِدُ

متى دنا الصّباح انصرف الليل ، وانصرف معه سعادة الشاعر ، لانتهاء ساعات الوصل . فالشاعر يرجو الفد أن يرحمه ، وألاّ يدنو من ليلته لأته إن دنا منها بدّها وصرفها وقال "علي بن الجهم" : (٤)

فِيَالَيْتَ أَنْ اللَّيْلَ أَطْبَقَ مُظْلِمًا وَأَنْ نُجُومَ الشَّرْقِ لَمْ تَتَفَرَّبِ

وهي عبارة تقريرية أتت على غرار غيرها من العبارات التقريرية التي إمّحت فيها ذاتية الشاعر وبقي منها المعنى

(١) ديوان بشار بن برد ٨٨/٤ .

(٢) ديوان العبّاس بن الأحنف ص ١٣٩ .

(٣) نهار الأزهار ص ١٨ .

(٤) ديوان علي بن الجهم ص ٩٥ .

(١) استبقاء اللَّيْلِ استبقاء لساعات المسرة . وقال "ابن المعتز"

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ لَيْتَ الصُّبْحَ يَهْجُرَهَا

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ دُومِي ، هَكَذَا دُومِي

أمنيات متكررة لدى الشعراء بأن يدوم ليل الوصل وأن يتركه الصبح ، ولا يقترب منه حتى تمنى "السري الرقاء" أن يكون بين الليل والصبح سدٌّ يفصل بينهما : (٢)

جَمَعَ اللَّهُ شَمَلَنَا فَوَدَدْنَا أَنْ بَيْنَ الصَّبَاحِ وَاللَّيْلِ سَدًّا

سدٌّ بينهما ليمنع قدوم الصبح ، فيبقى الليل ومسرات الشاعر فيه وعلى نحو من هذا قول "ابن طباطبا" : (٣)

فَلَوْ اسْتَطَعْتُ جَعَلْتُ بَيْنَ ظَلَامِهَا وَالصُّبْحِ رَدْمًا

فَالصَّبَاحُ يَبْدُدُ اللَّيْلَ ، وَإِنْ تَبَدَّدَ اللَّيْلُ انْفَضَّ عَقْدُ الشَّمْلِ (٤)

وافترق المحبون كما يرى "ابن رشيق" :

أَيُّهَا اللَّيْلُ طُلِّ بِغَيْرِ جَنَاحٍ لَيْسَ لِلْعَيْنِ رَاحَةٌ فِي الصَّبَاحِ
كَيْفَ لَا أَبْغِضُ الصَّبَاحَ وَفِيهِ بَانَ عَنِّي نُورُ الْوَجْهِ الْمِلَاحِ

فالشاعر لا يجد راحة في الصبح الذي يعقب ليلة الوصل ، فهو يكرهه لأنَّ نوره يُغَيِّبُ نورَ الوجوه الملاح بفراقهم . وقال "لسان الدين بن الخطيب" : (٥)

لَيْتَ نَهَرَ النَّهَارِ لَمْ يَجْرِ حَكَمَ اللَّهُ لِي عَلَى الْفَجْرِ

وانقطاع أنس الشاعر بليلة الوصل بسبب الفجر جعل

الشعراء يتمنون ألا يروا الفجر . يقول "حسين العشاري" :

"وليلة أنسٍ لا رأيتُ لها فَجْرًا" . وإذا ذكروه بالألَّا يقرب كما (٦)

يقول "شوقي" "نَذَكُرُ الصُّبْحَ بِأَنْ لَا يَقْرَبَنَا" . (٧)

- (١) ديوان ابن المعتز ص ٤٠٥ .
(٢) ديوان الشعر العربي ٣٩٣/٢ .
(٣) ديوان ابن طباطبا ص ٢٩٧ .
(٤) تزيين الأسواق ص ٤٢٣ .
(٥) ديوان الشعر العربي ٢٧٨/٣ .
(٦) ديوان حسين العشاري ص ٣٥٨ .
(٧) الشوقيات ١١٦/٢ .

وتمنى "عمر بن أبي ربيعة" أن يكون ليله في الوصل
شهرًا : (١)

لَيْتَ هَذَا اللَّيْلَ شَهْرًا
لَانْرَى فِيهِ غَرِيبًا
لَيْسَ إِلَّايَ وَإِيَّايَا مَهَا ، وَلَا نَخْشَى رَقِيبًا

وتمنى "ابن زيدون" أن يمتدّ زمن ليلة الوصل وإن كانت
الزيادة من عمره : (٢)

قَمَرَ الْوَصْلُ عُمْرَهَا ، وَبِوَدِّي
أَنْ يَطُولَ الْقَمِيرُ مِنْهَا بِعُمْرِي
وتمنى "البارودي" أن تكون عاما : (٣)

فِيَالهَا لَيْلَةٌ مَا كَانَ أَحْسَنَهَا
لَوْ أَنَّهَا لَبِثَتْ حَوْلًا وَمَا بَرَحَتْ
توارد الشعراء على وصف ليالي الوصل بالقمر وبسرعة

مرورها ، وكان لهم في ذلك طرائق أولها التعبير المباشر ،
وذلك بأن يصف^{الشاعر} الليل بالقمر مباشرة ، وهذا "عمر بن أبي
ربيعة" يخاطب ليل الوصل بقوله : (٤)

فِيَالِكَ مِنْ لَيْلٍ تَقَامِرُ طُوْلَهُ
وَمَا كَانَ لَيْلِي قَبْلَ ذَلِكَ يَقْمُرُ
زيارة^١ الحبيب قمرت الليل على الشاعر ويبين "عمر" أن
ذلك رؤية منه هو : (٥)

وَاللَّيَالِي ، إِذَا نَأَيْتِ ، طَوَالَ
وَأَرَاهَا ، إِذَا دَنَوْتِ ، قِصَارَا
فقوله "أراها" توحى بأن العملية من حسّه هو ، أو من
داخله ، ففي بُعد الحبيب يرى الليالي طوالاً ، أما إذا دنا
فهي قصار ، ومثل هذا قول "الوليد بن يزيد" : (٦)

فَاللَّيْلُ أَطْوَلُ شَيْءٍ حِينَ أَفْقَدُهَا
وَاللَّيْلُ أَقْمَرُ شَيْءٍ حِينَ أَلْقَاهَا

-
- (١) ديوان عمر ص ٦٧ .
 - (٢) ديوان ابن زيدون ص ٢٠٠ .
 - (٣) ديوان البارودي ١/١٦٩ .
 - (٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٢٤ .
 - (٥) السابق ص ١٦٣ .
 - (٦) ديوان الشعر العربي ١/٤٧٤ .

إخبار عن أن الليل يطول أو يقصر بحسب حالة الشاعر
النفسية ، وتصوره لليل من خلال الوصل والمجر . ومن هذا قول
"ابن زيدون" :^(١)

يَقْصُرُ قُرْبُكَ لَيْلِي الطَّوِيلَا وَيَشْفِي وَمَا كُ قَلْبِي الْعَيْلَا
ويقول "ابن زيدون" عن ليلة أخرى : (قَمَرَ الوَصْلُ عُمَرَاهَا)^(٢)
فالمعنى واحد وهو قَمَرَ اللَّيْلِ والعبارات تكاد تكون
مكررة إلا بعض التقديم والتأخير .

ويحاول "أبو الحسن التهامي" إيجاد علة لقصر ليل
الوصل فيقول :^(٣)

اللَّيْلُ حَيْثُ حَلَلْنَ فِيهِ نَهَارٌ فَلِذَا اللَّيَالِي وَمُلْهُنَّ قَمَارُ
نساء جميلات منيرات يجعلن الليل نهاراً بضوئهن ، فلذا
اختفت الليالي أو قُصُرَتْ ، أو أَنَّ قَرِبَهُنَّ يجعل الشاعر في حال
سعادة ، وكأَنَّهُ بالنهار فلا يرى ليلاً ، والمعنى الأول أرجح لأنَّ
"التهامي" يقول في قصيدة أخرى :^(٤)

وَيَقْصُرُ لَيْلِي مَا أَلَمَّتْ لِأَثْمَا مَبَاحٌ وَهَلْ تَبَقَى الدُّجَى وَهِيَ الْقَجْرُ
متى مازارت الحبيبة قَصَرَ اللَّيْلُ ومضى ، لِأَثْمَا بيضاء مثل
المبّاح فلن يبقى الظلام والصباح موجود .

ومن التعبير المباشر عن قصر ليل الوصل قول "السراج" :^(٥)
يَا لَيْلَةَ مَا كَانَ أَقْصَرَهَا وَيَا لَهْفِي عَلَيْهَا لَوْ طَالَتِ
وقول "ابن تميم الأسعدي" :^(٦)

يَا لَيْلَةَ قَمَرَتْ بِزُورَةٍ غَادَةٍ سَفَرَتْ فَأَغْنَى وَجْهَهَا عَنْ بَدْرِهَا

-
- (١) ديوان ابن زيدون ص ٢٤٧ .
(٢) السابق ص ٢٠٠ .
(٣) ديوان التهامي ص ٢٣٠ .
(٤) السابق ص ٢٥٦ .
(٥) مصارع العشاق ٢/٢١٢ .
(٦) ديوان الشعر العربي ٣/٢٢٨ .

(١)

وقول "حازم القرطاجني" :
فَيَاثَا لَيْلَةً مَا كَانَ أَقْصَرَهَا

وَقْتًا وَأَفْسَحَهَا فِي الْحُسْنِ مَيِّدَانَا

فكل ذلك تعبير مباشر عن قصر ليل الوصل ، أو شكوى من قصر الليل الذي لا يتيح للشاعر وقتاً أطول ، لينعم بقرب الحبيب . ويقول "العيدروسي" : : إِنَّ شِكْوَاهُ مُسْتَمِرَةٌ مِنَ اللَّيْلِ وَمَلَأَ وَهَجْرًا :

فَاللَّيْلُ عِنْدِي سَوَاءٌ إِنْ دَنَا وَقَلَا

(٢)
أَشْكُو مِنَ الطُّولِ مَا أَشْكُو مِنَ الْقِصْرِ

فالشكوى من الليل شيء مستمر عند الشاعر ، مرة يشكو من القصر ، ومرة يشكو من الطول ، وهذا مرتبط بلقاء الحبيب فإن لقيه شكا من قصر الليل ، وإن لم يجده شكا من طوله ، ففي ساعات الوصل يكون الشاعر مسروراً مبتهجاً ، فلا يلقي بالاً للوقت ، فيظن أنه مرّ سريعاً ، وفي ساعات الحرمان يكون مَجْرأً بَرِمًا ، فيظن أن الوقت بطيء ، وأن الليل طويل ، مع أن الليل زمن واحد في الحالين .

هذا ما كان عن التعبير المباشر عن إحساس الشاعر بقصر

الليل .

ونجد إلى جانب ذلك طرقاً أخرى للتعبير عن ذلك الإحساس

في أساليب بيانية مختلفة . قال "أمية بن أبي الصلت" (٣) :

يَالَيْلَةَ لَمْ تَبْنِي مِنَ الْقِصْرِ كَأَنَّهَا قُبْلَةٌ عَلَى حَذَرٍ

لَمْ تَكْ إِلَّا كَلًّا وَلَا وَمَضَتْ تَدْفَعُ فِي صَدْرِهَا يَدُ السَّحَرِ

ليلة مرت سريعاً ومن سرعتها لم تبني ، ويشبهها بقبلة

على حذر ، ولأدري كيف واتت "أمية" هذه الصورة الرشيقة ،

(١) ديوان حازم ص ١١٨ .

(٢) الغصون اليبانة ص ١٦٠ .

(٣) نثار الأزهار ص ٥٦ .

ويد السّحر تدفع في صدرها كما يقول . فما إن أُقبلت حتى دفع
السّحر صدرها بيده فردّها فلم تمكث إلا برهة .
(١)
ويقول "المولي" لم يك غير الشّفق والفجر :

ولَيْلَةٍ مِنْ حَسَنَاتِ الدَّهْرِ قَابَلْتُ فِيهَا بَدْرَهَا بِيَدْرِي
لَمْ يَكْ غَيْرَ شَفَقٍ وَفَجْرِ حَتَّى تَوَلَّتْ وَهِيَ بِكُرِّ العُمْرِ
فَكَأَنَّ اللَّيْلَ مِنْ سُرْعَتِهِ لَمْ يَكُنْ فَالشَّاعِرُ لَمْ يَشَاهِدْ إِلَّا
المغرب والفجر فقد انقضى الليل سريعاً وكأَنَّهُ الملح بالبصر
(٢)
كما قال بعضهم :

عَهْدِي بِنَا وَرِدَاءِ اللَّيْلِ مُشْتَمِلٌ وَاللَّيْلُ أَطْوَلُهُ كَاللَّمْحِ بِالْبَصْرِ
ويبسط "ابن طباطبا" هذا المعنى مشيراً إلى قوله تعالى
{وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصْرِ} .
(٣)
ولَيْلَةٍ مِثْلَ أَمْرِ السَّاعَةِ اشْتَبَهَتْ

(٤)
حَتَّى تَقَفَّتْ وَلَمْ نَشْعُرْ بِهَا قَصْرًا
مَا يَسْتَطِيعُ بَلِيغٌ وَصَفَ سُرْعَتَهَا
فَاتَتْ وَلَمْ تَعْتَلِقْ وَهَمًّا وَلَا خَطَرًا

الأوقات السعيدة لا يشعر الإنسان بمرورها ، ولا يعني هذا
أنّ الوقت تسارع في المرور كما يدّعي الشعراء ، والشاعر
يموّر إحساسه ومشاعره ، فلمّا كان يعيش اللّيل سعيداً بوصل من
يجب ، لم ينتبه إلى الوقت ، فأحصن بقمر اللّيل أو خيّل له
أنّه مرّ كلمح بالبصر . أو أنّ عشاءه يعثر بسحره كما يقول
(٥)
"الشّريف الرّضي" :

يَالَيْلَةَ كَادَ مِنْ تَقَارُبِهَا يَعْثُرُ فِيهَا العِشَاءُ بِالسَّحْرِ
فقد الشاعر الإحساس بالزّمن ، فلم يعد هناك وقت بين

-
- (١) من غاب عنه المطرب ص ٨٥ .
(٢) تزيين الأسواق ٤٢٢/٢ .
(٣) سورة النحل : ٧٧
(٤) من غاب عنه المطرب ص ٨٤ .
(٥) ديوان الشّريف الرّضي ٥١٨/١ .

العشاء والسحر ، فقد عثر أحدهما بالآخر ، فَلَيْلُ الْوَصْلِ سِنَةٌ
 (١) كما يقول "أبو محمد المطراني" :

لَيْلُ الْهَوَى سِنَةٌ فِي الْحَجْرِ مَدَّتْهُ

لِكِنَّهُ سِنَةٌ فِي الْوَصْلِ مِنْ قِصْرِهِ

فهو إغفاءة قليلة لا يكاد يشعر بها ، وذاك لأن :

لَيْلُ الْمُحِبِّينَ مَطْوِيٌّ جَوَانِبُهُ مَشْمَرُ الذَّيْلِ مَنْسُوبٌ إِلَى الْقَصْرِ (٢)

فهو ليل قصير جداً أو هو كظل الطائر كما يقول "ابن
 (٣)

التعاويذي" :

وَأَطَلْتُمْ سَهْرِي وَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ مَرَّتْ بِوَمَلِكُمْ كَظَلِّ الطَّائِرِ

وقد بالغ الشعراء في وصل ليل الوصل بالقصر حتى جعله

(٤)

"محمد الشامي العاملي" مثل النَّفْسِ فقال :

كَمْ لَيْلَةٍ قَضَيْتُهَا خَلْسًا خَوْفَ الْعَوَازِلِ ، وَالْهَوَى خَلْسٌ

قَصُرَتْ عَنِ الشَّكْوَى غَيَاهِبُهَا فَكَأَنَّهَا مِنْ قِصْرِهَا نَفْسٌ

(٥)

ويمور "البهاء زهير" إحدى لياليه بقوله :

حِينَ أَتَتْ مَرَّتْ كَلْمَحٍ بِالْبَصْرِ لَيْسَ لَهَا بَيْنَ النَّهَارِ مِنْ أَشْرٍ

تَطَابَقَ الْعِشَاءُ فِيهَا وَالسَّحَرُ أَلَدُّ مِنْ طَيْبِ الْكِرَى فِيهَا السَّهَرُ

وهذه من الصور الملاح القلائل التي صادفتها في قراءتي

فالشاعر جعل الليلة برهة مرت كلمح بالبصر ، حتى لو

تعقبناها بين النهار لما وجدنا لها اشراً ، وهي ليلة رائعة

لذيذة تطابق عشاؤها وسحرها وتشابها ، فإذا كان الكرى

لذيذاً بذاته ، فالسهر فيها لذيذ أيضاً .

ومما سبق عرضه من الصور التي تبين ليل الوصل في رؤية

الشعراء نجدهم يتفقون في المعنى العام وأنه ليل قصير سريع

(١) يتيمة الدهر ١٣٤/٤ .

(٢) السابق ٢٤٩/٢ .

(٣) ديوان سبط التعاويذي ص ١٦٧ .

(٤) ديوان الشعر العربي ٢٩٩/٣ .

(٥) نثار الأزهار ص ٥٧ ، ديوان البهاء زهير ص ١٢٣ .

شم يختلفون في إخراج هذا المعنى ، فهو ليل كاللحم بالبحر ولا يستطيع بليغ وصف سرعته ، ليل على حذر سريع المرور وكأنه إغفاءة قصيرة لا يشعر بها أحد ، ليل مطوي جوانبه مشمر ذيله دوماً ينسب إلى القصر وكأنه ظل الطائر ، أو نفس قمير ، أو خطرة من الخطر ، يعثر أولاه بآخره ، أو أن فجره يسبق شفقهِ . وهذه المور تمثل ليل الوصل في رؤية الشاعر العربي

فهو ليل قصير سريع المرور ، كما يلاحظ أن ليل الوصل له مكانة خاصة عند الشاعر العربي ، فليل الوصل من الليالي المألحة كما يقول "الأبيوردي" "وليلة من ليالي الدهر" (١) ومثله قول "البهاء زهير" : (٢)

وَلَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي الْمَّالِحَةِ باتت بها العموم عني نازحة
وليلة الوصل من أنعم الليالي وألذها كما يقول "عمر ابن أبي ربيعة" : (٣)

بِتَنَا بِأَطْيَبِ لَيْلَةٍ وَأَلَذَّهَا للنفس ، ماستر المباح حجابهُ
ووصف ليل الوصل بألذ الليالي لم يقتصر على الرجال فقد قالت "ستيرة العمبية" : (٤)

بِتَنَا بَأَنعِمِ لَيْلَةٍ وَأَلَذَّهَا ياليتها ومليت لنا بليالٍ
وقد توجه بعض الشعراء بالدعاء لليالي الوصل ، قال "ابن الجهم" : (٥)

سَقَى اللَّهُ لَيْلًا ضَمَّنَا بَعْدَ فُرْقَةٍ
وَأَدْنَى فَوَادٍ مِنْ فَوَادٍ مُعَدَّبٍ

-
- (١) مختارات البارودي ٣٧٩/٤ .
(٢) ديوان البهاء زهير ص ٥٩ .
(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٣٨ .
(٤) الزهرة ١١٥/١ .
(٥) ديوان علي بن الجهم ص ٩٥ .

وقال "الشَّابُّ الظَّرِيفُ" (١) :

فَلَّهْ دَرَكٌ مِنْ لَيْلَةٍ تعادلُ أَرْوَاحَنَا بَلْ أَجَلُ

فالشَّابُّ الظَّرِيفُ يجعل هذه الليلةَ أَجَلًا من روحه ، و"عزيز

(٢) أباطة" تعدل عنده عمر العمر :

فِي لَيْلَةٍ تَعْدِلُ عُمَرَ الْعُمَرِ فَهَلْ أَحَسَّتْ غَرَّغَرَاتِ مَدْرِي
وَقَصَارَى مَا أَقُولُ :

إِنَّ الشُّعْرَاءَ وَصَفُوا لَيْلَةَ الْوَصْلِ بِالْقَمَرِ وَبِسُرْعَةِ الْمُرُورِ
وَاتَّجَّهُوا لَهَا بِعَاطِفَةِ الْحُبِّ وَالْأُنْسِ ، فَوَصَفُوهَا بِأَنَّهَا أَنْعَمُ
الليالي وأعذبها وألذها ودعوا لها وتمنَّوا تكرارها .

(١) ديوان الشَّابِّ الظَّرِيفِ ص ٢٠٢ .
(٢) ديوان عزيز أباطة ص ٦٩ .

الفصل الثالث

ليالي الحرمان

- (أ) الطّيف .
- (ب) الشّاعر المحروم .
- * الهمّ والقلق بسبب الحبّ .
- * السّهر والأرق بسبب الحبّ .
- * البكاء والدّموع بسبب الحبّ .
- (ج) ليل الحرمان ليلٌ طويل .

(١) الطَّيِّف :

السبب في زيارة الطَّيِّف :

لقد أكثر الشعراء من ذكر الطَّيِّف وزيارته لهم في اللِّيالي التي يُحرمون فيها لقاء الحبيب ، ولقد كشف بعض الشعراء عن العلة في زيارة الطَّيِّف . ويرى "الأمدي" أن السابق لهذا الكشف "جران العود" لقوله :^(١)

أَهْلًا بِطَيْفِكَ مِنْ زَوْرٍ أَتَاكَ بِهِ حَدِيثُ نَفْسِكَ عَنْهُ وَهُوَ مَشْغُولٌ

الحرمان من لقاء الحبيب سبب التفكير فيه ، والمداومة على ذلك تأتي بخياله وصورته فتتمثل للشاعر في نومه تعويضا عن اللقاء في اليقظة ، ويرى بعض النقاد أن "العباس بن الأحنف" أخذ معنى "جران العود" فقال :^(٢)

خَيَالُكَ حِينَ أَرَقْدُ نُصَبَ عَيْنِي إِلَى وَقْتِ انْتِبَاهِي مَا يَزُولُ
وَلَيْسَ يَزُورُنِي سَلَةً ، وَلَكِنْ حَدِيثُ النَّفْسِ عَنْكَ هُوَ الْوَصُولُ

فخيال الحبيب مع الشاعر في نومه لا يفارقه إلا مع اليقظة ، والذي جاء به اهتمام الشاعر بمصاحبه ، وحديث نفسه المتواصل عنه ، ولقد كشف "أبو تمام" في وضوح عن هذه العلة حيث يقول :^(٣)

عَادَكَ الزَّوْرُ لَيْلَةَ الرَّمْلِ مِنْ رَمْلَةٍ بَيْنَ الْحَمَى وَبَيْنَ الْمِطَالِ
نَمْ فَمَا زَارَكَ الْخَيَالَ وَلَا كُنَّكَ بِالْفِكْرِ زُرْتَ طَيْفَ الْخَيَالِ
ومن نحو هذا قوله :^(٤)

زَارَ الْخَيَالَ لَهَا ، لِأَبْلِ أَزَارَكُهُ

فَكَرُّ إِذَا نَامَ فِكْرُ الْخَلْقِ لَمْ يَنَمْ

(١) الموازنة ١٦٨/٤ .
(٢) السابق . طيف الخيال ص ٢٠٦ .
(٣) ديوان أبي تمام ص ٧٦٧ .
(٤) السابق ص ٥٠٨ .

ظَبِيٌّ تَقَعَصَتْهُ لَمَّا نَمَبْتُ لَهُ

من آخر الليل أشراكاً من الحلم

"أبو تمام" يجعل الفكر السبب المباشر في زيارة الطيف ، فالتفكير بالحبيب أو حديث النفس عنه يجعل الشاعر يتمثل صورة الحبيب في نومه ، والحرمان من لقاء الحبيب سبب لكثرة التفكير فيه ، وانشغال النفس به ، إذ لو كان قريباً منه لما أخذ كل هذا الحيز من فكر الشاعر ، إذ تكتسب الأشياء قيمتها بفقدائها ، فالشاعر فقد الحبيب فانشغل فكره به حتى تمثّل له طيفه في منامه .

ونحو من هذا يقول "أبو تمام" :^(١)

استزّارته ففكرتي في المنام فأتاني في خفية واحتتام
يالها ليلة تزاورت الأرم واح فيها سرّاً من الأجسام
مجلس لم يكن لنا فيه عيب غير أنّا في دعوة الأحلام
فالشاعر يتمنى لقاء الحبيب ويكثر التفكير في ذلك ،

ولا يلقى في اليقظة سبيلاً إلى ذلك ، فيجد في الحلم برؤية طيف الحبيب بعض التعويض عنه . قال "الكميت" :^(٢)

فلما انتبهت وجدت الخيال أمانى نفسي وأفكارها

وقال الشاعر الأندلسي "يحيى بن الحكم الغزال" :^(٣)

ولا والهوى ما الإلف زار على النوى

يجوب إليّ الليل في البلد القفر

ولكنه طيف أقام مثاله

لعمري في نومي خواطر من فكري

(١) السابق ص ٧٦٨ .

(٢) طيف الخيال ص ١٥ .

(٣) يحيى بن الحكم الغزال ص ١٩٢ .

فخواطر الشاعر وأمانيه وأفكاره تجلب له طيف الحبيب
في نومه ، كما يقول "أبو الطيّب المتنبي" :^(١)

لَا الْحِلْمُ جَادَ بِهِ وَلَا بِمِثَالِهِ لَوْلَا ادِّكَارُ وَدَاعِهِ وَزِيَالِهِ
إِنَّ الْمُعِيدَ لَنَا الْمَنَامُ خَيَالَهُ كَانَتْ إِعَادَتُهُ خِيَالَ خَيَالِهِ

فالشاعر لما داوم على تذكر الحبيب رأى طيفه في
المنام ، فظلّ يتذكر فراقه ووداعه ، إذ حرم منه بهذا
الوداع ، فإدام التفكير فيه حتى بات يراه في منامه ، إذ
ظلّ يصوّر لنفسه الحبيب في حال اليقظة حتى تمثّله أمامه ،
فلما نام رأى خيالا لما تصوّره في حال اليقظة أو رأى خيال
الخيال . فالخيال لا يأتي مصادفة في كل الأحوال بل لابدّ من
التفكير والتشوق إلى صاحبه كما يقول "البحثري" :^(٢)

أَمَّا الْخَيَالُ فَإِنَّهُ لَمْ يَطْرُقِ إِلَّا بَعْقَبِ تَشَوُّفٍ وَتَشَوُّقِ

والتفكير في الحبيب يعده "ذو الرّمة" من الوسواس
ولكنّها وسواس تأتي بخيال الحبيب :^(٣)

نَأَتْ دَارُ مَيِّ أَنْ تُزَارَ ، وَزَوْرَهَا

إِذَا مَا دَجَى الْإِظْلَامُ مَنَّا وَسَاوِسُ

إِذَا نَحْنُ عَرَّسْنَا بِأَرْضِ سَرَى لَنَا

هَوَى لَبَسَتْهُ بِالْقُلُوبِ اللَّوَابِسُ

ويبين "الشريف المرتضي" أنّ الوسواس هو وسواس الذكرى :^(٤)

حَتَّى التَّقِينَا عَلَى رَغَمِ الرَّقَادِ وَمَا

ذَاكَ اللَّقَاءِ سِوَى وَسْوَاسِ ذِكْرَاكَ

لقاء الحبيب في المنام وتصور خياله من جراء التفكير

به وكما يقول :^(٥)

-
- (١) ديوان المتنبي ١٧٩/٣ .
(٢) ديوان البحثري ٢٥٢/٣ .
(٣) طيف الخيال ص ١١٣ .
(٤) السابق ص ١٤٩ .
(٥) السابق ص ١٧٨ .

لِقَاءٍ شَفَى بَعْضَ الْغَلِيلِ ، وَلَمْ أَكُنْ

عليه - وَإِنْ كُنْتُ الْقَدِيرَ - قَدِيرًا
وَمَا كَانَ إِلَّا فِكْرَةً لِمَفَكَّرٍ وَذَكَرًا حَبًّا مِنْهُ الظَّلَامُ ذَكُورًا
حُرْمِ الشَّاعِرِ لِقَاءِ الْحَبِيبِ ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ ، فَانْشَغَلَ
بِالتَّفَكِيرِ بِهِ وَذَكَرِهِ حَتَّى تَمَثَّلَ لَهُ فِي مَنَامِهِ ، فَمَا كَانَ اللِّقَاءَ
إِلَّا فِكْرَةً لِمَفَكَّرٍ ، فَالْأَفْكَارُ تَأْتِي بِصُورَةِ الْحَبِيبِ فِي النُّوْمِ كَمَا
(١)
يَقُولُ :

لَا مُتَعَةً لِي بِمَنْ نَادَمْتُ صُورَتَهُ

لَمَّا أَتَتْنِي بِهَا فِي اللَّيْلِ أَفْكَارِي

أَوْ أَنَّ الظَّنَّ وَالْحَسْبَانَ يَأْتِي بِخِيَالِ الْحَبِيبِ كَمَا يَقُولُ : (٢)
وَلَيْسَ يَنْفَعُنِي وَالْبُعْدُ أَعْلَمُهُ قُرْبٌ أَتَانِي بِهِ ظَنٌّ وَحُسْبَانٌ
و"الشريف المرتضي" يعدُّ الطَّيْفَ مِنْ تَمْوِيهِ الْقَلْبِ عَلَى
(٣)
الْعَيْنِ :

فَلَمَّا التَّقِينَا بَرِّغَمِ الرَّقَا م دِ مَوَّهَ قَلْبِي عَلَى نَاطِرِي

فهو يتمثل في منامه ملاحقيقة له ، لأن القلب يخادع
العين بتموير الحبيب لها ، أو كما يقول أخوه "الشريف
(٤)
الرضي" :

كَانَ قَلْبِي إِلَيْهِ رَائِدًا عَيْنِي فَعَلَى الْعَيْنِ مِنَّةٌ لِلْقَلْبِ

أو هو من تزوير خاطر والفكر كما يقول "الرضي" : (٥)

زِيَارَةٌ زَوَّرَهَا خَاطِرِي مَا أَقْنَعَ النَّفْسَ بِزَوْرِ الْمَنَامِ

وجملة القول أَنَّ الشَّاعِرَ عِنْدَمَا يَحْرَمُ مِنْ لِقَاءِ الْحَبِيبِ
يَنْشَغَلُ فِكْرَهُ بِهِ ، وَيَكْدُ خَاطِرُهُ لِأَجْلِهِ ، حَتَّى يَتَصَوَّرُ خِيَالَهُ فِي
مَنَامِهِ ، وَبِسَبَبِ لَهْفَةِ الشُّعْرَاءِ إِلَى الطَّيْفِ وَاهْتِمَامِهِمْ بِهِ ،

(١) السابق ص ١٤٤ .
(٢) السابق ص ١٢٩ .
(٣) السابق ص ١٢١ .
(٤) السابق ص ٩٣ .
(٥) السابق ص ١١٦ .

وتشوقهم إلى صاحبه فقد استقبله كثير منهم أحسن استقبال
واحتفلوا به غاية الاحتفال ، فهم يلقونه بالترحيب
قال "عمر بن أبي ربيعة" :^(١)

زارت رَمِيْلَةً زائراً في صُحْبَةٍ أَحِبِّبْ بِهَا زَوْراً على عتبِ
وقال "بشار" :^(٢)

قَمَرُ اللَّيْلِ سَرَى فِي قَرْقَلٍ يَتَمَدَّى لِي فَأَهْلًا بِالْقَمَرِ
فهو يرحب به بقوله "اهلاً بالقمر" فالشاعر مسرور
بزيارة الطيف هاش لها ، وقال "محمد الحميري" :^(٣)

طَافَ مِنْ هُنْدٍ خَيْالٌ فَذَعَرَ وَرَمَى عَيْنِي بِدَمْعٍ وَسَهَرَ
قُلْتُ - لَمَّا إِنْ دَنَا مِنِّي - لَهُ: مَرْحِباً أُلْفَاً بِسَمْعِي وَالْبَصَرِ
فلم يكتف بترحيب واحد بل جعله ألفاً ، يرحب به بسمعه
وبصره ، وقال "مروان بن أبي حفصة" :^(٤)

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيَّ خَيْالَهَا بَيْضَاءُ تَخْلِطُ بِالْحَيَاءِ دَلَالَهَا
و"البحثري" من أكثر الشعراء اهتماماً بالطيف ولقد رحب
به في عدة مواضع من شعره ومن ذلك قوله :^(٥)

أَهْلًا بِذَلِكَ خَيْالِ الْمُقْبِلِ فَعَلَ الَّذِي تَهْوَاهُ أَوْ لَمْ يَفْعَلِ
فهو يردد عبارات الترحيب بالطيف لمكانة صاحب الطيف
من نفسه وكأنه ضيف عزيز طرق الشاعر ، والعبارات مرحباً
- اهلاً - ومرحباً هي عبارات متداولة عند قدوم الأعراف
وطروقههم . وقال "الشريف المرتضى" :^(٦)

وَزَوْرٍ تَخَطَّى جُنُوبَ الْمَلَا فَنَادَيْتُ: أَهْلًا بِذَا الزَّائِرِ!

- (١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٥٢ .
(٢) ديوان بشار ٢٦٠/٣ .
(٣) طيف الخيال ص ١٠٧ .
(٤) شعر مروان بن أبي حفصة ص ٩٦ .
(٥) ديوان البحثري ٣٦٦/٢ .
(٦) السابق ٣٠٧/٢ ، ٩٦/١ ، ٤٠/٢ .
(٧) طيف الخيال ص ١٢١ .

(١)
وأورد "الأصفهاني" قول بعضهم :
سَرَتْ لِعَيْنِكَ سَلْمَى بَعْدَ مَغْفَاهَا
يَا حَبِّدَا بَعْدَ نَوْمِ الْعَيْنِ مَسْرَاهَا
فَقُلْتُ : حَيِّتَ مِنْ طَيْفِ أَلَمِ بِنَا
إِنْ كُنْتَ تَمَشَاتَهَا أَوْ كُنْتَ إِيَّاهَا

فرح وسرور بقدوم الطيف . ومن نحو هذا قول "مسلم بن جندب" :
(٢)

وَتَحِيَّةٌ وَكَرَامَةٌ لِخَيَالِهَا وَمَعَ التَّحِيَّةِ وَالكَرَامَةِ مَرْحَبٌ
وقول "الحسن بن وكيع" :
(٣)

حَبِّدَا زورُ أَتَانِي طَارِقًا بَعْدَ اجْتِنَابِهِ
طَرَبَتْ نَفْسِي إِلَيْهِ وَإِلَى طَيْبِ اقْتِرَابِهِ
طَرَبَ الشَّيْخِ إِذَا ذُكِّرَ أَيَّامَ شَبَابِهِ

فالشاعر يبدي غاية السرور والترحيب بطيف الحبيب الطارق بعد ان جفاه أياماً ، ويطرب لقدمه واقترابه طرب شيخ ذكّر أيام شبابه . ومع هذا فإننا نظفر ببعض النصوص الشعرية خالف قائلوها هذا النهج في الترحيب بالخيال والسرور به ، فطردوه وأول من طرد الخيال "طرفة" :
(٤)

فَقُلْ لِيخِيَالِ الْحَنْظَلِيَّةِ يَنْقَلِبُ إِلَيْهَا فَإِنِّي وَأَمِلُّ حَبْلَ مَنْ وَصَلَ
"طرفة" لم يرحّب بالخيال ، بل طلب منه العودة إلى صاحبه .

والباحث يراه طرد الوامق الملتاع ، لا طرد القالي النافر ، وقد كشف عن هذه الحقيقة قوله : "فإنني وأمل حبل من وصل" فهو يرحب بطيفها فعلاً غيره من الشعراء لو أنّها

(١) الزهرة ٣٥٣/١ .
(٢) طيف الخيال ص ٢٦٠ .
(٣) يتيمة الدهر ٤٥٧/١ .
(٤) الموازنة ١٨٨/٢ .

وملته ، ولذلك فهو لا يخالف غيره كما يوهم اللفظ . وإنَّما

الذي هجر الطيف وجفاه هو "جرير" في قوله :^(١)

طَرَقَتْكَ مَائِدَةُ الْقُلُوبِ ، وَلَيْسَ ذَا

وَقْتِ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ

ويعزز الأمدى هذا التأويل فيقول : "إنَّ طرفة أعذرُ من

جرير لأنَّه قال: "فإنِّي واصلُ حبلَ من وصل" فدلَّ على أنَّ الحنظليَّةَ هجرته ووامله غيرها" .^(٢)

ويعتذر "الأمدي" "الجرير" فيقول : "وقد استجفى الناس

قوله : فارجعي بسلام ، وإنَّما قال هذا لأنَّه عاتب عليها ، ألا ترى إلى قوله بعد هذا :

لَوْ كَانَ عَهْدُكَ كَالَّذِي عَاهَدْتِنَا

لَوَصَلْتِ ذَاكَ فَكَانَ غَيْرَ رِمَامٍ

ثم يقول "الأمدي": "إنَّ الأعشى دعا على الخيال في قوله :^(٣)

هَذَا النَّهَارُ بَدَأَ لَهَا مِنْ أَمْرِهَا

مَابَأُهَا بِاللَّيْلِ زَالَ زَوَالُهَا

"أي أزاله كزواله - وما أظنَّ جريراً ولا الأعشى قبله كرها

الخيال على الحقيقة وإنَّما أراد أنَّ زيارته في غير وقتها شاغلة لنا عن حالنا التي نحن عليها" .^(٤)

ويدافع "الشريف المرتضي" عن بيت "جرير" بقوله :

"فإنَّما بيت جرير الذي أنشده فالأولى في معناه أنَّ يريد أنَّها

طرقته بنفسها زائرة على الحقيقة لاطيفها ؛ فقال لها عتاباً

عليها أو خوفاً من وضع الزيارة في غير موضعها : "ارجعي

بسلام" لأنَّه قد قال في البيت "وليس ذا حين الزيارة" ، ومن

(١) ديوان جرير ص ٤٥٢ .

(٢) الموازنة ١٨٨/٢ .

(٣) السابق .

(٤) السابق .

(٥) السابق .

خاف الرّقباء ولم يامن على محبوبه من الأقوال الجارحة
والتهمة الفادحة استعفى ممّا يطرقُ ذلك ويثمّره^(١) ، كما يرى أن
لفظ البيت لا يدل على الاختصاص بالخيال لأنّ الطروق ليلاً يكون
للخيال وغيره ، وللخيال مجازاً وفي غيره حقيقة ، وحمل
الكلام على الحقيقة أولى .^(٢)

ويرى أن بيت طرفة صريح في طرد الخيال ، وقد كشف عن
علّة طرده ، وليس كبيت جرير الذي هو بغير الخيال أشبه وفيه
أوقع . وفي كلام "الشّريف المرتضي" جانب كبير من الصّحة فليس
في البيت ما يدل على الاختصاص بالخيال ، ثم إنّ الشّاعر قال :
"ارجعي بسلام" وقد بين أنّ الوقت ليس مناسباً للزيارة .

ويعجب "ابن عبد ربه الأندلسي" من قول "الرّاعي" الذي
هجا الخيال فقال :^(٣)

طَافَ الْخَيَالُ بِأَمْحَابِي فَقَلْتُ لَهُمْ:
أَفُؤْمُ شَدْرَةَ زَارْتِنِي أَمْ الْغُولُ ؟
لَا مَرَحَبًا بِأَبْنَةِ الْأَقْيَالِ إِذْ طَرَقَتْ
كَأَنَّ مَحْجَرَهَا بِالْقَارِ مَكْحُولُ

ويحمل الباحث قول "الرّاعي" لاعلى أنّه يمقت الخيال
لذاته بل لصاحبته التي جفته وهجرته ، لادّلالاً بل ملاً ، ولهذا
جعل مَحْجَرَهَا مكحولاً بالقار لبالكل ، وهو أقبح ماتكون العين
عليه .

وكشف كثير من الشعراء عن أنّ زيارة الطيف لهم تكون في
منامهم ، قال "الحطيئة" :^(٤)

خَيَالًا يَرُوعُكَ عِنْدَ الْمَنَامِ
وَيَأْبَى مَعَ الصُّبْحِ إِلَّا زَوَالًا

(١) طيف الخيال ص ٦٩ .
(٢) السابق .
(٣) العقد الفريد ٣٤٦/٥ .
(٤) ديوان الحطيئة ص ٢٤٧ .

الخيال يزوره في المنام ، وجعل زواله مع الصباح ،
وهذه مسألة فيها نظر فليس في كل ليلة ينام المرء حتى
المباح ، فقد يستيقظ قبل الفجر فيمضي الطيف ، وليس مع
المباح ، ثم إنَّ الإنسان قد ينام بالنهار وليس هناك ما يمنع
طروق الطيف بالنهار إنَّ تَلَبَّس المرء بنوم .

(١)

وقد خصَّ "الفرزدق" طروق الخيال بالمنام :

إِذَا عَرَضَ الْمَنَامُ لَنَا بِسَلْمَى فَقُلْ فِي لَيْلٍ طَارِقَةٍ قَصِيرُ
فَلَمَّا لِلْمَلَاةِ دَعَا الْمُنَادِي نَهَضْتُ وَكُنْتُ مِنْهَا فِي غُرُورِ

فالطيف يأتي في المنام ويزول بزواله ، ويجعل "الحسن

(٢)

ابن هانيء" النوم ملتقى الطيفين :

إِذَا التَّقَى فِي النَّوْمِ طَيْفَانَا عَادَ لَنَا الْوَصْلُ كَمَا كَانَا
والمصورة تحمل في طيها طبيعة "أبي نواس" السّاحرة

السّاحرة ، فهو إنَّ كره اليقظة لأنها تحول بينه وبين من يحب

فهو يحبُّ النَّوْمَ حُبًّا جَمًّا ، لأنَّ النَّوْمَ ملتقى الأطفاف ، ومجمع

الأرواح ، وفي كل ذلك سينعم بالوصل دون حائل . ويرى "العتّابي"

(٣)

أنَّ طروق الطيف مرتبط باستقرار النَّوْمِ فِي الْأَعْيُنِ :

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ النَّوْمُ فِي جَفْنِ عَيْنِهِ

وَمَاتَتْ لَهُ أَوْمَالُهُ وَالْمَقَاصِلُ

فَأَهْدَى إِلَيْنَا اللَّيْلُ شَخْمًا تَنَاسَبَتْ

إِلَى الْحُسْنِ مِنْهُ صُورَةٌ وَشَمَائِلُ

فالطيف لا يأتي إلَّا في النَّوْمِ العميق المسترسل الذي يشبه

الموت . أمَّا "ابن المعتز" الذي جعل الليل قواداً في ليالي

الوصل ، فإن هذه الفكرة ألحَّت عليه حتى جعل النَّوْمَ قواداً

(٤)

يأتي بالحبيب :

(١) ديوان الفرزدق ٢٨٣/١ .

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٤٤ .

(٣) طيف الخيال ص ٥٤ .

(٤) ديوان ابن المعتز ص ١٦٨ .

وَكَمْ مِنْ نَوْمَةٍ لِي قَوَادَةٍ . أَتَتْ بِالْحَبِيبِ عَلَى بَعْدِهِ
وخيال الشاعر في هذه الصورة مردول مردول ، أن يجعل
النَّوْمَ قَوَاداً إِلَى طَيْفِ الْحَبِيبِ ، أَلَا مَا أَكْثَرَ عَتَبِي عَلَى "ابن
الخلفاء" !!

و"البحثري" يجعل النَّوْمَ مرتبطاً بزيارة الطَّيْفِ ،
واليقظة علة زواله :
(١)

يَتَرَاءَى وَالكَرَى فِي مُقَلَّتِي

فَإِذَا فَارَقَهَا النَّوْمُ بَطَلُ

فالكري يُزِيرُ الْحَبِيبَ وَيَدْنِيهِ كَمَا يَقُولُ :
(٢)

وَقَدْ يُزِيرُ الْكَرَى مِنْ لَازِيَارَتِهِ

قَمْدٌ ، وَيُدْنِي الْكَرَى مِنْ بَعْدِ مَنْ بَعْدًا

أَوْ أَنَّ الْخِيَالَ يَعْتَرِيهِ فِي نَوْمِهِ :
(٣)

خِيَالٌ يَعْتَرِينِي فِي الْمَنَامِ

لَسْكَرَى اللَّحْظِ ، فَاتِنَةَ الْقَوَامِ

غَيْرَ أَنَّ الْخِيَالَ قَدْ يَطْرُقُهُ حَتَّى فِي النَّوْمِ الْخَفِيفِ أَوْ
(٤)

التَّهْوِيمِ :

وَلَيْلَةٌ هَوَّ مَنَا عَلَى الْعَيْسِ أُرْسَلَتْ

بَطَيْفِ خِيَالٍ يُشْبِهُ الْحَقَّ بَاطِلُهُ

وَقَدْ تَكُونُ زِيَارَةُ الطَّيْفِ مَجْرَدٌ وَمِضَةٌ قَمِيرَةٌ :
(٥)

خَطَرَتْ - فِي النَّوْمِ - مِنْهَا خَطَرَةٌ " خَطَرَةُ الْبَرْقِ بَدَأَتْ ثُمَّ اُضْمَحَلَتْ

فَالزِّيَارَةُ هُنَا مَجْرَدٌ وَمِضَةٌ قَمِيرَةٌ لِاتِّزِيدَ عَنِ خَطَرَةِ الْبَرْقِ

الَّتِي تَبْدُو ثُمَّ تَمُضِي سَرِيعًا .

-
- (١) ديوان البحثري ٣٧٥/١ .
(٢) السابق ٥٧/١ .
(٣) السابق ٢٤٦/٢ .
(٤) السابق ٦٢/١ .
(٥) السابق ٣٧٥/١ .

ويجعل "الأرجاني" المنام يزف إليه طيف الخيال :
زَفَّ الْمَنَامُ إِلَيَّ طَيْفَ خَيَالِهِ

لو أَنَّ طَيْفًا كَانَ مِنْ أُبْدَالِهِ

غير أننا نجد الشاعر في موضع آخر ناقم على الصباح
الذي استل منه طيف الخيال :
(٢)

وَبَاتَ الْجَفْنُ مَنِّي وَهُوَ جَفْنٌ

لَهُ حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ مَالَا

أَطَالَ الصُّبْحُ مُبْتَدِرًا لِحَرْبِي

يَدًا فَاسْتَلَّهُ مَنِّي اسْتِلا

فقد بات "الأرجاني" يجعل من جفنه غمدا لطيف حبيبته إلى
أن جاء الصبح فأيقظه ففقد الخيال الذي كان ينعم به في
نومه ممّا أغضبه ، فرأى في طلوع الصبح حربا له استل بها
الصباح طيف الحبيب من عينه ، ولما كان النوم سببا في رؤية
طيف الحبيب فإننا نجد ثلثة من الشعراء يطلبون النوم عساهم
يظفرون بطيف الحبيب في نومهم ، لأن فقد النوم حرمهم رؤية
الأحباب في الحلم كما يقول "علي بن يحيى المنجم" :
(٣)

إِنْ فَقَدَ النَّوْمَ أَعْدَمَنِي

رُؤْيَا الْأَحْبَابِ فِي الْحُلْمِ

(١) ديوان الأرجاني ص ١٢١٥ .

(٢) السابق ص ١١٩٦ .

(٣) طيف الخيال ص ٢٥٣ .

فعندما فقد النوم لم يحلم ولم ير أحبابه في نومه ،
لذا طلب بعض الشعراء النوم . قال "قيس بن الملوح" :^(١)

وَإِنِّي لِأَسْتَفْشِي وَمَا بِي نَعْسَةٌ

لَعَلَّ لِقَاَهَا فِي الْمَنَامِ يَكُونُ

وقال "العباس بن الأحنف" :^(٢)

ذَرِينِي أَنَّمْ إِنْ لَمْ أَنْلْ مِنْكَ زَوْرَةً

لَعَلَّ خَيَالًا فِي الْمَنَامِ يَزُورُ

و"أبو تمام" لما جعل الحبيب ظبيا جعل الأحلام أشراكا
يتميده بها فقال :^(٣)

ظَبِيٌّ تَقَنَّمْتَهُ لَمَّا نَصَبْتُ لَهُ

فِي آخِرِ اللَّيْلِ أَشْرَاكَاً مِنَ الْحُلْمِ

فالأحلام شباك ينصبها الشاعر ليמיד بها طيف الحبيب في
النوم . وقال "البحثري" :^(٤)

أُطَلِّبُ النَّوْمَ كَيْ يَعُودَ غِرَارُهُ

بِخَيَالٍ يَحُلُّو لَدَيَّ اغْتِرَارُهُ

فزيارة الطيف مرتبطة بالنوم ولذا يطلبه الشاعر بشدة
حتى يصل إلى مبتغاه من رؤية طيف الحبيب ، إذ لاسبيل إلى
رؤية الطيف مادام النوم هاجرا كما يقول "أبو فراس
الهمداني" :^(٥)

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى طَيْفٍ يُزَاوِرُهُ

وَالنَّوْمُ فِي جُمْلَةٍ الْأَحْبَابِ هَاجِرُهُ

مَنْ لَا يَنَامُ ، فَلَا صَبْرٌ يُؤَاوِرُهُ

وَلَا خَيَالٌ عَلَى شَحْطٍ يُزَاوِرُهُ

-
- (١) ديوان قيس بن الملوح ص ٢٠٦ .
(٢) ديوان العباس بن الأحنف ص ١٦٨ .
(٣) ديوان أبي تمام ص ٥٠٨ .
(٤) ديوان البحثري ١١٧/٢ .
(٥) ديوان أبي فراس الحمداني ص ٧٨ .

فالنوم يسهل زيارة طيف الخيال ، أو أنه طريق اليه كما
يقول "الشريف الرضي" :^(١)

وَمَا يَطَّيَّبُهَا الْغَمُّ إِلَّا لِأَنَّهُ طَرِيقٌ إِلَى طَيْفِ الْخَيَالِ الْمَعَاوِدِ
بل جعل بعض الشعراء طلبه طرق الطيف علة نومه كما
يقول "أحمد العوفي" :^(٢)

طَمَعْتُ فِي أَنْ أَرَاهُ طَوْعاً فَنَمْتُ اضْطِرَاراً
فَتَلِكَ عِلَّةٌ نَوْمِي يَأْمُلُزِمِي فِيهِ عَاراً

فالشاعر المحبّ عندما عيب على نومه في ليل الحرمان
اعتذر عن ذلك بأن جعل علة نومه رغبته في أن يطرقه طيف
الحبیب كما يقول "أحمد بن طباطبا" :^(٣)

لَمْ أُنْمَ لِدَّةٍ وَلَا نَمْتُ إِلَّا طَمَعاً فِي خَيَالِكَ أَنْ يَلِمَا

فإذا لم ينم الشاعر فلن يظفر بطروق الطيف كما يقول
"التهامي" :^(٤)

نَعَمْ لَمْ تَنَمْ عَيْنِي فَيَطْرُقُ طَيْفُهُ زَوَالُ مَنَامِي عِلَّةٌ لِزَوَالِهِ
حيث جعل زوال منامه علة زوال طيف الحبيب ، لذا نجده
يتمنى استعارة رقدة علها توصله لما يود^(٥) :

خَلِيلِيَّ هَلْ مِنْ رَقْدَةٍ أُسْتَعِيرُهَا لَعَلِّي بِأَحْلَامِ الْكَرَى أُسْتَزِيرُهَا
أو كما يقول "صفي الدين الحلي" :^(٦)

هَجَعْتُ كَيْمَا يَزُورُنِي قَمْرِي أَعْتَبُ طَرْفِي ظُلماً وَأَلْحَاهُ
أو قوله :^(٧)

عَيْنٌ تَنَامُ ، إِذَا هَجَرَتْ ، لَعَلَّهَا

بِخَيَالِ طَيْفِكَ فِي الْمَنَامِ تَمَتَّعُ

-
- (١) ديوان الشريف الرضي ٣٦٥/١ .
(٢) يثيمة الدهر ٤٨٥/١ .
(٣) السابق ٤٩٨/١ .
(٤) ديوان التهامي ص ٤٦٣ .
(٥) السابق ص ٢٨١ .
(٦) ديوان الحلي ص ٧٥٥ .
(٧) السابق ص ٧٣٩ .

فطلب النوم ليس رغبة في النوم في حد ذاته وإنما لأنَّ
النَّوم يسهل زيارة الطَّيف أو هو طريق إليه ، والسهر والأرق
يسد تلك الطريق كما يقول "الجواهري" (١) :

لَأَدَّعِي هَجَرَ الْخَيَالِ وَإِنَّمَا أَرَّقْتُ أَجْفَانِي فَسَدَّ طَرِيقَهُ

وإذا علمنا من كل هذه الشواهد أنَّ الطيف يزور في
المنام وأنَّه سبيله وطريقه فإنَّنا نظفر بمجموعة من النصوص
يفهم منها أنَّ الخيال طرق أصحابها لأنَّهم في حال اليقظة ومن
هؤلاء "المُرَقَّشي الأكبر" (٢) :

سَرَى لَيْلًا خَيَالٌ مِنْ سُلَيْمِي فَأَرَّقَنِي وَأَمْحَابِي هُجُودٌ
فَبِتُّ أُدِيرُ أُمْرِي كُلَّ حَالٍ وَأَزْقُبُ أَهْلَهَا وَهُمْ بَعِيدٌ

و"طرفة بن العبد" الذي يقول :

أَرَّقَ الْعَيْنَ خَيَالٌ لَمْ يَقِرَّ طَافَ وَالرَّكْبُ بِمَحْرَاءٍ يَسْرُ
جَازَتْ الْبَيْدَ إِلَى أَرْحُلِنَا آخَرَ اللَّيْلِ ، بِيَعْفُورٍ خَدِرُ
ثُمَّ زَارْتُنِي ، وَصَحْبِي هُجَّعٌ فِي خَلِيطٍ ، بَيْنَ بُرْدٍ وَنَمْرُ

فالشاعر يرى أنَّ الطيف زاره فأرقه ، ومثل هذا قول

"عمر بن أبي ربيعة" (٤) :

أَلَمْ طَيْفٌ ، فَهَاجَ لِي طَرَبِي لَيْلَةَ بَقْنَا بِجَانِبِ الْكُشْبِ
أَلَمْ بِي وَالرَّكَّابُ سَاكِنَةٌ لَيْلًا ، وَهَمِّي بِذِكْرْتِي وَصَبِي
فَبِتُّ أَرَعَى النُّجُومَ مَرْتَفَعًا مِنْ حَبِّهَا وَالْمُحِبُّ فِي تَعَبِ

الطيف ألمَّ بالشاعر غير أنَّه لم يكن مصدر سعادة للشاعر

كما درج على ذكر ذلك الشعراء ، إنَّما هيَّج أحزانه وذكرياته

فبات ساهرا مرتفعا يرعى النجوم ، ثمَّ إنَّ طروق الطيف بهذه

الصفة يوحي بأنَّ الشاعر يقظ ، فلعلَّ الشاعر كان نائما

(١) ديوان الجواهري ١٥٧/١ .

(٢) المفضليات ص ٢٢٣ .

(٣) ديوان طرفة بن العبد ص ٥ .

(٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٦١ .

فأيقظه الطيف ، أو لعله تخيَّله وتوهمه وهو مستيقظ كما يقول
(١)
"الأخطل" :

كَذَبْتَكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بَوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلَامُ مِنَ الرَّبَابِ خَيْالًا
وَتَعَرَّمْتَ لَكَ بِالْأَبَاطِحِ بَعْدَمَا قَطَعْتَ بِأَبْرَقِ خُلَّةٍ وَوَمَالًا
وَتَفَوَّلْتَ لَتَرُوعِنَا جَنِّيَّةٌ وَالغَانِيَاتُ يُرِينُكَ الْأَهْوَالَ

فالشاعر يقظ وراى خيال الحبيبة فعجب من ذلك ، فتساءل
عن تلك الحال أهو خيال صورته له عيناه وأوهمته أنه رآه ؟
أم أنه بالفعل راى خيال الحبيبة المهاجرة وسط الظلام ؟
فلعلها تبدلت جنية لتخيفه ، وليس هذا بعيدا على الغواني
فإنهن يرين المحب الأهوالا . وبهذا يكون الشعراء القدامى قد
مهدوا لعلماء النفس سبيلاً للتعرّف على أحلام اليقظة
ودراستها .

و"بشار" ينفى النوم عن عينه ويدعي أن الطيف حرمه
(٢)
منه :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أُنَمْ وَنَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفٌ أَلَمْ

ويدعي مؤلف "الصورة في شعر بشار" بأن هذا الضرب من
الخيال لم يسبق إليه "بشار بن برد" ، والنصوص السابقة
التي أوردتها فيها ماينقض هذا القول ويدحضه ، ويؤكد
(٤)
"بشار" المعنى السابق بقوله :

مَنَعَ النَّوْمَ طَارِقٌ مِنْ حُبَابِهِ وَهَمُومٌ تَجُولُ تَحْتَ الرَّهَابَةِ

فالشاعر يدعي طروق الطيف وأن هذا الطروق قد أسهره
وحرمه النوم أو نحى عنه الكرى كما يقول "العباس بن
(٥)
الأخنف" :

- (١) ديوان الأخطل ص ٢٤٥ .
(٢) ديوان بشار بن برد ١٨٧/٤ .
(٣) الصورة في شعر بشار بن برد ص ٢٦٨ .
(٤) ديوان بشار بن برد ٢١٩/١ .
(٥) ديوان العباس بن الأحنف ص ٢٠٧ .

سَرَى طَيْفٌ فَوْزٍ آخَرَ اللَّيْلِ بِالطَّفِّ .
فَنَحَى الْكَرَى عَنِّي وَأَغْفَتُ وَلَمْ أُغْفِ
(١) فالشاعر يدعي الأرق مع طروق الخيال ، ويقول "البحثري"
خَيْالٌ مَاوِيَّةَ الْمُطِيفِ أَرَقَ عَيْنًا لَهَا وَكَيْفُ
(٢)
وقال أيضا :

إِذَا نَسِيتُ هَوَى لَيْلَى أَشَادَ بِهِ
طَيْفٌ سَرَى فِي سَوَادِ اللَّيْلِ إِذْ جَنَحَا
دَنَا إِلَيَّ عَلَى بُعْدٍ ، فَأَرَقَنِي
حَتَّى تَبْلُجَ وَجْهُ الصُّبْحِ فَاتَّفَحَا

وماحب "طيف الخيال" عندما أورد قول البحثري :
أَخْيَالٌ عَلْوَةٌ كَيْفَ زُرْتِ وَعِنْدَنَا أَرَقٌ يُشَرِّدُ بِالْخَيَالِ الزَّائِرِ؟!
علق عليه بقوله : "... وإِنَّمَا يعجب من طُروق الخيال مع
الأرق الذي يشرد الخيال فلا يكون معه في موضع العجب ، ولا بد
من أن يكون هومٌ وأغفى بعض الإغفاء مع طول الأرق ، ومعالجة
السهر ، فطرقة طيف الخيال في ذلك التهويم الخفيف الضعيف".
(٣)
وفي كلام "الشريف المرتضى" جانب من الصحة غير أنني أظن
أنه لامانع من أن يتمثل الشاعر صورة الحبيب أو طيفه متى
كان يقظا إذا أكثر التفكير فيه ، وشغل نفسه وخياله به ،
وقد يتمثل الإنسان صور بعض الأشياء في يقظته ، وليس ما يمنع
هذا . وقد تعجب بعض الشعراء من طروق الطيف مع بعد مكان
صاحبه ، قال "عبيد بن الأبرص" :
(٤)

طَافَ الْخَيْالُ عَلَيْنَا لَيْلَةَ الْوَادِي لَالِ أَسْمَاءَ لَمْ يُلِمَّ لِمِيعَادِ
أَنِّي اهْتَدَيْتُ لِرَكْبِ طَالٍ سَيْرُهُمْ فِي سَبَسَبٍ بَيْنَ دَكْدَاكِ وَأَعْقَادِ

- (١) ديوان البحثري ٨٤/٢ .
(٢) السابق ٦٧/١ .
(٣) طيف الخيال ص ٣١ .
(٤) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٦٢ .

يُكَلِّفُونَ سُرَاهَا كُلَّ يَوْمٍ مِثْلَ الْمَهَا إِذَا مَا احْتَمَّهَا الْحَادِي
 فالشاعر يعجب من اهتداء الطيف إلى مكانه ، مع أنه
 سار في الصحراء لمسافات طويلة في أرض سهلة ، وفي مواضع
 صعبة ، قد تراكمت فيها الرمال ، ويقول "الشريف المرتضي" :
 "... فما زالت الشعراء في الشعر القديم والحديث تتعجب من
 اهتداء الطيف إلى المضاجع وخفي المواضع مع الظلام المفلل
 للسراة ، والبعد القاطع للبقاة ، وهذه جادة مسلوكة ،
 وطريق مهيع ، وماورد في ذلك أكثر من أن يحصى ... " (١)

ويعجب "الفرزدق" من طروق الطيف في قوله : (٢)

لَقَدْ طَرَقَتْ لَيْلًا تَوَارُّ وَدُونَهَا

مَهَامِهِ مِنْ أَرْضٍ بَعِيدٍ خُرُوقَهَا

وَأَنِّي اهْتَدْتُ وَالِدَوُّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا

وَزَوْرَاءُ فِي الْعَيْنَيْنِ جَمٌّ فَتَوَقُّهَا

فكيف اهتدى الطيف إلى مكان الشاعر ، وكل هذه البيد
 بينه وبين صاحبة الطيف ؟ وقد يكون بينهما مفاوز مهلكة مثل
 مايقول "ابو صخر" : (٣)

قَد كُنْتُ أَحْسَبُنِي جَلْدًا فَهَيْجَنِي طَيْفٌ لَهَا طَارِقٌ لَمْ يَسِرْ مِنْ أُمَّمِ

كَمْ جَاوَزْتُ دُونََنَا مِنْ كُلِّ مُهْلِكَةٍ غَوْلَ مَهَالِكِ أَهْوَالٍ وَمِنْ ظُلَمِ

ويخاطب "محمد الحميري" طيف الحبيبة بقوله : (٤)

هِنْدُ ! مِنْ أَيْنَ تَخَطَّيْتِ إِلَى رَكْبِ أَطْلَاحِ مَطِيٍّ قَدْ حَسَرَ

تَحْتَ لَيْلٍ سَاقِطٍ أَكْخَافُهُ رَحْلُ صَرَعَى مِنْ كَلَالٍ وَسَهَرِ

واستفهام "الحميري" أحلى من الماء الزلال في فم
 الصادي ، لأن جلة الشعراء جعلوا طروق الطيف سهلا وميسورا

(١) طيف الخيال ص ١٠٢ .

(٢) ديوان الفرزدق ٤٩/٢ .

(٣) شعراء أمويون ص ١١٠ .

(٤) طيف الخيال ص ١٠٧ .

متى ما ألمّ بهم نوم ، لكن "الحميري" زاد الطيف تشخيما ، إذ جعل بعد المكان ، ومايتخلله من صباب وأهوال شيئا يصعب معه تصور اقتحام الطيف لها ، وإقدامه على العاشق النائم ، وعندما كان "العباس بن الأحنف" في "الشام" والحبيبة "بالعراق" وزاره طيفها قال :^(١)

طَرَقْتَنَا بِاسْفَلِ الْمَرَجِّ مِنْ دَا
بِقَ تَهْدِي لِي الْبَلَا أَنْوَاعَا
فَقُلْتُ: أَنَّى اهْتَدَيْتِ حَتَّى تَخَطِّي
سِتِّ إِلَيَّ الرُّكَّابَ وَالْهَجَّاعَا
قَالَتْ: الشَّوْقُ قَادَنِي فِي دُجَى اللَّيْلِ
لِ اجُوبُ الْقَيْعَانَ قَاعًا فَقَاعَا
كَيْفَ يَسْرِي مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى دَا
بِقَ مِنْ لَيْسَ بِسَتْقِيلُ ذِرَاعَا

وهو تغميل للصورة السابقة عند "الحميري" غير أنه جعل شوق الحبيبة إليه سبب طروق طيفها ، وهو بهذا يخالف الشعراء الذين جعلوا التفكير في الحبيب وانشغال النفس به سبب طروق طيفه ، وعلى نحو من قول "العباس بن الأحنف" قول "على بن الجهم" عندما كان بالسجن وطرقه الطيف :

أَلَمْتُ وَجُنْحَ اللَّيْلِ مُرَخٍ سُدُولَهُ وَلِلسَّجْنِ أَحْرَاسٌ قَلِيلٌ هُجُودُهَا
فَقُلْتُ لَهَا أَنَّى تَجَشَّمْتِ خُطَّةً يُحَرِّجُ أَنْفَاسَ الرِّيَّاحِ وَرُودُهَا
فَقَالَتْ أَطَعْنَا الشَّوْقَ بَعْدَ تَجَلُّدٍ وَشَرُّ قُلُوبِ الْعَاشِقِينَ جَلِيدُهَا

والصورة آخر ماينتهى إليه التوليد ، حيث كانت العقاب حائلا دون طروق الطيف ، ثم صار تخطيها وتذليلها ممّا يحجب لقاء الطيف ، هذا مع أنّ "ابن الجهم" جعل طروق الطيف من

(١) ديوان العباس بن الأحنف ص ٢٠١ .

(٢) ديوان على بن الجهم ص ٥١ .

تفضل المحبوبة التي رأته أن "شرّ القلوب جليدها" .

ويعلل "ابن الرومي" طروق الطيف على بعد المسافة
(١)
بقوله :

طَرَقْتَنَا فَأَنَالَتْ نَائِلًا شكره لو كان في النّبه الجحود
ثُمَّ قَالَتْ وَأَحْسَتْ عَجَبِي مِنْ سَرَاهَا حَيْثُ لَاتَسْرِي الْأَسْوَدُ
لَاتَعَجِبُ مِنْ سُرَانَا فَالسَّرَى عَادَةُ الْأَقْمَارِ وَالنَّاسُ هَجُودُ

وحسن التعليل هنا ذروة ما انتهى إليه جمال الصورة ،
حيث جعل الطّيف لا يختلف عن شخص المحبوب الذي جعل الشّاعر
سراها في بهيم الليل وبين الوحوش والصّوّاري مصدر عجه ،
أمّا هي فانكرت عليه هذا العجب لأنّ السرى بالليل والنّاس
هجود من عادة الأقمار ، فالنّكتة منحصرة في أنّ طروق الطّيف
لايتأتى ولايجمل إلا حيث تكون الصّعاب ، أمّا الشّاعر الذي يلجأ
إلى النّوم ، ويهرب من اليقظة ليرى محبوبته فهو أدنى
الشعراء إلى الواقع المبتذل المتكرر .

ويقول صاحب طيف الخيال :

"وإنّما تعجب الشعراء من اهتداء الطيف وتخلّمه إلى
المضايق وخفي المسالك لأنّهم فرضوا زيارته حقيقية وطروقاً
صحيحاً فتعجّبوا ممّا يتعجّب من مثله ، في ذلك من طيّ البعد في
أقصر زمان ومن الاهتداء بغير هادٍ ولامرشدٍ مع تراكم الظلم
وتشابه الطّرق وفقد الظّهر ، ومن فرض شيئاً أجرى أوصافه له
على ما فرضه دون ما هو عليه في نفسه" .
(٢)

وقد يقال: إنّ كلام "الشّريف المرتضي" يمعب قبوله لأنّ
الشّعراء ليسوا من السّذاجة إلى هذا الحد - فيعتبرون
طيف الحبيب هو الحبيب نفسه ، فيعجبون من طروقه - ولكنّهم

(١) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢٧٨/١ .

(٢) طيف الخيال ص ١٠٨ .

يعجبون من طروق الطّيف في حدّ ذاته والدّليل أنّهم لا يعدّونه
كماحبه تماما ، أنّهم يصفونه بأنّه باطل ، وبأنّه تزوير ،
ونوع من الظّنّ كما سيأتي ... ولو عدّوه كماحبه تماما لما
ومغوه بهذه الاوصاف .

كما أنّ "الشّريف المرتضى" نفسه يعدّ الطّيف من باب
تمويه القلب على العين إذ يقول :
(١)

فَلَمَّا التَّقِينَا بَرغمِ الرُّقَا م دَمَوْهَ قَلْبِي عَلَى نَاطِرِي
ولكنّه عندما قال: إنّ الشعراء عدّوا الطّيف مثل صاحبه

فتعجبوا من طروقه حاول أنّ يعلل عجب الشعراء من طروق الطّيف
غير أنّه لم يصب عين الحقيقة ، وهو نفسه يقول :
(٢)

كَيْفَ اهْتَدَى لِي فِي قَمِيمِ الدُّجَى

مَنْ كَانَ فِي الإِصْبَاحِ لَإِيهْتَدِي ؟

لَيْسَتْ يَدَا مَنْكَ وَمَا زِدْتَنِي

فِي النُّومِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ فِي يَدِي

بَاتَ الكَرَى يُوهِمُنِي أَنَّهُ

مُفَاجِعٌ جِسْمِي عَلَى مَرَقَدِي

(٣)

وكذلك يقول :

مَا الطّيفُ إِلَّا كَالسَّرَابِ وَلَا

(٤)

ويقول أيضا :

إِنَّمَا الطّيفُ كَلَفْظٌ

رِيٌّ بغيرِ الباردِ الشِّبْمِ

فَارغٌ مَا فِيهِ مَعْنَى

-
- (١) السابق ص ١٢١ .
(٢) السابق ص ١٧٢ .
(٣) السابق .
(٤) السابق ص ١٤٣ .

وصل الطيف :

لقد كشف بعض الشعراء عما يروونه في أحلامهم ، أوعماً
يكون في خيالهم من وصلهم للطيف ، وقديماً قال "قيس بن
الخطيم" :^(١)

ماتمني يقظي فقد توتينهُ في النوم غير مصردٍ محسوبٍ
كان المني بلقائها فلقيتُها فلهوت من لعمو امرئٍ مكذوبٍ

فما حرم منه في اليقظة ظفر به في النوم بلا حساب ،

فلها كيف شاء وإن كان لهواً مكذوباً يراه في أحلامه .
وقال "عبيد الله بن قيس الرقيات" :^(٢)

أَتَتْنِي فِي الْمَنَامِ فَقُلْ	م	تُ هَذَا حِينَ أُعَقِبَهَا
فَلَمَّا أَنْ فَرَحْتُ بِهَا		وَمَالَ عَلَيَّ أَعَذَّبَهَا
شَرِبْتُ بِرَيْقِهَا حَتَّى		نَهَلْتُ وَبِتُّ أُشْرِبَهَا
وَبِتُّ فَجِيعَةً جَدًّا	م	نَ تَعْجِبُنِي وَأَعْجِبَهَا
وَأُفْحِكَمَا وَأُبْكِيهَا		وَأَلْبَسَمَا وَأَسْلُبَهَا
أَعَالِجَهَا فَتَمْرَعُنِي		فَأُرْضِيهَا وَأُغْضِبَهَا
فَكَانَتْ لَيْلَةً فِي النَّوْمِ	م	م نَسَمَرَهَا وَنَلَعِبَهَا
فَأَيَّقَنَّا مَنَادٍ فِي		صَلَاةِ الصُّبْحِ يَرْقُبَهَا
فَكَانَ الطَّيْفُ مِنْ جَنِّي	م	بِقَةٍ لَمْ يُدِرْ مَذَهَبَهَا

فالشاعر يصور تجربة لم يكن لها واقع صحيح ، فيدعى

أنه رأى بمنامه طيف تلك المرأة ، وصور ماجرى في أحلامه من

لهو ولعب ووصل ، إلى أن أيقظه منادٍ لملاة الصبح ، والذي

كان خاتمة الحلم الذي كان يصور له وصل طيف تلك المرأة .

وحلم "ابن الرقيات" يفتح أبواباً من الاستفسارات ،

(١) طيف الخيال ص ٤٥ .

(٢) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ١٢٢ .

يروق للباحث أن يشير إلى بعضها ، هل يمكن أن يكون تسجيل الأحلام أدباً ؟ وماصلة هذا الأدب بالواقع إن عدّ أدباً ؟ .. أهذا يعنى أن الأدب الرّاقى ينحصر في اللفظ ، وفي طريقة الأداء ؟ وأين مكان القيم الشعورية في مثل هذا الأدب ؟ وبعض الشعراء قد يشير مجرد إشارة إلى وصل الطيف دون تفصيل ، قال "الأخطل" :^(١)

حلمٌ سرى بالفانيات فزارني من أم بكرٍ موهناً بخيال
فلموت ليلة ناعمٍ ذي لذةٍ كقرير عَيْنٍ ، أو كناعِمٍ بالِ
فلمو النَّاعمِ ذي اللّذة ، القرير العين ، هو مجرد إشارة لِمَا رآه الشّاعر في منامه فيحدث في المنام مايصعب حدوثه في اليقظة كما يقول "الشّريف المرتضى" :^(٢)

زارتِ وسادي في الظلام خريدةً
أراها الكرى عيني ولست أراها
تمانعُ صبحاً أن أراها بناظري
وتبذلُ جنحاً أن أقبلَ فاهَا

"فالمرتضى" رأى في منامه ما لا يمكن أن يقع في حال يقظته ، فالمرأة التي بذلت له ما بذلت في منامه ، رؤيتها في اليقظة أمر متعذر الحدوث ، ومن نحو هذا قول "البحثري" :

فبات يُعاطيني على رقبة العدى
ويمزج ريقاً من جناه بريقي

وقد يكنى "البحثري" عمّا يراه في النوم ولا يرى البوح به تحشماً :^(٤)

(١) ديوان الأخطل ص ٢٧٤ .
(٢) طيف الخيال ص ١٥٠ .
(٣) ديوان البحثري ١٣٨/٢ .
(٤) السابق ٤١٠/١ .

إِذَا مَا تَبَادَلْنَا النَّفَائِسَ خُلْتَنَا

مَنْ الْجِدِّ أَيْقَاطًا وَنَحْنُ نِيَامُ

وقال "ابن عبد ربّه" (١) :

سَرَى طَيْفُ الْحَبِيبِ عَلَى الْبَعَادِ لِيُصْلِحَ بَيْنَ عَيْنِي وَالرُّقَادِ

فَبَاتَ إِلَى الصَّبَاحِ يَدِي وَسَادُّ لَوْ جَنَّتَهُ كَمَا يَدُهُ وَسَادِي

ومن مثله قول "كشاجم" (٢) :

قَدْ جَادَ طَيْفُكَ لِي بِوَعْدِكَ وَأَجَارَنِي مِنْ طُولِ صَدِّكَ

وَدَنَا إِلَى مَعَانِقًا وَمُصَافِحًا خُدِّي بِخَدِّكَ

فَظَفَرْتُ مِنْكَ بِمَا هُوِيَ م ت بِحَمْدِ طَيْفِكَ لِابْحَمْدِكَ

وهكذا نجد الشعراء يلتقون على إظهار المتعة بزيارة

الطّيف ، بل قد يمدح أحدهم زيارة الطّيف أكثر ممّا يمدح

زيارة الحبيب ذاته ، لكنّ أحداً لم يذهب في هذه الزيارة إلى

أبعد من اللّذة الحسيّة ، كما يقول "ابن عبد ربّه" الذي جعل

من يده وسادا لوجنة حبيبته ، كما جعلت هي من يدها وسادا

له ، أو باتت معانقة له ومصافحة خده بخدها كما في قول

"كشاجم" السابق ، أو على نحو من قول "الشريف الرضي" (٣) :

كَانَ قَلْبِي إِلَيْهِ رَائِدٌ عَيْنِي فَعَلَى الْعَيْنِ مَنَّةٌ لِلْقَلْبِ

بِتُّ أَلْهُو بِنَاعِمِ الْجِيدِ غَمُّهُ وَفَمِ بَارِدِ الْمُجَاجِقِ عَذْبِي

فهو كما حبيه السابقين يجعل من زيارة الطّيف له وسيلة

للمتاع الحسيّ الذي ينشده من صاحبتة ، ويؤكد "المرتضي" هذا

المعنى فيقول (٤) :

وَسَدَّنِي كَفَّهُ ، وَعَانَقَنِي وَنَحْنُ فِي سَكْرَةٍ مِنَ الْوَسَنِ

(٥) وفي صورة أخرى يقول فيها :

(١) ديوان ابن عبد ربّه ص ٧٠ .

(٢) ديوان كشاجم ص ٢٨ .

(٣) طيف الخيال ص ٩٣ .

(٤) السابق ص ١٧٥ .

(٥) السابق ص ١٥٧ .

وَزُورِ زَارِنِي وَاللَّيْلُ دَاجٍ فَعَلَّلَنِي بِبَاطِلِهِ وَوَلَّى
سَقَانِي رِيْقَهُ مَنْ كُنْتُ دَهْرِي مَذُوداً عَنْ مَرَاشِفِهِ مُحَلًّا
وَأَوْلَى فَوْقَ مَا أَهْوَاهُ مِنْهُ وما يدري بما أعطى وأولى

فالطيف في نظر "الشريف الرضي" ونظر أخيه "المرتضي"
ومن لقا لهما لا يطلب من زيارته غير هذه اللذة العارضة ،
وماعدا هذه اللذة فلا يخطر على بالهم شيء !!

ويشير "ابن الزقاق" إلى وصل الطيف بقوله :^(١)

مَازَالَ يُمْتَعِنِي الْخِيَالُ بَوْمِلِهَا حَتَّى انزوى عن مُقَلَّتِي الْإِغْفَاءُ
بَرْدَ الْحَلِيِّ فَنَافَرْتُ عَمْدِي وَقَدْ هَبَّ الصَّبَاحُ وَنَامَتِ الْجَوَازِءُ

إن كان "ابن الزقاق" حُرِّمَ وصال صاحبه في اليقظة ،
فحسبه منها طيفها بالليل ، ولقد عوضه عن وصالها في اليقظة
وصالا في النوم ، وظل يؤانسها إلى أن هبَّ الصَّبَاحُ وبرد الحليِّ
فنافر الطيف عفاه ، ومضى لسبيله .

وما يضمن به الحبيب وجود به الطيف في المنام كما يقول

"ابن التعاويذي" :^(٢)

وَبَاخِلِ سَمَحَ الطَّيْفِ الْكَذُوبُ بِهِ وَاللَّيْلُ قَدْ مَدَّ مِنْ ظَلَمَائِهِ سُجْفَا
فَيْتٌ مِنْ قَدِّهِ لِلْغَمِّ مُمْتَنِقَا طَوْرًا وَمِنْ خَدِّهِ لِلخَمْرِ مُرْتَشِفَا
فَيَالَهُ مِنْ بَخِيلٍ كَيْفَ جَادَ لَنَا عَفْوًا وَمِنْ غَادِرٍ بِالْعَهْدِ كَيْفَ وَفَا

و"ابن التعاويذي" "كابن الزقاق" ، و"ابن عبد ربّه"

وأضرابهم ممن جعلوا من زيارة الطيف في النوم عوضا عن
زيارة صاحبه في اليقظة ، فأنالهم ما تمنع صوحيباتهم ، وإن
كان "ابن التعاويذي" امتن سبكا ، والطف أداء ، حيث جعل
صاحبه تجود في النوم طواعية بما فنّت به وتشدّدت في اليقظة
وقد يذهب الشعراء إلى توهم بقاء رائحة الطيف وعطره بعد

(١) ديوان ابن الزقاق البلنسي ص ٦٣ .
(٢) ديوان سبط بن التعاويذي ص ٢٩١ .

زواله . ومن هؤلاء " البهاء زهير " الذي يقول : (١)

وَلَقَدْ تَفَضَّلَ طَيْفُكُمْ لَيْلًا وَأَنْعَمَ بِالتَّلَاقِ
وَسَرَى وَبَاتَ مُفَاجِعِي وَاللَّيْلُ مَسْدُولُ الرِّوَاقِ
فَقَطَعْتَ أَنْعَمَ لَيْلَةً مَا بَيْنَ لَثْمٍ وَاعْتِنَاقِ
ثُمَّ انْتَبَهْتُ وَجَدْتُ إِثْمًا مَرَّ الطَّيِّبِ فِي بُرْدِي بَاقِ

الشاعر يصور حلما عاشه في منامه ، إذ زاره طيف الحبيب وتمّ اللقاء وبات مفاجعا له ، وامضى الليل لثما واعتناقا إلى أن انتبه من نومه ، غير أن الشاعر توهمّ أثر الطيب باقيا في ملابسه بعد أن استيقظ من منامه ، ولقد تصور كثير من الشعراء رائحة الطيف والشاعر بهذا يحاول إشباع حواسه المحرومة ، فعندما تكلم عن الرؤية واللمس ... أشار إلى حاسة الشم محاولا إيجاد معادل كامل من الطيف لماحبه ليجد فيه بعض التعويض عنه لأنه لا يقدر على وصله ، ومن ذلك قول " الفرزدق " : (٢)

سَرَى لَكَ طَيْفٌ مِنْ سُكِينَةَ بَعْدَمَا
هَذَا سَاهِرُ السَّمَارِ لَيْلًا فَأَعْتَمَا
فَبِتْنَا كَأَنَّ الْعَنْبَرَ الْبَحْتَ بَيْنَنَا
وَبَالَهَ تَجَرُّ فَا رُهَا قَدْ تَخَرَّمَا

تخيل الشاعر أن الطيف طرده برائحة طيبة فكان العنبر بينهما وقارورة عطر مسكها قد تفوع وانتشر ، وقال " جرير " : (٣)

حُبَيْتَ مِنْ زَائِرٍ يَعْتَادُ أَرْحَلَنَا
بِالْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ الْهِنْدِيِّ مَلْغُومٍ
وقال " نهشل بن حرّي " :

وَكَأَنَّ رِيحَ لَطِيمَةٍ هِنْدِيَّةٍ وَذِكْرِي جَاوِيٍّ بِنَمْعٍ مُجَسَّدِ

(١) ديوان البهاء زهير ص ١٨٦ .

(٢) ديوان الفرزدق ٢/٢٣٥ .

(٣) ديوان جرير ص ٤٣٠ .

وَنَدَى حُزَامَى الْجَوِّ جَوَّ سَوِيْقَةٍ طَرَقَ الْخِيَالَ بِه بُعَيْدَ الْمَرْقَدِ (١)
وقد وسع "ابن هرمه" الدائرة التي تعطرها رائحة
الطيب : (٢)

كَأَنَّ الرَّكْبَ إِذْ طَرَقَتْكَ بَاتُوا بِمَنْدَلٍ أَوْ بِقَارَعَتِي قَمَارَا
"والبحثري" يجعل طيف الحبيبة يعطر البلاد التي يمرّ
بها : (٣)

فَكَمْ لَيْلَةٍ أَهَدَتْ إِلَيَّ خِيَالَهَا
وَسَأَلُ الْغِيَا فِي دُونِهَا وَحُزُومَهَا
تَطْيِبُ بِمَسْرَاهَا الْبِلَادُ إِذَا سَرَتْ
فَيَنْعَمُ رِيَاهَا وَيَمْفُو نَسِيمَهَا

والشعراء في هذه الصفحة الذكية العطرة بذكر الطيف
كأنهم يسدلون سترا على صفحة أخرى كثيرة التبذل ، لا يفر
لهم تبذلها لفظ مونق ، أو تركيب رشيق ، أو خيال مجنح .

(١) طيف الخيال ص ٢٤٤ .
(٢) ديوان التنبّي ٤/١٦٨ الرامشي
(٣) ديوان البحثري ١/١٢٤ .

الطيف بين المدح والذم :

* مدح الطيف :

مما يمدح به الطيف أنه ينيل الشاعر في منامه ما يعب
نواله في اليقظة . فعندما تألم الشعراء من الحرمان والهجر
وأكثروا التفكير في الأحبة حتى جاءت لهم الوسوس والأفكار
والأماني بأطياف الأحبة ، فأناطهم الأطياف في منامهم
ما عجزوا عن نواله في يقظتهم ، فمدحوا الطيف بهذا ، وقديماً
قال "عمرو بن قميئة" ويقال أنه أول من نطق بوصف الطيف :
(١)

خَيْالٌ يُخَيِّلُ لِي نَيْلَهَا ولو قَدَرْتُ لَمْ تُخَيِّلْ نَوَالًا

فالحبيبة متمنعة عن وصل الشاعر ، لكن خيالها خيل له

(٢)

نوالها وظفر بما أحب كما يقول "قيس بن الخطيم" :

مَا تَمَنَعِي يَقْظَى فَقَدْ تَوْتَيْتِيهِ فِي النَّوْمِ غَيْرَ مُكَدَّرٍ مَحْسُوبِ

(٣)

وقال "المؤمل" :

وَكَلَّمَنِي فِي النَّوْمِ غَيْرَ مُغَاضِبٍ وَعَهْدِي بِهِ يَقْظَانَ لَا يَتَكَلَّمُ

(٤)

وقال "أشجع السلمي" :

بَخَلْتُ بِالسَّلَامِ يَقْظَى وَجَادَتْ بِهَوَاهَا وَنَفْسِهَا فِي الْمَنَامِ

فالطيف يعوض الشاعر عما حُرِمَ منه في يقظته ، وقال

(٥)

"الحمدوني" :

لَمْ أَنَلْهُ فَنِلْتُهُ بِالْأَمَانِي فِي مَنَامِي سَرًّا مِنَ الْهَجْرَانِ

وَاصِلَ الْحُلْمِ بَيْنَنَا بَعْدَ هَجْرٍ فَاجْتَمَعْنَا وَنَحْنُ مُفْتَرِقَانِ

(٦)

وقال "ابن الرومي" :

طَرَقْتَنَا فَأَنَالَتْ نَائِلًا شَكَرُهُ لَوْ كَانَ فِي النَّبِيهِ الْجُودِ

(١) طيف الخيال ص ٩٩ .

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب ص ٢٢٧ .

(٣) طيف الخيال ص ١٩٨ .

(٤) السابق ص ١٤٠ .

(٥) ديوان المعاني ١/٢٧٨ .

(٦) السابق .

(١)

وقال "البحثري" :

أَلَمَّتْ بِنَا بَعْدَ الْهُدُوِّ فَسَامَحَتْ

بِوَهْلِ ، مَتَى نَطَلُّبُهُ فِي الْجِدِّ تَمَنَعُ

فالحبيبة تمنع والطيف يذيل الشاعر مأحرم منه ، ولقد

عبر "الشريف المرتضى" عن جود الطيف وسماحه في عدة مواضع

(٢)

من شعره ، ومن ذلك قوله :

أَلَمَّتْ بِنَا بَعْدَ الْهُدُوِّ وَرُبَّمَا

أَلَمَّ بِنَا مِنْ لَيْسَ يُرْجَى لِمَامِهِ

زيارة الحبيبة غير مرجوة ولكن النوم جاء بها وأدناها

(٣)

من الشاعر ، أو هي تمدد في اليقظة وتزور في النوم :

تَمَدِّينَ عَنَّا سَاهِرَاتٍ عِيُونُنَا

وَمَازُرْتِنَا إِلَّا وَنَحْنُ نِيَامُ

فلم يعد للشاعر مع مدد الحبيبة إلا أن يأمل زيارتها في

(٤)

المنام :

بِنَا ، فَمَا نَأْمَلُ فِي لِقَائِنَا

ذَاتَ الثَّنَائِيَا الْغُرِّ إِلَّا الْحُلْمَا

(٥)

فما تمنعه في اليقظة تتفضل به للشاعر النائم :

أَهْلًا بِطَيْفِ خَيَالٍ مَانِعَةٍ لَنَا

يَقْظَى، وَمُفْهِلَةٍ عَلَيْنَا فِي الْكَرَى

-
- (١) ديوان البحثري ١/١٠٣ .
(٢) طيف الخيال ص ١٤٦ .
(٣) السابق ص ١٦٠ .
(٤) السابق ص ١٥٤ .
(٥) السابق ص ١١٩ .

فالتَّيْفُ يُدْنِي الشَّاعِرَ مَمَّنْ يَحِبُّ مَهْمَا كَانَتْ الْمَسَافَةُ

(١)

بينهما كما يقول "ابن الحداد الأندلسي" :

إِنْ كَانَ صَرَفُ الزَّمَانِ أَبْعَدَنِي

عَنْكَ فَطَيْفُ الْخِيَالِ يُدْنِينِي

فمما يمدح به الطيف أنه ينيل الشاعر ما لا يستطيع نواله

في حال يقظته ، ولقد عدَّ بعض الشعراء النوال في النوم

(٢)

معادلا لما يحدث في اليقظة من نحو "ابن طباطبا" :

قَنْلْتُ يَقْظَانَ مِنْ ضِيَاقَتِهِ

مَانَلْتُهُ نَائِمًا مِنَ الطَّيْفِ

فلا فرق في حس الشاعر بين ما يحدث في اليقظة أو ما يكون

في المنام ، فالتلاقي في النوم يعدل التلاقي في اليقظة كما

(٣)

يقول "الشريف المرتضي" :

قَدْ أَخَذْنَا مِنَ التَّلَاقِي بِحَظِّ

والتَّلَاقِي فِي النَّوْمِ عِدْلُ التَّلَاقِي

ومما يمدح به الطيف أن وصله وصل حلال ، ولا إثم فيه ،

قال صاحب طيف الخيال : "... وأنه تمتع وتلذذ لا يتعلق بهما

(٤)

تحريم ، ولا يدنو إليهما تأشيم ، ولا عيب فيهما ولا عار" . ولقد

حاول "الشريف المرتضي" أن يثبت أنه سابق إلى هذا المعنى

ولم يسبقه إليه شاعر ووقف موقفا عجيبا من النصوص السابقة

له والتي يفهم منها هذا المعنى ومن ذلك قول "البحثري" :

فَمَا نَلْتَقِي إِلَّا عَلَى حُلْمٍ هَاجِدٍ

يُحِلُّ لَنَا جَدَّوَاكَ وَهِيَ حَرَامٌ

(١) ديوان ابن الحداد الأندلسي ص ٩٢ .

(٢) ديوان ابن طباطبا ص ٢٩١ .

(٣) طيف الخيال ص ٢٢ .

(٤) السابق ص ٦ .

إِذَا مَا تَبَادَلْنَا النَّفَائِسَ خَلَّتْنَا مِنْ الْجِدِّ اِيْقَاطًا وَنَحْنُ نِيَامٌ
"فالشَّريف المرتضي" يعلق عليه بقوله :

والمعنى "أَنَا نَظْفِرُ فِي الْحُلْمِ بِمَا كُنَّا نَخِيبُ عَنْهُ فِي الْيَقَظَةِ ،
وَنَنَالُ مَا كُنَّا نَذَادُ عَنْهُ ، فَعَبَّرَ عَنِ الْبَدَلِ بِالتَّحْلِيلِ ، وَعَنِ
الْمَنْعِ بِالتَّحْرِيمِ" (١) .

وعندما أورد "الشَّريف المرتضي" من شعره قوله :

فَحَبَّبَ بِي مِنْ بَادِلٍ لِي حَلَالِهِ وَقَارِ بِذَلِكَ الْبَدَلِ مِنِّي حَرَامَهُ
وَمِنْ مُلْتَقَى عَذَابِ الْمَذَاقِ رَبِّحَتُهُ فَلَمْ يَرْضَ لِي حَتَّى رَبِحْتُ آشَامَهُ

نجده يعلق عليه بقوله : "وقد تضمن البيت الذي أوله
"فَحَبَّبَ بِي مِنْ بَادِلٍ لِي حَلَالِهِ" (٢) والبيت الذي يليه معنى في الطَّيفِ
غريباً ما ظفرت به إلى الآن في الشَّعر المدون ، لأنَّ بلوغ
الغاية في المتعة بطيف الخيال لا يكون إلا مباحاً لإِثْمٍ فيه
ولاعار ... وقد تكرر هذا المعنى في شعري فإنَّ اشتبه سبق
البحثري إلى هذا المعنى في قوله :

فَمَا نَلْتَقَى إِلَّا عَلَى حُلْمٍ هَاجِدٍ يُحِلُّ لَنَا جَدَوَاكَ وَهِيَ حَرَامٌ

فالجواب أنَّ البحتري إنَّما عنى أنَّ النَّومَ يبذل لنا
جدواك بعد أن كانت ممنوعة ، فعبر عن البذل بالتَّحليل ، وعن
المنع بالتَّحريم ، وذلك مليح منه ، ولم يرد التَّحليل
والتَّحريم الحقيقيين ... وأما قول "الفرزدق" :

وَتَمْنَعُ عَيْنِي - وَهِيَ يَقْظَى - حَلَالَهَا

وَيُبَدِّلُ لِي عِنْدَ الْمَنَامِ حَرَامَهَا

فليس له بالمعنى الذي اختصمتُ به شَبَهُ ، وإن كان قد أتى
بلفظ التَّحريم والتَّحليل ، وليس المعوَّل على الالفاظ وإنَّما
المعوَّل على المعانى ، وإنَّما أراد الفرزدق أنَّها تمنع عينه

(١) السابق ص ٣٨ .
(٢) السابق ص ١٤٦ .

- وهي يقضى - ما هو حلال من النظر إليها والتسليم عليها ،
وتبذل له عند منامه ما هو حرام من التمتع التام بها ... " (١)

"الشريف المرتضى" يحاول أن يثبت لنفسه الفضل بالسبق
إلى هذا المعنى ، ونص "البحثري" واضح المعنى ، فهو يقول
"يحل لنا جدواك وهي حرام" وكذلك "الفرزدق" ، وهما قد
أوحيا له دون شك بفكرة التحليل والتحرير ، وإلا لما جاء
بأبياتهما وحاول أن يبعدهما عن المعنى المقصود كما أن
الأبيات تتضمن الفاظ التحليل والتحرير والمنام واليقظة ،
وفي هذا المعنى يقول "الشريف المرتضى" أيضاً: (٢)

وَجَادَ حِلًّا - وَالذُّجَى شِعَارُنَا بنائلي لو كان مُبْحَاً حَرَمًا
حُبًّا بِهَا إِمَامَةً مَأْمُونَةً وَزَوْرَةً يُزِيحُ فِيهَا التُّهَمَا

فهو نوال حلال لانتشبت به تهمة ، ولا يكسب صاحبه إثمًا ،
لأنه حلم والحلم لا يحاسب به المرء ، ومثل هذا قوله : (٣)

لِقَاءُ بَجْنَحِ اللَّيْلِ طَلَّقَ مَحَلَّهُ وفي الصُّبْحِ مَحْظُورٌ عَلَيَّ حَرَامٌ
وقوله : (٤)

وَعِفْتُ حَرَامَهُ فَأَنَالَ عَيْنِي وَقَلْبِي فِي الدُّجَى مِنْهُ حَلَالَهُ

فالوصل في حال اليقظة حرام ، ومما يحاسب عليه المرء
في دينه ولا يقبله مجتمعه ، ولكن وصل الطيف في الأحلام حلال ،
ولا إثم فيه ولا تأشيم ، ولانتشبت أقدام الملائكة كما يقول
"المعري" : (٥)

لَا تُشَبِّتُ الْأَقْلَامُ زَلَّةَ رَاقِدٍ إِنْ كُنْتَ بِتِّ بِحُلْمِهِ مُرْتَابًا
لَمْ يَعْفُ رَبُّكَ عَنْ مُمَرٍّ مَارِدٍ لَكِنْ تَجَاوَزَ عَنْ مُسِيءٍ تَابًا

(١) السابق ص ١٤٨ .

(٢) السابق ص ١٥٤ .

(٣) ديوان الشريف المرتضى ١٩٦/٣ .

(٤) السابق ٦٧/٣ .

(٥) اللزوميات ١٢٩/١ .

ومّا يمدح به الطيف "أنّه : لقاء واجتماع لا يشعر
الرّقباء بهما ولا يخشى منع منهما ، ولا اطلاع عليهما ...". (١)

لقاء الطيف يتم في منام الشّاعر ولا يعلم به من الناس
غيره ، فلا يخشى الرّقباء ، والوشاة الذين طالما أوجدوا
الحواجز بين المحبين ، لا يرون الطّيف عندما يقدم على الشّاعر
فيسهل لقائه كما يقول "البحثري" : (٢)

غَابَ الْوُشَاةُ فَبَاتَ يَسْهَلُ مَطْلَبُ

لَوْ يَشْهَدُونَ طَرِيقَهُ لَتَوَعَّرَا

(٣)

وقوله :

أَمْنِكَ تَأْوُبُ الطّيفِ الطَّرُوبِ حَبِيبٌ جَاءَ يُهْدِي مِنْ حَبِيبِ
تَخْطَى رِقَبَةَ الْوَاشِينِ وَهَنًا وَبُعْدَ مَسَافَةِ الْخَرْقِ الْمَجُوبِ

(٤)

وقوله أيضا :

وَإِنِّي وَإِنْ ضُنَّتْ عَلَيَّ بُوْدَهَا لَا زِتَاحُ مِنْهَا لِلْخَيَالِ الْمُؤرَّقِ
يَعِزُّ عَلَى الْوَاشِينِ لَوْ يَعْلَمُونَهَا لَيَالٍ لَنَا نَزْدَارُ فِيهَا وَنَلْتَقِي

وكذا ينتهي بنا الشعراء إلى أنّ لقاء الطّيف مباح
المتعة ، لا لغو فيه ولا تأثيم ، ولا مكابدة ممّا يجده المتحابون
في التواصل ، فإن ضنّت المحبوبة بهذا الوصل نهارا ،
فهو واقع في النوم دون خشية أو ملام أو كما يقول "الشّريف
المرتضي" : (٥)

تَلَاقٍ لِانْخَافُ وَلِانْبَالِي بِمَنْ آوَحَى بِهِ وَعَلَيْهِ دَلَّ

ويعلق عليه بقوله : "إنّما قلت : إنّ تلاقى لا يخاف لمن
دلّ عليه ووشى به ، لأنّه لا قدرة لاحد على المنع والاعتراض فيه
وسائر الزيارات يُخاف من أنّ يتوصل إلى المنع منها من شعر

(١) طيف الخيال ص ٥ .

(٢) السابق ص ٢٤ .

(٣) ديوان البحثري ٤٤٠/١ .

(٤) السابق ٩٠/١ .

(٥) طيف الخيال ص ١٥٧ .

بها وفطن لها ... " .

ومما يمدح به الطيف "أنه يعلل المشتاق المفروم ،
ويمسك رمق المعنى المسقم" ، أو كما يقول "البحثري" :
(١) (٢)

إِذَا مَا الْكَرَى أَهْدَى إِلَيَّ خِيَالَهُ
شَفَى قُرْبَهُ التَّبْرِيحَ أَوْ نَقَعَ الصَّدَى

فطيف الحبيب عندما يزور الشاعر في منامه يجد فيه بعض
السّلوى ويخفف من أشواقه ولواعجه إلى صاحب الطّيف الذي حُرِّم
من لقائه ورؤيته :
(٣)

فَكَمْ غُلَّةٌ لِلشَّوْقِ أَطْفَأَتْ حَرَّهَا

بِطَيْفٍ مَتَى يَطْرُقُ دُجَى اللَّيْلِ يَطْرُقُ

فعندما يحرم الشاعر ممن يحب تشب نار الشوق في فؤاده
ولكنه يجد بعض السّلوى في زيارة الطيف ، أو يجد نوعا من
التعويض عن اللقاء الحقيقي يخفف عنه لواعجه وأشواقه ،
فالشاعر يعلم أنّ الطّيف تخيل باطل لكنه يرد إليه نفسه
اللاهثة إلى الحبيب الذي لا يتمكن من وصله :
(٤)

وَيَكْفِيكَ مِنْ حَقِّ تَخِيلٍ بَاطِلٍ
تُرَدُّ بِهِ نَفْسُ اللَّهْفِ فَتَرْجِعُ

(٥)
ويقول "البحثري" أيضا :

أَرَى كَذَبَ الْأَحْلَامِ صِدْقًا وَكَمْ صَفَتْ

إِلَى خَبَرٍ - أَدْنَايَ - غَيْرِ صَدُوقِ

-
- (١) السابق ص ٥ .
(٢) ديوان البحثري ١٥٣/١ .
(٣) السابق ٩٠/١ .
(٤) السابق ٣٤٥/١ .
(٥) السابق ١٣٨/٢ .

وَمَا كَانَ مِنْ حَقٍّ وَبُطْلٍ فَقَدْ شَفَى
حَرَارَةَ مَتَبُولٍ وَخَبَلٍ مَشُوقٍ

فهو يتعلل بالطيف مع إيمانه بأنه تخيل باطل ، لأنه

(١)

يكشف بعض مابه كما يقول "محمد بن داود الاصفهاني" :

وَكَانَ الطَّيْفُ يَكْشِفُ بَعْضَ مَا بِي وَلَسْتَ تَرَاهُ يُطْرُقُنِي بِحَالِ

فَلَمَّا يَجِدُهُ الشَّاعِرُ مِنَ الطَّيْفِ أَصْبَحَ يَتَمَنَّى طَرُوقَهُ حَتَّى يَجِدَ

تلك السلوى الكاذبة التي تكشف بعض مابه ، فالطيف يكشف

(٢)

الكروب على ما يرى "ابو هلال العسكري" :

يَا كَشْفَةَ لِلْكَرْبِ إِلَّا أَنَّهُ وَتَى عَلَى دَبْرِ الظَّلَامِ فَزَالَا

(٣)

ويكشف "ابن عبد ربّه" عن سبب تعلقه بالطيف :

بِنَفْسِي مَنْ أَعَادَ إِلَيَّ نَفْسِي وَرَدَّ إِلَى جَوَانِحِهِ فُؤَادِي

خِيَالٌ زَارَنِي لَمَّا رَأَيْتِي عَدَّتْنِي عَنْ زِيَارَتِهِ عَوَادِي

يُؤَاصِلُنِي عَلَى الْهَجْرَانِ مِنْهُ وَيُدْنِينِي عَلَى طُولِ الْبَعَادِ

يفتدى الخيال بنفسه ، فقد ردّ إليه نفسه الالهفة ،

وسكن من روع فؤاده ، وزاره الخيال لما استعمت زيارة صاحبه

وواصله مع أن صاحبه هاجر ، وأدناه على بعد المسافة وشحط

(٤)

المزار ، فهو لقاء يشفي الغليل كما يقول "الشريف المرتضي"

لِقَاءٌ شَفَى بَعْضَ الْغَلِيلِ وَلَمْ أَكُنْ

عَلَيْهِ - وَإِنْ كُنْتُ الْقَدِيرَ - قَدِيرَا

لقاء ليس بيد الشاعر ، لكنه يتم في منامه ، ويخفف

(٥)

بعض مابه وإن كان باطلا :

وَإِنْ يَكُنْ بَاطِلًا ، فَكَمْ بَاطِلٍ عَاشَ بِهِ مَيِّتٌ مِنَ الْحَزَنِ

(٦)

فالطيف ينفس الكرب عن الشاعر على ما يرى "المرتضي" :

(١) أوراق من ديوان أبي بكر محمد الاصفهاني ص ٦٣ .

(٢) ديوان المعاني ٢٧٩/١ .

(٣) ديوان ابن عبد ربّه ص ٧٠ .

(٤) طيف الخيال ص ١٧٨ .

(٥) السابق ص ١٧٥ .

(٦) السابق ص ١٤٣ .

كَمْ رَأَيْنَا بِإِطْلَاقِ نَفْسٍ مَسْ كَرَبًا عَنْ مَعْنَى !

ويلخص "أحمد شوقي" هذه القضية بقوله :
(١)

أَفْدِيكَ إِذَا ، وَلَا أَلُو الْخِيَالَ فِدَى

أَغْرَاكَ بِالْبُخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بِالْكَرَمِ

سَرَى فَمَادَفَ جُرْحًا دَامِيًا ، فَأَسَا

وَرُبَّ قَفْلٍ عَلَى الْعُشَّاقِ لِلْحُلْمِ

لم يفن "شوقي" أن يفدى حبيبته بنفسه ، لكن جعل للخيال منزلة أكرم لأن حبيبته إن ضنت حيناً بوماله ، وجرحت قلبه بقطيعتها فخيالها أكرم عليه منها ، لأنه يسعى إليه زائراً ومواسياً في الحلم ، وكم يجد القارئ في قول "شوقي" (مادف جرحاً فاساً) من عذوبة ، كأن الشاعر جعل زيارة الطيف أصلاً ، ومواساة الجرح فرعاً ، وهذا أروع لمن يتدبر ، ثم يذيل هذه الرحلة بجملة تجرى مجرى المثل فيقول "ورب قفل على العشاق للحلم" .

ويرى الباحث أن المعاني الأصلية هنا معروفة ومطروحة ، لكن صياغة "شوقي" اكتسبتها جدة وطرافة فكانت تنسب إليه وحده .

* أما ما يذم به الطيف :

(٢)

فبأن وصله وصل كاذب يقول "البعيث" :

أَزَارَتِكَ لَيْلَى وَالرَّكَابُ خَوَاضِعُ

وَقَدْ بَهَرَ اللَّيْلَ النَّجُومُ الطَّوَالِعُ

فَأَعْطَتِكَ آيَاتِ الْمُنَى غَيْرَ أَنَّهَا

كَوَادِبُ إِنْ حَمَلْتَهَا وَخَوَادِعُ

(١) الشوقيات ١٩١/١ .

(٢) ديوان المعاني ، العسكري ٢٧٧/١ .

لَقِيَ الشاعِرَ ما يَتمنَى من لِقائِ الحَبِيبِ في نومه ، لَكنَّه
(١)
لِقائِ كاذِبِ خادِعٍ ، أو لهُوَ مَكدُوبٌ كما يَرى "قيس بن الخطيم" :
كانَ المُنى يَلقائِها فَلَقِيتُها ولَهُوتُ من لهُوَ امرِي مَكدُوبٌ
تمنَى لِقائِها ، فلَقى طيفِها ، فلما لهُوا كاذِبًا ، أو أنَّ
(٢)
الرؤيا نَفسها كانت كاذِبةً كما يَمفِها "الاقرع بن معاذ" :

فَحَيَّتْ ، فَحَيَّاهَا ، فَهَبَّ ، فَحَلَقَتْ

مَعَ النَجْمِ رُؤياً في المَنامِ كَذُوبٌ

(٣)

و"البحثري" يكلف نفسه تمديد الطيف الكاذب :

يَكاذِبُنِي وأصدِقُه ودادا ومن كلف مصادقة الكذوب

(٤)

ولَكنه في مَنامه يَرى الكذِبَ صدقًا :

أَرى كَذِبَ الأَحلامِ مِداقًا وَكَمَّ صَغَتْ

إلى خَبرِ أذُنائِي ، غَيرِ مَدُوقِ

فهُوَ واصل كاذِبٌ غَيرَ أَنَّهُ يَراهُ مِداقًا في مَنامه ، ويصرِّح

(٥)

"البحثري" بكذب واصل الطيف في موضع آخر :

تَمَدُّقُنَا المَنعَ سَعدي حَينَ نَسَّأُها

نَيلًا ، وَتَكْذِيبُنَا وَمَلاً وإِسعافًا

غَيرَ أن الشوقَ قد يَدفعُ الشاعِرَ إلى تمديدِ الطيفِ يَقولُ

(٦)

"الشريف الرضي" :

وَخِيالٍ دَلَّسَ القَلَمَ عَلى العَينِ طُرُوقَةً

كَذِبٌ يَحسَبُهُ المَمَّ مِداقًا من الشوقِ حَقيقَةً

وهو في معناه من أجمل ما قيل في الطيف ، فهي حَقيقة

لا تَنبَدُّ عن الخيال ، وخیال لا يَغرِبُ عن الحَقيقة ، ولا يَنبَغُ بهذا

(١) السابق ٢٧٦/١ .

(٢) طيف الخيال ص ١١١ .

(٣) ديوان البحتري ٤٤٠/١ .

(٤) السابق ١٣٨/٢ .

(٥) السابق ٣٨١/١ .

(٦) ديوان الشريف الرضي ٤٦/٢ .

المعنى غير مجرب ، حين يركّز المرء بعقله وخواطره ووجدانه
فيُضحي المُتَخَيَّلُ حاضراً وهو غائب ، ويوشك أن يلتمسه ويتقراه
بيديه ، إنّه امتلاء النَّفس بالفكرة وماينجم عن ذلك في
السلوك كما يقرر علماء النَّفس . ويمرّح "الشَّريف المرتضي"
(١)
بكذب الطيف :

لو كَانَ حَقًّا زَارَ فِي وَضْحِ الضُّحَى

فَالزُّورُ وَهَنًا كَاذِبٌ لَا يَصْدُقُ

(٢)
فهي زيارة كاذبة باطلة غير أنّها تروى غلّته كما يقول:
وَلَمْ يَهْرِهَا أَنَّهُ زَوْرَةٌ
لِعَارِبِ الْآرَاءِ مَكْدُوبِ
بَاطِلَةٌ رَوَتْ لَنَا غُلَّةً
والحقُّ لم يأتِ بِمَطْلُوبِ

ونجده في موضع آخر يشنّ حملةً شعواء على الطيف :

وَسَلِّ بِغَيْرِ رِضَى وَلَا لِهَوَى
وَعَطِيَّةً لَيْسَتْ مِنَ الْكَرَمِ
كَذِبٌ وَمَا شُكِرٌ عَلَى كَذِبِ
مَا صَحَّ فِي فِكْرِ وَلَا كَلِمِ
وَوَدِدْتُ مِنْ مَقْتَبِي مُخَادَعَتِي
أَنَّ الرُّقَادَ جَفَا فَلَمْ أَنِمِ
قَالُوا: أَمَا اسْتَمْتَعْتَ؟ قُلْتُ لَعْمُ:
هَلْ مُتَّعَةٌ لِفَتَى مِنَ الْعَدَمِ؟
مَا الطَّيْفُ إِلَّا كَالسَّرَابِ ، وَلَا
رِيٌّ بِغَيْرِ الْبَارِدِ الشَّبِيمِ

وصل كاذب ، ولا يشكر على الكذب ، والشاعر فخر من
إحساسه بالخداع ، وتمنى أنّه لم ينم ، فهو لا يرى متعة من
العدَم ، والطيف عدم أو سراب ، ولا يمكن الارتواء من السراب ،
وإنّما من الماء البارد ، والذي يكنى به عن صاحب الطيف ،
وقد نجده هنا يناقض قوله :
(٤)

إِنَّ كَانَ زُورًا بَاطِلًا فَلَطَعْمُهُ
حُلُوٌّ شَهِيٌّ فِي فَمِ الْمُتَذَوِّقِ

فكيف يكون السراب حلواً شهياً في فم المتذوق ؟ غير أنّنا

(١) طيف الخيال ص ١٦١ .
(٢) السابق ص ١٦٤ .
(٣) السابق ص ١٧٢ .
(٤) السابق ص ١٦١ .

نقبل منه هذا التناقض ، لأنَّ الأمر ليس أمر مباديء يَحْمَدُ هنا وَيَذُمُّ هناك ، وإنَّما هو أمر مواقف وملابسات ، فقد يذمُّ الطيف في موقف ، ويحمد في آخر ... ويبقى دائماً طريقة الاداء في كلِّ ، فهي مدار الفنِّ ومحور القول الجميل .
لذلك يذمُّ الطيفُ بأنَّه خداع يغرِّبه العاشق ، قال "الشَّريف المرتضي" :
(١)

فَهِيَ تَعْلِيلَةٌ لِمَبِّ عَالِيٍّ أَوْ خِدَاعٌ يُهْدِي لِقَلْبٍ مَعْنَى
(٢)
فوصل الطيف خداع لقلب العاشق المحروم :

مَازَالَ يَخْدَعُنِي بِأَسْبَابِ الْكَرَى حَتَّى حَسِبْتُ بِأَنَّهُ حَقًّا مَعِيَ
(٣)
ويذمُّ الطيف بأنَّه تزوير وغرور ، قال "الفرزدق" :

فَلَمَّا لِلْمَلَاةِ دَعَا الْمُنَادِي نَهَضْتُ وَكُنْتُ مِنْهَا فِي غُرُورٍ
(٤)
فالشاعر يرى أحلاماً تغرِّه كما يقول "البحثري" :

بَاتَتْ بِأَحْلَامِ النَّيَامِ تَغْرُنِي رَوْدُ التَّثَنِّي كَالْقَفِيْبِ الْمَائِدِ
(٥)
ولكن الغرور يكون للقلب كما يرى "الشَّريف الرضي" :

كَانَ عِنْدِي أَنَّ الْغُرُورَ لِيَطْرُقِي فَإِذَا ذَلِكَ الْغُرُورُ لِقَلْبِي
(٦)
ويقول أخوه "الشَّريف المرتضي" :

يُرِينِي أَنَّهُ ثَانٍ وَسَادِي مُفَاجَعَةً وَزُورٌ مَا يُرِينَا

فأولئك جميعاً يتداولون معنى ، فالطيف لا يزور إلا في غرّة ولذا فهو أمل خادع ، وسراب لا يطيء غلّة الصّادي ، وكأنَّهم جميعاً مقيدون بهذا المعنى الواحد ، ولا يخفف من ثقل هذا التكرار إلاَّ مانجده من اختلاف غير كبير في الصياغة .

-
- (١) السابق ص ١٧٦ .
(٢) السابق ص ١٢٠ .
(٣) ديوان الفرزدق ٢٨٣/١ .
(٤) ديوان البحثري ٣٣٧/١ .
(٥) طيف الخيال ص ٩٣ .
(٦) السابق ص ١٥٣ .

(ب) الشاعر المحروم :

من خلال هذا المبحث نعرض لحال الشاعر المحروم في لياليه ، ولانقصد الحرمان المطلق ، فكلّ من فقد شيئاً من طبيّات الحياة فهو محروم منه ، فالجاهل محروم من العلم ، والفقير محروم من المال ، والاسير محروم من الحرّية ... وهكذا .

ولكنّ الذي أعنيه هنا هو الشاعر المحبّ الذي حرّم لقاء من يحب ، ولهذا الحرمان مظاهر تنعكس على لغة الشاعر أهمها :

(١) الهمّ والقلق .

(٢) السهر والأرق .

(٣) البكاء والدموع .

وحول هذه النقاط يدور هذا المبحث لنعرف حال الشاعر المحروم ، وطريقة تصويره لحرمانه من خلال صورة الليل .

(١) الهمّ والقلق :

الشاعر المحروم مهموم قلقٌ ليله ، ولقد كشف كثير من الشعراء عن همومهم في الليالي التي يحرمون فيها لقاء أحبائهم . قال "كعب بن زهير" :
(١)

فَأَبَيْتُ مُحْتَضِرًا كَأَنِّي مُسَلَّمٌ لِلجِنِّ رِيحَ فُوَادِهِ الْمُخْطُوفُ

في الصورة براءة غير محدودة ، أول مظاهرها الإيجاز والقصر ، فلقد جمع "كعب" في كلمات قلائل كل ما يمكن قوله لتموير حاله ، فهو يبیت محتضراً ، وهذه وحدها تكفي لإظهار الرّوع ، ثم كأنّه أسلم ذاته للجنّ ، أو أسلم إلى الجنّ ، فريح لذلك فؤاده المخطوف ، فهل ثمّ أفضح من حال امرئ تخطفه الجنّ ، فيخطف قلبه ويراع ؟ وهذا فارق يكاد يكون ملموساً بين الصورة في الشعر القديم وبين مثلها في الشعر الحديث ، فالشاعر القديم يجمل ويوجز ، بينما الحديث يفصل ويسترسل وتأويل ذلك اتساع رقعة الحياة في عين الشاعر المحدث ، وكثرة ما يرى من المشاهد .. و"الأحوص" يصور أحواله في ليل الحرمان وليل الوصل في كلمات قلائل ، فمتى كان الحبيب قريباً فالليلة معسولة ، وإنّ نأى فالليلة مهمومة :
(٢)

لِي لَيْلَتَانِ ، فَلَيْلَةٌ مَعْسُولَةٌ أَلْقَى الْحَبِيبَ بِهَا بِنَجْمِ الْأَسْعَدِ
وَمَرِيحَةٍ هَمِّي عَلَيَّ كَأَنِّي حَتَّى الصَّبَاحِ مُعَلَّقٌ بِالْفَرْقَدِ
فَاللَّيْلِ الَّذِي لَا يَلْقَى بِهِ الشَّاعِرُ الْحَبِيبَ يَمْضِي وَكَأَنَّهُ مُعَلَّقٌ

بأحد نجومه ، وخلو الشاعر إلى نفسه يمنحه فرصة التفكير بمن يحبّ كما يقول "قيس بن الملوح" :
(٣)

وَأَخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلِّي أُحَدِّثُ عَنْكَ النَّفْسَ بِاللَّيْلِ خَالِيَا

(١) ديوان كعب بن زهير ص ٥٠ .
(٢) ديوان الأحوص الأنصاري ص ١٠٩ .
(٣) ديوان قيس بن الملوح ص ٢٢٨ .

فخلوة الشاعر بنفسه في الليل تمنحه فرصة التفكير
بالحبيب وفي تصوير حركي رائع يصور قلبه عشية قيل : إن
ليلي سترحل من الديار بالصورة الشهيرة التالية :
(١)

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى بَلَيْلَى الْعَامِرِيَةَ أَوْ يُرَاحُ
قَطَاةٌ عَزَمَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَادِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ
لَهَا فَرَّخَانَ قَدْ تَرَكَ بِقَفْرِ وَعُشْمَهَا تَمَقَّقَهُ الرِّيَّاحُ

خفق قلب الشاعر في الليلة التي توهم بها أن "ليلي"
سترحل بعيداً عنه ، فصور قلبه بصورة قطاة وقعت في شبك
صياد ، فظلت تجاذب الشباك تريد الفرار ، غير أن جناحها
عالق بالشباك ، فتتحرك حركة سريعة وتضطرب اضطراباً شديداً ،
لاسيما إذا تذكّرت فرخيها اللذين بقفر ليس لهما ما يحميهما
... فتزداد حركتها محاولة الإفلات خوفاً على نفسها وعلى
فرخيها ، حركة القطاة في تلك الحالة الشديدة الاضطراب
كحركة قلب الشاعر في الليلة التي اعتقد فيها أن "ليلي"
راحلة ، وهو تصوير رائع إذ أخرج غير المحسوس وغير المشاهد
إلى صورة محسّسة يستطيع المرء أن يتخيلها وكأنها تعرض أمامه
ولقد كشفت بوضوح عن حال الشاعر وعن همّه وقلقه في ليلته .
(٢)

ويصور "جرير" حاله في ليلة لم يجد بها من يحب :
تَبَيْتُ لَيْلِكَ ذَا وَجِدٍ يُخَامِرُهُ كَأَنَّ فِي الْقَلْبِ أَطْرَافَ الْمَسَامِيرِ
وَجَدَ الشَّاعِرَ لَغْيَابَ الْحَبِيبِ فَبَاتَ مَعْمُومًا قَلِقًا ، كَأَنَّ فِي
قَلْبِهِ وَخَزَ رُؤُوسَ الْمَسَامِيرِ ، وَهِيَ صُورَةٌ يَعْبرُ بِهَا عَنِ الْكَمِّ الَّذِي
يُخَامِرُ قَلْبَهُ فِي لَيْلَتِهِ عِنْدَمَا يَنَاقِ عَنْهُ مِنْ حُبِّ ، فَتَعْرُوه
الذِّكْرِيَّاتُ وَالذِّكْرِيَّاتُ تَهْيِجُ الْفؤَادَ كَمَا يَرَى "عمر بن أبي
(٣)
ربيعة " :

(١) السابق ص ٧٣ .
(٢) ديوان جرير ص ١٩٣ .
(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٩٤ .

طَالَ لَيْلِي فَمَا أُحِسُّ رُقَادِي . وَأَعْتَرَتْني الْعَمُومُ بِالتَّسَادِرِ
 وَتَذَكَّرْتُ قَوْلَ نُعْمٍ ، وَكَانَ الذَّمُّ كَرُّ مِنْهَا مِمَّا يَهِيحُ فُوَادِي
 الذُّكْرَى تَشِيرُ فُوَادِ الشَّاعِرِ ، فَتَسْلِبُهُ النَّوْمَ لَيْلَهُ ،
 فِيهِمْ وَيَأْرُقُ لَذِكِّ . وَيَمُورُ "بِشَارِ بْنِ بَرْدٍ" هَمَّهُ وَقَلْقَهُ
 (١)
 لِلْحَرَمَانِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ :

أَبَيْتُ مَرْوَعًا وَأَظَلُّ صَبًّا كَأَنَّ الْقَلْبَ مِنِّي ذُو جَنَاحٍ

وهي حالة يعرفها في نفسه كل من يتنازعه أمران ،
 لا يستطيع تغليب أحدهما .. فهو مروّع قلق مهموم ، يكابد من
 هذه المنيعة التي تتشقى منه بدلها ، وهذه الحال خليقة أن
 يبادلها العجران فيستريح ، لكنّه صبا يغالب شوقاً لا يقدر على
 كتمانها ، وبين الحالين صار قلبه ذا جناح ، فهو يخفق يمناً
 ويسرة ، ولعلّه في هذا المعنى نظر إلى "ابن الملوح"
 فاستعار قلبه ليلة قيل له : غدى "بليلى العامرية" .

لكن الصورة مع تكررها لم تفقد جدتها لأنّ "بشاراً"
 المَنَاعَ ماغها في تركيب جديد طريف ، ويقول "بشار" في نص
 (٢)
 آخر :

طَالَ لَيْلِي وَبَاتَ قَلْبِي جَنَاحًا وَمَلَّتَ الْعُدَالُ وَالنَّمَّاحَا

وأرى أنّ الصورة في أبيات المجنون أقوى تأثيراً ،
 وأجذب وأجمل ، فحين سمع برحيل ليلي خفق قلبه واضطرب ليلته
 من تلك المباغلة ، كأنّه قطة غرّها شرك ، ووجه الشبه
 الدقيق الجميل أنّ القطة باتت ليلها كما بات الشاعر قلبه
 فهما شبيهان في المباغلة ، وشبيهان في أنّ كلاهما ظلّ يجاذب
 الشرك الذي وقع فيه ، وقد علق منهما شيء لا يفلتتهما
 ولا يدعهما ساكنين ، وحركتهما بسبب المباغلة والمجاذبة .

(١) ديوان بشار ٨٢/٢ .

(٢) السابق ٨٩/٢ .

ولعل "بشار بن برد" من أكثر شعراء العربية شعوراً
بالحرمان ، وكثيراً ما يبرز ذلك من خلال بيان حاله متى أجته
الليل ، فالحجر يحرمه الرقاد ، ويبيتُ (نَجِيًّا لِفَيْقَانَ الْهُمُومِ
مَسَّهْدًا) ، ويحيى ليله قاعداً ينتحي الهوى ، وحين يغادر
الأحبة الديار نجده :
(١)
(٢)
(٣)

لَا يَشْتَهِي اللَّيْلَ مِنْ تَقَلُّبِهِ ظَهْرًا لِبَطْنٍ تَقَلَّبَ الصُّرْدُ

ومع المساء تعتاده الوسواس (ويعتادني الوسواس حين
أبيت) فيغدو مساءً مرًّا :
(٤)
(٥)

وَتُمْسِي وَالْمَسَاءُ عَلَيْكَ مَرًّا يُقَلِّبُكَ الْهَوَى جَنْبًا فَجَنْبًا
وتمنى في بعض قمائه ألا يعود عليه الليل (وليت الليل
لَمْ يَوُبْ) .
(٦)

ومن الصور المتميزة تموير "ذي الرمة" حالة عشية غابت
"مي" عن ناظره :
(٧)

عَشِيَّةٌ مَالِي حِيلَةٌ غَيْرَ أَنْبِي

بَلَقَطِ الْحَمَى وَالخَطَّ فِي التُّرْبِ مُوَلَعٌ

أَخَطُّ وَأَمْحُو الخَطَّ شَمَّ أُعَيْدُهُ

بِكَفِّيَّ وَالغُرْبَانَ فِي الدَّارِ وَقَعُ

"مالي حيلة" تصوّر عجز الشاعر فلاحيلة له يردّ بها
الحبيب الفائب فيلجأ إلى الأرض يلقطُ بعض الحمى منها ويخطّ
على ترابها خطوطاً على غير هدى ، يخطّ شَمَّ يمسح الخطّ بكفه ،
شَمَّ يخطّ غيره ويمسحه ... وهكذا وهو بهذا يبين عمّا في نفسه
من همّ وحزن لفراق الحبيب ، وقوله الغربان في الدار وقع

-
- (١) السابق ٣٥/٣ .
(٢) السابق ٧٦/٣ .
(٣) السابق ٩/٣ .
(٤) السابق ٣٠/٢ .
(٥) السابق ١٩٠/١ .
(٦) السابق ٢٨٧، ٣٦٢/١ .
(٧) ديوان ذي الرمة ص ٥٦ ، وينسب البيتان لقيس بن الملوح

إشارة إلى الخراب ، أو نذير للشؤم الذي حلّ به بعد فراق من يهوى ، ولقد أجاد الشاعر في بيان حالته وحزنه وهمّه دون أن يلجأ إلى التعبير المباشر . وقال أبو نواس :
(١)

تَنَاوَمْتُ جُمْدِي فَلَمْ أَرْقُدِ وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ يَسْهَدْ
أُقَلِّبُ طَرْفًا كَلِيلَ اللَّحَاطِ م وَإِنْ قَرَّ عَنْ جَسَدٍ مَقْمَدِ
وَأَنْهَضُ فِي طَرَبَاتٍ تَهِيحُ وَالزَّمُ طَوْرًا فَوَادِي يَدِي
يُمَوِّرُ حَالَهُ بِاللَّيْلِ الَّذِي نَامَ فِيهِ الْخَلِيُّ مِنْ خِلَالِ طَرْفِهِ

الذي ضعفت نظراته ، ومن خلال يده التي تلزم فؤاده المهيج لذكرى الحبيب النائم المستقر في فراشه ، فلعل وضع اليد على الصدر يخفف بعض هياجه وبعض ما به من همّ وقلق ، والذي يُمَوِّرُهُ "أبو دَهْبِلَ الْجَمْحِيِّ" بِالْجَمْرَةِ الْمَتَوَهَّجَةِ :
(٢)

وَبِتُّ كَنِيْبًا لِلْهَمُومِ كَأَنَّمَا خِلَالَ ضُلُوعِي جَمْرَةٌ تَتَوَهَّجُ
فَطَوْرًا أُمْنِي النَّفْسِ مِنْ عَمْرَةَ الْمَنَى

وطوراً إذا مالجّ بي الحزن أنشج

بات كنيباً حزيناً للهموم التي تعتاده لحبّه "عمرة" وكان في صدره جمرة تتوهج ، والتعبير بالفعل المضارع يدل على الاستمرارية ، فهي تواصل التوهج والشاعر يحسّ بحرّها في صدره ، فيسلي نفسه بالأمانى بلقاء الحبيبة ، وحين يفقد الأمل في ذلك يغلبه الحزن فيترك الأمانى ويتحول إلى البكاء غير أنّه بكاء شديد يعبرّ عنه بقوله أنشج ، والنشيج غمّة تكون في الحلق بسبب البكاء من غير انتحاب ، وفي صورة متميزة يُمَوِّرُ "العبّاس بن الأحنف" حاله بليل الحرمان :
(٣)

سَلَى عَنْ مَبِيَّتِي مَنْ رَأَى ذَلِكَ الْبَلَا

فَبَاتَ مَبِيَّتِي فِي عَذَابٍ وَفِي كَرْبٍ

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٤٥ .
(٢) ديوان أبي دهبيل الجمحي ص ٥٣ .
(٣) ديوان العباس بن الأحنف ص ٤١ .

أَدْرْتُ الْهَوَى حَتَّى إِذَا كَانَ كَالرَّحَى

جَعَلْتُ لَهُ قَلْبِي بِمَنْزِلَةِ الْقُطْبِ

بات "العبياس" في عذاب وكرب شديدين ، لكن البيت الثاني تضمّن صورة متميّزة تعبّر عن همّ الشاعر ، وحال قلبه في ليل الحرمان وهي إدارة الهوى كالرحى ، وقلب الشاعر تلك الحديدية التي تكون في الطبقة الأسفل من الرّحى ويدور عليها الطبقة الأعلى ، فعلى قلبه ثقل هائل يكاد يطحنه ، وهو بهذا يكتفي عن همومه وقلقه في اللّيلة التي يحرم بها ، ففي ظلام الليل تنبت اللوعات اشجاراً في قلب الشاعر المحروم كما يقول "أبو تمام" :^(١)

لَوْ تَشْهَدِينَ أَقَاسِي الدَّمْعَ مُنْهَمِرًا

وَاللَّيْلُ مُرْتَجِحُ الْأَبْوَابِ مَطْمُوسًا

اسْتَنْبَتِ الْقَلْبُ مِنْ لَوْعَاتِهِ شَجَرًا

مِنْ الْهُمُومِ فَأَجْنَتْهُ الْوَسَاوِيسَا

لوعات الشاعر غدت اشجاراً في قلبه غير أنّ جناها الوسواس فلا يعرف النّوم وإنّما الهمّ والقلق شأنه في ليله الطويل ، ويمور "أبو فراس" حاله في ليل الحرمان بقوله :^(٢)

إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطَتْ يَدَ الْهَوَى

وَأَذَلَّتْ دَمْعًا مِنْ خَلَائِقِهِ الْكِبْرُ

تَكَادُ تَضِيءُ النَّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي

إِذَا هِيَ أَذَكَّتْهَا الصَّبَابَةُ وَالْفِكْرُ

الصّبابة والفكر بالحبيب العاجر تشعل النار بين أضلاع الشاعر ، فيكاد نورها يضيء ، والصورة في غاية الجمال ، فحين يجنّه اللّيل ، ويستحوذ عليه الفكر فيمن يحب ، يضيئه

(١) ديوان أبي تمام ص ٣١٦ .

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني ص ٦٤ .

الليل من شدة ما يجد ، فييسط يد الهوى الذي كان يكتمه ،
عسى أن يخفّ وجده ، ويبثّ هذا الهوى لليل ، ثم يذلّ دمه
ويرسله مداراً بعدما كان من خلائق هذا الدّم العزّة والكبر
.. فالليل هو مثابة الوجد الملحّ ، والدّم الهتون ، ويمور
"ابن المعتز" قلبه محشواً بالجمر : "وحشو قلبي جمراً" .
(١)

وقد يجعل الشاعر يده فوق صدره علّها تخفّف بعض ما في
القلب كما في قول "ابن داود الأصفهاني" :
(٢)
وكمّ لَيْلَةٍ قَدْ بَتُّ أَرْقَبُ مَبْحَا وَأُنْجَمَهَا فِي الْجَوِّ مَا تَتَزَحَّزَحُ
وَيَمْنَايَ فَوْقَ الْقَلْبِ تَبْرُدُ حَرَّهُ وَيُسْرَايَ تَحْتَ الْخَدِّ وَالْعَيْنُ تُسْفَحُ
وهذه الصّورة من الصّور التي تدور حول فكرة أنّ الهوى
كالنّار في القلب ، والشّاعر يشعر بحرارتها وبوقدها ،
فلاتدعه ينام الليل ، وتورثه الهمّ والقلق ، وإذا كان "ابن
داود الأصفهاني" يضع يميناه على صدره كي يبرد حرّ قلبه ، فإنّ
"مهيار الديلمي" برّد الليل ولم يبرد ما بين ضلوعه :
(٣)

وخلفَ الضُّلُوعِ زَفِيرٌ أَبِي وقد بردَ اللَّيْلُ أَنْ يَبْرُدَا
أمّا "ابن سنان الخفاجي" فقد بدّد نسيم الليلة التي
سهر فيها حرارة أشواقه :
(٤)

وبدّدَ حرَّ الشُّوقِ شَمْلُ نَسِيمِهَا عذيري من وِجْدِي بِكُمْ وَعذِيرُهَا
وجذوة نارٍ دونَ ذِكْرِ مَكَانِهَا سريرة حبّ لا يخاف ظهورُهَا
فعلى الرّغم من لواعج الشّوق التي يتأجّج سعيها في
صدره فقد بدّد هذا السّعير نسيم تلك الليلة الرطيب المنعش ،
فالحبّ مكانه المدر ، ولما زاد الشّوق إلى الحبيب البعيد
أحسن الشاعر بحرارة الشّوق تتلهب في صدره ، هذه الفكرة عبر

(١) ديوان ابن المعتز ص ٢١٠ .
(٢) أوراق من ديوان أبي بكر بن داود الأصفهاني ص ٤١ .
(٣) مختارات البارودي ٣٠٥/٤ .
(٤) السابق ص ٣٢٣ .

عنها جمع من الشعراء ، فيأى جانب ماقرأنا في هذا المبحث
(١)
نجد شاعراً "كسبط بن التعاويذي" يقول :

وَلَيْلٍ طَوِيلٍ أَقْضِيهِ فِيكَ بِنَارِ الضُّلُوعِ وَمَاءِ الْمَاقِي
فالنَّارُ الْمُتَأَجِّجَةُ بَيْنَ ضُلُوعِ الشَّاعِرِ هِيَ نَارُ الْوَجْدِ
والغرام الذي أطل ليل الشاعر ، وجمع نار الضُّلُوعِ مع ماء
الماقي لاطفاء هذه النيران حسن وممتع .

وعلى نحو من قول "ابن المعتز" "وحشو قلبي جمر" يقول
(٢)
"أسامة بن منقذ" :

أَبَيْتُ أَرَعَى كُلَّ نَجْمٍ يَسْرِي كَأَنَّمَا حَشِيَّتِي مِنْ جَمْرِ
ويجعل "الشَّابَّ الظَّرِيفَ" مهجته مأوى الهموم ومجمع الكرب
(٣)
متى أجته الليل :

لَابَتَّ مِثْلَ مَبِيتٍ مَهْجَتِهِ مَأْوَى الْهَمُومِ وَمَجْمَعِ الْكَرْبِ
(٤)
فلعله بات كما بات "أشجع السلمي" :

إِذَا اللَّيْلُ أَلْبَسَنِي ثَوْبَهُ تَقَلَّبَ فِيهِ فَتَى مَوْجَعٍ
فالشاعر موجع يتقلب في لياليه لايعرف النَّوْمَ وَلَا الرَّاحَةَ .

(٥)
ويقول "بديع الزمان الهمداني" عن حاله بليل الحرمان :

يَأْسَأُلِي كَيْفَ تُمْسِي أَخُو الْهَوَى كَيْفَ يُمْسِي
إِنِّي لِأَدْهَشُ حَتَّى أَكَادُ أَنْكُرُ نَفْسِي
أَبَيْتُ وَالْعَشْقُ قَيْدِي وَرَقْعَةُ الْأَرْضِ حَبْسِي

أخو الهوى له حال خاصة يمسي بها ، فتمرّ عليه أطوار
بليله تدهشه حتى يكاد ينكر نفسه ، فالعشق يقيدده ، ويتصرف
به وكأنه سجين لديه ، ويمنع عنه النَّوْمَ ، وقال "الميكالي" :

يَأْمَنُ يَبِيتُ مُحَبَّةً مِنْهُ "بَلِيلَةُ أَنْقَدٍ"

-
- (١) ديوان سبط التعاويذي ص ٢٩٨ .
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ص ٦٨ .
(٣) ديوان الشاب الظريف ص ٥٤ .
(٤) محاضرات الأدباء ص ٢٩٤ .
(٥) ديوان بديع الزمان ص ٨٦ .
(٦) ديوان أبي الغضل الميكالي ص ٨٦ .

الأنقد : القنفذ ، جاء في لسان العرب (نقد) : "ومن أمثالهم "بات فلان بليلة أنقد" إذا بات ساهراً ، وذلك أن القنفذ يسرى ليله أجمع لا ينام الليل كله" (١) ، ومن المعجب قول "الأرجاني" : (٢)

عجباً، عَجِبْتُ مِنَ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى
وَاللَّيْلُ قَدْ أَرَخَى عَلَيْهِ سُدُولاً
مَغْبُوقٌ كَأَنَّ هَوَىَّ أَتَانِي عَاشِراً
فِي ذَيْلِهِ سُكْرًا يَمِيلُ مَمِيلًا
يَشْكُو إِلَيَّ مِنَ الْهَوَىِّ مَا نَالَه
وَأَبَى غَرِيْقٌ أَنْ يُغِيثَ بَلِيلًا
أَمَبَا تُسَمِّي الْآنَ أَمْ مَبَّأً ؟ فَقَدْ
شَمَلَ السَّقَامُ لَنَا الْجِسْمَ شُمُولًا

الليل أرخى سدوله على النسيم ، وهي صورة من أعذب الصور وأكثرها إيحاءً ، فالنسيم أشد ما يكون عذوبة وجمالاً في الليل ، واشتمال النسيم بالليل كأنه جعل الظلام شملة له يوحي برقة النسيم ولطفه وحيائه . وتعثر النسيم في ذيله وأنا استقبله كأنه مفتبق شرب في المساء حتى شمل فيتعثر ويتميل ، ويترنح من شدة اللطف .

ثم يفيف "الأرجاني" إلى الصورة ما يجعلها أكثر طرافة وإبداعاً فالنسيم تخير "الأرجاني" دون سواه من الساهرين على اختلاف شمولهم ليشكو إليه مواجده ، ويبث إليه لواعج الهوى والنسيم على كل حال "بليل" وهي تورية ما أبهاها وأعجبها في مكانها !! و"الأرجاني" غريق فأنى له وهو الغريق في الهوى أن ينجد النسيم وهو البليل ؟!

(١) لسان العرب ٤٥١٨/٦ .
(٢) ديوان الأرجاني ١١٠١/٣ .

كلنا يانسيم شمل السقام جسمينا أو شفنا الهوى
 وأضوانا . والذي يراه الباحث أن "الأرجاني" قد أربى على
 الغاية في هذه الصورة المركبة التي جعل الليل وظلامه خيوطاً
 أصلية في نسيجها ، غير عابئ بالتراكيب الدراجة الموروثة
 وعن الحيرة التي تنتاب الشاعر في لياليه لفراق الأحبة ،
 يقول "البهاء زهير" :^(١)

أردد فيك طول الليل فكري فأبني ثم أهدم ثم أبني
 لعلّي قد آسأت ولست أدري فقل لي ما الذي بلغت عني؟

الحبيب هاجر ، والشاعر ساهر يفكر في سبب الهجر لعله
 قد أساء دون أن يدري ، أو لعل الوشاة بلغوا عنه شيئاً
 ولاجله جفاه الحبيب ، فببيت طول الليل يردد الأفكار متوهماً
 سبباً معيناً للهجر ويبني عليه الفكر ، لكنه يشك فيه فينقضه
 أو يهدمه ، ويفكر في غيره حتى يكاد يقتنع به ، غير أنه
 يجد من المؤشرات ما ينقضه فيتركه ويفكر في سبب آخر ...
 وهكذا "فأبني ثم أهدم ثم أبني" صورة رائعة للحيرة التي
 تنتاب الشاعر في ليله وهي صورة لما في داخل الشاعر يقرب
 من "ذي الرمة" الذي صور حاله بما في الخارج بلقط الحمى
 والخط في الترب ومسح الخط ثم إعادته ... وكلاهما قد أبان
 وأجاد في تصوير همّه وقلقه وحيرته في الليلة التي يفتقد
 بها الحبيب .

وقد يكنى "البهاء زهير" عن معاناته بليل الحرمان من
 نحو قوله :^(٢)

يا أيها السائل عني لاتسل عمن هلك
 بت بليل باته كل عدو لي ولك

(١) ديوان البهاء زهير ص ٢٦٨ .
 (٢) السابق ص ١٩٧ .

فَاللَّيْلِ الَّذِي يَتَمَنَّاهُ لِلْأَعْدَاءِ هُوَ لَيْلٌ مُوحِشٌ ثَقِيلٌ لِأَشْكَ ،
وَكأنَّه يَقُولُ بَتُّ بَلِيلٍ هَمٌّ وَقَلْقٌ ، وَلَكِنَّه لَمْ يَمَرِّحْ بِذَلِكَ بَلْ أَشَارَ
إِلَيْهِ عِنْدَمَا تَمَنَّاهُ لِعَدُوِّهِ ، وَعِنْدَمَا اشْتَدَّ بِهِ الشَّوْقُ إِلَى
الْحَبِيبِ وَاسْتَطَالَ اللَّيْلُ قَالَ :^(١)

يَاللَّيْلُ طُلَّ يَا شَوْقُ دُمَّ إِنِّي عَلَى الْحَالِيْنَ صَابِرٌ
لِي فِيكَ أَجْرٌ مُجَاهِدٍ إِنَّ صَحَّ أَنَّ اللَّيْلَ كَافِرٌ

الشَّوْقُ أَطَالَ اللَّيْلَ الَّذِي يَكَابِدُهُ الشَّاعِرُ ، لَكِنِ الشَّاعِرُ
يَلُوذُ بِالصَّبْرِ عَسَى أَنْ يَفُوزَ بِأَجْرِ الْمُجَاهِدِ ، لِأَنَّهُ يَجَاهِدُ اللَّيْلَ
وَمِنْ أَوْصَافِ اللَّيْلِ الْكَافِرِ ، لِأَنَّهُ يَسْتُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِظِلَامِهِ .

وَأَصْلُ الْكُفْرِ فِي اللُّغَةِ التَّغْطِيَةُ لِذَا سَمِيَ اللَّيْلُ كَافِرًا
لِتَغْطِيَتِهِ بِظِلَامِهِ الْأَشْيَاءَ ، وَمِنْ هَذَا الْمَنْطَلِقِ اللَّغْوِيُّ يَصُوغُ
الشَّاعِرُ صُورَتَهُ الْبَيَانِيَّةَ عَنْ حَالَتِهِ بِلَيْلِ الْحَرَمَانِ ، فَنَقَلَ دَلَالَةَ
الْكَفْرِ مِنَ الْأَصْلِ اللَّغْوِيِّ إِلَى دَلَالَةِ تَنَاسُبِ الْفِعْلِ يَجَاهِدُ وَنَسَبَهَا
لِلَّيْلِ ، غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ "أَنْ صَحَّ" وَمَادَامَ اللَّيْلُ كَافِرًا ، وَالشَّاعِرُ
يَحْتَمِلُهُ صَابِرًا عَلَيْهِ فَهُوَ مُجَاهِدٌ وَيَتَمَنَّى أَجْرَ الْمُجَاهِدِينَ .

و"صَفِيَّ الدِّينِ الْحَلِيِّ" يَرْبِطُ بَيْنَ جَنُونِهِ وَمَجِيءِ اللَّيْلِ :^(٢)

فَاتَّقِ اللَّهَ فِي عَذَابِ مُحِبَّةٍ كَلَّمَا جَنَّ لَيْلُهُ فِيكَ جُنًّا

جَنَّ اللَّيْلُ أَي سَتَرَ الْأَشْيَاءَ بِظِلَامِهِ ، وَمَعَ مَجِيءِ اللَّيْلِ
يَسْتَتِرُ الشَّاعِرُ حَتَّى عَقَلَهُ يَسْتَتِرُ أَيضًا فَيَجُنُّ لِفِرَاقِ الْحَبِيبِ ،
وَهِيَ مُشَاكَلَةٌ جَعَلَتْ الصُّورَةَ أَكْثَرَ قَبُولًا .

وَيَقُولُ "الْبَارُودِيُّ" عَنْ هَمِّهِ وَقَلْقِهِ وَوَجْدِهِ تَحْتَ اسْتَارِ^(٣)

الظلام :

سَلَّ إِذَا شِئْتَ أَنْجَمَ اللَّيْلِ عَنِّي
فَهِيَ أَدْرَى بِكُلِّ مَا بَتُّ أَلْقَى

(١) السابق ص ١٢٤ .
(٢) ديوان صَفِيَّ الدِّينِ الْحَلِيِّ ص ٤٢٥ .
(٣) ديوان الْبَارُودِيِّ ٣٢٢/٢ .

نَفْسٌ لَا يَبِينُ ضَعْفًا ، وَجِسْمٌ سَارَ فِيهِ الضَّنَى فَأَصْبَحَ مُلْقَى
فَتَرَفَّقَ بِمَهْجَةٍ شَفَّهَا الْوَجْدُ م دُ فذابت وأدمعٌ ليس ترقا
إِنْ يَكُنْ دَابُّكَ الصُّدُودَ قَلْبِي عَنْكَ رَاضٍ ، وَإِنْ غَدَا بِكَ يَشْقَى
فالشاعر يصور همته وحالته في غياب الحبيب فقد بات
مسامراً للنجوم ، ونفسه لا يكاد يظهر من ضعفه ، وجسمه قد
انهكه المرض ، فمار مقروحاً ، وقلبه أضعفه الحب حتى ذاب ،
وعيونُه لا يرقا دمعهما لصدود الحبيب ، ولكن قلب الشاعر راض
عن الحبيب وإن أشقاه ، وإن ظل يخفق بشدة طول الليالي كما
(١)
يقول :

حَيَاتِي فِي الْهَوَى تَلَفَ وَأَمْرِي فِيهِ مُخْتَلِفٌ
أَبَيْتُ اللَّيْلَ مُكْتَنِبًا وَقَلْبِي فِي الْحَشَا يَجِفُ
فإنه بدأ بالعموم في الإخبار عن حياته بالتلف وأمره
بالاختلاف بسبب الهوى ، ثم أخبر عن حاله بالليل ، فهو يبیت
مكتئباً سيء الحال ، وقلبه يخفق خفقاناً شديداً ، ويضطرب
اضطراباً قوياً في صدره .

(٢)
ويستجدي "إسماعيل مبري" الليل ويشكو إليه حاله :
يَالَيْلُ كَمْ قَاسَيْتُ فِيكَ مَوَاجِعًا هَطَّالُ دَمْعِي شَاهِدٌ وَسَمَّادِي
يَالَيْلُ إِنَّكَ عَالِمٌ بِمَبَابِتِي وَلَكَمْ شَكُوتُ إِلَيْكَ مُرَّ بَعَادِي
حَمْلُ نَسِيمِكَ حَرَّ أَشْوَاقِي عَسَى يَالَيْلُ يَمْفُو قَلْبُهَا لُودَادِي
وَاشْرَحْ لَهَا وَجْدِي وَشِدَّةَ لَوْعَتِي فَلَعَلَّهَا تَرْوِي غَلِيلَ الْمَادِي
يسهر وحيداً باكياً حبه البعيد ، وليس بقربه من يشكو
إليه فتوجه بالشكوى إلى الليل يبيته مواجعه وآلامه واحلامه ،
والليل عالم بعشقه لكثرة سهره وارقه ، وترديد شكواه
ومرخات الأكم في طيات الظلام ، ثم يستجدي الليل أن يحمل

(١) السابق ٢٩٥/٢ .

(٢) ديوان إسماعيل مبري ص ٢١٢ .

النَّسِيمَ أَشْوَاقَهُ عَسَاهَا تَصِلُ إِلَى الْحَبِيبَةِ فَيَرْقُّ قَلْبَهَا ، وَتَعْطَفُ
عَلَى الشَّاعِرِ بِوَصْلِ يَمْلِحُ شَأْنَهُ ، وَإِذَا كَانَ "إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي"
يَطْلُبُ مِنَ اللَّيْلِ أَنْ يُحْمَلَ النَّسِيمَ أَشْوَاقَهُ إِلَى الْحَبِيبَةِ ، وَأَنْ
يُشْرَحَ لَهَا صِبَابَتَهُ عَلَيْهَا تَرْوِي غَلِيلَ الصَّادِي . فَان "أَحْمَدُ
شَوْقِي" يَبْعَثُ أَشْوَاقَهُ فِي رِيحِ الصَّبَا (١) :

كَمْ شَكْوَتُ الْبَيْنِ بِاللَّيْلِ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ عَسَى أَنْ يُطْلِعَكَ
وَبَعَثْتُ الشَّوْقَ فِي رِيحِ الصَّبَا فَشَكَا الْحُرْقَةَ مِمَّا اسْتَوَدَعَكَ
كثيراً ما شكوتُ البينَ بالليلِ إلى مطلعِ الفجرِ عسى أن
يرقُّ لي فيطلعك ، كما ترقُّ ظلمته الدَّامسة فيطلع منها الفجر
وفي هذا التركيب إيماء إلى الشَّبه بين صاحبتِه وبين الفجر ،
فكلاهما يجمعهما النُّور ، وترقب طلوعهما . وكثيراً ما بعث
أشواقه في ريحِ الصَّبَا فشكا الحرقه ممَّا استودعه من آهات
وأنات . وكلَّها كنايةات عمَّا يعانيه من حرقة وسهد وغرام
يعذبه ، وشوق إلى لقاء من يحب . فللعاشق صرعة مع الظلام
كما يقول (٢) :

وَتُوْقِدُ الذِّكْرَى بِأَحْشَائِهِ جَمْرًا مِنَ الشَّوْقِ حَثِيثِ الضَّرَامِ
كَذَلِكَ الْعَاشِقُ عِنْدَ الدُّجَى يَا لَهْوَى مِمَّا يَثِيرُ الظَّلَامِ
لَهُ إِذَا هَبَّ الْجَوَى صَرْعَةً مِنْ دُونِهَا السَّحَرُ وَفِعْلُ الْمُدَامِ
ظلام اللّيل على العاشق إذا هبَّ الجوى به له صرعة عظيمة
أقلُّ منها فعل الخمر والسَّحر ، والشَّاعر يربط هذه الصَّرْعَةَ
بالظلام لأنَّه يثير الهوى في قلبه ويوقد الذِّكْرَى في خاطره ،
ويمنحه الهمَّ والقلق ، فهو كما يقول (٣) :

حيرانُ القلبِ مُعَذِّبُهُ مَقْرُوحُ الجَفْنِ مُسَدِّدُهُ
أودَى حرقاً إلَّا رَمَقًا يُبْقِيهِ عَلَيْكَ وَتُنْفِذُهُ

(١) الشوقيات ١٣١/٢ .

(٢) السابق ١٣٦/٢ .

(٣) الشوقيات ١٢٢/٢ .

يستهوِي الوُرُقَ تَأَوُّهُهُ وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَنْهَدُهُ
وَيُنَاجِي النَّجْمَ وَيَتَعَبُهُ وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ

قلب حيران معذب ، وجفن مقرح مسهد من الدمع والارق ،
يكاد يموت من حرقة الحب ولم يبق إلا الرمق الاخير ولكن
الحبيب سوف يقضي على ماتبقى بهجره ، فبات الشاعر مع الآهات
والتنهيدات التي تكاد تذيب الصخر ، ويظل يراقب النجم في
لياليه ويتعقبه ، فمواجهه مما فعل الحب به لاتكون إلا في
الليل ، يخلد إليه ، ويبثه ذات نفسه ، وليس كالليل انيساً
لأي مَجُوع .

وإذا امتدَّ الشَّوقُ بالشَّاعرِ غداً مَوجِعاً مُؤلِماً ،
و"المحي" يبیت حليفاً له :^(١)

وَتَطُولُ لَيْلَتِي الَّتِي قَفَّيْتُهَا مُمْنَى الْجُفُونِ حَلِيفَ شَوْقٍ مُوجِعِ
وَلطائِمًا قَصُرَتْ لَيْالٍ قَبْلَهَا ذُقْتُ النَّعِيمَ بِهَا وَمَنْ أَهْوَى مَعِي

فليل المحب قصير ، وليل المعذب طويل ، وإحساس الشاعر
هو الذي يطيله ويقمِّره ، فحين يحرم الشاعر يهتم لذلك ،
ويسهر مع الذكريات التي تختلف عليه قديمها وجديدها ، ويحس
بالنار متقدة بين جوانحه كما يقول "عزيز أباظة" :^(٢)
^(٣)

فإذا الليل طواني ستره فلهاَبُ النَّارِ بي ماتشعلين

مع الليل تشتعل الذكرى في خاطر الشاعر ، فتلسعه ،
ويربط "زكي مبارك" بين الليل والذكرى :^(٤)

إذا ما الليل جنَّ ونامَ صَحْبِي مَشَتْ نَارُ التَّذَكُّرِ فِي عِظَامِي

فلم تمشي نار التذکر في عظامه إذا جنَّ الليل ؟ اهو
الإخلاق إلى النفس عند الفراغ من تعب النهار ، وعند هدوء

(١) ديوان المحي ص ١٨٠ .

(٢) الشوقيات ١١٩/٢ .

(٣) ديوان عزيز أباظة ص ٦٧ .

(٤) ديوان زكي مبارك ص ٣٣ .

الحركة والسكون حيث تحتشد ذكريات الشاعر القريبة والبعيدة
 كأنما يجتمع العمر كله تحت خيمة الليل ؟
 أهو الليل الذي جعله الله لباساً للناس جعله مظنة
 الحركة والنشاط لأنفس الشعراء ، لأنهم يجدون فيه ملاييد
 غيرهم ؟!

وقد يؤمل الشاعر زيارة الحبيب في الليل ، لكنه أمل
 لا يتحقق فيظل الشاعر منتظراً ، وفي هذا يقول "إبراهيم
 (١)
 ناجي" :

لِمَنْ انتظاري في الظلام	كأن بي شبه اللمم ؟
وتساؤلي في حالك	لاموت فيه ولاقدم
وعلام إمغائي لعل	خطاك هذي من آمم ؟
ليلي العشيّة مثل لي	م لي في غرامك من قدم
يا طالما أدنتك أو	م هام كواذب كالحلم

يترقّب الشاعر في ليله زيارة الحبيب ، غير أنه لا يأتي
 فيعيش على الأمل والرجاء ، ينتظر تحت أستار الظلام ، وكان
 به مساً من الجن يتساءل عن أشياء غير موجودة ، بل يتخيّلها
 ويتوهّمها ، تجده ممغياً لأي صوت ، لعله صوت أقدام الحبيب ،
 غير أنّ الأصوات تتكرر ومتابعة الشاعر لها تزداد ، لكنّها
 لاتسفر عن قدوم الحبيب ، فيعلم أنّها أوهام كاذبة ، ولا أساس
 لما يتموّر ، فيغلبه اليأس ، فيهرب إلى الأوهام والذكريات ،
 علّها الحبيب وهماً وحلماً فيجد فيها بعض العزاء .

(٢)
 وقال "الجواهري" مصوراً همومه لغياب الحبيب :

وبتّ بليل لفرط الأسى	كليل الفجيع على ناره
وظلّ يحنّ فؤاد المشوق	لذكر الحبيب وأخباره

(١) ديوان وراء الغمام ص ٦٤ .
 (٢) ديوان الجواهري ١/١٧٨ .

يَصُورُ نَفْسَهُ عِنْدَمَا اشْتَدَّ بِهِ الْأَسَى فِي لَيْلَتِهِ بِصُورَةٍ ضَجِيعٍ
عَلَى النَّارِ ، فَالنَّارُ تَلْسَعُهُ فِي لَيْلَتِهِ مَكْنِيًّا بِالنَّارِ عَنْ هُمُومِهِ
لَفَقْدِ الْحَبِيبِ ، وَبِالضَّجِيعِ عَنْ نَفْسِهِ الَّتِي تَلْدَعُهَا حَرَارَةُ النَّارِ
لَأَنَّ فُؤَادَهُ مَشُوقٌ يَتَذَكَّرُ الْحَبِيبَ الْبَعِيدَ وَآخِبَارَهُ ، وَهِيَ مِنْ
الصُّورِ الْقَدِيمَةِ ، وَلَكِنَّهُ يَقُولُ :^(١)

سَكُونُ الدُّجَى وَجَلالُ الْغَرَامِ جَنَاحَانِ لِلشَّاعِرِ الْأَعْزَلِ
وَهُنَا يَقْفِنَا الشَّاعِرُ عَلَى مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي تَحَدِدُ
رُؤْيَتَهُ الْخَامَّةَ لِلَّيْلِ ، فَاللَّيْلُ يَبْعَثُ الْإِلْهَامَ فِي وَجْدَانِ الشَّاعِرِ
وَيُثِيرُ عَاطِفَتَهُ وَخِيَالَهُ بِسُكُونِهِ الْعَمِيقِ ، فَيَكُونُ هَذَا السُّكُونُ مَعَ
مَا يَشْبَهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ جَلالِ الْغَرَامِ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا الشَّاعِرُ
الْأَعْزَلُ إِلَى أْبْعَدِ الْآفَاقِ .

و"خليل مطران" يبيت والمَّباباة فراشة والسَّقام وساده :^(٢)

وَلَيْلَةٍ بِيَتْ فِيهَا وَقَدْ جَفَانِي رُقَادِي
تُفْنِي الدَّقَائِقُ قَلْبِي وَرِيًّا كَوْرِي الزَّنَادِ
مِنَ الصَّبَابَةِ مَهْدِي وَمِنْ سَقَامِي وَسَادِي

فَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الَّتِي جَفَاهُ فِيهَا رُقَادَهُ ، تُفْنِي الدَّقَائِقُ
قَلْبَهُ ، وَتَمِيرُ الصَّبَابَةَ مَهْدَهُ ، وَالسَّقَامَ وَسَادَهُ ، وَهِيَ رُؤْيَةٌ
لَاتخْتَلَفُ عَنْ رُؤْيَةِ الشَّاعِرِ الْقَدِيمِ إِلَّا أَنَّ الشَّاعِرَ حَاوَلَ مِيَاغَتَهَا
مِيَاغَةً جَدِيدَةً ، غَيْرَ أَنَّ الصُّورَةَ الْجَدِيدَةَ حَقًّا فِي ظَنِّ الْبَاحِثِ هِيَ
الَّتِي لَا يَتَغَيَّرُ فِيهَا التَّرْكِيبُ وَحَسَبُ ، لَكِنِ الَّتِي تَتَوَلَّدُ عَنْ شُعُورٍ
جَدِيدٍ ، وَرُؤْيَةٍ جَدِيدَةٍ ، وَلَعَلَّ هَذَا مَا حَادَا بَعْضَ الَّذِينَ سَبَقُونِي
بِدْرَاسَةِ هَذَا الشَّاعِرِ يَضْعُونَهُ بَيْنَ شِعْرَاءِ جِيلِهِ فِي مَنْزِلَةِ بَيْنِ
الْمُقَلِّدِينَ وَالْمَجْدِدِينَ .^(٣)

(١) السابق ١٤٣/١ .

(٢) ديوان خليل مطران ٧٣/١ .

(٣) على سبيل المثال الأدب العربي المعاصر في مصر ص ١٢٣ .

(١) ويقول "عبد الله الغيمل" :

وَأُغْرِقُ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ يَا سَيِّ فَأُغْرَقُ فِي امْطَبَاحِي وَاغْتَبَاقِي
وَأَنْهَلُ مِنْ لَمَى ذِكْرِكَ عَذَابًا أُعَلُّ بِهِ وَوَهْمُ رِمَاكَ سَاقِ
وَيَبْسُطُ لِي الْخَيَالُ ظِلَالًا أَنْنِي أَعِيشُ بِهَا إِلَى يَوْمِ التَّلَاقِي

فظلام الليل عند الشاعر الأمير عون على السلوان ، وليس

كمثله عند كثيرين ممن سبقت الإشارة إليهم مصدر أسي وعذاب .

هذا الهم وهذا القلق الذي انتاب الشعراء في الليالي

التي يحرمون بها لقاء أحبائهم ، أسهر عيونهم ، وقرح

جفونهم ، وحرّم النوم عليهم ، وهذا ما سنعرفه بالتفصيل في

المبحث اللاحق "السهر والأرق" .

(١) وحى الحرمان ص ١٠٤ .

(٢) السهر والأرق :

كثيراً ماشكا الشعراء المحبّون قلة الكرى ، ومنهم من أتى بالأمور المعجبة التي أوشك ينفرد بمثلها الشعر العربي بما يلابس الشاعر من بيئة وثقافة وظروف اجتماعية خاصة .

ومعظم الشعراء - في هذا المقام - تدور عباراتهم حول الحرمان من النوم ، "فزهير بن أبي سلمى" يفضّل ميغة النوم ويجعله متعذراً إن تذكر الحبيب المفارق حين ينام الأخليا :
 نَامَ الْخَلِيُّ فَنَوْمُ الْعَيْنِ تَعْدِيرٌ مِمَّا ادَّكْرْتُ وَهَمَّ النَّفْسِ مَذْكُورٌ
 ذَكَرْتُ سَلْمَى وَمَا ذَكَرِي بِرَاجِعِهَا وَدَوْنَهَا سَبَسَبٌ يَهْوِي بِهِ الْمُورُ
 بينه وبين سلمى فلووات ومسافات ، ولا يستطيع وصلها وحين نام الأخليا من الحبّ والهمّ تعذر نومه عليه .

والشاعرة العاشقة المحرومة حالها كحال الشاعر المحروم ، قالت "خولة بنت ثابت" :
 (٢)

يَا خَلِيلِي نَابِنِي سُهْدِي لَمْ تَنَمْ عَيْنِي وَلَمْ تَكْدِ
 انتابها سهد ، أي أنه طاريء ، جاء مع أسبابه الموجبة فلم تنم عينها ، ولو سكتت لعددناه مبالغة ، لكنّها أدخلته مدخل الواقع بقولها "لم تكد" أي لم تكد تنام .

وتقلص نوم "الأخوص الأنصاري" حتى ذهب عنه "وقلص النوم عن عيني وانشمرا" فكان نوماً عسيراً كنوم "عمر بن أبي ربيعة" (نام محبي وبات نومي عسيرا) ، فشدّة الشوق تمنع النوم :
 (٣)
 (٤)
 (٥)

منع النوم شدّة الاشتياق وادّكار الحبيب بعد الفراق

- (١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٣٧ .
 (٢) شاعرات العرب في الجاهلية ص ٢٤٢ .
 (٣) ديوان الأخوص الأنصاري ص ١٢٨ .
 (٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٦٠ .
 (٥) ديوان جميل بثينة ص ٥٨ .

فالشوق إلى الحبيب وأدكاره يمنع النوم عن الشاعر متى
نام الأخليات من ذلك (نام الخليلي وبت الليل لم أنم) . وقد
يقسم بعض الشعراء على ذلك (والله والله ما أنام) ، "فبشار"
يردد الحلف بالله ليثبت سهره بنفي النوم عنه وكيف ينام
وعينه قد وهبت لمقلة الحبيب الرقاد :^(٣)

تَنَامُ وَلَا أَنَامُ كَانَ عَيْنِي لِمُقْلَةٍ عَيْنِهَا وَهَبَتْ رُقَادِي
فَنَامَتْ عَيْنُهَا وَجَنَّتْ لِعَيْنِي بِمَا وَهَبَتْ لَهَا شَوْكَ الْقَتَادِ
عينه تهب الرقاد لمقلة الحبيبة فتنام قريرة العين ،
وتهبه شوك القتاد الذي يرمز به إلى العجز والحرمان الذي
يسهره ، وما أجمل تصوير "بشار" :^(٤)

وَكَانَ الْهَمُّ شَخْصًا مَاشِلًا كَلَّمَا أَبْصَرَهُ النَّوْمُ نَفَرَهُ
كَانَ الْهَمُّ لِفِرَاقِ الْمَحْبُوبِ شَخْصًا مَاشِلًا وَكَلَّمَا دَنَا مِنْهُ
النَّوْمُ وَأَبْصَرَهُ أَجْفَلُ وَفَرَّ ، فَلَانُومٌ إِلَّا بِذَهَابِ شَخْصِ الْهَمِّ ، غَيْرِ
أَنَّهُ مَا كَثَرَ مَا دَامَ الْحَبِيبُ هَاجِرًا ، فَلَا يَطْعَمُ الشَّاعِرُ النَّوْمَ وَيَبِيتُ
مَشْغُولًا بِتَذْكَرِ الْأَحْبَةِ :^(٥)

مَا تَطْعَمُ النَّوْمَ عَيْنِي مِنْ تَذْكَرِكُمْ فَمَا أَنَامُ إِذَا مَا نَامَ سُمَارِي
"فالعباس بن الأحنف" لم ينم لتذكر الأحبة حتى نسي
النوم ، وكيف يكون ، وكيف طعمه ؟ كما يقول :^(٦)

قَفَا خَبْرَانِي أَيُّهَا الرَّجْلَانِ عَنِ النَّوْمِ إِنَّ الْعَجْرَ عَنْهُ نَهَانِي
وَكَيْفَ يَكُونُ أَوْ كَيْفَ طَعْمُهُ ؟ مِمَّا النَّوْمُ لِي إِنْ كُنْتُمْ تَصْفَانِ
وَإِنِّي لِمَشْتَاقٌ إِلَى النَّوْمِ فَاعْلَمَا

ولاعهد لي بالنوم منذ زمان

-
- (١) أبو صخر الهذلي ، شعراء أمويون ص ١٠٩ .
(٢) ديوان بشار بن برد ١٠٩/١ .
(٣) السابق ٢٦/٣ .
(٤) السابق ٦٣/٤ .
(٥) ديوان العباس بن الأحنف ص ١٣٤ .
(٦) محاضرات الأدباء ص ٢٩٥ .

الـهـجر ينـهـاء عـن النـوم فينـسى مـفـاتـه ، فيسـتـوقـف النـاس
يسـألـهـم عـنـه ، وعـن مـفـاتـه وعـن طـعـمـه ، فـقـد أـجـهـدـه الـارـق حـتـى
اشـتـاق إـلى النـوم الـذـى لـاعـهـد لـه بـه مـنـذ أـزـمـان مـنـذ أن ضـمـن
السـقـام عـلى حـد تـعـبـير "أبـى نـواس" (١) :

أَبَتْ عَيْنَايَ بَعْدَكَ أَنْ تَنَامَا وَكَيْفَ يَنَامُ مَنْ ضَمِنَ السَّقَامَا
مـنـذ أن فـارق الحـبـيب لـازمـه الـسـهـر و الـمـرـض و فـى أسـلـوب
رـائـع و تـمـوـير خـلاب يـصـف "أبـو نـواس" نـفـور النـوم مـنـه بـالـمـؤـرـة
التـالـيـة : (٢)

نَفَرَ النَّوْمُ وَأُحْتَمَى مِنْ جُفُونِي كَأَنَّمَا
هُوَ أَيْضًا مِنَ الْحَبِيبِ جَفَاءً تَعَلَّمَا
النَّوْمُ يَتَعَلَّمُ الْجَفَاءَ مِنْ الْحَبِيبِ الْهَاجِرِ الَّذِي تَعُوذُ
الـجـفـاء و عـلـم عـين الشـاعـر الـسـهـر ، و يـعـود "أبـونـواس" بـالـلـائـمـة
عـلى قـلـبـه و عـيـنـه : (٣)

أَزْجِرِ الْقَلْبَ إِنْ صَبَا وَلَمْ الْعَيْنَ مِثْلَمَا
جَشَمْتَ قَلْبَكَ الْمَبَا م بِهِ حَتَّى تَجَشَّمَا
أَنْتِ يَا عَيْنُ كُنْتِ لِي لِلْمَبَا بَاتِ سَلْمَا
ثُمَّ حَمَلْتِنِي الثَّقِي م لَ وَأَبْكَيْتِنِي دَمَا
ثُمَّ أَلْفَتِ بَيْنَ طَرُ م فِي وَالنَّجْمِ فِي السَّمَا
يـنـحـو بـالـنـوم عـلى عـيـنـه الـتـى كـانـت سـبـب الحـبِّ و الـهـوى ،
و كـلـفـت القـلـب الـهـوى عـلى مـشـقـة فـقـد كـانـت إـلى المـبـابـات
طـرـيـقاً حـتـى تـحـمـل الشـاعـر الـهـمّ الثـقـيل ، و عـادـت بـعـد ذـاك تـبـكـى
و تـسـهـر الـلـيـل لـاتـنـام ، تـراقـب نـجـوم السـمـاء ، فـألـفـت بـيـن قـلـب
الشـاعـر و الـهـوى ، ثـم أـلـفـت بـيـن طـرفـه و نـجـم السـمـاء فـى الـلـيـالي
الـحـالـكـات . فـالـنـوم يـجـفـو جـفـون الشـاعـر المـفـارق كـما يـقـول

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٥٠ .
(٢) السابق ص ٢٥٧ .
(٣) السابق .

"ابن عبد ربّه" (تجافى النَّوْمُ بعدَكَ عن جفوني) .^(١)
 ويهجر الشاعر (في جُملةِ الأحبابِ) وقد جعل "محمد بن
 مطرق بن شخير" نوم العاشقين محرّماً :^(٢)
 فياجفنَ عيني كيفَ تَطْمَعُ في الهوى
 بنومٍ ونومِ العاشقين محرّمٍ
 وضمّ نوم "ابن خفاجه" الطريق إلى عينه (كأنَّ نومي ضلَّ
 عن ناظري) ، ولعلَّ البين يذوده عن عين الشاعر كما يرى
 "الملك الأمجد" :^(٣)^(٤)^(٥)

فكيفَ لها بالنَّومِ والبينِ بعدما
 تَنَاءَتْ عَنِ الإغفَاءِ أَمْسَى يَذُودُهَا؟^(٦)
 ومتى يحبُّ الشاعر يغضب النَّومَ على عينيه :
 علمتُ لما رضيتُ الحبَّ منزلةً أنَّ المنامَ على عينيَّ قد غُضِبَ
 النَّومُ يغضب على الشاعر عندما يحبُّ فيحرم منه :^(٧)
 قد حُرِّمَ النَّومُ على أجفانه فبات يرعى القرّدين والسَّهْمَا
 . ويتساءل "البارودي" :^(٨)
 مَنْ لعينِ إنسانها لاينامُ وفؤادٌ قضى عليه الغرامُ ؟
 ليس لهذه العين إلا مَنْ حرّمها المنام فإن لم يأت أو
 يزر فلن تعرف العين المنام :^(٩)
 يناعس الطرف ، إلى كم تنام أسهرتني فيك ونام الأنام
 أو شك هذا الليل أن ينقضي والعين لاتعرف طيب المنام
 الحبيب نائم ومضى الليل دون أن يفوز الشاعر المحروم

- (١) ديوان ابن عبد ربّه ص ١٢٥ .
 (٢) ديوان أبي فراس الحمداني ص ٧٨ .
 (٣) يتيمة الدهر ٢/٢٦ .
 (٤) ديوان ابن خفاجة ص ٢٠٥ .
 (٥) ديوان الملك الأمجد ص ١٠٦ .
 (٦) ديوان ابن سهل الأندلسي ص ٧٤ .
 (٧) ديوان الأخرس ص ٧٤ .
 (٨) ديوان البارودي ٣/٥٨٨ .
 (٩) السابق ٣/٣٥٤ .

باغفَاءة فلعلَّ النَّوْمُ قد نأى عن الجفون كما يقول "إسماعيل صبري" : (نَأَى النَّوْمُ عَنْ جَفْنِهِ الْمُسَدِّدِ) ^(١) أو لعلَّ الجفون هي التي خاصمته (ياليلُ نومي خاصمته جفوني) . و"أحمد شوقي" ^(٢) لاينام وإن نامت الأعين : ^(٣)

نامت الأعينُ إلا مقلَّةٌ
تسكبُ الدَّمْعَ وتَرعى مَفْجَعَكَ

و"الماحي" يقضي الليل (مشرَّد النَّوْمِ مُوكولاً إلى السَّهْرِ) ^(٤) وليلة "حسن القرشي" اقتلعت منه المناما : ^(٥)

وهذه ليلةٌ أُخرى قد اقتلعتُ مَنِّي المَنَامَا وشبَّتْ في دمي حُرْقَا
والرَّقَادُ من المفردات التي استعان بها الشعراء

لتصوير سهرهم وأرقهم في اللَّيالي التي يهتمون بها لعجزهم عن وصل أحبّابهم ، "فسويد بن أبي كاهل" ينفي رقادَه :

(فأبيتُ اللَّيْلَ ما أرقده) ، و"عمر بن أبي ربيعة" يطول عليه ^(٦) الزَّمنُ باللَّيلِ ولايشعر بشيءٍ من علامات الرِّقَادِ التي تسبقه : ^(٧)

طالَ ليالي فما أَحْسُ رُقَادِي
واعترتني الهومُ بالسَّهَادِ

ويقول "جرير" (ومارقدتُ لحبِّكم ليلَ التَّمَامِ) ينفي الفعل ^(٨)

بما ، "وبشار" ينفيه بلم (لَمْ أرقدُ إلا رُقَادَ الوَصْبِ الأَرْمَدِ) ، ^(٩)

وفرق ما بينهما أنَّ النفي ب(ما) نفي لحدوث الفعل في الماضي

أما نفيه ب(لَمْ) فينفيه عن الماضي نفيًا جازمًا ، ويقلب

معناه إلى الحاضر ، أي أنَّ الشاعر لم يرقد في الماضي ولافي

الحاضر فهو أقوى وأدلَّ فيما يقصد إليه . و"بشار" حين

استثنى رقاد الأرمد ، فهو من باب تأكيد الشيء بما يشبه ضده

-
- (١) ديوان إسماعيل صبري ص ٢٠٨ .
(٢) السابق ص ٢٢٩ .
(٣) الشوقيات ١٣١/٢ .
(٤) ديوان الماحي ص ١٨٩ .
(٥) ديوان حسن القرشي ص ١٦٥ .
(٦) المفضليات ص ١٩٢ .
(٧) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٩٤ .
(٨) ديوان جرير ص ١٣٣ .
(٩) ديوان بشار ١٢٥/٢ .

لأنّ الأرمذ لا يستطيع إغماض عينه ، وقوله : "رقاد الوصب الأرمذ" أضاف إلى الصورة العمّ والتعب الذي يلقاه الأرمذ في ليلته .

و"أبو نواس" يطلب النوم جاهداً غير أنّه لم يرقد "تَنَاقَمْتُ جُهْدِي فَلَمْ أَرْقُدِ" (١) ، ويجعل "أبو الشّيبان الخزاعي" للهوى جرساً : (٢)

وللهوى جرسٌ يُنْفِي الرَّقَادَ بِهِ فَكَلَّمَا كِدْتُ أُغْفِي حَرَكَ الْجَرَسَا
صورة من أجمل الصُّور في هذا المبحث ، فقد شخّص الهوى في صورة شخص بيده جرس ، ومايكاد الشّاعر المحبّ يذهب في إغفائه حتّى يحرك الهوى الجرس ، فينتبه الشّاعر .. وهكذا إلى المباح ، ولارقاد مع هذا الحال .

أمّا "العبّاس بن الأحنف" فكان الفراق آخر عمده بالرقاد : (٣)

فِرَاقِكِ كَانَ أَوَّلَ عَهْدِ دَمْعِي وَأَخِرَ عَهْدِ عَيْنِي بِالرَّقَادِ
فمنذ غاب الحبيب لم يعرف الشّاعر الرقاد فاجتهد في طلبه ، وتمنّى أن يباع فيشتريه بأي ثمن كان : (٤)

فَلَوْ أَنَّ الرَّقَادَ يُبَاعُ بِيَعًا لِأَغْلَيْتُ الرَّقَادَ عَلَى الْعِبَادِ
و"أبو تمام" أعدمت جفون الحبيب عينه لذّة النوم والرقاد : (٥)

يَا جُفُونًا سَوَاهِرًا أَعْدَمْتَهَا لِذَّةِ النَّوْمِ وَالرَّقَادِ جُفُونٌ
عدمت جفونه لذّة الرقاد فلم يعد يعرفه أو يدوقه كما يقول : (٦)

-
- (١) ديوان أبي نواس ص ٢٤٥ .
(٢) ديوان أبي الشّيبان ص ١٥١ .
(٣) ديوان العباس بن الأحنف ص ١٢٧ .
(٤) السابق ص ٩٧ .
(٥) ديوان أبي تمام ص ٧٧٦ .
(٦) السابق ص ٧٥٠ .

سَلِ اللَّيْلَ عَنِّي هَلْ أذُوقُ رِقَادَهُ وَهَلْ لِفُلُوعِي مُسْتَقَرٌّ عَلَى قَرَشِي؟

فهو يرضى بشهادة الليل ، لأنَّ الليل شاهد صدق عليه ،
لأنَّه أقرب إليه وأدَلَّ عليه ، وشهادة الليل على أنَّه لم يذق
فيه رقاداً في غيبة الحبيبة قد تسانده عندما يطلب منها أن
تجعل له من الرقاد نصيباً :^(١)

أَشْرِكِي بَيْنَ دَمْعِ عَيْنِي وَنَوْمِي وَاجْعَلِي لِي مِنَ الرَّقَادِ نَصِيباً
فبوصلها ، تقر عينه ، وتهدا نفسه ، فيكون له في
الرقاد نصيب ، وهذا لا يضرها كما يقول "السري الرقاء" :^(٢)

مَاضِرٌّ وَسَنَى الْمُقْلَتَيْنِ لَوْ أَنَّهَا

رَدَّتْ عَلَى الصَّبِّ الرَّقَادَ الشَّارِداً

مَاضِرٌّ وَسَنَى الْمُقْلَتَيْنِ لَوْ أَنَّهَا ؟ استفهام يوحي بأنَّ
الوسن في عينيها أخذته من مقلتي ، فحرمتني الرقاد ، بينما
استحال في مقلتيها فتور جذاب يشي بجمال العيون .

أَمَّا "أبو الطيب المتنبي" فإنَّ نظرة من الحُبِّ أو إليه
أذهبت رقادَه :^(٣)

يَانْظِرَةً نَفَتِ الرَّقَادَ وَغَادَرَتْ فِي حَدِّ قَلْبِي مَا حَبِيَّتُ فُلُولا

نظرة واحدة ذهبت برقاد الشاعر فلعلَّه ذهب حتى نسي
الشاعر طعمه على حدِّ تعبير "الأرجاني" :^(٤)

مَاعَرَفْتُ الرَّقَادَ بِالْعَيْنِ طَعْمًا فَمِفْوَهُ أَعْرَفَهُ بِالْأَذْنِ وَصَفَا

لَمَّا طَالَ سَعْرُهُ فِي غِيَابِ الْحُبِّ نَسِيَ طَعْمَ الرَّقَادِ ، وَمَا أَجْمَلَ
قَوْلَهُ "فمفوه أعرفه بالأذن وصفاً" فهو يدلُّ على لهفة وشوق
شديدين إلى الرقاد الذي يتمناه الشاعر ، فإن لم يجده تمنَّى
الحديث عنه ، فلا يفقده جميعه ، بل يبقى له التعلُّل بالحديث

(١) السابق ص ٧١٨ .

(٢) مختارات البارودي ٢٦٦/٤ .

(٣) ديوان المتنبي ٣٤٩/٣ .

(٤) ديوان الأرجاني ص ٩٥٥ .

عنه ووصفه ، أمّا "شوقي" فيجعل المرقد جافياً له "مضناك
جفاهُ مرقدهُ" (١) المرقد مكان الرقاد وهو لا يردّ طالباً ، غير أنّ
الشاعر لمّا ابتعد عنه عكس الصورة فجعل المرقد هو الذي
يجفوه ، و"خليل مطران" يجعل الرقاد جافياً له على غرار
"شوقي" : (٢)

وليلةٍ بتُّ فيها وقد جفاني رقادِي

وقد آثر بعض الشعراء لفظ "الكرى" في مواقف أخرى ،
ولعلّ منهم من جمع بين أكثر من صيغة في قصيدة واحدة أو في
بيت واحد .

قال "بشار" "فيا طولَ هذا اللَّيْلِ لا أعرفُ الكرى" (٣) لا أعرفُ
تدل على أنّه لا ينام ، فلو عرف الكرى لنام . و"أبو تمام"
يطلب من الحبيبة الهاجرة أن تجعل لعينه نصيباً من الكرى ،
فيجد راحة من السهر والأرق : (٤)

اجعلي في الكرى لعيني نصيباً كي تنال المَكْرُوهَ والمَحْبُوبَا
بيد الحبيبة أن تسهر الشاعر ، وببيدها أن تمنحه الكرى
وذاك مرتبط ببعدها وقربها ، فمتى هجرت امتنع النوم عن
عينه فيسألها أن تجعل له في الكرى نصيباً ، فتعاود وصله
لتهدأ نفسه فيعرف الكرى طريقه إلى عينه ، وعين الحبيب
الهاجر قد تمنع الكرى عن عين الشاعر : (٥)

قلتُ لمّا بدَا الهلالُ لعينِ منعتَها من الكرى عيناكا
يا هلالَ السماءِ لولا هلالُ الكِ م أرضٍ مابتُ ساهراً أرعاكا
جمال عينيها حرّم عينيهِ النومَ ، وأسهره فبات يرقب هلال
السماء وحمله على متابعة النظر إليه هلالُ الأرض حبيبته ،

(١) الشوقيات ١٢٢/٢ .
(٢) ديوان خليل مطران ٧٣/١ .
(٣) ديوان بشار ٧٨/٢ .
(٤) ديوان أبي تمام ص ٧١٩ .
(٥) يتيمة الدهر ٢٢٤/٢ .

وهو موقع حسنت فيه المشاكلة إلى حد بعيد . ويقول "محمد
النعمان" :^(١)

رَبِّ لَيْلٍ لَمْ أَدُقْ فِيهِ الْكَرَى حَظُّ عَيْنِي فِيهِ دَمَعٌ وَسَهْرٌ
غَابَ عَنِّي قَمَرٌ أَحَبُّهُ فَتَعَلَّلْتُ بِأَنْوَارِ الْقَمَرِ

فمتى غاب الحبيب ضاق الشاعر بالليل ، فيحاول النوم
فلا يجده فيتعلل بما حوله من نحو القمر .. ويقول "ابن سنان"^(٢)

طَلَبْنَا الْكَرَى مِنْهَا فَدَلَّتْ عَلَيْكُمْ

فَهَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ فَضْلَةٍ نَسْتَعِيرُهَا

طلب الكرى من الليلة التي سهر بها ، فلما لم يجد
جواباً تذكّر أحبابه النائمين ، فطلب منهم فضلاً من كرى على
سبيل الإعارة ، وهذا الطلب يشير إلى أنّ وصلهم سيعقبه الكرى
كله وليس فضلة منه ، كما يقول "ابن خفاجة"^(٣) :

وطرفاً قريحاً صامَ فَيْكَ عَنِ الْكَرَى

وَلَا فِطْرَ إِلَّا أَنْ تَلُوحَ هِلَالًا

"تلوح هلالاً" أي نراك ونملك بعد الهجر والحرمان ،
وبرؤيتك تنتهي ليالي صوم طرفي عن الكرى ، فاستمتع بالنوم
كما يتمتع الناس في عيد فطرهم بما أحلّ لهم . وكثيراً
ما يجفوا الكرى الشاعر في لياليه . يقول "البارودي"^(٤) :

اللَّهِ فِي عَيْنِ جَفَاهَا الْكَرَى فَيْكُمْ ، وَقَلْبٍ قَدْ بَرَأَهُ الْغَرَامُ
لَفْظَ الْجَلَالَةِ مَنْصُوبٌ عَلَى تَقْدِيرِ خَافُوا اللَّهَ ، أَوْ اتَّقُوا^(٥)

الله في العين التي أعرض عنها الكرى بسبب هجركم وجفانكم ،
وحين يطول السهر بالشاعر قد يحتال على الكرى كما يقول^(٦)
"إبراهيم ناجي" :

- (١) يتيمة الدهر ١/٤٦٦ .
- (٢) مختارات البارودي ص ٣٢٣ .
- (٣) ديوان ابن خفاجة ص ٢٠١ .
- (٤) ديوان البارودي ٣/٣٥٧ .
- (٥) السابق ، العاشق .
- (٦) الطائر الجريح ص ١٤١ .

(واجتياي على الكرى وبجفني قتاد ولي من الشوك مرقد)

وإذا كان من الشعراء من استخدم صيغة النوم ، ومنهم من استخدم صيغة الكرى أو صيغة الرقاد فإن منهم من فضل صيغة "السهر" أو "السهد" ، ويجوز أن يكون الشاعر واحداً ويداول بين هذه الصيغ بحسب المواقف ، "فقيس بن الملوح" يجعل السهر حالة تلازمه في الليل الذي يغيب به الحبيب : (أراعي نجوم الليل سهران باكيا) ، و"ابن المعتز" (دائم السهر) في ليلته ، والسهر لاجل الحبيب اللاهي كما يقول "أبو الطيب المتنبي" :
(٣)

بئس الليالي سهرت من طربي شوقاً إلى من يبيت يرقدها
ويؤكد هذا المعنى "أبو الحسن القزويني" :
(٤)

سهرت والشوق يطويني وينشرني إلى غزالٍ بديع الحُسنِ مَنُوجٍ
فالشاعر ساهر يتشوق إلى حبيب قد يكون نائماً غير مكترث بمن يسهر لاجله ، قال "خالد الكاتب" : (رقدت فلم تترك
للساهر) .
(٥)

الحبيب لاه نائم عن الشاعر العاشق ولا يعلم بما يلقاه
من هم للفراق ومكابدة الليل :
(٦)

سهرنا على حفظ الغرام ونمتم وليس سواء ساهرون ونوم
وقد يبيت ملقى على فراشه والأفكار تحدد به :
(٧)

كم ليلة أسهرت أحداقي بها ملقى وللأفكار بي إحداق
الأفكار تحدد بالشاعر فتورقه وتبعث همومه ، وقد يسهر
الشاعر يرقب زورة ممن يحب :
(٨)

- (١) ديوان قيس بن الملوح ص ٨١ .
- (٢) ديوان ابن المعتز ص ٢٠٨ .
- (٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ٢٢/٢ .
- (٤) يتيمة الدهر ٥٦/٥ .
- (٥) من غاب عنه المطرب ص ٩٤ .
- (٦) ديوان البهاء زهير ص ٢٣١ .
- (٧) ديوان الشاب الظريف ص ١٦١ .
- (٨) ديوان صفي الدين الحلي ص ١١٧ .

كَمْ قَدَّ سَهْرُ اللَّيْلِ أَرْقَبُ زُورَةً مِنْهَا فَلَمْ أَرَ لِلصَّبَاحِ عُمُودًا
 وَالنَّاسَ نَائِمُونَ ، وشاعر "كالبارودي" ساهر لأجل الغرام
 (أسهرتني فيك ونام الأنام) ^(١) ، ويقول : (فنومي كلّه سهر) ^(٢) وهي
 حالة لانعرفها عند "البارودي" ، لأنّ معانيه تأتي رهوة
 لاصعوبة فيها ، فالشاعر جعل نومه ذاته سهراً ، ربّما لأنّه
 يتذكّر الحبيب في نومه فكأنّه سهران ، أو أنّ الوقت الذي
 اعتاد فيه النّوم مار كلّه سهراً ، فكأنّه يقول أبيت اللّيل
 سهراً ، أو أنّ ليليه وصلت سهراً كما يقول "إبراهيم ناجي" :
 (وليلياً موصولاً سهراً) ، أو هو دائم السهر (أبدأ ساهر)
 (كثيب) ، أو هو (موكولٌ إلى السّهر) ^(٤) ، أو يبيتُ أخاً للسهر كما
 يقول "رشيد أيوب" : ^(٥) ^(٦)

أَتَارَكْتِي أَخَا سَهْرٍ مَتَى عَهْدِي بِلُقْيَاكِ؟
 وَكَلَّ هَذَا السَّهْرُ لِأَجْلِ الْحَبِيبِ الَّذِي يَصْعَبُ لِقَاؤُهُ ، وَرَبِّمَا
 كَانَ نَائِمًا غَيْرَ مَكْتَرٍ بِمَنْ يَسْهَرُ لِأَجْلِهِ كَمَا يَقُولُ "الجواهري" : ^(٧)
 أَلَا هَلْ أَتَى نَوْمًا فِي الْعِرَاقِ أَنَا لِأَجْلِهِمْ سَاهِرُونَ
 فَلَعَلَّهُ سَاهِرٌ فِي حِفْظِ الْعَهْوِ كَمَا يَقُولُ "أحمد شوقي" : ^(٨)
 يَانَاعَسَ الطَّرْفِ لِأَذَقْتَ الْعَهْوَ أَبَدًا

أَسَهَرْتَ مُضْنَاكَ فِي حِفْظِ الْعَهْوِ فَنَمَ

"فشوقي" يخاطب الحبيب بأحلى ماتتية الملاح به ، وهو
 نعم الطرف ويدعو له ألا يذوق العهوى أبداً ، لأنّ من يذوق
 العهوى يجفوه النّوم ، ثم يقول له : حسبك أنّك أسهرت مضناك

-
- (١) ديوان البارودي ٣/٣٥٤ .
 (٢) السابق ٢/٢٩٥ .
 (٣) ديوان وراء الغمام ص ٤٢ .
 (٤) ديوان بشارة الخوري ص ٢٦٠ .
 (٥) ديوان الماحي ص ١٨٩ .
 (٦) شعراء الرابطة القلمية ص ٢٦٤ .
 (٧) ديوان الجواهري ١/٢٢٩ .
 (٨) الشوقيات ١/١٩١ .

فتم أنت قريراً ، والخطاب ليس على ظاهره ، فالكلام ينطوي على عتاب ، لأنه أورثه الحبّ ونام .

فالسّهر وجدّاً بالحبّيب الجافي أو الهاجر أو الظاعن من المعاني التي تداولها شعراء العربية على مدّ تاريخ الشعر ، والخلف بينهم محدود حتّى في نطاق الصّيغة ، وينحصر تجديدهم في هذا المجال في توليد المعاني بعضها من بعض ، وربّما يكون المأخوذ منه أجود من الآخذ ، وهذا في زعم الباحث هو ما حصر الصّورة الشعريّة في هذا المجال في دائرة الجمود الذي حاق بالشّعر في أزمان الانحطاط الغني .

والسّهد^(١) من المفردات التي استعان بها الشعراء على تصوير أرقمهم وسهرهم ولايختلف في حقيقته عن الأرق أو السّهر وربّما تكون العلة الظاهرة في تفضيل مفردة على أخرى من المفردات التي تدل على الأرق هي مراعاة الوزن ، وقديماً بات^(٢) بشر بن أبي خازم "مسهداً" ، وعندما عشقت "خولة بنت ثابت" قالت : (نابني سهدي) ، وقال "الأحوص"^(٣) :

سَرَى ذَا الْمَهْمُ بِلِ طَرَقًا فَبِتُّ مُسَهِّدًا قَلِقًا
كَذَاكَ الْحَبُّ مِمَّا يُحْمُ م بَدْتُ التَّسَهِّدَ وَالْأَرْقَا

وبات "عمر بن أبي ربيعة" (مسهداً نصباً) ، ويمف "قيس ابن الملوح" السّهاد بالشّدة (وليلي طويل* والسّهاد شديد) ، ويجعله "الملك الأمجد" سهاداً كثيراً (سهادي بعد نأيهم كثير) ويتساءل "الطفرائي" : (إلامَ هذا السّهاد والكمَد) ؟ و"الشّابّ الظّريف" يقضي اللّيل متسهداً (كم ليلة قضيتها متسهداً) .^(٤)

-
- (١) المغفليات ص ٣٤٠ .
 - (٢) شاعرات العرب في الجاهلية ص ٢٤٢ .
 - (٣) ديوان الأحوص الأنصاري ص ١٦٢ .
 - (٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٣٢ .
 - (٥) ديوان مجنون ليلى ص ٨١ .
 - (٦) ديوان الملك الأمجد ص ٣٤٧ .
 - (٧) مختارات إليارودي ٣٣٠/٤ .
 - (٨) ديوان الشّابّ الظّريف ص ٤١ .

و"البارودي" يقطع (اللَّيْلَ بَيْنَ حَزْنٍ وَدَمْعٍ وَسَهَادٍ) . وقال
(٢)
"إسماعيل صبري" :

أَسَامِرُ النَّجْمِ طَوْلَ اللَّيْلِ مِنْ شَغْفٍ

يَالَيْلُ بَلِّغْ سُهَادِي فِيكَ لُوَامِي

فعسى إن بلغهم الليل مايلقى الشاعر من سهاد أن

يرحموه ، فيتركوا لومه وعذله . ويخاطب "المحي" الليل
(٣)
بقوله :

مَلَنْتُ يَالَيْلُ فِيكَ السُّهْدَ وَالْفِكْرَا

فَكَمْ أُرَدَّدُ فِي طَيَّاتِكَ النَّظْرَا

مُنْقَبًا عَنْ خَيَالٍ كَانَ يَطْرُقُنِي

عَلِّي أُمَادِفُ مِنْ أَخْبَارِهِ خَبْرَا

لَيْتَ الْحَبِيبَةَ حِينَ الْعَجْرُ جَدَّ بِهَا

رَأَتْ فُوَادِي يَقْفُو خَلْفَهَا الْأَثْرَا

هجرت ، فسعد الشاعر حتى ملَّ السُّهْدَ والأفكار ، ينقب في

طَيَّاتِ الظَّلَامِ عن خيالها . وما أجمل قوله (فؤادي يقفو خلفها

الأثرا) إذ صوّر فؤاده بصورة محسّة نكاد نشاهدها في صورة

الباحث عن الأثر . ويشرح (عزيز أباطة) أسباب السُّهْدِ :

هل عرفتِ السُّهْدَ؟ لآلاتِ عَرَفِينَ

وَقَدِهِ- مِنْ مَلَوَاتِ الْعَاشِقِينَ

إِلْفِهِ وَهُوَ سَلِيلُ الْكَابِرِينَ

أَقْلَقْتَهُ فَمَمَّى لَا يَسْتَبِينُ

تَرَدَّعِينَ الْمَعْجِبِينَ الطَّامِعِينَ

سَاهِدٌ وَالسُّهْدُ رُوحٌ وَضَنَى

إِنَّمَا السُّهْدُ- وَقَاكَ اللَّهُ مِنْ

إِنَّمَا السُّهْدُ لِمَنْ هَانَ عَلَى

إِنَّمَا السُّهْدُ لِمَنْ غَيَّرَتْهُ

تَسْرَحُ الذُّؤْبَانُ حَوْلِكَ فَمَا

- (١) ديوان البارودي ٥٨٨/٣ .
(٢) ديوان إسماعيل صبري ص ٢٢٨ .
(٣) ديوان المحي ص ١٩٣ .
(٤) ديوان عزيز أباطة ص ٦٧ .

و"أباطة" أول من صادفني من الشعراء في التعبير عن
السَّهْد يتجاوز التراكيب المألوفة ، ويخرج على الميافة
المعروفة المملة ، فالسَّهْد عنده روحٌ وضمي ، وهو وقدة ، نعم
وقدة من صلوات العاشقين ، ولأنه كذلك فهي لاتعرف السَّهْد ولم
تذقه ، إنما السَّهْد لمن هان على من يحب ، ولمن أمضته غيرته
من أولئك الذؤبان تسرح حوالها يظهرن غرامهم وإعجابهم
وهي لاتزجرهم ولاتردعهم عن الوَرْدِ المشتى .

والباحث يرى أن "أباطة" وإن استنَّ سنة السابقين في
التشكي من السَّهْد إلا أنه سلك مسلكاً طريفاً في تصويره وفي
تعليل أسبابه ، وهو في زعمي يفوق إبراهيم ناجي الذي لم
يزد على أن جعل السَّهْد ركماً بعضه فوق بعض ، فصد عنه النُّوم
وسمح للقلق ومكابدة السَّهْرِ حيث يقول :^(١)

سَهْدٌ عَلَى سَهْدٍ وَذِكْرٌ مَـ رَى فَوْقَ ذِكْرِي تَزْدَحْمُ

أو كما يقول في ديوانه "الطائر الجريح" :^(٢)

بين سَهْدٍ وَعَذَابٍ وَضَمِي مَرَّ لَيْلِي ذَاكَ حَالِي وَأَنَا

سَهْدٌ شَدِيدٌ تَعْجَبُ مِنْهُ حَتَّى النُّجُومُ :^(٣)

نُجُومُ اللَّيْلِ تَعْجَبُ مِنْ سَهَادِي وَتَعْلَمُ صَادِقَ الْإِخْبَارِ عَنِّي

وإذا كانت النُّجُومُ تعجب من حال الشاعر ، فإن "معروفا

الرصافي" يطلب من الحبيبة أن تسأل الكواكب عن حاله :^(٤)

سَلِي عَنِّي الْكُوكَبُ وَهِيَ تَسْرِي بَجَنَحِ اللَّيْلِ تَطْلُعُ أَوْ تَغِيْبُ

فَكَمْ غَالِبَتُهَا بِهَوَاكِ سَهْدًا وَنَجْمُ الْقُطْبِ مَطْلَعٌ رَقِيْبُ

فالنُّجُومُ مَطْلَعَةٌ عَلَى سَهَادِ الشَّاعِرِ وَتَعْلَمُ حَالَهُ كَمَا يَقُولُ

الأمير "عبد الله الفيصل" :^(٥)

-
- (١) وراء الغمام ص ٦٤ .
(٢) ديوان الطائر الجريح ص ١٢٦ .
(٣) ديوان إسماعيل صبري ص ١٨٨ .
(٤) ديوان معروف الرصافي ص ٥٧ .
(٥) وحي الحرمان ص ١٢٠ .

إِذَا مَا أَحْتَوَانِي اللَّيْلُ أَبَدَيْتُ لَوْعَتِي
وَيَعْلَمُهَا نَجْمٌ رَقِيبٌ عَلَى سَهْدِي

وعدم انطباق الجفون إبان اليقظة - عن سهد وغيره -
فكرة ولّد منها بعض الشعراء موراً متعدّدة للتعبير عن السهد
(١)
"جميل" يجعل المحبّ قصير الجفون :

كَأَنَّ الْمَحَبَّ قَصِيرُ الْجَفُونِ لَطُولِ اللَّيَالِي وَلَمْ تَقْصُرْ
فسهره في لياليه خيّل له أنّ جفونه قميرة وهي على

عادتها .

(٢)
و"أبو دهب" يتخيّل أنّ الله خلقه قصير الجفون :

لَيْتَ شِعْرِي أَمِنَ هَوَى طَارَ نَوْمِي

أَمْ بَرَانِي الْبَارِي قَصِيرَ الْجَفُونِ ؟

يتساءل عن فقدته نومه أمّن الهوى أم أنّ الخالق قد صوّره
قصير الجفون ؟ فلا يستطيع الغمض مُخْلِداً إلى النّوم .
(٣)
ولمّا استطال "العبّاس بن الأحنف" سهره قال :

كَأَنَّ جُفُونَ عَيْنِي قَدْ تَوَامَتَ بِأَنَّ لَاتَلْتَقِي حَتَّى التَّنَادِ

فهو يكتفي عن سهره بأن جعل أجفانه توامت بدلاً لتلقتي ،
(٤)

وفي موضع آخر من شعره يقول: إِنَّ الْمَحْبُوبَ أَلْقَى بَيْنَهُمَا فُرْقَةً :
أَلْقَيْتَ بَيْنَ جُفُونِ عَيْنِي فُرْقَةً فَإِلَى مَتَى أَنَا سَاهِرٌ يَارَاقِدُ

الفرقة التي ألقاها الحبيب بين جفون الشاعر هي المصد
والبعد وبسببها نجد الشاعر ساهداً لا يغمض له جفن ، و"بشار
(٥)

ابن برد" يتخيّل جفونه قد سملت بشوك :

كَأَنَّ جُفُونَهُ سُمِلَتْ بِشَوْكٍ فَلَيْسَ لِنَوْمِهِ فِيهَا قَرَارٌ
جَفَّتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيزِ حَتَّى كَأَنَّ جُفُونَهَا عَنْهَا قِمَارٌ

- (١) ديوان جميل بثينة ص ٣٧ .
(٢) ديوان أبي دهب الجمحي ص ٧٢ .
(٣) ديوان العباس بن الأحنف ص ٩٧ .
(٤) السابق ص ١٠٢ .
(٥) ديوان بشار بن برد ٢٢٥/٣ .

فالنوم لا يستقرّ في عينه وكان الشوك فقأها ، فجفت الغمض
أما قوله "كأن جفونها عنها قمار" فهو من قول جميل السابق
فلما طال الليل ولم تلتق فكأنها قصرت .

و"المتنبّي" يموّر جفونه في الليلة التي يكابد بها
بالمؤرة التالية :^(١)

كَأَنَّ الْجُفُونَ عَلَى مَقَلَّتِي ثِيَابٌ شَقَقْنَ عَلَى شَاكِلِي

وهي صورة حسنة غاية الحسن ، لأنّ القلق والمكابدة
يورشان صاحبهما همّا أثقل من همّ الشاكل ، لانه همّ معشش في
أعماق النفس ومن هنا ناسبت هذه المؤرة ثياباً شققت على
شاكل . وكذلك يموّر "المتنبّي" مقلته في ليل الحرمان
بالمؤرة الآتية :^(٢)

بَعِيدَةَ مَا بَيْنَ الْجُفُونِ كَأَنَّمَا عَقَدْتُمْ أَعَالِي كُلِّ هُدْبٍ بِحَاجِبِي

صورة تدلّ على أنّ صاحبهما لاحيلة له في النوم أبداً
مادام قد ربط أعالي كل هذب بالحاجب الذي فوقه ، والإنسان
إذا افترسه السهر والقلق وحرّم النوم يكون أبشع ممّا موّر
"المتنبّي" . أما قوله :^(٣)

أَبْلَى الْهَوَى أَسْفَا يَوْمَ النَّوَى بَدَنِي

وَفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسْنِ

فقد بيّن أنّ الهجر سبب الفرقة بين جفنه والنوم ،
وقبله قال "أبو تمام" :^(٤)

يَا جُفُونًا سَوَاهِرًا أَعْدَمْتَهَا لَذَّةَ النَّوْمِ وَالرُّقَادِ جُفُونُ

إذ جعل سهر جفونه من حلاوة جفون محبوبته وجمالها ،
و"ابن عبد ربّه" يجعل بُعد الحبيب سبب جفاء النوم لجفنه :^(٥)

(١) ديوان المتنبّي ١٥٤/٣ .
(٢) السابق ٢٧٥/١ .
(٣) السابق ٣١٧/٤ .
(٤) ديوان أبي تمام ص ٧٧٦ .
(٥) ديوان ابن عبد ربّه ص ١٢٥ .

تَجَافَى النَّوْمُ بَعْدَكَ عَنْ جُفُونِي وَلَكِنْ لَيْسَ تَجَفَّوْهَا الدُّمُوعُ

أَمَّا "مروان بن عبد الرحمن" وهو أحد شعراء الأندلس
فجفونه تعلّمت الجفاء من الحبيب الهاجر :
(١)

وتجافت جفون عيني سهداً

حين علّمت من جفك الجفاء

و"ابن الحداد الأندلسي" نشبت الحرب بين جفونه
والنوم :
(٢)

بين جفوني والنوم معترك

تمغر عنه حروب صفيين

ولأدري لم اختار حروب صفيين بذاتها ، وفي تاريخ العرب
حروب أشدّ ضراوة إلا أن يكون "لابن الحداد" هوى معين في شأن
صفيين وحروبها . و"ابن خفاجة" لالتقي أجفانه بسبب هجر
الحبيب (لالتقي الأجمان فيك) . و"الأرجاني" يقول :
(٣) (٤)

وأرقني والمشرقي مضاجعي

سنا بارق أسرى فهيج أحزاني

ثلاثة أجمان : ففي طي واحد

غرار ، وخال من غراريهما اثنان

ثلاثة أجمان ، جفن السيف وجفناه ، أما الأول ففيه غرار
وأما جفناه فمسهدان . وجفون "البهاء زهير" ما التقت منذ
فارق أحبابه :
(٥)

مذ فارت أحبابها لها جفون ما التقت

"وخليل مردم بك" امتلأت عينه بحبيبه فلم يعد يستطع
غمض جفنه :
(٦)

- (١) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص ١٥٣ .
(٢) ديوان ابن الحداد الأندلسي ص ٩٢ .
(٣) ديوان ابن خفاجة ص ٣١ .
(٤) ديوان الأرجاني ص ١٤١٩ .
(٥) ديوان البهاء زهير ص ٤٢ .
(٦) ديوان خليل مردم بك ص ١٩٤ .

وملأت عيني منه حتى لايطيق الغمض جفني

(١) وحين غاب الاحبة عنه قال :

واسهر فإن جفوني منذ فارقها نور الاحبة لم يستهوها نعر

وجفون "البارودي" دامية (دامي الجفون) ، و"أحمد

شوقي" جفونه مقروحة مسعدة (مقروح الجفن مسعدة) ، وبجفني

"إبراهيم ناجي" شوك القتاد (وبجفني قتاد) و"إسماعيل مبري"

تعبت جفونه من السهد (تعبت من السهد الطويل جفوني) ...

فمتى وصفت الجفون بأنها لالتقي أو هي قصيرة ، أو مقروحة ،

أو بها شوك ... فيكون ذلك مما يلاقيه المحب وإشارة إلى

سده في ليالي الحرمان .

وأقول : إن الشعراء داروا في فلك السهد فلم يأت

أكثرهم بجديد في وصفه ، كأن معظمهم يصب في قالب واحد ،

وحين اتجهوا إلى الإبداع في الصورة جعلوا الاجفان العليا

كأنها مربوطة إلى الحواجب .. أو ماشابه ذلك من المبالغات

التي تتردد بين التمثل والقبول .

كما أن الارتفاق بالليل صورة استخدمها بعض الشعراء

للكشف عن سهرهم وارقهم في لياليهم ، وقديماً قال "الاعشى

(٦)

الكبير" :

نام الخلي وبث الليل مرتفقا

أزعى النجوم عميداً مثنياً أرقاً

جاء في اللسان (بات فلان مرتفقا أي متكناً على مرفق

(٧)

يده) ومن يبببت هكذا فهو ساهر ولاشك ، وهي هيئة يعرفها

-
- (١) السابق ص ٢٥٢ .
 (٢) ديوان البارودي ٢٩٦/٣ .
 (٣) الشوقيات ١٤٠/٢ .
 (٤) الطائر الجريح ص ١٤٠ .
 (٥) ديوان إسماعيل مبري ص ٢٠٣ .
 (٦) ديوان الاعشى الكبير ص ١١٦ .
 (٧) لسان العرب ١٦٩٥/٣ .

البدو ولا ينكرونها في أحوال كثيرة ، لاسيما إذا كانوا خليين
يتأملون . وقال "بشار بن برد" :^(١)

مُسْتَهَامُ النَّهَارِ مُرْتَفِقُ اللَّيْلِ إِلَى أَنْ أَعَايِنَ الْإِصْبَاحَا

وهي من تأثير الصّور القديمة من أمثال صورة الاعشى
السابقة ، ويقول "بشار" أيضا :^(٢)

لِخَدِّكَ مِنْ كَفِّكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى أَنْ تَرَى وَجَهَ الصَّبَاحِ وَسَادِ

الكفان وساد للخدين إلى أن يطلّ الصّباحُ . فهو ساهر
ليله ، ويصوّر "العبّاس بن الأحنف" سهره بالصّورة التالية :^(٣)

تَجَافَى مِرْفَقَايَ عَنِ الْوَسَادِ كَأَنَّ بِهِ مَنَابِتَ لِلْقَتَادِ

و"السري الرّقاء" يبيت الليل مرتفقا :^(٤)
أَبِيْتُ اللَّيْلِ مُرْتَفِقًا أَنْجَى بِمَدَقِ الْوَجْدِ كَاذِبَةَ الْأَمَانِي

وكذلك رسم بعض الشعراء صوراً تمثّل سهرهم وأرقهم من
خلال الوساد "فبشار" بات هجوراً للوساد :^(٥)

فَبَاتَ هَجُورًا لِلْوَسَادِ وَقَدْ يَرَى عَلَى مَا بَعَيْنَيْهِ مَكَانَ الْوَسَائِدِ

أو أنّ وساده قلق كما يقول :^(٦)
أَشَادَنْ قَدْ مَضَى لَيْلٌ وَلَيْلٌ أَكَابِدُهُ وَقَدْ قَلِقَ الْوَسَادُ

ومثله قول "العبّاس بن الأحنف" :^(٧)
أَبِيْتُ مُسَدِّدًا قَلِقًا وَسَادِي أَخْفَفُ بِالْدُمُوعِ عَنِ الْفُؤَادِ

ومن خلال "الفراش" أو "المفجع" يرسم بعض الشعراء صورة
لسهره ، قال "ابو تمام" :^(٨)

سَلِ اللَّيْلَ عَنِّي هَلْ أَذُوقُ رِقَادَهُ وَهَلْ لِفُلُوعِي مُسْتَقَرٌّ عَلَى فَرَشِي؟

(١) ديوان بشار ٩١/٢ .

(٢) السابق ٤٤/٤ .

(٣) ديوان العباس بن الأحنف ص ٩٧ .

(٤) مختارات البارودي ٢٦٩/٤ .

(٥) ديوان بشار ٧٦/٣ .

(٦) السابق ٥٢/٣ .

(٧) ديوان العباس بن الأحنف ص ١٢٧ .

(٨) ديوان أبي تمام ص ٧٥٠ .

فمادامت ضلوعه غير مستقرة على فراشه فهو ساهر ولاشك ،
لأنَّ النَّوْمَ يتطلب استقرار الضَّلُوعِ على الفراش ، ويعبَّرُ
"العبَّاس بن الأحنف" عن هذا بقوله :^(١)

أَيُّهَا الرَّاقِدُونَ حَوْلِي هَنِيئًا إِنَّ جَنبِي عَن مَمَّجَعِي مُتَجَافٍ

والجنب المتجافي عن المضجع يرسم صورة للشاعر الساهر
أو أن الجنوب والمفاجع لالتقي كما يقول "ابن خفاجة" :^(٢)

لَاتَلْتَقِي الْأَجْفَانُ فِيكَ وَلَا الْمَفَاجِعُ وَالْجُنُوبُ

فالجنوب لاتستقر على المفاجع ولعلَّ الشاعر يعتقد أنَّه
بات مفترشاً شوك القتاد كما يقول "ابن سهل الأندلسي" :^(٣)

لَيْلِي عَلَيَّكَ نَهَارٌ بِالسُّهَادِ

أَبَيْتُ مُفْتَرِشاً شَوْكَ الْقَتَادِ

ويعبَّرُ "إبراهيم اليازجي" عن سهره بقوله :^(٤)

لِيَهْنِكُمْ أَنْ طَاعَكُمْ بَعْدَنَا الْكَرَى

فمذُ بَيْنَكُمْ لَمْ نُوْطِيءِ الْجَنْبَ مَرَقْدًا

فالسابقون أوطنو جنوبهم فراشاً من قتاد ، وهو أفتك
وأدلَّ على المكابدة ، أمَّا "اليازجي" فرسم صورة جدَّ بعيدة عن
الواقع حين قال: إنَّه لم يوطيء جنبه الفراش مذ بان عنه
الأحبة ، وهو ظاهر التَّمَحُّلِّ والزَّيْفِ ، وفرق بين مبالغة مقبولة
وأخرى تكشف عن سذاجة صاحبها .

(١) ديوان العباس بن الأحنف ص ٢١١ .
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٣١ .
(٣) ديوان ابن سهل الأندلسي ص ٣٣٢ .
(٤) ديوان إبراهيم اليازجي ص ٤٩ .

(٣) البكاء والدموع :

مما يُعرف عن العرب القدماء أنّهم لا يبكون في المواقف
الصعبة ، اللهم إلا أن يكون ذلك في مواقف الحبّ أو رثاء
الأحبّاء ، ومع ذلك قيل : إنّما يبكي على الحبّ النّساء ، وقال
(١)
"أبو تمام" :

خَلَقْنَا رَجَالًا لِلصَّبْرِ وَالْأَسَى وَتلك الغواني للبكا والمآتم
لأنّ الرجال خلقوا للجد والصبر ، وأيّاً ما يكون فالبكاء
غالباً ما يكون موصولاً بالهموم والمواجد ، لكنّ هذه المواجد
أكثر ما وجدت هنا وجدتها في مواقف الحبّ ، وفي مواقف
الرثاء وخاصة إذا ما كان الشعر للمرأة .

ولمّا عرفنا حال الشعراء المحرومين من وصل أحبّابهم في
لياليهم ، فقد تعرفنا على همومهم وقلقهم ، وسهرهم وأرقهم
في لياليهم ، ويبقى ما كشف بعضهم عن بكائهم في تلك الليالي
لتكتمل معالم صورة الشاعر المحروم في لياليه . وعن إحداها
قال "المرقش الأصفري" (٢) :

لَمْ أَغْتَمِضْ طَوْلَهَا حَتَّى انْقَضَتْ أَكْلَاهَا بَعْدَمَا نَامَ السَّليْمُ
تَبْكِي على الدَّهْرِ، والدَّهْرُ الَّذِي أَبْكَاكَ فَالدَّمْعُ كَالشَّنِّ العَزِيمِ
فَعَمْرَكَ اللهُ هَلْ تَدْرِي إِذَا مَا لَمْتَ فِي حُبِّهَا فِيمَ تَلُومُ
أمضى الليل ساهراً يبكي لما أصابه به الدهر ، ومما
أصابه به فراق تلك المرأة التي يلام على حبّها ، فسهر
لفراقها الليل الطويل ، وأسبل الدموع الغزار فكانها ماء
متسرب من قربة متشققة ، فهي دموع تبل النحر كما يقول "عمر
(٣)
ابن أبي ربيعة" :

(١) ديوان أبي تمام ص ٥٥٩ .
(٢) موسوعة الشعر العربي ص ٣٣٥ .
(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٣٢ .

فَمَالِيَةٌ تَمْفِي عَلَى النَّاسِ تَنْجَلِي

وَلَمْ أُذْرِ فِيهَا عَبْرَةً تُوْخِلُ النَّحْرَا

فلا يكاد يمرّ عليه ليلة واحدة دون أن يبتل نحره
بالدموع ، وذاك مما يعانيه الشاعر من أرق وهم لفراق
الحبّية كما يعبر "قيس بن الملوّح" عن ذلك :^(١)

مُعَذِّبَتِي ! لَوْلَاكِ مَا كُنْتُ هَائِماً أَبَيْتُ سَخِينِ الْعَيْنِ حَرَّانَ بَاكِيا
لأجل الحبّ بات اللّيلَ باكياً بدموع حارة ، ويتكرر
الإخبار عن البكاء في لياليه في مواضع أخرى من شعره :^(٢)

أُرَاعِي نَجْوَمَ اللَّيْلِ سَهْرَانَ بَاكِياً

قَرِيحَ الْحِشَا مَنِّي الْفَوَادُ فَرِيدُ

(٣)

وقوله :

لَقَدْ طَالَ لَيْلِي وَاسْتَهَلَّتْ مَدَامِعِي وَقَامَتْ جُفُونِي وَالْفَرَامُ يَزِيدُ
وتذكر "قيس" في "عشية المدفين" ليلي فبكى لذلك ، غير
أنّه حاول التهرّب من البكاء لمّا لاحظته بعض النسوة :^(٤)

ذَكَرْتُ عَشِيَّةَ الْمَدْفِينِ لَيْلِي وَكُلُّ الدَّهْرِ ذَكَرَاهَا جَدِيدُ
فَقُلْنَ لَقَدْ بَكَيتَ فَقُلْتُ كَلًّا وَهَلْ يَبْكِي مِنَ الطَّرْبِ الْجَلِيدُ
وَلَكِنْ قَدْ أَصَابَ سَوَادَ عَيْنِي عَوِيدُ قَدِّي لَهُ طَرْفٌ حَدِيدُ
فَقُلْنَ فَمَا لِدَمْعِهِمَا سَوَاءٌ أَكَلْنَا مُقَلَّتَيْكَ أَصَابَ عَوْدُ؟

حوار جيد تتجلى فيه روح الفنّ الأصيل ، ويتجرّد من
النزعة الخطابية التي تسود نصوصاً كثيرة في هذا الباب ،
نسوة يلحظن دموعه ، فيتعجبين ويسألنّه ، وهي مساءلة مبطنة
بسخر يدركها من يعرف طبيعة النساء ، فينكر الرّجل لأنّ طبيعة
الجليد ألا يبكي في مواقف الشدّة ، لكنّ يدّعي أنّ الدّموع

(١) ديوان قيس بن الملوّح ص ٢٣٤ .

(٢) السابق ص ٨١ .

(٣) السابق .

(٤) السابق ص ٨٣ .

المنهمرة من عود له طرف حديد أصاب عينه ، فيقفن منه على غرة ، ويبهتته قائلات ، وهن يضرن في أنفسهن ما يضر النسوة في مثل هذا الموقف : إن كان العود أصاب عيناً واحدة فقيم بكاء الثانية ؟ فيفحمنه إfachاماً يعرف منه وجه الحق في بكائه . أمّا "جدر بن مالك" فيسبل دموعه بلاحتشام :^(١)

فأسبلتُ الدَّموعَ بلاحتشامٍ ولمَّ أكَ باللَّئيمِ ولا الجبانِ
اليسَ اللَّيلُ يجمعُ أمَّ عمرو وإيَّانا ، فذاك لنا تداني
فالليل هو مظنة هذه الدَّموع ، فتنهمر من عيني، فلاغرو
أن يصير اللَّيلُ بما يشتمل عليه عوناً على الأدكار والسلوان
في آن . فحين ينام الأخليا يشير قلبُ الشَّاعرِ المحبِّ عينه
كما يقول "ابو صخر" :^(٢)

نامَ الخَلِيُّ وبِتُّ اللَّيلَ لمَّ أنم وهيجَ العينَ قلبٌ مشعراً السَّقمِ
القلب الذي حمل الهم للفراق هاج عين الشاعر في
الليلة التي يتذكر بها في وحدته فراق الحبيب ، فلعل عين
الدمع تنبع من فؤاده :^(٣)

وباتتْ تُمطرُ العَبْرَاتِ عَيني وعينُ الدَّمعِ تنبعُ من فؤادي
فحالة الشاعر النفسية الواهية لفراق الحبيب هي التي
تؤثر على حالته عموماً ، فتسهره الليالي ، وتبكي عينيه حتى
تغدو دموعه كالمطر ، و"العباس بن الاحنف" من الشعراء الذين
بكوا كثيراً فراق الاحبة في لياليهم :^(٤)

فراقك كانَ أوَّلَ عهدِ دَمَعي وآخَرَ عهدِ عيني بالرُّقادِ
فلمَّ أرَ مثلَ ما سألتَ دموعي وما راحَتَ به من سوء زادِ
فراق الحبيب سبب السهر والبكاء ، والدَّموع تخفف بعض

(١) ديوان الشعر العربي ٤٨٧/١ .
(٢) شعراء أمويون ص ١٠٩ .
(٣) ديوان العباس بن الاحنف ص ٩٧ .
(٤) السابق ص ١٢٧ .

ما يجد في فؤاده من لوعة وحسرة لغراق الحبيب (أخف بالدموع
عن الفؤاد) ويقول أيضا :^(١)

أَخْلُو إِذَا هَجَعَ النَّوَامُ كُلَّهُمْ فَمَا أُسَامِرُ إِلَّا عَامِرَ الدَّارِ
لِكُلِّ جَفْنٍ عَلَى حَدِّي عَلَى حِدَةٍ طَرِيقَةٌ دَمْعًا مُسْتَوِكِفٌ جَارِ
اسْتَمِطِرُ الْعَيْنَ لِاتْفَنَى مَدَامَعَهَا كَأَنَّ يَنْبُوعَ بَحْرِ بَيْنَ أَشْفَارِي

عندما ينام النَّاسُ يخلو الشَّاعرُ المَفَارِقَ إلى نفسه ،
ولأنَّه لا يفتقد بعض الحشرات التي ارتفعت من داره سكناً لها ،
وتعنيه المكابدة فيجد راحته في البكاء .

ويتمنى "أبو تمام" أن تشهده الحبيبة عندما تطبق عليه
الظلمة ، فيمير اللَّيْلُ كغرفة مغلقة الابواب :^(٢)

لَوْ تَشْهَدِينَ أَقْاسِي الدَّمْعَ مِنْهَمِرًا
وَاللَّيْلُ مُرْتَجِحُ الْبَابِ مَطْمُوسًا

دموع منهمرة او هي دائمة القطر كما يقول "ابن
المعتز" :^(٣)

مَابَالُ لَيْلِي لَا يَرَى فَجْرَهُ وَمَا لِدَمْعِي دَائِمًا قَطْرُهُ
اسْتَوْدِعُ اللَّهَ حَبِيبًا نَأَى مِيعَادُ دَمْعِي أَبَدًا ذِكْرُهُ

نأى الحبيب فلم ير الشَّاعرُ ليل فجرًا ، ولم يقف قطار
الدموع فلها مدد من مجاريها كما يقول "المتنبي" :^(٤)

أَحْيَيْتُهَا وَالدَّمُوعُ تُنْجِدُنِي شَوْوْنَهَا وَالظَّلَامُ يُنْجِدُهَا

ليال طالت وطال البكاء فيها ، لأنَّ لكل منهما مددًا
لا ينقطع فلليالي مدد من الظلام ، وللدموع مدد من مجاريه ،
فلا ينقضي الليل ، ولاتنتهي الدموع التي قد تؤذي الشَّاعر كما
يقول "خالد الكاتب" :^(٥)

-
- (١) السابق ص ١٣٤ .
(٢) ديوان أبي تمام ص ٣١٦ .
(٣) ديوان ابن المعتز ص ٢٠٩ .
(٤) ديوان المتنبي ٢٦/٢ .
(٥) من غاب عنه المطرب ص ٩٤ .

وَلَمْ تَدْرِ بَعْدَ ذَهَابِ الرَّقَا م دِ مَافَعَلَ الدَّمْعُ بِالنَّظْرِ

فربّما تكون الدّموع قد أقدت عينيّه وأكلت بمره .

(١)

ويتساءل "ابن خفاجة" عن قيد النّجم وانطلاق دمعّه :

وَمَالِدَمْعِي طَلِيْقًا وَأَنْجُمُ اللَّيْلِ أُسْرَى ؟

يعجب الشّاعر من انهمار دموعه وطلاقتها ، ومن قيد

النّجوم ، وهو طباق خدم المعنى وعزّزه ، وقيد النّجوم يفيد

شباتها كناية عن طول اللّيل على الشّاعر ويقول عن دموعه في

(٢)

نص آخر :

لَايْتُ ، إِلَّا بَيْنَ دَمْعٍ يَنْهَمِي وَحَشَا يَذُوبُ

فلعلّ الشّاعر المحروم يجد بعض الرّاحة والتّنفيس متى سمح

لعينيّه ببذل دموعهما ، وقد يستمر بكاء الشّاعر حتّى تغيب

(٣)

النّجوم :

نَهَبْتُ فِيهَا عَقِيْقَ الدَّمْعِ مِنْ أَسْفٍ

حَتَّى رَأَيْتُ جُمَانَ الشَّهْبِ قَدْ نُهَبَا

نُهَبَ جُمَانُ الشَّهْبِ أَي ذَهَبَ لَوْنُهَا الْأَبْيَضُ بِغُرُوبِهَا وَإِلَى وَقْتِ

هَذَا الْغُرُوبِ وَالشَّاعِرُ يَذْرِفُ الدَّمْعَ أَسْفًا لَغِيَابِ الْحَبِيبِ ، وَقَدْ

(٤)

تجرح الدّموع مقلّة الشّاعر المحروم :

كَمْ لَيْلَةٍ قَفَيْتُهَا مَتَسَهِّدًا وَالِدَّمْعُ يَجْرَحُ مُقْلَتِي مَسْكُوبُهُ

وترقرق المآقي ، وجريان العين بالدّموع مما ألفاه

الباحث يتردّد كثيراً بين الشعراء في هذا المقام . واستمر

(٥)

هذا الاتجاه في الشعر العربي ، يقول "البارودي" :

هَلْ أَكْتَحَلْتُ عَيْنَايَ إِلَّا بِمَدْمَعٍ

إِذَا ذَكَرْتُكَ النَّفْسُ سَالَتْ عَلَيَّ خُدْيَ؟

(١) ديوان ابن خفاجة ص ١٠٤ .

(٢) السابق ص ٣٠ .

(٣) ديوان ابن سهل الأندلسي ص ٧٥ .

(٤) ديوان الشاب الظريف ص ٤١ .

(٥) ديوان البارودي ٢٠٨/١ .

(١)

وكذلك يقول :

أَقْطَعُ اللَّيْلَ بَيْنَ حُزْنٍ وَدَمْعٍ وَسَهَادٍ وَالنَّاسُ عَنِّي نِيَامٌ

وهي صور منقولة عن السابقين ولاجديد فيها ، و"إسماعيل

صبري" من أكثر الشعراء بكاءً وسهراً للحبِّ والغرام وديوانه

(٢)

حافل بشيء كثير من ذلك :

يَالَيْلُ كَمْ قَاسَيْتُ فِيكَ مَوَاجِعًا هَطَّالٌ دَمْعِي شَاهِدٌ وَسَهَادِي

ففي الليل تتزاحم الهموم حوله ، وتشير دموعه من

(٣)

مكامنها ، فيذرفها كلها حتى يفيض بحرها كما يقول :

يَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ تَزَاخَمَتْ

حَوْلِي الهمومُ وَغَاضَ بَحْرُ سُؤْنِي

(٤)

و"أحمد شوقي" يقول :

نَامَتْ الْأَعْيُنُ ، إِلَّا مُقَلَّةً تَسْكَبُ الدَّمْعَ ، وَتَرَعَى مَفْجَعَكَ

وفي وحدة "محمد عبد المنعم خفاجي" ينادي الحبيب !

(٥)

فلا يسمع جواباً لندائه فتصوّر الليل يبكي لبكائه :

وَأُنَادِيكَ وَحِيدًا لَا تُجِيبِينَ نِدَائِي

سَأَلِي اللَّيْلَ لِمَاذَا كَانَ يَبْكِي لِبُكَائِي ؟

لعلّ اللّيلة التي بكى بها الشاعر كانت ليلة ممطرة ،

فتصوّر الليل يبكي لبكائه ، ويتمنى بعض الشعراء أن يبصر

أحبابهم أحوالهم إذا جنّهم الليل ، ومن ذلك قول "بشارة

(٦)

الخوري" :

أَيْنَ عَيْنَاكَ تَنْظُرَانِي وَكَفِّي فَوْقَ قَلْبِي وَدَمْعَتِي فَوْقَ خَدِّي

حال يرثى لها ، كفّ على القلب ، ودموع تنساب على الخدّ

(١) السابق ٥٨٨/٣ .

(٢) ديوان إسماعيل صبري ص ٢١٢ .

(٣) السابق ص ٢٢٩ .

(٤) الشوقيات ١٣١/٢ .

(٥) أشواق الحياة ص ١٠٣ .

(٦) ديوان بشارة الخوري ص ١٨٦ .

(١)

لاتكاد تنتهي كما يصورها "عزیز أباطة" :

وَلِي فَيْكَ إِجْهَاشُ اللَّيَالِي وَمَدْمَعٌ

إِذَا كَفَّ غَرْبٌ مِنْهُ أَعَقَبَهُ غَرْبٌ

فعندما يخلو الشاعر بنفسه تحت أستار الظلام ، ويتذكر

الأحبة ، ويتفقدهم فلا يجدهم ، يهتم لذلك ، ويأرق ، وتفويض

(٢)

دموعه ، وقد لا يرق له إلا نجم في السماء :

بَكَيْتُ فَرَّقَ النَّجْمُ لِي وَهُوَ مَخْرَةٌ

إِلَى أَنْ جَرَّتْ مِنْهُ مَجْرَتُهُ نَهْرًا

بكاء الشاعر استمر ليلة ورّق له النجم إلى طلوع

(٣)

الصباح ، و"إبراهيم ناجي" صيّر دموعه الحانا :

أَهِيْمٌ وَحْدِي وَمَافِي الْمَظْلَمِ شَاكٍ سَوَايَا

أُصَيِّرُ الدَّمْعَ لَحْنًا وَأَجْعَلُ الشَّعْرَ نَايَا

فقد استعذب البكاء ، حتى صار هو غايته ، وأخذ يسكب

في أذن الجوى أناشيد شعره .

-
- (١) ديوان عزیز أباطة ص ٦٠ .
(٢) ديوان الجواهري ١٣٣/١ .
(٣) وراء الغمام ص ٢٠ .

ليل الحرمان ليل طويل .

وقفنا من خلال هذا الفصل على أنّ الشعراء المحرومين من
وصل أحبابهم سهروا اللَّيالي ، وذرفوا الدّموع غزاراً ،
وانتابهم الحزن والهم والقلق ، ومن جراء ذلك شعروا بطول
ليل الحرمان ، وسوف يعرض هذا المبحث للأساليب التي عبّروا
بها عن ذلك الشعور .

يقول "عمرو بن شيبة" : إنّ الأصل في ذكر اللَّيل الطويل
بيت "الحرث بن خالد" :
(١)

تَعَالُوا أَعِينُونِي عَلَى اللَّيْلِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ عَيْنٍ لَاتْنَامُ طَوِيلُ
شُمَّ تَبِعَهُ النَّاسُ ، وَمَمَّنْ تَبِعَهُ الشُّعْرَاءُ الْمَفَارِقُونَ
أَحْبَابَهُمْ ، وَلَقَدْ عَبَّرُوا عَنْ ذَلِكَ بَعْدَ طَرُقِ أَوْلَاهَا : اسْتِخْدَامِ
عَنْصَرٍ وَاحِدٍ وَهُوَ - اللَّيْلُ - فَقَدْ يَتَوَجَّهَ بَعْضُهُمْ إِلَى اللَّيْلِ
مباشرة يصفه بالطول متى غاب الحبيب ، أو إذا لم يستطع له
وملاً . قال "عمر بن أبي ربيعة" :
(٢)

طَالَ لَيْلِي فَمَا أَحْسُ رُقَادِي وَأَعْتَرَّتْنِي الْهَمُومُ بِالتَّسَاهِدِ
"عمر" يعبّر بالجملة الفعلية (طال ليلي) مسنداً

الطول إلى اللَّيل ليعبّر عن إحساسه بثقل اللَّيل على نفسه ،
ويعبّر "أبو صخر" عن ذلك بالجملة التّعجبية "يا طولَ ليلك ليلاً
غيرَ منصرمٍ" ثم يجعله ليلاً غير منصرم إمعاناً في وصفه بالطول
ونهار "قيس بن الملوح" نهار طويل ولكن اللَّيل أطول :
(٣)
(٤)

نَهَارِي نَهَارٌ طَالَ حَتَّى مَلَلْتُهُ وَلَيْلِي إِذَا مَا جَنَّنِي اللَّيْلُ أَطُولُ
و"جرير" أيضاً يجعل الطول صفةً لليل :
(٥)

-
- (١) نثار الأزهار ص ٢٤ .
(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٩٤ .
(٣) شعراء أمويون ص ١١٠ .
(٤) ديوان قيس بن الملوح ص ١٧٠ .
(٥) ديوان جرير ص ٥٦ .

وَلَيْلٍ قَدْ أَبَيْتُ بِهِ طَوِيلٍ لِحُبِّكَ مَا جَزَيْتَ بِهِ ثَوَابًا
فَقَوْلُهُ طَوِيلٌ صِفَةٌ لِلَّيْلِ ، وَيُعَبَّرُ عَنْ ذَلِكَ بِلَيْلِ التَّمَامِ فِي
(١)
قَوْلِهِ :

نَامَ الْخَلِيُّ وَمَارَقَدْتُ لِحُبِّكُمْ لَيْلَ التَّمَامِ تَقَلَّبًا وَسُهُودًا
لَيْلِ التَّمَامِ هُوَ أَطْوَلُ لَيَالِي السَّنَةِ ، وَ"أَبُو دَهْبَل" لَيْلُهُ
(٢)
يَتَطَاوَلُ :

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ مَا يَتَبَلَّجُ وَأَعْيَتْ غَوَاشِي عَابِرَتِي مَا تَفَرَّجُ
وَبِالْجُمْلَةِ الْفَعْلِيَّةِ (طَالَ لَيْلِي) يَنْعَتُ "بِشَار" لَيْلُهُ بِالطَّوْلِ
(٣)
فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنْ شِعْرِهِ .

وَابْنُ الْمُعْتَزِ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ جَمِيعِ الْمُحِبِّينَ فِي الشُّعُورِ بِطَوْلِ
(٤)
اللَّيْلِ :

فَمَا بَالُ ذَا اللَّيْلِ لَا يَنْقَمِي كَذَا لَيْلٌ كُلُّ مُحِبٍّ طَوِيلٌ
فَاللَّيَالِي بَعْدَ الْأَحْبَبَةِ طَوِيلَةٌ مُتَشَابِهَةٌ كَمَا يَقُولُ
(٥)
"الْمُتَنَبِّي" :

لَيَالِي بَعْدَ الظَّاعِنِينَ سُكُورٌ طَوَالٌ وَلَيْلُ الْعَاشِقِينَ طَوِيلٌ
(٦)
وَعَلَى نَحْوِ هَذَا قَوْلُ "السَّرِيِّ الرَّقَاءِ" :

طَالَتْ لَيَالِي الْحُبِّ بَعْدَ فِرَاقِهَا وَأَحْبَبُنَّ إِلَى الْمُحِبِّ قِصَارُهَا
(٧)
فَلَيَالِي الْوَصْلِ تَمْضِي قِصَارًا ، وَلَكِنْ مَا سَوَاهَا يَطْوِلُ :

تَقَفَّتْ قِصَارًا وَلَكِنَّهَا أَطَالَتْ عَلَيَّ اللَّيَالِي الْبَوَاقِي
(٨)
فَلَيْلُ الْبَيْنِ طَوِيلٌ إِذَا مَا قِيسَ بِلَيْلِ الْوَصْلِ :

وَلَيْلٌ بَعْدَ بَيْنِهِمْ طَوِيلٌ فَأَيْنَ مَفْتُ لَيَالِي الْقِصَارِ ؟

-
- (١) السابق ص ١٣٣ .
(٢) ديوان أبي دهبَل الجمحي ص ٥٢ .
(٣) ديوان بشار بن برد ٨٨/١ ، ٨٩/٢ ، ٢١٢/٣ ، ٦٣/٤ .
(٤) ديوان ابن المعتز ص ٣٧٢ .
(٥) ديوان المتنبي ٢١٧/٣ .
(٦) مختارات البارودي ٢٦٧/٤ .
(٧) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٩٩ .
(٨) ديوان الملك الامجد ص ٣٤٦ .

فعندما يبتعد الأحبة يتطاول الليل كما يرى "حازم
القرطاجني" :^(١)

تَطَاوَلَ لَيْلِي عِنْدَمَا شَطَّتِ النَّوَى
بِمَنْ بَسَنَاهُ كَانَ تُجَلِي غِيَاهِبُهُ^(٢)

ويقول "الماحي" :

وَتَطَوَّلُ لَيْلَتِي الَّتِي قَضَيْتُهَا مُضْنَى الْجُفُونِ حَلِيفَ شَوْقٍ مُوجِعِ
وَلَطَائِمَهَا قَمَرَتْ لِيَالٍ قَبْلَهَا ذُقْتُ النَّعِيمَ بِهَا وَمَنْ أَهْوَى مَعِي

"تطول ليلتي" يعبر بالفعل المضارع الذي يفيد الاستمرار والتجدد فهي ليلة مستمرة متجددة ، لأن الحبيب غائب فيها ، فلقد كانت ليليه قصيرة ذات نعيم عندما كان من يهواه معه .

ويطلب "البارودي" من الحبيبة أن تسأل الليل عنه :^(٣)
سَلِي عَنِّي اللَّيْلَ الطَّوِيلَ فَإِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا أُخْفِيهِ شَوْقًا وَمَا أُبْدِي
فهو يمف الليل بالطول ويجعله خبيراً بحاله .

ويردّد "إسماعيل صبري" الجملة الفعلية (تطول الليالي)^(٤)
في عدة مواضع من شعره .

وعن العاشق يقول "أحمد شوقي" :

طَوِيلُ اللَّيْلِ تَرَحَّمُهُ هَوَاتِفُهُ وَأَنْجَمُهُ^(٥)

وبميغة التّعجب ما فعله يمف "عزيز أباطة" ليل الحرمان^(٦)
بالطول :

أَقْطَعُ اللَّيْلَ وَمَا أَطْوَلَهُ خَافَتِ الْآهَةَ مَوْصُولَ الْحَنِينِ

وقد تكرر التعبير المباشر عن الإحساس بطول الليل من

(١) ديوان حازم القرطاجني ص ١٦ .
(٢) ديوان الماحي ص ١٨٠ .
(٣) ديوان البارودي ٢٠٧/١ .
(٤) ديوان إسماعيل صبري ص ٢٤٢، ٢٠٨، ١٩١ .
(٥) الشوقيات ١٣٩/٢ .
(٦) ديوان عزيز أباطة ص ٦٧ .

خلال التعبير بكلمة الطول ومشتقاتها بين الشعراء .

ولقد اشتكى جمع من الشعراء من طول الليل من خلال وصفه
بالوقت الممتد ، يقول "جرير" :
(١)

وَكأنَّ لَيْلِي مِنْ تَذَكُّرِي الْهَوَى لَيْلٌ بِأَطْوَلِ لَيْلَةٍ مَوْصُولُ
وقد يفنى الشاعر في ليل الحرمان :
(٢)

أَفَنَى ، وَلَيْلِي لَيْسَ يَفَنَى آخِرُهُ هَاتَا مَوَارِدُهُ فَأَيْنَ مَصَادِرُهُ ؟
وتمضي فيه حقب الزمان (تالله قد فزيت من دونه
الحقب) .
(٣)

ويغدو سرمداً على الشاعر المحروم :
(٤)

طَالَ لَيْلُ الْمَبِّ حَتَّى خَلَّتْهُ جُعِلَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ سَرْمَدًا
ليل لا ينقضي ، وظلامه بعضه يتبع بعضاً كما يقول "ابن
النَّخَّاسِ" :
(٥)

بَاتَ سَاجِي الطَّرْفِ وَالشَّوْقُ يُلِحُّ وَالذُّجَى إِنْ يَمِضُ جَنَحٌ يَأْتِ جَنَحُ
فهو ليس ليل واحد بل ليال لاتحصى :
(٦)

إِذَا طَالَ وَاسْتَعَمَى فَمَا هِيَ لَيْلَةٌ وَلَكِنْ لِيَالٍ مَالِهِنَّ عَدِيدُ
فعمل الليل كلما مضى عطف اوله فعاد مرة أخرى كما
تخيَّله الشاعر الجاهلي "سويد بن ابي كاهل" :
(٧)

وَإِذَا مَا قَلْتُ لَيْلٌ قَدْ مَضَى عَطَفَ الْأَوَّلُ مِنْهُ فَرَجَعَ
كلما يمضي يعود مرة أخرى فيغدو ليلاً بلا آخر كما حسبه
"خالد الكاتب" :
(٨)

رَقَدَتْ فَلَمْ تَرْتِ لِلسَّاهِرِ وَلَيْلُ الْمُحِبِّ بِلَا آخِرِ

- (١) ديوان جرير ص ٣٧٩ .
- (٢) ديوان أبي تمام ص ٢٩٦ .
- (٣) ديوان الشاب الظريف ص ٣٩ .
- (٤) ديوان الأخرس ص ٣٨٧ .
- (٥) ديوان الشعر العربي ٣/٣٠٦ .
- (٦) الشوقيات ٢/١١٩ .
- (٧) المفضليات ص ١٩٢ .
- (٨) من غاب عنه المطرب ص ٩٤ .

ليل الشّاعر المحروم لا آخر له ، فكأنّه عاد دائرة لا يعرف
(١)
لها طرف على نحو ما يمفّه "سعيد العامي" :

كأنّما اللَّيْلُ عادَ دائِرَةً فما تَرَى له مُقْلِي طَرَفًا

الدّائرة لا يعرف لها طرف ، ومن يحاول البحث عنه سوف
ينتهي حيث بدأ في كل مرّة دون أن يجده ، فليس لليل
العاشقين نفاذ كما يقول "بشار بن برد" :

تَبِيْتُ تُرَاعِي اللَّيْلَ تَرَجُو نَفَادَهُ وَلَيْسَ لِلَّيْلِ الْعَاشِقِينَ نَفَادُ

فليل الشّاعر المحروم لا ينفذ ، بل هو واقف وقفة
الحيран كما تخيّلّه "الأرجاني" :

تَأَوَّبَنِي ذَكَرُ الْأَحَبَّةِ طَارِقًا وَلِلَّيْلِ فِي الْإِفَاقِ وَقْفَةٌ حَيْرَانُ

وسوف أتعرض لهذه الصّورة المتميّزة ومثيلاتها عند
الحديث عن خصائص الصّورة الفنّية .

وقد يستعين الشّاعر المحروم "بالنّجوم" ليموّر بها
إحساسه بطول ليل الحرمان ، قال "سويد اليشكري" :

يَسْحَبُ اللَّيْلُ نَجُومًا ظُلْمًا فَتَوَالِيهَا بَطِينَاتُ التَّبَعِ

نجوم ظلّع بها عرج في مشيها فهي بطينة المشي نحو
مغاربها ، وكأنّ اللّيل يجرّها ويسحبها ، لأنّها لاتقوى على
المسير والشّاعر يكني بهذا عن طول اللّيل الذي حرم فيه وصل
الحبيب ، فنجومه لاتقوى على السير ، أو أنّها لاتهم بالمغيب
كما يقول "حسان بن ثابت" :

تَطَاوَلَ بِالْحَمَّانِ لَيْلِي فَلَمْ تَكُنْ

تَهْمُ هَوَادِي نَجْمِهِ أَنْ تُصَوِّبَا

فقدت النّجوم الرّغبة في المسير فهي لاتزول كما يقول

(١) التشبيهات من أشعار أهل الاندلس ص ١٥٢ .

(٢) ديوان بشار بن برد ٤٤/٤ .

(٣) ديوان الأرجاني ص ١٤١٩ .

(٤) المفضليات ص ١٩٢ .

(٥) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٥ .

(١)

"العباس بن الأحنف" :

حَبِيبٌ آتَانِي أَنَّهُ خَانَ عَهْدَهُ فَبِتُّ بَلِيلٍ مَاتَزُولُ كَوَاكِبُهُ

فهي شابثة في السماء ، لا تسير ولا تتزحزح من مكانها كما

(٢)

يعبّر "ابن داود الأصفهاني" عن ذلك :

وَكَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بَتَّ أَرْقَبُ صَبَحَهَا وَأَنْجَمُهَا فِي الْجَوِّ مَاتَزَحَّزَحُ

(٣)

ويتساءل "أبو فراس الحمداني" :

مَابَالُ لَيْلِي لِاتَّسَّرِي كَوَاكِبُهُ ؟ وَطَيْفٌ عَزَّةٌ لَا يَعْتَادُ زَائِرُهُ ؟

بسؤاله هذا يكتفي عن طول ليله الذي يعيش فيه وحيداً

خالياً من الحبيب ، ومن طيفه ، ويتساءل شاعر آخر السؤال

(٤)

نفسه ولكنه يحاول إيجاد علّة لثبات نجوم ليله فيقول :

مَالنُّجُومِ اللَّيْلِ لِاتَّغَرَبَ كَأَنَّهَا مِنْ خَلْفِهَا تُجَدَّبُ ؟

فهذه النجوم الحائرة لاتغرب فكانها تجذب من خلفها ،

فيمنع ذلك الجذب النجوم من الغروب ويمنع الليل الطويل من

(٥)

الذهاب . و"ابن خفاجة" يجعل الانجم أسرى :

وَمَالِدَمْعِي طَلِيقاً وَأَنْجَمُ اللَّيْلِ أَسْرَى ؟

فقد أُسِرَتْ تِلْكَ النُّجُومُ ، وَأَسْرُهَا مَنَعَهَا الْغُرُوبُ ،

(٦)

"والعباس بن الأحنف" يجعلها كالأعمى المتحير :

وَالنَّجْمُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ أَعْمَى تَحْيِرَ مَالِدَيْهِ قَائِدُ

النجم أعمى لايهتدي في السماء طريقاً ، ولا قائد لديه

ياخذ بيده إلى مغاربه ، فينقضي بذاك ليل الشاعر المحروم ،

(٧)

وعلى نحو من هذه الصورة يقول "أبو الطيب المتنبي" :

- (١) ديوان العباس ص ٧١ .
 (٢) أوراق من ديوان الأصفهاني ص ٤١ .
 (٣) ديوان أبي فراس الحمداني ص ٧٨ .
 (٤) نثار الأزهار ص ٢٤ .
 (٥) ديوان ابن خفاجة ص ١٠٤ .
 (٦) ديوان العباس بن الأحنف ص ١٠٢ ، وينسب البيت إلى بشار
 ابن برد ٤٩/٤ .
 (٧) ديوان أبي الطيب ١٧٥/٢ .

مَا بَالُ هَذِي النُّجُومِ حَائِرَةً كَأَنَّهَا الْعُمِّيُّ مَا لَهَا قَائِدٌ

فالنُّجُومُ حائِرةٌ وكَأَنَّهَا الْعُمِّيُّ الَّذِي لَا يَجِدُونَ مِنْ يَقُودِهِمْ ،
وبهذا يصف ليل الفراق بالطول ، وهي نفس الصُّورة السَّابِقة .

(١)

و"أبو العلاء المعري" يقول :

أَقُمَّتْ نُجُورُ نُجُومِ السَّمَا ۞ فَلَمْ تَسْتَطِعْ نَهْمَةً لِلْمَغِيبِ ؟

لما تطاول اللَّيْلُ خَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّ أَجْنَحَةَ النُّجُومِ قُمَّتْ ، فلم

تستطع الطيران إلى المغيب فتغرب ، فيظهر النَّهَارُ . و"ابن

(٢)

المعتز" يرى أَنَّ النُّجُومَ واقفةً لِأَنَّهَا لا ترى أبواب الغروب :

ووفودُ النُّجُومِ واقفةٌ لا ترى في الغربِ أَبْواباً

فالنُّجُومُ واقفةٌ وقفةُ الوفودِ التي لم تفتح لها الأبواب

وبوقوفها يقف اللَّيْلُ فلا يمضي ، وفي ليل حرمان آخر يقول "ابن

(٣)

المعتز" عن النُّجُومِ :

كَأَنَّهَا ، حِينَ ذَرَّ اللَّيْلُ ظُلْمَتَهُ

جَمْرٌ جَلَّتْهُ الْمَبَا فِي مُصْطَلَى خَيْرِ

فالحطب الأخضر لا تأكله النَّارُ سريعاً ، ويلزمه وقت طويل

ليحترق ، ويصبح رماداً ، فهذه النُّجُومُ ستأخذ وقتاً طويلاً حتَّى

تغيب ، والصُّورة طريفةٌ فيها خيال غير مطروق ولا مسبوق ، وهي

أدنى إلى التأشير الجمالي منها إلى الدلالة على كثرة العم

وطول اللَّيْلِ ، وشبَّات النُّجُومِ وبطنها ، فقد تصورها جمراً في

مصطلى أخضر ، جلته ريح المَبَا ، وجعلته شديد التوهج ،

ويكفي بالصُّورة على كل حال عن طول ليل الحرمان والفراق .

أما "جَحْظَةُ البرمكي" فيمنح الكواكب مفةً فيها حيوية وحركة

من صورة "ابن المعتز" إذ يجعل بها حراناً يمنعها الانقياد

(٤)

في سيرها ، والاتجاه صوب المغيب كما يقول :

(١) ديوان أبو العلاء المعري ، سقط الزند ص ٢٠٦ .

(٢) ديوان ابن المعتز ص ٣٩ .

(٣) السابق ص ٢٠٨ .

(٤) نثار الأزهار ص ٢٥ .

وليلٍ في كواكبه حرانٌ فليسَ لِطُولِ مَدَّتِهَا انْتِهاءُ

الدّابة الحرون هي التي ترفض المسير ، والكواكب مثلها
بطيئة السير ، تتأبى على راعيها ، ولذا فلن يمضي اللّيل
وفي كواكبه حران ، ويرى "علي بن غالب" أنّ النّجوم بدّلت
سيرها فقدمت المشارق بدلاً من المغارب: (١)

كَانَ نَجُومَ اللَّيْلِ بُدِّلَ سَيْرُهَا فَمَارَتْ إِلَى نَحْوِ الْمَشَارِقِ تَقْصِدُ
فالشّاعر حين استطال الليل تخيل أنّ النّجوم خالفت عن
سننها فتركت الغربَ واتجهت نحو الشرق الذي جاء منه ، فطال
الليل لأنّ الشّاعر يعرف أنّ ذهاب اللّيل مرتبط بغروب النّجوم .
ويقول "ابن هذيل" إنّ النّجوم اخطأت مجاريها لما
استراحت هدوء الليل : (٢)

كَانَ رَرَارِيهِ اسْتَرَابَتْ هُدُوءُهُ

فَأَخْطَتْ مَجَارِيهَا فَلَيْسَ لَهَا طُرُقُ

النّجوم اخطأت طرقها ومجاريها ، فهي في حالة فوضى كما
يقول "سعيد بن العاصي": (٣)

كَانَ نَجُومَ اللَّيْلِ قَيَّدَهَا الدُّجَى وَأَوْقَفَهَا فِي مَوْضِعٍ لِاتْرِيْمُهُ
فَبَاتَتْ عَلَى الْخُضْرَاءِ فَوْضَى كَأَنَّهَا حَيَارَى سَوَامٍ غَابَ عَنْهُ مُسِيمُهُ
فهذه النّجوم التي قيدها الظلام وأوقفها في مكان

لاتريده لاتستطيع الغروب ، ويبدو من الصّورة أن أفضل مافيها
متأثر بصورة "النابغة" التي جرّت وراءها رتلاً كبيراً من
الشّعراء على تعاقب العصور: "وليس الذي يرعى النّجوم بأيّ"
لأنّ ما زاد فيها عند "سعيد بن العاصي" يمكن استنباطه من صورة
النابغة الأكثر تأثيراً وإيحاء ، ولما فقد "التنوخى" النّوم
اتهم النّجوم باغتمابه منه فنامت ، وباتت حائرة في السماء

(١) نثار الأزهار ص ٢٧ .
(٢) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص ١٥٤ .
(٣) السابق ص ١٥٥ .

(١)

لاتغيب :

وَلَيْلَةٌ مُّشْتَاقٌ كَأَنَّ نُجُومَهَا قَدْ اغْتَصَبَتْ عَيْنَ الْكَرَى فِي نَوْمٍ

النَّجْمِ نَائِمَةٌ وَالنَّائِمُ لَا يَسِيرُ وَلَا يَمْضِي ، وَالشَّاعِرُ بِهَذِهِ
الصُّورَةِ يَمْوِّرُ لَيْلَ الشُّوقِ وَالْحَرْمَانَ بِالطَّوْلِ ، وَعَنْ حَيْرَةِ النَّجْمِ
فِي السَّمَاءِ يَقُولُ "ابن حزم الأندلسي" :

وَالنَّجْمُ قَدْ حَارَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ فَمَا

يَمْضِي وَلَا هَوَ لِلتَّغْوِيرِ مُنْصَرِفًا

تَخَالُهُ مُخْطِئًا أَوْ خَائِفًا وَجِلًا

أَوْ رَاقِبًا مَوْعِدًا أَوْ عَاشِقًا دَنِفًا

اللَّيْلَةُ لَيْلَةُ حَرْمَانَ وَشُوقٍ ، وَنَجْمُهَا فِي أَفْقِ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ
الْحَيْرَانَ الْمْتَرِدِّدَ ، فَلَمْ يَمْضِ وَلَمْ يَغِبْ ، فَكَأَنَّهُ الْمَخْطِئُ
الْخَائِفَ أَوْ مَرَاقِبَ مَوْعِدًا أَوْ عَاشِقَ دَنِفٍ ، وَهَذِهِ أَوْصَافُ نَفْسِيَّةٍ
تَمْوِّرُ بَعْضَ الْحَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ - لِلْخَائِفِ ، وَمَرَاقِبِ الْوَعْدِ ،
وَالْعَاشِقِ وَمَا يَعْكُسُهُ ذَلِكَ عَلَى تَمَرَفَاتِهِمْ مِنْ حَيْرَةٍ وَقَلْقٍ وَتَرْدٍ ،
وَوَصْفٍ بِهَا حَيْرَةِ النَّجْمِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي كَانَ مِنْ شَوَاهِدِ
طَوْلِهَا حَيْرَةَ النَّجْمِ وَعَدَمِ غِيَابِهِ ، وَعَنْ لَيْلَةٍ وَعَدَ لَمْ يَزِرْ فِيهَا
الْحَبِيبُ قَالَ "ابن بابك" :

فَيَا لَيْلَةَ كَأَنَّكَ لَمَوْعِدِ بَيْنِنَا وَفَقَا

أَرَقْتُ فَلَمْ أَجِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ نُجُومِهَا قَرَقَا

كَأَنَّ بِشُغْبِهَا خَوْفًا حَمَاهَا النَّوْمَ أَوْ عَشَقَا

ضَلَلْنَا بِهَا فَمَا يَمَّمَنَّ لَا غَرْبًا وَلَا شَرْقَا

وَعَدَ الْحَبِيبُ فَأَخْلَفَ ، وَأَمَضَى الشَّاعِرُ اللَّيْلَ مُنْتَظِرًا ،
فَاسْتَطَالَ اللَّيْلَ فَعَبَّرَ عَنْ طَوْلِهِ بِأَنَّ الشُّغْبَ كَانَ بِهَا خَوْفًا مَنَعَهَا
النَّوْمَ ، أَوْ أَنَّ عَشَقًا أَصَابَهَا فَتَاهَتْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَمَا اتَّجَهَتْ

(١) يتيمة الدهر ٢/٣٩٥ .

(٢) طوق الحمامة ص ٢٢٣ .

(٣) ديوان الشعر العربي ٢/٤٦٤ .

لاشرفاً ولاغرباً .

ومع أنّ العلم الحديث قد أثبت أنّ كروية الأرض ودورانها حول نفسها سبب ظاهرتي الليل والنهار فدوران الأرض هو الذي يأتي بالليل وبالنهار وكنت أعتقد أنّي سوف أجد من بين شعراء العصر الحديث من يجعل الأرض علة في طول الليل كأن يصفها بالثبات ، أو أن دورانها بطيء ... ولكن البحث لم يهدني إلى شيء من ذلك ، وإنما وجدت المور القديمة والتعبيرات السابقة تكرر بعينها ، أو بشيء من التوليد والتشويق لمورها . "فالبارودي" من شعراء العصر الحديث

(١)
يقول عن إحدى ليالي الحرمان :

لَيْلٌ غِيَاهِبُهُ حَيْرَى ، وَأَنْجُمُهُ

حَسْرَى ، وَسَاعَاتُهُ فِي الطُّولِ كَالِحَجَجِ

فالظلمات حيرى واقفة والنجوم كليلة ضعيفة لاتقوى على

السير .

(٢)

وقال "خليل مطران" :

رُبَّ لَيْلٍ مُّحَيَّرُ النُّجْمِ غَضٌّ فِيهِ لَا يَهْتَدِي الضُّلُوكُ طَرِيقًا

(٣)

وقال "ضياء الدين رجب" :

وَلَيْلٍ كَلِيلٍ "النَّابِغِي" مُؤَرِّقٍ شَقَالٍ مَرَايِهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ

فهذه كلّها صور تصوّرها الشاعر القديم "وكان النجوم

بكل مغار الفتل شدت بيدبل" .

إنّ جمود شعور الشاعر له انعكاس خطير على اللغة

وتطوّرها وعلى أحوال المجتمع المختلفة ، إنّ الشاعر - أكثر

من سواه من الأدباء - هو الذي تمنح^{اللغة} عن طريق لغته الشعرية

(١) ديوان البارودي ١٥٣/١ .

(٢) ديوان خليل مطران ٤٧/١

(٣) ديوان ضياء الدين رجب ص ١٨٥ .

المتجددة مزيداً من الحيوية والتجدد بعامة ، تراكيبها ودلالاتها ، ويمنح المتلقين من وراء ذلك تجدد الشعور ، وغزارته ، فيتجدد بذلك نهر الحياة ، ويزداد تدفقاً وجرياناً ويمير المجتمع بعامة أكثر قابلية ، وميلاً للإبداع .

أمّا جمود لغة الشاعر في تراكيب ودلالات لاتتغير فهو جناية أية جناية على الشعر ولغته ، وعلى الشاعر وعلى وجدان المجتمع .

وبملاحظة المور السابقة ندرك أن خيال الشاعر المتلبس بهذه المور نابع من واقع الشاعر ، فالبدوي يرى أن طول الليل سببه أن الذي يرعى النجوم ليس بآيب .

والحضرى الذي تغيرت ظروف بيئته ، يرى أن طول الليل مرده إلى أن النجم إما أخطأ طريقه ، أو هو خائف وجل أو ينتظر موعداً من حبيب ، فهو لا يريم من مكانه ، أو هو عاشق دنف ، دلّه الحبّ وحيره .

والعنصر الثالث الذي استعان به الشعراء المحرومون في التعبير عن إحساسهم بطول الليل هو عنصر النهار بفجره وصباحه ونوره .

فكثير منهم يتساءل عن الصّباح (أياليلُ ماللصّبحِ منك بعيدُ ؟) وبهذا الاستفهام يصوّر "قيس بن الملوّح" ليله بالطول وإذا كان "قيس" يستفهم من الليل عن الصّباح فإنّ "بشاراً" يسأل الذين حوله عنه :

أَأَبْرُ هَلْ لِهَذَا اللَّيْلِ صُبْحٌ ؟ وَهَلْ بِوَصَالِ مَنْ أَحَبَبْتُ نُصْحٌ ؟
(٣)

ويقول أيضا :

(١) ديوان قيس بن الملوّح ص ٨١ .
(٢) ديوان بشار بن برد ١٠٧/٢ .
(٣) السابق ٧٧/٢ .

خَلِيلِيَّ مَا بَالَ الدَّجَى لَاتَزْحَزَحُ وَمَا بَالَ فُسُوءِ الصَّبْحِ لَا يَتَوَسَّحُ ؟
أَفَلَّ الصَّبَاحُ المُسْتَنْيرُ سَبِيلَهُ أَمْ الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ لَيْسَ يَبْرَحُ ؟

ليس الصَّبَاحُ في حدِّ ذاته مطلباً للشَّاعر ، وإنَّما يتساءل عنه بهذه الاسئلة ، لأنَّه يرى فيه خلاصاً من ليل الحرمان الَّذي غدا دهرأ لا يتزحزح في خياله ، فلعلَّ الصَّبَاحُ ضلَّ طريقه ولم يأت ليخلِّصه من ليله الثقيل ، الَّذي حُرِّم فيه لقاء الحبيب .

ويستوقف الباحث من أسئلة "بشار" هذا السُّؤال الَّذي يخفي وراءه حقيقة نفسية لا يمكن تجاهلها .. "فبشار" أعمى ، وكلُّ حياته ليل لاصباح له ، والاقوات جميعها تمضي على سنن واحد ، فالنَّهار كالليل ، والليل كالنَّهار ، وهذا الفقد يمثِّل المحنة الاساسية في حياة "بشار" الاعمى ، فإذا وصف ليله الطويل بأنَّ الدهر كلُّه ليل فلاغرابة فيه ، ولاخروج عن الواقع الَّذي يحسه .

ويتساءل "ابن المعتز" (ما بالُ لَيْلي لا يَرى فَجْرَهُ) اللَّيْلَةَ
الَّتِي لا يَرى بها الحبيب لافجر لها ، وهو كذلك يرى أنَّ الحجر
ليل بغير غد :^(٢)

مَالِي أَرَى اللَّيْلَ لِاصْبَاحَ لَهُ مَا الْحَجْرُ إِلَّا لَيْلٌ بغيرِ غَدِ
"مالي أرى !" رؤية خاصة بالشَّاعر تجاه ليل الحرمان ،
فهو يراه بلاصباح ، غير أنَّ الشَّاعر يعلِّل سبب هذه الرؤية بأنَّ
ليل الحجر والحرمان بغير صباح ، فهو ليل ممتد بلاآخر أو أنَّ
ليل الحجر يبقى على شبابه ولايشيب ، كما يقول "أبو العلاء
المعري" :^(٣)

أقولُ وَقَدْ طالَ لَيْلي عَلَيَّ : أَمَا لِشَبَابِ الدَّجَى مِنْ مَشِيبِ ؟
فالتَّليل كالإنسان في تموُّر الشَّاعر ، له شباب ومشيب ،

(١) ديوان ابن المعتز ص ٢٠٩ .

(٢) السابق ص ١٦٣ .

(٣) سقط الزند ص ٢٠٦ .

فشبابه أن يكون ظلامه أسود حالكاً ، وشيبه أن يبيض وبياضه كناية عن زواله ، وحلول الصبح محله ، والصورة في حقيقتها من الصور التي أبلها الذين سبقوا "المعري" بكثرة الاستعمال ولا يعيد إليها جدتها أن تنسب إلى شيخ المعرة .

ومثل مانادي "بشار" صاحبه وسأله عن صباح ليلته فعل
(١)
"مهيار" فقال :

أيا صاحبي أين وجه الصّباح ؟ وأين غدٌ صِفَ لِعَيْني غدا
أصدّوا مسارحَ ليلِ العِرا م ق أم صَبَعُوا فجره أسوداً ؟
طال اللّيل على الشاعر ، فاشتاق إلى الصّباح ، فتساءل
في لهفة عن وجهه ، وعن الغد ، وطول اللّيل أنسى الشّاعر
النّهارَ فيطلب من صاحبه أن يمفه . وما سبب تأخّر الصّباح ؟ هل
سدّت مسارب اللّيل فليس له طريق يمضي فيها ، أم أن الصّباح
صُبغ بالسّواد فأصبح امتداداً للّيل . وأخال "مهيار" في صورته
هذه الكثيرة الشّعاب والإيحاءات إنّما كان يعنى اللّيل
المعنوي ، الذي جعل اللّيل والنّهار متشابهين في السّواد ،
فهو يقول : إنّ ليل الاستبداد والقهر طال ، وإن أحداً سدّ
عليه الطرّق فلا يبرح ، ولهذا زاد شوقه لصبح العراق الذي
تأخّر .. وطلب إلى الوصّافين أن يصفوا له هذا الصّبح الذي لم
يره من عهد طويل .. أم أن الأمر أبلس عليه ، فالصّبح لن
يأتي لأنهم صبغوا فجره بالسّواد .

والباحث يعدّ هذه الصّورة من المبتكرات القلائل في
موضوعها .

و"العباس بن الأحنف" يطلب من الراقدين حوله أن يصفوا
(٢)
له النّهار :

(١) مختارات البارودي ٣٠٥/٤ .

(٢) ديوان العباس بن الأحنف ص ١٥٧ .

أَيَّهَا الرَّاقِدُونَ حَوْلِي أَعِينُوا مَ نِي عَلَى اللَّيْلِ حِسْبَةً وَائْتَجَارَا
 حَدَّثُونِي عَنِ النَّهَارِ حَدِيثًا أَوْ مِفْؤُهُ فَقَدْ نَسِيتُ النَّهَارَا
 الشَّاعِرُ سَاهِرٌ بَيْنَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ النَّائِمِينَ الَّذِينَ تَرَكَوهُ
 وَحِيدًا يَعْانِي اللَّيْلَ الطَّوِيلَ الَّذِي مِنْ طَوْلِهِ أَنْسَى "الْعَبَّاسَ"
 النَّهَارَ ، فَطَلَبَ مِنْ مُحِبِّهِ النَّائِمِينَ أَنْ يَحْدِّثُوهُ عَنِ النَّهَارِ
 أَوْ يَمْفُؤُوهُ لَهُ ، وَلَوْ طَلَبَ هَذَا الْوَصْفَ مِنْ غَيْرِ الرَّاقِدِينَ لَكَانَ
 أَجُودَ ، لِأَنَّ الرَّاقِدِينَ نَاعَمُونَ بِرِقَادِهِمْ ، وَلَا يُوَدُّونَ التَّعْجِيلَ
 بِظُلُوعِ الصَّبَاحِ .

(١) و"ابن التعاويذي" يسأل نفسه عن فجر ليلته فيقول :

أَلْفَجْرِ لَيْلِكَ بِالثَّنِيَةِ مَطْلَعُ

وَلِمَا انْقَضَى مِنْ عَهْدِ رَامَةَ مَرْجِعُ ؟

الشَّاعِرُ يَتَسَاءَلُ عَنِ الْفَجْرِ لِيُوحِي بِطَوْلِ لَيْلِهِ بَعْدَ انْقِضَاءِ

عَهْدِ رَامَةَ .

(٢) وَيَتَّجَهُ "سَعِيدُ بْنُ حَمِيدٍ" إِلَى اللَّيْلِ يَسْأَلُهُ عَنِ الْغَدِ :

يَالَيْلُ بَلْ يَا أَبَدَ أَنَا نَائِمٌ عَنْكَ غَدٌ ؟

يَالَيْلُ لَوْ تَلَقَى الَّذِي أَلْقَى بِهَا أَوْ تَجِدَ

قَمْرًا مِنْ طَوْلِكَ أَوْ ضَوْعَفَ مِنْكَ الْجَلْدَ

يُنَادِي يَالَيْلُ ثُمَّ يَسْتَدْرِكُ بِلِ يَا أَبَدَ ، فَهُوَ لَيْلٌ لَطْوَلُهُ غَدَا
 وَكَأَنَّهُ الْإِبَدُ ، ثُمَّ يَسْأَلُهُ أَنَا نَائِمٌ عَنْكَ غَدٌ ؟ هَلْ بِقَاؤِكَ يَمْتَدُّ
 فَوْقَنَا كَالْإِبَدِ ؟ لِأَنَّ الْغَدَ نَائِمٌ عَنْكَ فَلَا يَأْتِي لِيُخْلِمَنَا مِنْكَ ،
 وَالشَّاعِرُ مِمَّا يَجِدُ فِي كَرْبِ عَظِيمٍ ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ لَوْ تَلَقَى الَّذِي
 أَلْقَاهُ مِنَ الْكَرْبِ لَقَمَرْتَ مِنْ طَوْلِكَ ، أَوْ لَضَوْعَفَ مِنْ جِلْدِكَ لَتَقَوَى
 عَلَى الْإِحْتِمَالِ ، وَقَدْ بَرَعَ "سَعِيدُ بْنُ حَمِيدٍ" فِي تَرْكِيْبِ هَذِهِ
 الصُّورَةِ الَّتِي نَجَدُ أَمْدَاءَهَا الْبَعِيدَةَ فِي نَفْسٍ مِنْ شَقْوَا بِطَوْلِ

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٦٤ .

(٢) نثار الأزهار ص ٢٥ .

الليل وَجَدًا وسَهْدًا وتعباً ، وعلى نحو من هذا يقول "أحمد شوقي" :^(١)

قلبٌ يذوبُ ، ومدمعٌ يجري ياليلُ هلْ خبرٌ عنِ الفجرِ ؟

فبعد أن وصف مواجهه ودموعه ينادي الليل يسأله عن

أخبار الفجر كناية عن طول ليله ، ويقول "علي الجارم" :^(٢)

ياسارقاتِ الصُّبحِ طالَ ليَّلي فدَيْتُكُنَّ بَعْضَ هَذَا الدَّلِّ !
هلْ جازَ في دِينِ الغَرامِ دُئي ؟ مَنْ لي بِأَنَّ ألقى الصُّباحَ مَنْ لي ؟
باللَّمحِ أوِ باللَّمسِ أوِ باللَّثمِ

الحبيب الغائب سرق الصُّبح ، فطال الليل على الشاعر

وامتدَّ ومادام الأحبة غائبون - وهم سارقو الصُّباح - فلن يجيء

الصُّباح إلا بمجيئهم ، وقوله "سارقات الصُّباح" جملة توحى

بأميرين : جمالهنَّ ، وطول ليله لَمَّا حُرِمَ منهن . ثمَّ يشير إلى

طول ليله بهذا الاستفهام المتحسر : من لي - بأن ألقى

الصُّباح - من لي ؟ وتكرار "من لي" تشير إلى لهفة الشاعر إلى

لقاء الصُّباح ، وهو يوَدُّ أي لقاء للصُّباح بأية حاسة باللَّمح

أو اللَّمس ، ولو قال باللَّم بدلًا من "باللَّم" لبلغ غاية

الجودة في بيان ما في نفسه من لهفة إلى الصُّباح ، إذ يعبر

عن أغلب لهفة حواسه لمحا ولمسا وشمًا ثمَّ إنَّ "لمسا" تُغني عن

اللَّم . وأما قوله : "ياسارقات الصُّبح" فهو من قول "أبي

الطيب المتنبي" : (أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب) ، أخذن^(٣)

الصُّباح - وغبن - فامتدَّ الليل في طوله على غير ما اعتاد

الشاعر منه فآلمه وأهمه ، ولمَّا طال افتقاده للصُّباح قال

أعيدوه لي ، فهو عند الكواعب ، فعودة الصُّباح مرتبطة بعودة

الملاح .

(١) الشوقيات ١٢٧/٢ .

(٢) ديوان علي الجارم ص ٤٢٦ .

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ٢٧٤/١ .

وإذا كان "المتنبّي" أشار إلى طول ليله من خلال الصّباح - بطلب إعادته - بخلاف من أكثروا الاستفهام عن الصّباح ، فهناك طرق أخرى للتعبير عن طول الليل من خلال عنمر الصّباح غير السؤال عنه وذلك :

(١)
بأن يدّعي الشّاعر موت الصّباح . قال "ابن السّاعاتي" :
طَالَ لَيْلِي طُولَ وَجْدِي بِكُمْ فَرَمَانِي لَيْلَةٌ مَاتَ ضُحَاهَا
استطال اللّيل فوصفه بطول وجده بأحبائه ، ورأى أنّ
الزّمان ليلةٌ مات ضحاها ، والميت لا يأتي ، فسوف يمتدّ الليل
ولا ينقضي .

(٢)
ويرى "العرفي" أن ليلة العاشق قد شكّلت فجرها :
يَالَيْلَةَ طَالَتْ عَلَى عَاشِقٍ بَاتَ مِنَ الْوَجْدِ عَلَى جَمْرٍ
كَلِيلَةَ الْمِيلَادِ فِي طُولِهَا تَسْبَحُ فِيهَا الْعَيْنُ بِالْقَطْرِ
كَأَنَّهَا شَكَلَى جَنِينٍ لَهَا أَعْرَقَ قَدْ سَمَّتَهُ بِالْفَجْرِ
ليلة العاشق من طولها شكّلت فجرها الذي هو منها
بمثابة الوليد وهي صورة لطيفة .

وقد يصف بعض الشعراء صباح ليلة الحرمان ببعض الصفات
المعنويّة التي تميل إليها النّفوس ، من نحو الجود أو
الوفاء ، قال "جحظة البرمكي" عن إحدى لياليه :
عِدْمَتُ تَبَلُّجِ الْإِصْبَاحِ فِيهِ كَأَنَّ الصُّبْحَ جُودٌ أَوْ وِفَاءٌ
ويبدو من قرينة البيت أنّ الشّاعر كان في زمنه يشقى
بالعدم وأنّ الجود والوفاء كانا شحيحين ، نادرين ، ومن ثمّ
سأغ أن يُقبل منه هذا التّشبيه . وقال "الأخرس" وهو يعيش ليل
الحرمان :
(٤)

(١) ديوان الشعر العربي ١٥٧/٣ .
(٢) السابق ٣١٢/٣ .
(٣) نثار الأزهار ص ٢٥ .
(٤) ديوان الأخرس ص ٥١١ .

أرجو الصَّباحَ ولاصباحَ كَأَنَّهُ كَرَمٌ يُرْجَى مِنْ أَكْفٍ لِنَامٍ

ويبدو أنّ "الأخرس" أيضاً كان على شاكلة "جحظة البرمكي" يعاني ممّا يعاني من سُحِّ الموارد ، وندرة الكرام ، ومن ثمّ كان في ليله الطّويل يُرْجَى طلوعَ الصُّبح كما يُرْجَى الوفاء والكرم في عصره . أمّا "الأخرس" فكان قدوم الصُّبح في ليلته كرجاء الجود من يد لنيم ، وهو في رأى الباحث أدقّ من صاحبه لأنّ الظنّ يخيب دائماً في اللثام .

وجعل بعضهم الصُّبح كالنّور للاعمى ، قال "سيدوك

(١)

الواسطي" :

فَأَلَانَ لَيْلِي مَدًّا غَابُوا - فَدَيْتَهُمْ -

لَيْلُ الْفَرِيرِ فَمُبْحِي غَيْرُ مُنْتَظَرٍ

قوله "ليل الفرير" وصف ليل بالظّول ، إذ لاصباح له ،

ولكن انبلاج الصُّبح يظل للاعمى أملاً جميلاً يحلم به كل وقت .

(٢)

ووصف "ابن هارون" صباحه بالفائب الذي ليس يرجع :

وطال انتظاري للصُّباح كأنني أراقب منه غائباً ليس يرجع

فصباح ليل الحرمان ليس يُرْجَى قدومه كما يقول "سعيد بن

(٣)

العاصمي" :

مَابَالُ مُبْحِي قَدْ تَقَارَبَ خَطْوُهُ وَأَبْطَأَ حَتَّى لَيْسَ يُرْجَى قَدَوْمُهُ

فالشاعر لمّا استطال الليل جعل الصُّباح يمشي بخطى

متقاربة ، فيقطع المسافات القصيرة في زمن طويل فأبطأ

فلا يرجى قدومه . أو هو "مبْحُ بَطِيءُ الطَّالِبِ" كما يقول

(٤)

"التهامي" .

ولمّا فقد "ابن المعتز" الأمل من صباح ليلته جعل آخرها

(٥)

يوم القيامة فقال :

(١) من غاب عنه المطرب ص ٩٥ .

(٢) التشبيهات من أشعار الأندلس ص ١٥٥ .

(٣) السابق ص ١٥٥ .

(٤) ديوان التهامي ص ١١٧ .

(٥) من غاب عنه المطرب ص ٩٥ .

أَقُولُ إِذْ آيَسْتُ مِنْ مُبِحِهَا آخِرُ هَذِهِ اللَّيْلَةِ الرَّاجِرَةِ

و"أحمد شوقي" يجعل الصّباح رهينة الحشر :^(١)

وتطاوَلتْ جُنْحًا فُخِّيلَ لِي أَنَّ الصَّبَاحَ رَهِينَةُ الحَشْرِ

خُيِّلَ إِلَى الشَّاعِرِ لَمَّا اسْتَطَالَ لَيْلَ الحَرَمَانِ أَنَّهُ لَنْ يَرَى

الفجر إلا يوم الحشر ويمرّح بهذا في نص آخر فيقول :^(٢)

ولَيْلٍ كَانَتْ الحَشْرَ مَطْلَعُ فَجْرِهِ تَرَائَتْ دُمُوعِي فِيهِ سَابِقَةَ الفَجْرِ

فطلوع الصّبح عنده مقرون بيوم القيامة ، وقد حسبه

الشّاعر بعيداً ، ويجوز أن يكون قريباً ، فعلم ذلك عند الله

والتشبيه في رأي الباحث تشبيه عامّي ليس على مستوى كثير من

المّور التي أبدع فيها "شوقي" ولاسيّما أن كثيرين لهجوا بهذه

المّورة قبله ، وقد يقرن الشّاعر بين غياب حبيبه وغياب

الشمس فيرى أنّها لن تطلع إلا بطلوعها كما يقول "ابن عبد

ربه" :^(٣)

كَأَنَّ الشَّمْسَ لَمَّا غَبَّتْ غَابَتْ فليس لها على الدُّنيا طُلوَعُ

غاب الحبيب عن ليل الشّاعر ، فامتد به الليل وطال ،

وكأنّ الشمس قد غابت مع الحبيب ، فلن تطلع ، وستكون أوقات

الشّاعر كلها ليلاً طويلاً لانهار له ، وقد يفقد الأمل في الفجر

كما فقدّه "ابن المعتز" :^(٤)

يَارَبِّ مَالِي مَبْرُ ولاليلي فَجْرُ

أو السبيل إلى النّهار كما يقول "ابن حزم" :^(٥)

فليس إلى النّهار لنا سبيلٌ وسُهدٌ زائدٌ في كلِّ حين

فلا يجد أثراً للصّباح كما يقول "محمد النّعمان" :^(٦)

(١) الشوقيات ١٢٧/٢ .

(٢) السابق ص ١٢٦ .

(٣) ديوان ابن عبد ربّه ص ١٢٥ .

(٤) ديوان ابن المعتز ص ٢١٠ .

(٥) طوق الحمامة ص ٧٥ .

(٦) يتيمة الدهر ٤٦٦/١ .

طالَ حَتَّى خَلَّتْهُ لَايَنْقُضِي وَنَأَى الصُّبْحُ فَمَا مِنْهُ آثَرُ

لاأثر للصباح في الليل الذي طال لغياب الحبيب فيصبح
الشاعر في الليل يسأله عن السحر :
(١)

كَلَّمَا هَيَّجَ شَوْقِي حَزَنِي صَحْتُ يَا لَيْلِي أَمَا فِيكَ سَحَرٌ

وقد يعبر عن تأخر الصبح بأن الفجر خائف من الإقدام
على الليل كما يقول "ابن المعتز" :
(٢)

وَكَأَنَّ الْفَجَرَ ، حِينَ رَأَى لَيْلَةً قَاسِيَةً ، هَابًا

وقال "البارودي" :
(٣)

كَأَنَّمَا الصُّبْحُ خَافَ اللَّيْلَ حِينَ رَأَى

ظَلْمَاءَهُ ذَاتَ أَسْدَادٍ فَلَمْ يَلِجْ

فالصبح عند الشعارين خاف الإقدام على الليل ، إما

لأنه رأى قسوة ليلة "ابن المعتز" فهاب ، وإما لأنه رأى

الظلماء ذات أسداف فخشي اقتحامها كما زعم "البارودي"

وكلاهما شديد القرب من صاحبه ، و"ابن هذيل" يرى أن الصبح

يخشى تانيب أهل الهوى فاتخذ من الليل نقابا :
(٤)

كَأَنَّ مُبْحِي يَخْشَى أَنْ يُؤَنَّبَهُ

أَهْلُ الْهَوَى فَاخْتَفَى بِاللَّيْلِ وَأَنْتَقَبَا

ويعكس "ابن هارون" الصورة ويجعل الصبح هو المخيف :
(٥)

كَأَنَّ سَوَادَ الشَّوْقِ جَيْشٌ مَدْرَعٌ تَرِيثَ فِيهِ خَوْفَ مَبْحٍ يَهَاجِمُهُ

والصورة في زعمي - مع أن ابن هارون - اتكأ فيها على

من سبقه متكلفة ، خيالها سقيم ، لأنه جعل الشوق أسود ،

وإذا جاز اتصاف الشوق بالسواد فلا يكون شوق الاسوياء ، إنما

يكون شوق الملتاشين ، ثم جعل لهذا الشوق جيشاً مدرعاً تريث

(١) السابق ٤٦٧/١ .

(٢) ديوان ابن المعتز ص ٣٩ .

(٣) ديوان البارودي ١٥٣/١ .

(٤) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص ١٥٤ .

(٥) السابق ص ١٥٣ .

فيه خوفٌ صبح يهاجمه ، فالشوق الأسود يخشى بياض الصبح أي أن قوام الصورة مقتبس ، لكن الشاعر أفسدها بتوليداته .

أما "ابن النحاس" فيرى في الشرق باباً للدُّجى (١) :

فكانَّ الشَّرْقَ باباً للدُّجَى ماله خوفَ هجومِ الصُّبحِ فَتَحُ

وبهذه الصورة أو خلفها من نحو "موت الصبح" أو أنه "جود في أكف لثام" أو وصفه "بالغائب الذي لا أثر له" أو لأمل في عودته ، أو جعله "رهينة الحشر" أو أن "الحشر مطلع فجره" أو بالتساؤل عنه .. بهذه الصور صور الشاعر إحساسه باستطالة ليل الحرمان من خلال الصبح .

وخلاصة ما يقال عن الليل الطويل في رؤية الشاعر المحروم أن الشعراء المحرومين لما فارقهم أحبابهم ، أو لم يجدوا وسيلة إلى لقاءهم استطالوا الليل الذي سهروا فيه للفراق ، غير أننا نظفر بشاعر يجعل المتفرغ لاستطالة الليل خالياً من الهموم وهو الذي يقول : (٢)

لَسْتُ أَذْرِي أَطَالَ لَيْلِي أَمْ لَا كَيْفَ يَذْرِي بِذَاكَ مَنْ يَتَقَلَّى
لَوْ تَفَرَّغْتُ لِاسْتِطَالَةِ لَيْلِي وَلِرَعْيِ النُّجُومِ كُنْتُ مُخَلَّى

(٣) البيتان ينسبان "لابي تمام" وينسبان "الخالد الكاتب" .

يقول صاحب الزهرة : "فهو وإن كانت جهالته بحاله دالة على قوة اشتغاله فإن علمه بالعلّة التي أوجبت جهله بها ضرب من الفلسفة التي لا يملح أن يعلمها إلا متخلّ من هذه الحالة كلّها . ففرّ من شيء ووقع في أعظم منه ، ألا ترى أن البهائم تجد ألم ماينالها وتظهر التآدي به ؟ وليس يعلم أن الاشتغال (٤)

بالألم يمنع من وصفه ... " .

(١) ديوان الشعر العربي ٣/٣٠٦ .

(٢) الزهرة ١/٣٨٢ .

(٣) محاضرات الأدباء ص ٢٩٦ .

(٤) الزهرة ١/٣٨٢ .

صحيح أنّ الاشتغال بالألم لا يمنع من وصفه ، غير أنّ
 الشّاعر انصبّ تفكيره على همومه وأحزانه ، وترك الواقع
 الخارجي وذهب إلى داخل نفسه يفكّر فيما ألمّ بها ، ألا يكون
 الشّاعر معموماً في لياليه ، إلا إذا وصف اللّيل بالطّول ووصف
 النّجوم بالبطء وبات يرهاها ويراقبها ؟ ... قد تمرّ على
 الإنسان ساعات ينسى فيها كل ما حوله وينصبّ تفكيره على
 ما بداخله وهذا ما قصده الشّاعر وأشار إليه ، ثمّ ليس حتماً أن
 يكون قد قال ما قال في ليلته فقد يصف ما مرّ به بعد وقت غير
 قليل من حدوثة فيستعيد التّجربة التي مرّت به ويعبّر عنها
 في غير وقتها .

وهذان البيتان يمثّلان صورة غير مطروقة تعبّر عن حقيقة
 نفسيّة صادقة ، فمتى ألمّ الهمّ الصادق انصرف بما حبه عن كثير
 من واقعه الخارجي .

ولقد خالف بعض الشعراء ادّعاء الطول لليل في غياب
 الحبيب ، فقد وجدوا في ذكر الحبيب ما يقمر ليلهم ويخفف
 بعض ما بهم . قال "أبو تمام" (١) :

سَهَرْتُ فِيكَ فَلَمْ أَجِدْ يَدَ السَّهْرِ

وَطَالَ فِكْرِي وَلَا عَتَبْتُ عَلَى الْفِكْرِ

نَادَمْتُ ذِكْرَكَ وَالظَّلْمَاءُ عَاقِبَةُ

فَكَانَ يَا سَيِّدِي أَحْلَى مِنْ السَّمْرِ

فللسّهر يدٌ على الشّاعر إذ منح الشّاعر فرصة مفادمة طيف
 الحبيب باللّيل فكان ذكراً أحلى من السّمر خفف على الشّاعر
 المعاناة أو الإحساس بطول اللّيل ، ولعلّ ذكر الحبيب يقمّر
 اللّيل على الشّاعر كما قال بعضهم : (٢)

(١) ديوان أبي تمام ص ٧٣٦ .
 (٢) يثيمة الدهر ٤/٢ .

يَقْمَرُ مِنْ ذِكْرِكَ لَيْلِي عَلَيَّ أَتَيْ فِيهِ سَاهِرٌ بَاكِي

فمع أنّ الشاعر ساهر باك فإن ذكر الحبيب والتفكير به
أبعد عنه الإحساس بطول الليل .

وقال "الأرجاني" :^(١)

أُحْيِي وَأَقْتُلُ بِالْمُحْمومِ وَبِالْمُنَى لَيْلِي فَيَقْمَرُ سَاعَةً وَيَطُولُ

ففي الوقت الذي ينشغل الشاعر بذكر الحبيب يمرّ الوقت

دون أن يشعر به ، فيقصر ، ومتى انشغل بما حوله استطل
الليل ، وفي نوح آخر يدافع "الأرجاني" عن الليل فيقول :^(٢)

لَأَدَّعِي جَوْرَ الزَّمَانِ ، وَلَا أَرَى لَيْلِي يَزِيدُ عَلَى اللَّيَالِي طُولًا
لَكِنَّ مِرَاةَ الصَّبَاحِ تَنَفَّسِي لِيْلَهُمْ أَمْدًا وَجَهًا الْمَمْقُولَا

"الأرجاني" يكبر نفسه ، ويدّعي أنّه لايجري على سنن

غيره من الشعراء الذين يظهرون جور الزمان ، ويتباكون من

سهدهم ولياليهم الطويلة المؤرقة . فكيف يبثّ لوعته إذن ؟

يقول : إنّ تنفسه لهمّ أمدا وجه مرآة الصبح الممقول ،

فالشاعر إذن مهموم كثيره ، لكنّه اتقى التراكيب والعبارات

التي تداولها الشعراء لتموير همومهم ، لأنّها في زعمه كأنّما

فقدت دلالاتها لكثرة ماكررت حتّى ابتذلت ، فلم يعد لها مدلول

وسقطت قيمتها من لغة الخطاب الشعري ، وآثر أن يمور همّه

ولووعته ، وسهره ومكابدته بهذه الصورة الجديدة الفريدة .

ويقول "ابن سهل الأندلسي" :^(٣)

مَا طَالَ لَيْلِي بَعْدَهُ بَلْ نَظَرِي

يَأْتِي الصَّبَاحُ فَلَا يَرَاهُ أَبْيَا

(١) ديوان الأرجاني ص ١٠٧٤ .

(٢) السابق ص ١١٠٢ .

(٣) ديوان ابن سهل الأندلسي ص ٢٢٨ .

الشاعر يعفّ عن التّدني إلى التّراكيب الدّارجة عن السّهر
والمكابدة وطول اللّيل ، ويؤثر تركيباً جديداً يراه أكثر
أمانة في نقل مشاعره ، وأشدّ جاذبية وجمالاً ، فيقول : إنّ
ليله لم يطل ، لكنّه ذرقَ فيه الدّمعَ فلَمّا أتى الصُّبحُ لم يره
أبيض من كثرةِ مادّمت عيناه .

الفصل الرَّابِع

**خصائص الصُّورة الفنِّية
في إطار البحث**

- * التّعريف بالصُّورة الفنِّية .
- * توارد الشعراء على صور الشعر القديم توليداً وتشقيقاً ماعدا نفر قليل تميّزوا بالطرافة والابتكار.
- * موقف النّقاد من تكرار الصّورة القديمة في أشعار اللاحقين .
- * تلون الصّورة بلون إحساس الشّاعر فرحاً وحزناً .
- * أثر البيئة في تشكيل الصّورة الفنِّية .

خصائص الصورة الفنية في إطار البحث

التعريف بالصورة الفنية :

تطلق كلمة الصورة لتدلّ "على كل ماله صلة بالتعبير الحسيّ ، وتطلق أحياناً مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات" (١) والصورة وسيلة الشاعر للتعبير عن تجاربه وعالمه الداخلي ، ولنقل أفكاره وعاطفته إلى من يتلقى عنه ، وهي جوهر فنّ الشعر والهيئة التي يخرج بها المعنى ، والشاعر يستخدم الكلمات أدوات يرسم بها صوراً يرمز بها لما يعتمل في نفسه وفكره ، فوظيفة الصورة مرتبطة بالفكرة ، إمّا تقررها بالتبرير والتوضيح والشرح والتدعيم ... أو تزيئها بالجليّ والزركشة . (٥)

ومن خلال الصورة يتّضح مدى مقدرة الشاعر ، ومقدار تمكّنه من فنّه ، ويفترض أنّ تختلف باختلاف الشعراء الذين يستخدمون الصور ليعبّروا عن حالات غامضة لا يستطيع بلوغها مباشرة أو من أجل أن تنقل الدلالة لما يجدونه . والشعراء يتناولون مواد متشابهة أو غير متشابهة ، "ولكن اختلاف الصور التي تعرض فيها المادة هي التي تعطيها قيمة جمالية مختلفة" وتنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى بذاته من خصوصيّة وتأثير ، وهي لاتغير من طبيعة المعنى في ذاته ، وإنّما في طريقة عرضه وكيفيّة تقديمه ، والصورة "ذات جمال (٩)

- (١) الصورة الادبية ص ٣ .
- (٢) أصول النقد الادبي ، أحمد الشايب ص ٢٤٢ .
- (٣) نظرية البنائية ، صلاح فضل ص ٣٥٦ .
- (٤) الصورة الفنية في شعر امرئ القيس ص ٢٣٣ .
- (٥) السابق ص ٢٣٦ .
- (٦) الصورة الادبية ص ٢١٧ .
- (٧) الصورة في شعر بشار بن برد ص ٥٢ .
- (٨) الاسس الجمالية في النقد العربي ص ٢١٤ ، المرجع السابق .
- (٩) الصورة الفنية ، د. جابر عمفور ص ٣٥٨ .

ذاتي تستمدّه من اجتماع الخطوط والألوان والحركة ونحو ذلك من عناصر حسّية " ولا يحكم على موضوعها إلاّ حسب ما عالجها الشّاعر (١) من جهة قوة التّصوير ثمّ من جهة قوّة المعاني وجلالها ، فهناك (٢) أمور وأشياء قد تبدو غير شاعرية ولكنّ الشّاعر العظيم إذا أضفى عليها من شعوره وتصويره وخياله استطاع أن يملأ إلى معاني جمالية وإنسانية متى ما خلع من إحساسه على موضوعاته ، (٣) وإذا كان ذا ملكة تصويرية تمكّنه من نقل مشاهداته اليومية إلى عالم الشّعري ، فكثيراً ما تناول الشّعراء أشياء مألوفة ، (٤) وصوّروها تصويراً يجعلنا نشعر بجدّتها كلّما تمثّلنا صورهم ، وكأنّنا نعرف هذه الأشياء المألوفة لأول مرّة (٥) ، فالمعاني عامّة لدى جميع النّاس ومنهم الشّعراء ، ولكنّ العبرة في طريقة صوغ الشّاعر لها في الفاظ ، وقدرته على تصويرها ، وهذا ما يجعل بعض النّقاد يرون الجمال في طريقة التّناول لافي الموضوع المعالج . والصّور الإيحائية في الشّعري أقوى وأبعد أثراً من الصّور التّقريرية الوصفية ، فالشّعري ليس نقلاً (٦) للحقائق كما هي وإلاّ لَمَّا اختلفت عن العلم ، ثمّ إنّ غاية الصّورة أن تمكّن المعنى في النّفس لاعن طريق الوضوح ، ولكن عن طريق التّأثير ، وأجمل الصّور تلك التي تحمل شحنة عاطفية في كل جزء من أجزائها ، " فالشّعري هو الفيض التلقائي (٧) للشاعر القويّة ، إنّه ينبع من عاطفة " ولا يتأتى نقل العاطفة نقلاً سليماً إلاّ إذا أحسن الشّاعر استخدام اللّغة بكلّ ما فيها (٨)

-
- (١) بناء الصّورة الفنّية ، د . كامل البصير ص ١٦٩ .
 (٢) النّقد الأدبي الحديث ص ٣٩٠ .
 (٣) الصّورة في شعر بشار بن برد ص ٥٣ .
 (٤) النّقد الأدبي الحديث ص ٣٣٨ .
 (٥) الصّورة في شعر بشار بن برد ص ٥٣ .
 (٦) السابق .
 (٧) السابق ص ٧٩ .
 (٨) النّظرية الرومانتيكية ، سيرة أدبية ص ٤٤٣ .

من فعاليات وقوى تأثيرية وإيحائية^(١) "والعمل الفني لا يمد ولا يهيمن إلا بقيمته اللغوية"^(٢) ، والكلمات هي بنية العمل الأدبي وإذا أحسن اختيارها ولاءمت المعاني ارتفع مستوى العمل الأدبي ، وتثبت للألفاظ "الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها"^(٣) . حتى توقظ في عقول المتلقين شعوراً مماثلاً أو معادلاً لما يشعر به الشاعر^(٤) . فاللغة في أساسها تعبير عن حقائق ومساائل عقلية ، ولاتستطيع نقل انفعالات الشاعر النفسية في كل الأوقات "الذالك يحاول اصطناع لغة أخرى تسمو إلى مستوى نفسه الشائرة ، وتستطيع تصوير ما فيها من آثار القوة الوجدانية ، فيلجأ إلى الصور التي تجسم المعاني ، وتنقلها إلى درجة أرقى لتزداد قوة وجمالاً - يلجأ إلى التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو المبالغة والوسيلة البيانية التي تأخذ عناصرها من الطبيعة وتؤلف بينها بطريق التشبيه أو الاستعارة أو الكناية هي الخيال ، فهو العنصر الذي تلجأ إليه العاطفة لتعبّر عن نفسها حين تعجز العبارات الأخرى دون تحقيق هذه الغاية الأدبية"^(٥) .

فالمصورة هي الهيئة التي يُخْرِجُ بها الشاعر إحساسه والتي تحدث عند المتلقى معادلاً لإحساس الشاعر ومشاعره ، أو غير معادل وهي تشمل أمرين "أولهما العبارة اللغوية نفسها التي يمور بها المعنى تصويراً منطقياً محدود الألفاظ مستوعباً للمعاني . ثانيهما : إيراد المعنى في أسلوب أدبي يضم إلى جانب رعايته للمعنى جمال الأداء"^(٦) . ومن خلال ما مر بنا من

-
- (١) الصورة في شعر بشار بن برد ص ٨٠ .
 (٢) الصورة الأدبية ص ٢٦١ .
 (٣) دلائل الإعجاز ص ٣٢ .
 (٤) النظرية الرومانتيكية ، سيرة أدبية ص ٧٣ .
 (٥) أصول النقد الأدبي ، أحمد الشائب ص ٣٣ .
 (٦) الصورة في شعر بشار بن برد ص ٥٢ .

فصول في هذا البحث ، وجدنا أنّ للشاعر العربي رؤية خاصة تجاه الليل ، أفردت الصورة عنده بميزات وسمات ، ليست موجودة بهذا البروز والملاح في سائر موضوعات الشعر العربي وليست موجودة في أي شعر آخر بهذه الكثرة .

"وطول الليل" من أبرز المعاني التي صوّرها الشعراء في إطار هذا البحث وإحساس بطول الليل معنى إنساني مشترك ، فكيف عبّر عنه الشعراء ؟ من الصور الأصلية التي تصوّر طول الليل قول "امرئ القيس" :^(١)

ولَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُورَهُ
عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْعُمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقَلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِمُحِبِّهِ
وَأَرَدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكَلِّ
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي
بِمُصْبِحٍ وَمَا الْإِمْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فَيَاكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجُومَهُ
بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلُ شُدَّتْ بِيَدِهِ

(٢)
وقول "النابغة" :

كَلِّينِي لِهَمٍّ يَا أَمِيمَةَ نَاصِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضِ
وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاصِبِ
وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بِأَيِّبِ
وقول "المهلل" :

وَمَارَ اللَّيْلُ مُشْتَمِلًا عَلَيْنَا
وَمِنْ النُّمُوصِ السَّابِقَةِ يَتَبَيَّنُ أَهَمُّ الْمَعَانِي وَالْأَشْكَالِ الَّتِي
تَمُورُ طَوْلَ اللَّيْلِ :

(١) ديوان امرئ القيس ص ٤٨ .
(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ٩ .
(٣) موسوعة الشعر العربي ص ١٦٨ .

* اللّيل طويل ، أو ليس بمنقض .
 * كموج البحر المتردّد كلّما انتهت موجة نشأت أخرى .
 * كواكبه بطيئة أو لاتسير ، إمّا لأنّها مربوطة ، وإمّا لأنّها كالشّياح المتفرقة التي غاب عنها راعيها ، ولا أمل بعودته .

* اللّيل ليس له نهار .

الصّورة الأولى والتي صورت اللّيل بألفاظ حقيقية " اللّيل الطويل" أو هو يتناول تواردها جمعاً غير من الشعراء العرب قديماً وحديثاً وفي ثنايا هذا البحث نصوص كثيرة لشعراء مختلفين يخبرون عن طول ليلهم بعبارات تقريرية من نحو طال ليالي ، تطاول ليالي ، ليالي الطّويل ، ما أطوله ، اللّيل الطّويل ، ليل العاشقين طويل .

وإخبار عن طول اللّيل بهذه الصّفة التقريرية ليس ذا شأن فليس خليقاً بتكرار هذه الصّيغة بين مختلف الشعراء أن يجدّد شعور المتلقي بهذه الصّفة ، ولأن يسوقها إليه في معرض خيالي آخر يثري خياله وعواطفه .

وحين عبّروا عن إحساسهم بطول اللّيل من خلال اعتمادهم في التّصوير على عنصر اللّيل فقط ، فهو عند الجاهليين كلّما يمضي يعطف أوله فيعود مرة أخرى ، أو أن الهموم تكرر اللّيل (١) أو كأن اللّيل فيه مثله ، وعند سائر الشعراء موصول بأطول ليلة ، أو موصول باللّيل ، أو زيد في اللّيل ليل ، أو هو ستة ليالٍ في ليلة واحدة ، أو ليالٍ مألنٍ عديد ، أو هو من (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧) (٨)

-
- (١) سويد بن أبي كاهل ، المفضليات ص ١٩٢ .
 (٢) المرقش الأصغر ، المفضليات ص ٢٤٨ .
 (٣) ديوان عدي بن زيد ص ٧٦ .
 (٤) ديوان جرير ص ١٣٣ .
 (٥) صندوق المري ، حماسة أبي تمام ٤٢٠/٢ .
 (٦) ديوان علي بن الجهم ص ١٧٠ .
 (٧) ديوان المتنبي ٧٤/٢ .
 (٨) الشوقيات ١١٩/٢ .

(١) طوله شهر ، أو أن ساعاته أعوام ، أو ليل مقداره ألف سنة ،
 تفنى من دونه الحقب ، أن يمضي منه جنح يأتي جنح ، كأنه
 دائرة لا يعرف له طرف ، يقسم يميناً ألا يمضي ، ليل راكد ليس
 له نفاذ . ومع تنوع التراكيب فإنها لاتضيف دلالات جديدة ،
 ومع ذلك فإننا نظفر ببعض النصوص التي خرجت قليلاً عن ذلك
 النهج في التصوير والتراكيب في وصف الليل بالطول من خلال
 عنصر الليل فقط ومن ذلك قول "حسان بن ثابت" : "تأوبني ليل
 بيشرب أعسر" ، وقول "المتنبي" : "الليل مُعِي" وكذلك قوله :
 كَأَنَّ الْجَوَّ قَاسِي مَا قَاسِي فَمَارَ سَوَادُهُ فِيهِ سُحُوبًا
 "فحسان" يفضل صيغة تفعل "تأوبني" والتي تكثر الفعل
 وتفيد التجدد ثم أنه يجعل الليل أعسر ليدل على مدى
 المعبوءة التي يعاني منها .
 و"المتنبي" يجعل الليل قد أعيا عن الحركة ، وكذلك
 يجعل الجو قد عانى مما عانى منه فصار السواد ملازماً له ولم
 يلجأ إلى التراكيب والدلالات الجامدة التي توارد عليها كثير
 من الشعراء .
 ومن الصور المتميِّزة في هذا المجال قول "الأرجاني" :
 "ولليل في الأفاق وقفة حيران" ، فإن لوقفة الحيران دلالات
 واسعة ، فالحيران يقدم رجلاً ويؤخر أخرى فلاهو يمضي ، ولاهو

-
- (١) ديوان الخوارج ص ٣٤ .
 (٢) ديوان ابن الزقاق البلنسي ص ٢٦٤ .
 (٣) ديوان البهاء زهير ص ٢٦٠ .
 (٤) ديوان الشاب الظريف ص ٣٩ .
 (٥) ابن النحاس ، ديوان الشعر العربي ٣/٣٠٦ .
 (٦) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص ١٥٢ .
 (٧) ديوان التهامي ص ١٢٧ .
 (٨) ديوان بشار بن برد ٤/٤٤ .
 (٩) ديوان حسان بن ثابت ص ١٠٨ .
 (١٠) ديوان المتنبي ٣/١٢ .
 (١١) السابق ١/٢٦٧ .
 (١٢) ديوان الأرجاني ص ١٤١٩ .

يبقى في مكانه إنما هو متردد بين المضي والمكوث ، ومن هنا نجح "الأرجاني" في تموير الليل بالطول دون أن يلجأ إلى الوصف المباشر والعبارات التقريرية . وقد تميّز "ابن هذيل" في قوله :

أُكابدُ ليلًا لا يزولُ كأنَّه لِأَكْبَابِهِ فَوْقِي شَجِيٌّ مَفْكَرٌ
وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَنْجِلِي فَكَأَنَّهُ رَشِي لِي ففِيمَا نَابَنِي يَتَفَكَّرُ

ومع أن قوله "لا يزول" و"أسأله أن ينجلي" ينحو فيهما منحى الكثير من الشعراء ، إلا أنه نجح في تشخيص الليل في صورة المكبِّ الشجِّيِّ المفكِّر ، وأقام ألفة بينه وبين الليل الذي رشى له فضلَّ يفكِّر فيما أصابه . ومن الصور المتميِّزة في هذا المجال قول "حافظ إبراهيم" :

وَالدُّجَى يَخْطُو عَلَى مَهْلٍ خَطْوَ ذِي عِزٍّ وَذِي خَفَرٍ
فِيهِ شَخْصٌ الْيَأْسِ عَانَقَنِي كَحَبِيبِ آبٍ مِنْ سَفَرٍ

فالليل يخطو بخطوات وكأنَّ دهرًا بين كلِّ خطوة وخطوة ، وهي صورة على الرِّغم من حسن سبكها ، وائتلاف ألفاظها ، فإنَّها افتقدت الصِّدق في البيت الثاني ، إذ جعل الشاعر اليأس من انصرام الليل يعانقه ويطيل العناق كحبيب آب من سفر ، وهذا يوحي بأنَّ طول الليل لم يكن مملًا أو ثقيلًا كما تنمُّ الصورة ، بينما العكس هو الصحيح .

وهناك بعض الصور القليلة المتميِّزة من نحو وصف "إبراهيم ناجي" الليل "بالأبد الغليظ القلب" ووصفه الليلي الطويلة "بذات أكبادٍ حَجْرِيَّة" .

- (١) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص ١٥٤ .
(٢) ديوان حافظ إبراهيم ١٢٣/٢ .
(٣) الطائر الجريح ص ٨١ .
(٤) وراء الغمام ص ٤٣ .

• والمَّوْرَةُ الثَّانِيَّةُ الَّتِي وُصِفَ بِهَا طَوْلُ اللَّيْلِ هِيَ "بطء الكواكب" إمَّا لِأَنَّهَا مَرْبُوطَةٌ بِحَبَالٍ وَثِيْقَةٌ كَمَا صَوَّرَهَا "امرؤ القيس" أَوْ هِيَ كَالشَّيْءِ الْمَتَفَرِّقَةِ الَّتِي غَابَ عَنْهَا رَاعِيهَا كَمَا صَوَّرَهَا "النَّابِغَةُ" وَكَذَلِكَ هِيَ عِنْدَ الْجَاهِلِيِّينَ "ظَلْعٌ" لِاتِّقَايِ (١) عَلَى السَّيْرِ ، أَوْ هِيَ "حِيَارَى" ، أَوْ (مَاتُوْبٌ إِلَى مَاتَبٍ) وَعِنْدَ مَنْ سَارَ فِي نَهْجِهِمْ لِاتِّهَمِّ بِالرَّحِيلِ ، وَلَا تَرِيْمَ ، وَليْسَتْ بِزَائِلَةٍ ، لِاتِّغْرِبَ ، مَا تَزْحُجُ ، لِاتِّسْرِي ، وَالشَّعْرَاءُ بِهَذَا يَنْفُونَ الْحَرَكَةَ عَنِ الْكَوَاكِبِ وَالنَّجُومِ فِي تَصَوُّرِهِمْ مَتَى ثَبَتَتْ النُّجُومُ طَالَ اللَّيْلُ ، وَقَدْ يَمْفُونَ النُّجُومَ بِصِفَاتٍ تَدُلُّ عَلَى بَطْنِهَا ، أَوْ عَدَمِ حَرَكَتِهَا (١٠) (١١) (١٢) (١٣) فَقَدْ يَمُورُونَهَا مَقِيدَةً ، أَوْ أَسْرَى ، أَوْ نَائِمَةً ، أَوْ حَائِرَةً ، أَوْ (١٤) (١٥) (١٦) (١٧) ظَلْعٌ ، أَوْ وَاقِفَةٌ ، حَسْرَى ، بِطَيْئَةٍ . أَوْ أَقْسَمَتْ يَمِينًا بِلَا تَزُولُ .

وَحِينَ حَاوَلَ بَعْضُهُمُ النَّهْوَضَ إِلَى الْإِبْدَاعِ الْجَمَالِيِّ وَالتَّقَنُّنِ فِي الصُّورَةِ لِيَصُوِّرَ طَوْلَ اللَّيْلِ مِنْ خِلَالِ الْكَوَاكِبِ لَمْ يَزِدْ أَنْ جَعَلَ

-
- (١) سويد اليشكري ، المفضليات ص ١٩٢ .
(٢) ديوان المثقب العبدى ص ٢٣٧ .
(٣) ديوان الخنساء ص ٢٥ .
(٤) ديوان حصان بن ثابت ص ٢٥ .
(٥) الأشعب ، شعراء أمويون ص ٢٤ .
(٦) منذح المري ، حماسة أبي تمام ٤٢٠/٢ ، والعباس بن الأحنف ص ٧١ ، وأبو فراس الحمداني ص ١٣٥ ، وأسامة بن منقذ ص ٣٥٤ .
(٧) نشار الأزهار ص ٢٤ .
(٨) أوراق من ديوان ابن داود الأصفهاني ص ٤١ .
(٩) الفرزدق ٢١٧/١ ، وأبو فراس الحمداني ص ٧٨ ، والتهامي ص ٣٣٣ .
(١٠) نشار الأزهار ص ٢٥ ، والبارودي ٢٦٣/١ .
(١١) ديوان ابن خفاجة ص ١٠٤ .
(١٢) القاضي التنوخي ، يتيمة الدهر ٣٩٥/٢ ، نشار الأزهار ص ٢٥ .
(١٣) ديوان المتنبي ص ١٧٥/٢ ، ديوان البارودي ٢٥٣/١ .
(١٤) ديوان المتنبي ١٢/٣ .
(١٥) ديوان ابن المعتز ص ٣٩ .
(١٦) البارودي ١٥٣/١ .
(١٧) ديوان ضياء الدين رجب ص ١٨٥ .

النَّجْم كُنْيَاقٍ شَائِلَةٌ تَتَشَنَّى لِجَمَلِ عَقِيرِ اسْوَدٍ فِي مَبَارِكِهَا ، أَوْ
 (١)
 تَصْوِيرِهَا بِأَعْمَى مَالِهِ قَائِدٍ ، أَوْ تَصْوِيرِهَا بِطَيُورٍ قُمَّتْ أَجْنَحَتَهَا
 (٢)
 فَلَمْ تَسْتَطِعِ النَّهْوضَ لِلْمَغِيبِ . (٣)

• وليمف الجاهليون ليلهم بالطول قال بعضهم (كانَّ الليل
 (٤) ليس له نهار) وقالت إحدى شاعراتهم :
 (٥)

وهذا الصُّبْحُ لا يأتِي ولا يدنو ولا يقرب

واستمدَّ كثير من الشعراء قديماً وحديثاً من المعنيين
 السابقين كثيراً من التعبيرات التي تصوِّر طول اللَّيْلِ من خلال
 عنصر النَّهَارِ وَالصُّبْحِ ، فاللَّيْلُ لا صباح له ، أو لا يرى فجره ،
 (٦) (٧)
 وَالصُّبْحُ بعيد ، وَفَلَّ الصُّبْحُ طريقه ، وليس لِلَّيْلِ فجر ، ونأى
 (٨) (٩) (١٠)
 الصُّبْحُ فما منه أثر ، وَاللَّيْلُ ليس يفضي إلى فجر ، الزَّمان
 (١١) (١٢)
 ليل كلِّه ماله فجر ، الصُّبْحُ كرم يرجي من أكف لثام ، الصُّبْحُ
 (١٣) (١٤) (١٥)
 يهاب المجيء ، الصُّبْحُ يهاب الليل ، الصبح يفرق أن يثوبا ،
 (١٦) (١٧) (١٨)
 فَلَ الصُّبْحِ فلم يطلع ... الخ

ومن نحو : فهل زال النهارُ فكان ليلاً ، أنائم عنك غد ؟
 (١٩) (٢٠)

-
- (١) ديوان الفرزدق ٢٢١/١ .
 (٢) ديوان العباس بن الأحنف ص ١٠٢ ، ديوان المتنبي ١٧٥/٢ .
 (٣) أبو العلاء المعري ، سقط الزند ص ٢٠٦ .
 (٤) المهلهل بن ربيعة ، موسوعة الشعر العربي ص ١٦٨ .
 (٥) أميمة بنت أمية ، شاعرات العرب في الجاهلية ص ٢١٦ .
 (٦) ديوان ابن المعتز ص ١٦٣ .
 (٧) السابق ص ٢٠٩ .
 (٨) ديوان قيس بن الملوح ص ٨١ .
 (٩) ديوان بشار بن برد ٧٧/٢ .
 (١٠) ديوان ابن المعتز ص ٢١٠ .
 (١١) محمد النعمان ، يتيمة الدهر ٤٦٦/١ .
 (١٢) ديوان التهامي ص ٣٣٣ .
 (١٣) أسامة بن منقذ ص ٣٤٨ .
 (١٤) ديوان الأخرس ص ٥١١ .
 (١٥) ديوان ابن المعتز ص ٣٩ .
 (١٦) ديوان البارودي ١٥٣/١ .
 (١٧) ديوان المتنبي ٢٦٦/١ .
 (١٨) ديوان البارودي ٢٦٣/١ .
 (١٩) الأشهب ، شعراء أمويون ص ٢٤٠ .
 (٢٠) سعيد بن حميد ، نثار الأزهار ص ٢٥ .

زماني ليلة مات ضحاها ، ليس إلى النهار سبيل ، ليل المحب
 بلا آخر ، ضلّ عن نهجه الغد ... الخ
 (١) (٢) (٣) (٤)

ومع هذا فقد رأينا في ثنايا هذا البحث بعض الصور
 المتميّزة في نفس الموضوع السابق من نحو قول "الأرجاني" :
 لا أدعي جور الزمان ، ولا أرى لي لي يزيد على الليالي طولاً
 لكنّ مرآة الصّباح تنفّسي لهمّ أمداً وجهها المصقّولا
 فالشاعر لا يعبر عن مشاعره بالتركيب والعبارات التي
 تداولها غيره من الشعراء لأنها كرّرت حتى ابتذلت ، وسقطت
 قيمتها من الخطاب الشعري وآثر أن يمور همومه وطول ليله
 بصورة متميزة فريدة ، ومن نحو هذا قول "ابن سهل الأندلسي" :
 ما طال لي لي بَعْدَهُ بل ناظري يأتي الصّباح فلا يراه أبياً
 فقد ذرف الشاعر الدّموع في ليله فلما أتى الصّباح لم
 يره أبيض من كثرة مادمعت عيناه ، فالشاعر يعبر عن مشاعره
 في تركيب جديد ذي جاذبية وجمال .

وبهذا ندرك أهمّ خصيصة من خصائص الصورة الفنّية في
 إطار هذا البحث وهي توارد بعض الشعراء على صور معينة
 وترديدها كما هي ، أو عن طريق التّوليد والتشقيق ، وتميّز
 القليل من الشعراء عن ذلك النهج .

أمّا صورة "امرئ القيس" "وليل كموج البحر" فإن تمثيل
 طول اللّيل بموج البحر فيه من الإيحاء المعجب ما نفتقده في
 كثير من الصّور السابقة ، فالبحر بجلاله ورهيبته ووحشته ،
 وأمواجه المتعاطفة المتعاقبة والتي تروّع الناظر وتخيفه ،

-
- (١) ابن الساعاتي ، ديوان الشعر العربي ١٥٧/٣ .
 (٢) ابن حزم الأندلسي ، طوق الحمامة ص ٧٥ .
 (٣) خالد الكاتب ، من غاب عنه المطرب ص ٩٤ .
 (٤) ديوان البارودي ٢٦٣/١ .
 (٥) ديوان الأرجاني ص ١١٠٢ .
 (٦) ديوان ابن سهل الأندلسي ص ٢٢٨ .

وما يتلبس بذلك كله من الأسرار تفتح كجّها عن الانفعالات التي
تبعثها هذه اللّيلة بذاتها في نفس الشاعر .

و"قَمَرُ اللَّيْلِ" من المعاني البارزة في إطار هذا البحث
واللّيل الذي ينعتة الشعراء بالقَمَرِ هو ليل السرور والفرح ،
الذي يأنسون ويسعدون به ، ويعيشون فيه مسراتهم وأفراحهم ،
ويلتذّون فيه بوصل أحبابهم ، ولأنّ انقطاع اللّيل وزواله يقطع
عليهم ما هم فيه ، فقد أحسوه قميراً ، وقد صوروا إحساسهم
بقمر اللّيل إمّا بالتعبير المباشر من نحو (فيالك من ليل
تقاصر طوله) ، (وأراها إذا دنوت قماراً) ، (واللّيل أقصر
شيء حين القاهما) ، (يقمّرُ قُربك ليلي الطويلاً) ، (يقمّر ليلي
ما ألمّت) ، (ياليلة ما كان أقصرها) ، (ياليلة قمّرت بزورة
غادة) ، (فيالها ليلة ما كان أقصرها) .

وإما بتصوير إحساسهم بقمرها في أساليب بيانية تصوّر
اللّيل بصور حسّية تشير إلى قصره ، فصوروا اللّيلة (كأنها
قبلة على حذر) ، (تدفع في صدرها يدُ السّحر) ، (لم يك غير
شقي وفجر) ، (كاللّمح بالبصر) ، (يعثر فيها العشاءُ بالسّحر)
(كظلّ الطائر) ، (كأنها من قصرها نفس) ، (تتطابق العشاءُ

-
- (١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٢٤ .
 - (٢) السابق ص ١٦٣ .
 - (٣) الوليد بن يزيد ، ديوان الشعر العربي ١/٤٧٤ .
 - (٤) ديوان ابن زيدون ص ٢٤٧ .
 - (٥) ديوان التهامي ص ٢٥٦ .
 - (٦) السراج ، مصارع العشاق ٢/٢١٢ .
 - (٧) ابن تميم الأسعدي ، ديوان الشعر العربي ٣/٢٢٨ .
 - (٨) ديوان حازم القرطاجني ص ١١٨ .
 - (٩) أمية بن الصلت ، نثار الأزهار ص ٥٦ .
 - (١٠) السابق .
 - (١١) الصولي ، من غاب عنه المطرب ص ٨٥ .
 - (١٢) تزيين الأسواق ص ٤٢٢ ، والبهاء زهير ، نثار الأزهار
ص ٥٧ .
 - (١٣) ديوان الشريف الرضي ١/٥١٨ .
 - (١٤) ديوان سبط التعاويذي ص ١٦٧ .
 - (١٥) محمد الشامي العاملي ، ديوان الشعر العربي ٣/٢٩٩ .

منها والسَّحر) ، أو ليل الوصل قصير كأنه سِنَّة^(٢) ، أو هو ليل
(مشمر الذَّيل منسوبٌ إلى القَصْرِ)^(٣) ... الخ
ومع أنّ الجاهليين لم يكثروا من وصف الليل بالقصر فإنّ
تصوير الشّاعر الجاهلي "أمّية بن أبي الصّلت" الليلة القميرة
"بقبلة على حذر" يظلّ في زعم الباحث من أفضل الصّور وأطرفها ،
وأكثرها رشاقة ، فقد تميّزت عن صور كثيرين ممن جاءوا بعده
من الشّعراء الذين لم يزيدوا على تصوير اللّيلة بظلّ الطائر
وبالنّقص ، وبمشمر الذّيل ، أو أن عشاءها يعثر في سحرها ،
أو هما متطابقان .

فتصوير اللّيلة التي يأنس بها الشّاعر "بقبلة على حذر"
ينقل كلّ مشاعر الشّاعر تجاه تلك اللّيلة ، من إحساسه بقصرها
وسعادته بها لما يلقاه فيها ممّا يحبّ ... ورغبته فيها ، وفي
أن يمتدّ وقتها ، أمّا الصّور الأخرى فلم تزد على الإشارة إلى
سرعة مرور اللّيلة وقصرها ، ومع ذلك فهي أفضل من تلك الصّور
التي اعتمدت على تكرير التّعبير المباشر .

(١) ديوان البهاء زهير ص ١٢٣ .
(٢) يتيمة الدهر ١٣٤/٤ .
(٣) السابق ٢٤٩/٢ .

موقف النقاد من تكرار الصورة القديمة في أشعار اللاحقين :

ومما سبق نلاحظ أنّ أغلب الصور في الشعر العربي ترتدّ إلى صور الشعر الجاهلي تكررّها ، أو تشتقّ منها ، أو تولد من بعضها موراً غير بعيدة عنها ، والكثرة الكاشرة من الشعراء لم تغيّر شيئاً ، ودرجت على التكرار والتوليد ، ماعدا بعض الخطرات واللّمحات عند بعض المبدعين .

ولو سألنا عن ندرة الإبداع والابتكار في تلك الصور لوجدنا تعليلاً في كلام بعض الباحثين الذين زعموا أنّ سيطرة الشعر الجاهلي على الشعر العربي الذي وليه على مرّ الحقب كانت هي السبب في أنّ الشاعر ليس ميّلاً للخروج عن المألوف ، ويرى "أحمد أمين" : "أنّ النّاس قدسوا الأدب الجاهلي تقديساً أكبر ممّا يستحقّ وذلك بفضل جماعة من العلماء ظهوروا في آخر الدّولة الأموية وأول الدّولة العبّاسية ، يجمعون مفردات اللّغة وأساليبها وأدبها ، وكان عملهم هذا يستحقّ الإعجاب والتّقدير ! ولكن ما يستحقّ الإعجاب ولا التقدير أنّهم رفعوا من شأن الأدب الجاهلي ، وفصلوه على كل أدب لمحدث أو مولد ، وأنّهم وقفوا في وجه كل مجدد ، وأنّهم أرادوا أنّ ينطبع الأدب العربي بالطّابع الجاهلي لاغيره ، فكان لهم - مع الأسف - ما أرادوا" (١) .

لقد كان للشعر دور كبير ومكانة عظيمة في حياة العرب القدماء ، «وقد اعتنوا به عناية كبيرة ، فأتقنوا صنعته ، وجوّدوا عمله ، ووقّروا له كل ما يكسبه روعة وفخامة وتأثيراً في النفوس ، فاكتمل له بناء فنّي متكامل في موسيقاه والفاظه وأخيلته ومعانيه ، واستوتت له صورة فنّية ناضجة

كانت ثمرة جهد طويل وزمن مديد ، صورة رائعة فرضت نفسها على الناس فرضاً بما توافر لها من أصالة وجمال ، حتى أصبحت مع مرور الأزمنة مثالاً أرفع ونموذجاً أمثل للشعراء العرب ، فراحوا يقلدونها ، ويقتبسون منها ، ويسيرون على منهاجها ، دون أن يخرجوا عن الخطّ الذي التزمه الشعراء الجاهليون إلاّ في القليل النادر ، ثم لعب اللغويون والنحاة دوراً كبيراً في تعميق الشعور بجلال القديم ، وفي ترسيخ الإحساس بقداسته في نفوس الناس ، فحينما نهض اللغويون والنحاة لجمع اللغة وتلقيدها بسبب الظروف التي جدّت في الحياة العربية والتي دعت إلى الجمع وحثّت على التدوين فكانوا يأخذون شواهدهم من الشعر القديم ، وحدّدوا منتصف القرن الثاني للهجرة موعداً^(١) لآخر من يحتج بشعرهم من الشعراء ، وبهذا انقسم الشعر العربي إلى قسمين : شعر القدماء ويشمل الشعر القديم حتى منتصف القرن الثاني ، وشعر المحدثين أو المولّدين وبدأ مع قيام الدولة العبّاسية ويشمل "بشار بن برد" وجميع الشعراء الذين جاءوا بعده ... وكانت هذه القسمة بداية تعصب شديد للشعر القديم ، وقد سيطر اللغويون والنحاة على سوق الشعر في العصر العبّاسي ، وجعلوا من أنفسهم سدنة الشعر وحرّاسه ، وتمسكوا بالمثل الشعري القديم ، وأسقطوا كثيراً من شعر الشعراء العبّاسيين ، ولم يقبلوه ، ولم يقرّوا له بإحسان ولا اعترفوا له بفضل^(٢) . "قابن الأعرابي" يقول "إنّما أشعار هؤلاء المحدثين مثل "أبي نواس" وغيره مثل الرّيحان يُشم يوماً فيذوى ، فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر

(١) قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم ، د. وليد

قصاب ص ٢٤٥ بتمصرف .

(٢) السابق ص ٢٥ .

كَلَّمَا حَرَكْتَهُ اَزْدَاد طَيِّبًا" (١) ، وَحِينَ اَنْشَدَهُ رَجُلٌ شِعْرًا "لَا بِي نَوَاس" اَحْسَنَ فِيهِ ، فَسَكَتَ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : اَمَّا هَذَا مِنْ اَحْسَنِ الشُّعْرِ ؟ قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنَّ الْقَدِيمَ اَحَبُّ اِلَيَّ" (٢) .

وَيُرَوَّى عَنْ "أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ" قَوْلُهُ : "لَقَدْ أَحْسَنَ هَذَا الْمَوْلِدَ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَ صَبِيَانَنَا بِرَوَايَتِهِ ، يَعْنِي بِذَلِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ" (٣) .

وَسُئِلَ عَنِ الشُّعْرَاءِ الْمَوْلِدِيِّينَ ، فَقَالَ : "مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَقَدْ سَبَقُوا إِلَيْهِ ، وَمَا كَانَ مِنْ قَبِيحٍ فَهُوَ مِنْ عِنْدِهِمْ" (٤) .

وَعِنْدَمَا سَمِعَ "إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيَّ" قَوْلَ "أَبِي نَوَاس" :

وَخَيْمَةَ نَاطُورٍ بِرَأْسِ مَنِيفَةٍ تَهْمُ يَدَا مِنْ رَامَاهَا بِزَلِيلٍ
قَالَ : وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ لِبَعْضِ أَعْرَابِ هَذِيلٍ لَجَعَلْتُهَا أَفْضَلَ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ قَطُّ" (٥) .

فَلَوْ كَانَ بَشَّارَ شَاعِرًا مُتَقَدِّمًا لِحُكْمِهَا لَهُ بِالسَّبْقِ وَالرَّيَاذَةِ ، أَمَا وَهُوَ شَاعِرٌ مُتَأَخِّرٌ فَلَيْسَ لَشِعْرِهِ مِزِيَّةٌ ، وَكَانَ "الْأَصْمَعِيُّ" يَقُولُ : "إِنَّ "بَشَّارًا" خَاتِمَةَ الشُّعْرَاءِ ، وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ أَيَّامَهُ تَأَخَّرَتْ لَفَضَّلْتَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ" (٦) .

وَيَسْمَعُ "ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ" أَرْجُوزَةَ "لَا بِي تَمَام" عَلَى أَنَّهَا لِشَاعِرٍ قَدِيمٍ فَتَعْجَبُهُ ، وَيَطْلُبُ أَنْ تَسْجَلَ لَهُ ، وَيَقُولُ : مَا سَمِعْتُ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، حَتَّى إِذَا عَرَفَ أَنَّهَا "لَا بِي تَمَام" أَسْقَطَ مِزِيَّتَهَا قَائِلًا : "خَرَّقَ .. خَرَّقَ" (٧) .

-
- (١) الموشح ص ٣٨٤ .
(٢) السابق .
(٣) العمدة ٩١/١ .
(٤) السابق .
(٥) الوساطة ص ٥٠ ، والبيت في ديوان أبي نواس ص ١٦ .
(٦) الأغاني ١٥٠/٣ .
(٧) النقد المنهجي عند العرب ص ٨١ .

ولم يذكر "ابن سلام الجمحي" في كتابه "طبقات الشعراء" شاعراً من المحدثين .^(١)

وقد ترك اللّغويون أثراً واضحاً في نفوس النّقاد من بعدهم ، وكذلك في نفوس النّاس ، فهم الذين يختارون لهم الشّعْر ويروون لهم ماوافق ذوقهم ومزاجهم ، وقد تركوا أثراً على أذواق الحكّام الذين تأدّبوا على أيديهم ، فقد اضطر "أبو نواس" إلى التّراجع عن تجديده مراعاة لذوق الخليفة ،^(٢) ومع ماكان للّغويين من دوافع سامية ونبيلة من وراء موقفهم هذا . وهي الحفاظ على اللغة العربية لغة كتاب الله الكريم ، إلا أنّ موقفهم قد حدّ من تطوّر الشّعْر العربي وحدّ من انطلاقته لأنّ رفضهم لكلّ محاولة شعرية خرجت على منهج الشّعْر الجاهلي من أسباب توارد كثير من الشعراء على الصّور الجاهلية ترديداً أو توليداً في الشّعْر العربي عامّة ، وفي شعر اللّيل خاصّة ، وحتى أولئك النّقاد الذين كان لهم نظرة معتدلة إلى قضية القديم والحديث وكان شعارهم أن الله لم يقصر العلم والشّعْر على زمن دون زمن ، كانوا لاشعورياً واقعين تحت تأثير الشّعْر القديم ، ومنهم "ابن قتيبة" فقد نظر نظرة عادلة إلى القضيّة في أول كتابه "الشّعْر والشعراء" "... بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ..." ولكنّه ظل يحافظ على أساليب الشعر الجاهلي ، ويدعو إليه فبعد أن تحدّث عن منهج القصيدة الجاهلية قال "فالشّاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام" ، وحظر في موضع آخر على الشّعراء المتأخّرين الخروج على منهج القصيدة الجاهلية .^(٦)

(١) في النقد الأدبي عند العرب ص ١٥١ .

(٢) قضية عمود الشعر العربي ص ٣٨ .

(٣) السابق ص ٣٩ .

(٤) الشعر والشعراء ١/٦٢١ .

(٥) السابق ص ٧٦ .

(٦) السابق ص ٧٧ .

وقد كان لترويج النقاد فكرة (استنفاذ المتقدمين للمعاني) أثر سلبي على الصورة الأدبية ، والفكرة قديمة أشار إليها "عنتره" في مطلع معلقته "هل غادر الشعراء من متردم" ، وأقر "زهير بن أبي سلمى" بأن مايقوله قد سبق إليه وأن مايقوله نوع من التكرار :

ماأرانا نقول إلا معارا
أو معاداً من لفظنا مكرورا
و"الفرزدق" تَمَّور الشعر جملاً عظيماً نحر قديماً وتوزعه الشعراء القدماء ولم يبق منه شيء للاحقين . ولكن هذه الفكرة ينشرها النقاد ويروجون لها في عصر المحدثين . فالجاحظ يقول : "لم يدع الأول للأخر معنى شريفاً ولا لفظاً بهياً إلا أخذه ، إلا بيت عنتره : فترى الذباب ...".^(٥)

ويقول "القاضي الجرجاني" : "من تقدمنا قد استغرق المعاني ، وسبق إليها وأتى على معظمها" فلم يبق إلا البقايا للاحقين أو ماترك رغبة عنه ، واستهانة به ، أو تعذر الوصول إليه ... "ومتى أجدنا أنفسه ، وأعمل فكره واتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً ، ونظم بيت يحسبه فرداً مخترعاً ، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه ، أو يجد له مثلاً يفض من حسنه"^(٧) . فمادام الأمر على هذه الحال فلم يعد للشاعر مايطمح إليه ، ومثل هذه الفكرة تثبِّط ولاشكَّ عزيمته وتحد من خياله وتموره فما فائدة أن يجهد فكره ويتعب نفسه في تصوير معنى سوف يجده متى تصفح دواوين القدماء أو يجد له مثلاً يفض من حسنه

-
- (١) ديوان عنتره ص ١٥ .
(٢) قضية عمود الشعر ص ٤٨ ، والبيت موجود في ديوان كعب ابن زهير ص ٢٦ .
(٣) جمهرة أشعار العرب ص ٦٧ .
(٤) قضية عمود الشعر العربي ص ٤٩ .
(٥) الحيوان ٢٩١/٣ .
(٦) الوساطة ص ٢١٥ .
(٧) السابق .

"وأصحاب هذه الفكرة يعتقدون أنّ الشعر في محنة ، وهو يعاني أزمة شديدة ، فقد سدّ القدماء منافذ القول ، واستولوا على طرائق الكلام" .^(١)

يقول "ابن طباطبا" : "والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشدّ منها على من كان قبلهم ، لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فميح ، وحيلة لطيفة ..."^(٢)

ولقد خالف هذه الفكرة "ابن جنّي" الذي لا يؤمن أنّ المعاني استنفذها القدماء ، وكذلك "ابن رشيق" الذي يرى أنّ المتأخرين زادوا على معاني المتقدمين ، ولكن شيوعها بين فئة من النقاد لابدّ وأن يترك أثراً سلبياً على الشعر، وشيوع مثل هذه الفكرة ساهم في دفع بعض الشعراء إلى العناية بالصياغة والالفاظ ، مادامت المعاني ليست مجال تفاضل لأنّ القدماء استنفذوها ، وهذا مادفع بكثير من النقاد إلى تغليب جانب اللفظ على المعنى ، وكذلك التسامح بشأن السرقات الأدبية ، بل جعلوها أحياناً مشروعاً ومستحسنة ، متى أخذ الشاعر المعنى القديم وماغه في صياغة أجمل من صياغته السابقة .^(٥)

وبهذا ندرك بعض أسباب توارد جملة من الشعراء على بعض تلك المّور القديمة في إطار هذا البحث ، دون إضافات تذكر لكثير منهم .

(١) قضية عمود الشعر ص ٥٠ .

(٢) عيار الشعر ص ٩ .

(٣) العمدة ٢٣٦/٢ ، ٢٣٨ ، قضية عمود الشعر ص ٥١ .

(٤) السابق ص ٥٢ .

(٥) السرقات الأدبية ص ٩٣ .

تلوّن الصورة بلون إحساس الشاعر فرحاً أو حزناً :

لقد تشكّلت كثير من الصّور الفنّية في إطار هذا البحث وهي متلوّنة بألوان مشاعر الشعراء وأحاسيسهم بحسب حالتهم النفسيّة حزناً أو فرحاً ، فلو وضعنا صورة ليلة "أميّة بن أبي الملت" (قبلة على حذر) بإزاء صورة ليلة "امريء القيس" التي هي (كموج البحر) المتكرّر لأدركنا البون الشاسع بين حالتيهما النفسيّة ، فالشاعر المغموم يرى اللّيلة مهولة متكرّرة ، والشاعر المسرور يراها سعيدة مهولة ، وكلاهما يصف الواقع من حوله ويلوّنه بألوان مشاعره ، وسعادته أو شقاؤه يظهران من خلال صورته ، ثم إنّ لّليل زمناً محدوداً ، ومن يراه طويلاً بلا آخر ومن يراه كظلّ الطائر كلاهما يخالف الواقع المألوف ، غير أنّ هذه المخالفة بالنّسبة لمن يتلقّى عنهما ، أما بالنّسبة للشاعر فهو يصف الواقع كما يراه هو ، وإلا كان كاذباً مداجياً بينه وبين نفسه .

كذلك فإنّ اللّيل في رؤية الشاعر المغموم كجمل هائل بارك عليه أردف متأخيره وناء بكلّكله ، أو هو ليل أعسر مغمي يقوم فوق الأرض في أشواب نادبة ، والليالي تخدع الشاعر بمقمره لعوب ، وترميه بقوس من هلال ، وتطعنه دراكاً بالشّمال وتلهو به لهو العوامف بالرّمال وكواكبها فُلع ، حسرى ، كليلة .

واللّيل في رؤية الشاعر المسرور بلقاء الحبيب ليل مؤنس مرأشفه ظمأى إلى قُبَل البدر طيّباً في مطالعه ، مديق للشاعر ، وكواكبه غرر تمضي سريعاً كأنّها غنم جفلت من ذئب .

كذلك فإن صور الصباح قد تباينت بحسب حالات الشعراء
النفسية ، فالشاعر المغموم يراه صباحاً جميلاً ذا مخايل
جميلة يتمناه ويتلهف لرؤيته ، والشاعر المسرور لا يودّ أن
يراه ، وإن رآه ازورّ طرفه عنه .

والشاعر الخائف يمقت البدر خشية العيون ، والمحبور
يهزّ المنى في أرجوحة من ضياء القمر ، وقد يحدث هذا
التباين في التّصوير عند شاعر بذاته بحسب حالته النفسية ،
"فابن المعتز" عندما بات مغموماً صوّر القمر بظهر الجرد ،
وعندما أمسى مسروراً برؤية هلال العيد صوّره (بزورق من فِصّة
أشقلته حمولة من عنبر) .

ومع كثرة الصّور التي أوردها الشعراء عن اللّيل ، ومع
ما بينها من تخالف وتشابه فإنّها تكاد تكون أخصب الصّور
وأكثرها تنوعاً في الشعر العربي قياساً إلى غيرها من الصّور
في الموضوعات الأخرى ، وتعود هذه الخصوبة إلى طبيعة
الموضوع في نظر الباحث فهو يعطي مجالاً فسيحاً للإبداع
والتفنّن لدى الشعراء .

أثر البيئة في تشكيل الصورة الفنية :

للبيئة بشقيها الحسي والمعنوي أثر واضح على تشكيل الصورة الفنية في إطار هذا البحث ، ويظهر أثر البيئة الحسية في مكونات الصورة ، فالشاعر يشق أغلب صورته مما حوله ، ومما يدركه بحواسه ، فعندما يمور الليل الطويل بموج البحر المتكرّر المتردد ، أو بالدائرة التي لا يعرف لها طرف ، أو بوقفه الحيران ، وعندما يمور الليل القصير بقبلة على حذر ، وبظلّ الطائر ، وباللمح بالبصر ، وبالنفّس ، وعندما يمور النجوم بالشياخ المتفرقة التي غاب عنها راعيها ، وبالمقيّدة وبالحرى ... أو يمور دموعه بالماء المتسرّب من غرب واهي الأديم أو يمور قلبه بمطوقة غرّها شرك فباتت تجاذبه وقد علق جناحها به ، هذه الصور وأغلب الصور التي شملها هذا البحث هي صور يشقّها الشاعر ممّا حوله وممّا أدركه بحواسّه ، وهذا هو الأثر الحسي للبيئة على تشكيل الصورة .

أمّا الأثر المعنوي للبيئة على تشكيل الصورة فإنّ البيئة قد أفردت بعض الصور بالفاظٍ وتراكيب وخصائص يختصّ بها هذا الموضوع ، وأكثر ما يتّضح هذا في الصور التي تمور ليالي الوصل ، فإن العادات والتقاليد العربية التي تمنع لقاء الرجل بامرأة من غير محارمه ، والتي عزّزها الإسلام الحنيف ، فجعل عقاب المخالف شديداً وأحياناً مروعاً متى خالط اللقاء إثم ، هي التي شكلت البيئة المعنوية التي دفعت العاشقين إلى طلب السّتر والتّخفي عن العيون ، والهرب إلى الظّلام ، فكان الليل مظنةً لقائهم بهدونه وظلامه ، وحجبه

الاعمين ، وانطلق الشعراء في التعبير من خلال ذلك ، فراينا صورة العاشق الذي يسير تحت الظلام سيرة حباب الماء الذي يطفو على سطحه دون صخب أو فجة ، أو يمشي مشية الحباب على الرّمل دون أن يُسمع له حركة ، يجيء على خوف رافع الدّيل ، يخفي وقع أقدامه ، ليقابل فتاته التي يطفى عليها الخوف أو التي قد تعضُّ على بنانها خشية الفضيحة والعار قائلة : إنك فاضي ، أو لاتفضحني . فما أوجد هذه الصّور إلا تلك البيئة المحافظة ، والتي أوجدت صور الرّقباء المتربّمين بالشّاعر وفتاته ، وصورة الشّاعر العاشق الذي يرصد غفلة العيون ويحترز منها ، فيستكتم الحليّ أصواتها ، والعطور عبيرها والجياد صهيلها ، والأرض خطاه وخطى فتاته . ويمانع كلاب الحيّ تحت الظلام ، ويرقب حراسهم ونارهم وأنوارهم ، ويترك ناقته ورحلها بالعراء ، وحرصه على تعفية الاثر بجر الثياب عليه أو بتغطيته بالتراب .

وتصوير اللّيل بالحارس ، وبالقميص السّاتر ، يغطي على العاشقين بأثوابه ، ويسدل عليهم الاستار ، ويرتديه الشّاعر جلباباً يحميه من الاعمين ، ويتدرّج به عند الزّيارة ، وتصويره بالحجاب دون الكاشحين ، وبالسّلم الذي يوصل الشّاعر إلى ما يريد ثمّ ما كان من الأئس به فليته شهراً ، أو حولاً ، وليت الشّاعر يطيله بعمره ، فهو ليل قصير ، وكأنّه قبلة على حذر كاللّمح بالبصر ، مشمّر الدّيل ، أو كظلّ الطائر ، يقطع الصّباح نعيمه ، ويقتله ويسيلُ دمه على هيئة الشفق ، والدّيك ينعاه .

وصورة الصّباح الذي يفرّق العاشقين ، ويشي بهم ويشتت شملهم ، ويجلب ساعة التّوديع ، فجاهره الشعراء بالعداوة

فازورّ طرف بعضهم عنه وتمنّى بعضهم أبّه لم يخلق ، أو لايدنو
أو لا يكون ، أو أن يكون بينه وبين اللّيل سداً ، فهو يقبل
موحشاً ، ويخرج كسيف هندي ، ويوافي كالثعلب فاغراً فمه له
ذنب كذنب العقرب ، ويطلّ كالحرّيق .

هذه الصّور كانت بسبب من تلك البيئة المحافظة ، ولولا
تلك البيئة بذاتها لما وجدنا هذه الصّور . ويبدو أن هذه
الصّور قد حُصّ بها الشّعْر العربيّ بعامّة ، وشعر اللّيل بخامّة
نظراً للعادات والتقاليد^{الحنّة} التي شكلتها البيئة العربية والتي
حافظ الإسلام عليها .

الخاتمة

- انتهت بي دراسة الموضوع السابق إلى النتائج التالية :
- (١) وجد الشعراء في الليل متنقّساً لأحاسيسهم ومشاعرهم وخاصة مايمتّ مشاعرهم الذاتية في أفراحهم وأتراحهم ، فاتّجهوا إليه أكثر من اتّجاههم إلى النهار لما وجدوا في الليل من هدوء وسكينة تمكّنهم من الخلو إلى أنفسهم والتّفكير بما يشغل خواطرهم .
 - (٢) تلك الرّؤية السابقة لليل في حقّ الشّاعر افردت الصّورة عنده بميزات وسمات ليست موجودة بهذا البروز والملاح في سائر موضوعات الشّعر العربي ، وليست موجودة بهذه الكثرة في شعر آخر ، فمع توارد الشّعراء على صور بعينها توليداً وتشقيقاً إلا أنّ الخيال قد تميّز بكثير من الخموبة والتنوع ولاسيّما في مجال الهموم الشّخصية لأنّ الهموم تدني صاحبها من الصدق .
 - (٣) البيئة العربية الإسلامية المحافظة شكلت كثيراً من صور الموضوع ، وظهر أثرها واضحاً على الصّيغ والتراكيب في تلك الصّور لاسيّما في نطاق ليالي الوصل .
 - (٤) تلوّنت بعض صور الموضوع بلون إحساس الشّاعر فرحاً أو حزناً .

الفهارس

- ١- فهرس الشعراء الذين هديتُ إلى تراجمهم
- ٢- فهرس المصادر والمراجع
- ٣- فهرس الموضوعات

١- فهرس الشعراء(*)

* ابن سهل الأندلسي (٦٤٩هـ)

إبراهيم بن سهل الأشبيلي، أبو إسحاق، شاعر غزل من الكتّاب، كان يهودياً ثمّ أسلم، أصله من أشبيلية وسكن سبتة انقلب به زورق فغرق، له ديوان شعر مطبوع. (الأعلام ٤٢/١).

* إبراهيم النّظام (٢٣١هـ)

إبراهيم بن سيار بن هانيء البصري، أبو إسحاق النّظام: من أئمة المعتزلة، تبخر في علوم الفلسفة، كان شاعراً أديباً بليغاً، وله كتب كثيرة في الفلسفة والاعتزال. (الأعلام ٤٣/١).

* الصّولي (٢٤٣هـ)

إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، أصله من خراسان ونشأ في بغداد فتأدب وقرّبه الخلفاء، فكان كاتباً للمعتصم والواثق والمتوكل، وتنقل في الأعمال والدواوين. (الأعلام ٤٥/١).

* ابن هرمة (نحو ١٥٠هـ)

إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة القرشي، شاعر غزل من سكان المدينة، من مخضرمي الدولتين الأموية والعبّاسية، وهو آخر الشعراء الذين يحتجّ بشعرهم، كان مولعاً بالخمر. (الأعلام ٥٠/١).

* ابن خفاجة (٥٣٣هـ)

إبراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله بن خفاجة الأندلسي: شاعر غزل من الكتّاب البلغاء، وهو من أهل شقر، له ديوان شعر مطبوع. (الأعلام ٥٧/١).

* إبراهيم الموصلي (١٨٨هـ)

إبراهيم بن ماهان بن بهمن الموصلي التّيمي بالولاء، كان شاعراً ومغنياً ولد في الكوفة، ورحل إلى الموصل فأقام بها فنسب إليها، ومات في بغداد، كان ينظم الأبيات ويلحنها ويغنيها. (الأعلام ٥٩/١)

(*) التاريخ المثبت بعد اسم الشاعر هو تاريخ وفاته.

* إبراهيم ناجي (١٣٧٢هـ)

إبراهيم ناجي بن أحمد ناجي بن إبراهيم القصبجي: طبيب مصري شاعر من أهل القاهرة، مولده ووفاته بها، تخرّج بمدرسة الطب (١٩٢٣م) من دواوينه «ليالي القاهرة» و «وراء الغمام» وله كتب مطبوعة. (الأعلام ١/٧٦).

* إبراهيم اليازجي (١٣٢٤هـ)

إبراهيم بن ناصيف بن عبدالله جنبلاط: عالم بالأدب واللغة ولد ونشأ في بيروت، تولى تحرير جريدة «النجاح» سنة ١٨٧٢م، وأصدر مجلة «الطبيب» مع آخرين ١٨٨٤م، وأصدر مجلة «البيان» ثم «الضياء» في مصر وله كتب مطبوعة، وديوان شعر مطبوع. (الأعلام ١/٧٦).

* أبو إسحاق الصّابي. (٣٨٤هـ)

إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحراني، يقول عنه الثعالبي في اليتيمة ٣٠٦/٢: (أوحد العراق في البلاغة. خنق التسعين في خدمة الخلفاء... وتقلد الأعمال الجلائل، مع ديوان الرسائل). من كتبه «الهفوات النادرة» وله ديوان شعر. (الأعلام ١/٧٨).

* الأبيّرد بن المعذّر (٦٨هـ)

الأبيّرد بن المعذّر بن عبدقيس الرياحي اليربوعي، من تميم: شاعر فصيح بدوي. لم يكن مكثراً ولا مداحاً، وكان هجاءً جيّد الرثاء. أدرك دولة بني أمية وأخباره في الأغاني. (الأعلام ١/٨٢).

* الناهي (...)

أبو الحسن أحمد بن أيوب البصري المعروف بالناهي، من شعراء يتيمة الدهر، ورد نيسابور وأقام بها ثم فارقتها إلى جرجان (يتيمة الدهر ٤/٤٤٣).

* جَحْظَةُ البرمكي (٣٢٤هـ)

أحمد بن جعفر بن موسى بن الوزير يحيى بن خالد بن برمك: نديم أديب مغن، من بقايا البرامكة، من أهل بغداد، كان في عينيه نتوء فلقب بجحظة، نادى ابن المعتز والمعتمد العباسيين وله ديوان شعر وأخباره كثيرة (الأعلام ١/١٠٧).

* أبو الطيّب المتنبي (٣٥٤هـ)

أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي الكوفي الكندي، ولد بالكوفة في محلة تسمى كندة، نشأ بالشام، ثم مضى إلى مصر ومدح «كافور الأخشيدي»، ثم انصرف إلى العراق، ورحل إلى بلاد فارس، وعاد يريد بغداد فعرض له «فاتك الأسدي» بجماعة في الطريق وقتله. (الأعلام ١/١١٥).

* بديع الزمان الهمذاني (٣٩٨هـ)

أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني: أحد أئمة الكتّاب وكان شاعراً وطبقته في الشعر دون طبقته في النثر، له «مقامات ط» وله «ديوان شعر ط» ومات في هراة مسموماً. (الأعلام ١/١١٦).

* أحمد شوقي (١٣٥١هـ)

أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي يلقّب بأَمير الشعراء، مولده ووفاته بالقاهرة، نشأ في ظل البيت المالِك في مصر، تعلّم في مصر وتابع دراسة الحقوق في فرنسا واطّلع على الأدب الفرنسي، ثم عاد إلى مصر وعمل بها ثم سافر إلى إسبانيا ثم عاد إلى مصر وعمل بها ثم سافر إلى إسبانيا ثم عاد إلى مصر وبقي بها، هو أول من جوّد القصص الشعري التمثيلي من آثاره «الشوقيات ط» وقصص شعرية مطبوعة منها «مصرع كليوباترا» و «مجنون ليلى». (الأعلام ١/١٣٧).

* أبو العلاء المعري (٤٤٩هـ)

أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي المعري: شاعر فيلسوف ولد ومات في معرة النعمان، عمي وهو صغير، من آثاره الشعرية «اللزوميات ط» و «سقط الزند ط» وكتبه كثيرة منها «عبث الوليد ط» و «رسالة الملائكة» و «رسالة الغفران». (الأعلام ١/١٥٧).

* ابن زيدون (٤٦٣هـ)

أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون، المخزومي الأندلسي وزير كاتب شاعر، من أهل قرطبة، حبسه المعتضد بن عباد فاستعطفه برسائل عجيبة فلم يطلقه فهرب إلى أشبيلية فأقام فيها مقرباً من حاكمها إلى أن توفي بها واشتهر بحبه لولادة بنت المستكفي: وله «ديوان شعر ط» وهو صاحب رسالة «ابن زيدون-ط». (الأعلام ١/١٥٨).

* ابن شهيد الأندلسي (٤٢٦هـ)

أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد، من كبار الأندلسيين أدباً وعلماً، مولده ووفاته في قرطبة، له شعر جيد، يهزل فيه ويجد في ديوان مطبوع، وله تصانيف بديعة منها «كشف الدك وإيضاح الشك» و «التوابع والزوابع». (الأعلام ١/١٦٣).

* أحمد فارس الشدياق (١٣٠٤هـ)

أحمد بن فارس بن يوسف بن منصور الشدياق: عالم باللغة والأدب ولد في قرية عشقوت بלבنان، زار مصر، تجول في أوروبا، وزار تونس وفيها (اعتنق الإسلام) من أهم كتبه «الواسطة في معرفة مالطة-ط» و «الجاسوس على القاموس-ط» و أصدر جريدة «الجوانب» في الأستانة التي توفي بها، وله عدة كتب مخطوطة منها ديوان شعره الذي طبع نحو ريعه. (الأعلام ١/١٩٣).

* أحمد محرم (١٣٦٤هـ)

أحمد محرم بن حسن عبدالله: شاعر مصري، تركي الأصل، ولد في مصر في شهر محرم، وسكن دمنهور وبها توفي. له «ديوان محرم-ط»، «ديوان الإسلام أو الإلياذة الإسلامية-ط» في تاريخ الإسلام شعرا. (الأعلام ١/٢٠٢).

* أحمد بن محمد الشامي ()

شاعر يماني معاصر، نشأ بصنعاء وتعلم بها، تولى عدة مناصب حكومية باليمن، وسفيراً لها في لندن وباريس، أشهر دواوينه «أطياف، من اليمن، ألحان الشوق، حصاد العمر» ومسرحية «مصارع الأحرار» وله مؤلفات نثرية منها «قصة الأدب في اليمن» و «من الأدب اليمني» و «مع الشعر المعاصر في اليمن» له معرفة بالغناء والموسيقى. (ديوان أطياف، الغلاف).

* ابن عبدربه (٣٢٨هـ)

أحمد بن محمد بن عبدربه بن حبيب بن حدير بن سالم، أبو عمر الأديب الإمام صاحب «العقد الفريد»، من أهل قرطبة، كان شاعراً مذكوراً فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها، له شعر كثير، منه ما أسماه «المحصات» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ١/٢٠٧).

* أحمد العوفي (...)

أحمد بن محمد العوفي، ذكره صاحب اليتيمة وأورد أشعاراً له (يتيمة الدهر
٤٨٤/١)

* مسكويه الخازن (٤٤٢١هـ)

أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، أبو علي: مؤرّخ بحاث، أصله من الري
وسكن أصفهان وتوفي بها، اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة، ثم أولع
بالتاريخ والأدب والإنشاء، وكان قيماً على خزانة كتب ابن العميد، ثم كتب عضد
الدولة ابن بويه فلقب بالخازن، له كتب كثيرة منها «الأخلاق وتطهير
الأعراق-ط» وبعض شعره في اليتيمة. (الأعلام ٢١٢/١).

* الأرجاني (٥٤٤هـ)

القاضي أحمد بن محمد بن الحسين، أبو بكر ناصح الدين، الأرجاني في شعره رقة
وحكمة، له ديوان ضخم مطبوع (الأعلام ٢١٥/١).

* أبو الفضل أحمد الكاتب (...)

أبو الفضل أحمد بن محمد الكاتب، وصفه الثعالبي بقوله: ثقيل وزن الفضل
خفيف روح الشعر. (يتيمة الدهر ٢٨٥/٥).

* أسامة بن منقذ (٥٨٤هـ)

أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، أبو المظفر، مؤيد
الدولة: أمير ومن العلماء الشجعان له تصانيف في الأدب والتاريخ منها «لباب
الآداب-ط» و «البدیع في نقد الشعر-ط» ولد في شيزر وسكن دمشق، وانتقل إلى
مصر، وقاد عدة حملات على الصليبيين في فلسطين، ومات في دمشق، وله
«ديوان شعر-ط». (الأعلام ٢٩١/١).

* إسماعيل صبري (١٣٧٢هـ)

أبو أميمة إسماعيل بن صبري المصري: شاعر، وكتب مسرحيات شعبية، له
«ديوان شعر-ط» تضمن ملحمة همزية في ٢٧ صفحة. (الأعلام ٣١٥/١).

* إسماعيل النَّسائي (نحو ١٣٠هـ)

إسماعيل بن يسار النسائي: شاعر أصله من سبي فارس اشتهر بشعوبيته وشدة
تعصّبه للعجم، وله في الأغاني أصوات. (الأعلام ٣٢٩/١).

* الأسود النهشلي (نحو ٢٢ ق هـ)

الأسود بن يعفر النهشلي الدارمي التميمي، أبو نهشل: شاعر جاهلي من سادات تميم. من أهل العراق، نادم النعمان بن المنذر، ولما أسنّ كفّ بصره، و يقال له أعشى بني نهشل، ما وجد من شعره في «ديوان-ط». (الأعلام ١/٣٣٠).

* أشجع السلمي (نحو ١٩٥ هـ)

أشجع بن عمرو السلمي، أبو الوليد، من بني سليم، من قيس عيلان: شاعر فحل، كان معاصراً لبشار بن برد، ولد باليمامة ونشأ بالبصرة واستقر ببغداد، وقربه جعفر بن يحيى من الرشيد، ديوانه مطبوع. (الأعلام ١/٣٣١).

* الأشهب (بعد ٨٦ هـ)

الأشهب بن ثور بن أبي حارثة بن عبدالمدان النهشلي التميمي: شاعر نجد، ولد في الجاهلية، وأسلم، وعاش إلى العصر الأموي، هجا أبا الفرزدق فهجاه الفرزدق، وضعف الأشهب عن مجاراته، وينسب إلى أمّه رميلة فيقال له «ابن رميلة». (الأعلام ١/٣٣٣).

* الأصبح بن ضرار الأزدي (...)

أسره الأشتر النخعي في صفين، فنظم قصيدة، ثم أطلقه على بن أبي طالب -رضي الله عنه - (الأسر والسجن في شعر العرب ص ٤٦٤).

* الأقرع بن معاذ (...)

اسمه الأشيم بن معاذ بن سنان القشيري، وقيل اسمه معاذ، كان في أيام هشام بن عبدالمك (طيف الخيال، تحقيق الصيرفي ص ١١١).

* أميمة بنت أميّة (...)

أميمة بنت أميّة بنت عبدشمس بن عبدمناف، شاعرة جاهلية قتل أخوها أبوسفیان، وقتل معه جمع من قومها في الرابع من حرب الفجار المعروف بيوم عكاظ، ولها أشعار في ذلك. (شاعرات العرب في الجاهلية ص ٢١٦).

* امرؤ القيس (نحو ٨٠ ق هـ)

امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني أكل المرار: أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يمانى الأصل، مولده بنجد وقيل باليمن، اشتهر بلقبه واختلف في اسمه، فقبيل حندج، وقيل مليكة وقيل عدي، كان أبوه ملك أسد

وغطفان، وأمه أخت المهلهل الشاعر عاش أوّل عمره لاهياً إلى أن قتل أبوه، فنهض وأخذ بثأره فطلبه المنذر فابتعد وطاف قبائل العرب، وذهب إلى بلاد الرّوم يطلب العون وذهب إلى أنقرة فظهر في جسمه قروح ومات بها، ديوانه مطبوع. (الأعلام ١١/٢).

* أميّة بن أبي الصّلت (٥٥هـ)

أميّة بن عبدالله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي: شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف، قدم دمشق قبل الإسلام، كان مطلعاً على الكتب القديمة، حرّم على نفسه الخمر ونبذ عبادة الأوثان في الجاهلية، أراد الإسلام ولكنه لم يسلم لمقتل ابن خاله في بدر، وهو أول من جعل في أول الكتب: باسمك اللهم. (الأعلام ٢٣/٢).

* أوس بن حجر (نحو ٢ ق هـ)

أوس بن حجر بن مالك التميمي، أبو شريح: من كبار شعراء تميم في الجاهلية، كان كثير الأسفار، وأكثر إقامته عند عمرو بن هند في الحيرة، عمر طويلاً، ولم يدرك الإسلام، كان غزلاً مغرمًا بالنساء، موله ديوان شعر مطبوع. (الأعلام ٣١/٢).

* بشار بن برد (نحو ١٦٨هـ)

بشار بن برد العقيلي بالولاء، أبو معاذ: أوّل الشعراء المولدين، أصله من طخازستان (غربي نهر جيحون) ونسبته إلى امرأة عقيلية قيل إنها أعتقته من الرقّ، وكان ضريباً، نشأ في البصرة وقدم بغداد وأدرك الدولتين الأموية والعباسية، وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٥٢/٢).

* الأخطل الصّغير (١٣٨٨هـ)

بشارة بن عبدالله الخوري البيروتي، المعروف «بالأخطل الصغير» من أشهر شعراء لبنان في العصر الحديث، مولده في بيروت، أنشأ جريدة «البرق» (سنة ١٩٠٨م) وتنقّل في بعض البلاد العربية، وعمل بالصحافة طول حياته، له ديواناً «الهوى والشباب» و «شعر الأخطل الصغير» وهما مطبوعان. (الأعلام ٥٣/٢).

* بشر بن أبي خازم (نحو ٢٢ ق هـ)

بشر بن (أبي خازم) عمرو بن عوف الأسدي، أبو نوفل: شاعر جاهلي فحل من الشجعان، من أهل نجد، من بني أسد بن خزيمة، غزا طيئنا فجرح، وأسرته بنو نبهان الطائيون فأطلقه أوس بن حارثة، توفي قتيلاً في غزوة أغار بها على بني صعصعة، له ديوان شعر مطبوع (الأعلام ٥٤/٢).

* الملك الأمجد (٦٢٨ هـ)

بهرام شاه بن فرخشاه بن أيوب: شاعر من ملوك الدولة الأيوبية. تملك بعلبك بعد والده تسعاً وأربعين سنة وأخرجه منها الملك الأشرف (سنة ٦٢٧ هـ) فسكن دمشق وقتله مملوك له. وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٧٦/٢).

* بَيْهَسُ بْنُ صَهَيْبٍ (نحو ١٠٠ هـ)

أبو المقدم بيهس بن صهيب بن عامر، يتصل نسبه بقضاعة. فارس شجاع أصله من البصرة، ولكنّه سكن داريا، وقد شَبَّ بابنة عم له اسمها «صفراء». وهو من الخوارج الأزارقة، فشهد حربهم مع «المهلب بن أبي صفرة». (ديوان الخوارج ص/٣٣).

* الخنساء (٢٤ هـ)

تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية السلمية، من بني سليم، من قيس عيلان، من مضر: أشهر شواعر العرب، من أهل نجد، عاشت أكثر عمرها في الجاهلية وأدركت الإسلام فأسلمت، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها (صخر ومعاوية) وكانا قد قتلوا في الجاهلية وكان لها أربعة بنين استشهدوا في حرب القادسية، وديوان شعرها مطبوع. (الأعلام ٨٦/٢).

* أبودَّواد الإيادي (...)

جارية بن الحجاج الإيادي، المعروف بأبي دواد: شاعر جاهلي، كان من وِصَّاف الخيل المجيدين. له «ديوان شعر». (الأعلام ١٠٦/٢).

* جَعْدَرُ الْعُكْلِيِّ (نحو ١٠٠ هـ)

شاعر من أهل اليمامة. كان في أيام الحجاج بن يوسف، يقطع الطريق وينهب الأموال ما بين حجر واليمامة، فسجنه الحجاج في سجن اسمه (دوار). (الأعلام ١١٣/٢).

* الحطيئة (٤٥هـ)

جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو مليكة: شاعر مخضرم كان هجاءً، لم يكذب من لسانه أحد، هجا الزبرقان بن بدر فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فسجنه عمر بالمدينة، فاستعطفه بأبيات فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس، فقال: إذاً تموت عيالي جوعاً. له ديوان شعر مطبوع. (الأعلام ١١٨/٢).

* جرير (١١٠هـ)

جرير بن عطية بن حذيفة بن بدر الكلبي اليربوعي، من تميم: أشعر أهل عصره، ولد ومات في اليمامة وعاش عمره يناضل شعراء زمنه ويساجلهم - وكان هجاءً مرّاً - فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وقد جمعت «نقائضه مع الفرزدق» وهي مطبوعة، وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ١١٩/٢).

* السراج (٥٠٠هـ)

جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، أبو محمد: أديب عالم بالقراءات والنحو واللغة، من الحفاظ، له شعر، من أهل بغداد، مولداً ووفاء. رحل إلى مكة والشام ومصر. أشهر تصانيفه «مصارع العشاق» مطبوع. (الأعلام ١٢١/٢).

* جعفر بن عثمان (٣٧٢هـ)

جعفر بن عثمان بن نصر، أبو الحسن، الحاجب المعروف بالمصحفي: وزير، أديب، أندلسي، من كبار الكتّاب، وله شعر كثير جيّد أصله من بربر بلنسية استوزره المستنصر الأموي. وولي جزيرة ميورقة في أيام الناصر، وعمل حاجباً للخليفة هشام المؤيد ثم اعتقله المنصور بن أبي عامر، وقتله. (الأعلام ١٢٥/٢).

* جعفر بن عُلبة (١٤٥هـ)

جعفر بن عُلبة الحارثي، أبو عارم: شاعر مقل. من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان فارساً مذكوراً في قومه، كانت إقامته بنجران، وحبس بها متهماً بالاشتراك في قتل رجل من بني عقيل، ثم مات مقتولاً. (الأعلام ١٢٥/٢).

* جميل بثينة (٨٢هـ)

جميل بن عبدالله بن معمر العذري القضاعي، أبو عمرو: شاعر عاشق، أفتن ببثينة من فتيات قومه، فتناقل الناس أخبارهما. أكثر ما في شعره النسيب

والغزل والفخر، كانت منازل بني عذرة في وادي القرى ورحلوا إلى أطراف الشام الجنوبية، فقصده جميل مصر وافداً على عبدالعزیز بن مروان فآكرمه وأمر له بمنزل فأقام فيه قليلاً ومات فيه، ديوانه مطبوع. (الأعلام ١٣٨/٢).

* أبوفراس الحمداني (٣٥٧هـ)

الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، أمير، شاعر، فارس، وهو ابن عم سيف الدولة الذي قلده أعمال منبج وحران، وجرح أبوفراس في معركة مع الروم فأسروه، فامتاز شعره في الأسر بروميّاته، ثم فداه سيف الدولة وقتل (سنة ٣٥٧هـ) وديوانه مطبوع. (الأعلام ١٥٥/٢).

* حازم القرطاجنيّ (٦٨٤هـ)

حازم بن محمد بن حسن بن حازم القرطاجنيّ، أبو الحسن: أديب من العلماء له شعر، من أهل قرطاجنة، تعلم بها وأخذ عن علماء غرناطة وأشبيلية ثم هاجر إلى مراكش، ومنها إلى تونس، وتوفي بها. من كتبه «سراج البلغاء» المطبوع باسم «مناهج البلغاء وسراج الأدباء» وله ديوان شعر مطبوع. (الأعلام ١٥٩/٢).

* أبوتمام (٢٣١هـ)

حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبوتمام: الشاعر الأديب، ولد في جاسم (من قرى سورية)، عاش في دمشق وحمص ومصر والموصل وفارس، اطلع على الفكر اليوناني المترجم، له ديوان مطبوع، وله «الحماسة» وله مختار أشعار القبائل. (الأعلام ١٦٥/٢).

* حسان بن ثابت (٥٤هـ)

حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد: الصحابي، شاعر الرسول - عليه الصلاة والسلام - عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام، كان من سكان المدينة، واشتهرت مدائحه في الغسانيين، وملوك الحيرة، قبل الإسلام، توفي في المدينة وديوانه مطبوع. (الأعلام ١٧٥/٢).

* ابن رشيق القيرواني (٤٦٣هـ)

الحسن بن رشيق القيرواني أبو علي: أديب، باحث، ولد بالمغرب ورحل إلى القيروان واشتهر فيها، وانتقل إلى صقلية وأقام بإحدى مدنها إلى أن توفي. من كتبه «العمدة في صناعة الشعر ونقده-ط» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ١٩١/٢).

* أبوهلال العسكري (٣٩٥هـ)

الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد العسكري، أبوهلال: عالم بالأدب له شعر، من كتبه «كتاب الصناعتين-ط» «الأوائل-ط» و «ديوان المعاني-ط» وديوان شعره مطبوع (الأعلام ١٩٦/٢).

* حسن القرشي.

حسن عبدالله القرشي شاعر سعودي معاصر، عمل كبيراً للمذيعين بالإذاعة السعودية حين أنشئت، وعمل مديراً للمكتب الخاصّ بوزارة المالية السعودية بالرياض ١٩٦٦م- وله مجموع دواوين منها «البسمات الملونة» و «مواكب الذكريات» و «الأمس الضائع». (تاريخ الشعر العربي الحديث ص/٥٩٠).

* أبو محمد المطراني (...)

الحسن بن علي بن مطران من شعراء اليتيمة، قال عنه الثعالبي (شاعر الشام وحسنتها وواحدتها، فإنها وسائر بلاد ما وراء النهر لم تخرج مثله إلا أبا عامر إسماعيل بن أحمد بعده). (يتيمة الدهر ١٣٢/٤).

* ابن وكيع التنيسي (٣٩٣هـ)

الحسن بن علي الضبي، أبو محمد، المعروف بابن وكيع: شاعر مجيد، أصله من بغداد، مولده ووفاته في تنيس (بمصر) له ديوان شعر مطبوع، وكتاب «المنصف» في سرقات المتبني، وكانت في لسانه عجمة. (الأعلام ٢٠١/٢).

* الحسن بن بابل (...)

الحسن بن محمد بابل ذكره الثعالبي في «يتيمة الدهر» وأورد أشعاراً له. (يتيمة الدهر ٧٤/٢).

* الرقي (...)

أبو محمد الحسن بن محمد الرقي (طراً على خراسان وتصرفت به أسفار وأحوال... إلى أن استوطن الجوزجان (يتيمة الدهر ٦٣/٥).

* أبو نواس (١٩٨هـ)

الحسن بن هانيء بن عبدالأول بن صباح الحكمي بالولاء، أبو نواس: شاعر العراق في عصره ولد في الأهواز، ونشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد وعاش بها مقرباً إلى الرشيد والأمين والمأمون، ذهب إلى مصر ومدح أميرها الخصب وعاد إلى

بغداد فأقام بها إلى أن توفي فيها، تاب عن المجون في أواخر حياته وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٢/٢٢٥).

* الحسين البغوي (...)

أبو عبد الله الحسين البغوي، من شعراء اليتيمة ومن جمع بين الكتابة والشعر ومن نثره (قد صار الوقت أضيّق من بياض الميم ومن صدر اللثيم) (يتيمة الدهر ٥/٢٤٥).

* الحسين بن الضحّاك (٢٥٠هـ)

الحسين بن الضحّاك بن ياسر الباهلي، أبو علي: شاعر من ندماء الخلفاء، أصله من خراسان، ولد ونشأ في البصرة، اشتهر بشعره الخمري، لقب بالخليع، وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٢/٢٣٩).

* الطغراني (٥١٣هـ)

الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، أبو اسماعيل، مؤيد الدين الأصبهاني الطغراني: شاعر، من الوزراء الكتاب كان ينعت بالأستاذ، ولد بأصبهان، اتصل بالسلطان مسعود (صاحب الموصل) فولاه وزارته واتهم بالإلحاد والزندقة في عهد السلطان محمود فقتله بذلك، وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٢/٢٤٦).

* حسين العُشاري (١١٩٥هـ)

حسين علي بن حسن بن محمد العشاري: فقيه أصولي، من أهل بغداد ولد وتعلم بها. أرسل من بغداد للتدريس في البصرة ١١٩٤هـ فتوفي بها قبل أن يحول الحول، نسخ كتباً كثيرة وله مؤلفات وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٢/٢٤٨).

* الرَّاعي (...)

حصين بن معاوية من بني نمير، وكان يقال لأبيه في الجاهلية معاوية الرئيس وكان سيّداً وإنما قيل له الراعي لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره. (الشعر والشعراء لأبي قتيبة، تحقيق مفيد قميحة ص/٢٠١).

* خالد الكاتب (٢٦٢هـ)

خالد بن يزيد البغدادي، أبو الهيثم المعروف بالكاتب: شاعر غزل من الكتاب، أصله من خراسان، ومولده بها عاش وتوفي في بغداد كان أحد كتاب الجيش في

أيام المعتصم العباسي، كان يهاجي أبا تمام وأصيب بالوسواس آخر عمره.
(الأعلام ٣٠١/٢).

* البعيث (١٣٤هـ)

خداش بن بشر بن خالد، أبوزيد التميمي، خطيب، شاعر، من أهل البصرة، كانت بينه وبين جرير مهاجاة دامت نحو أربعين سنة، توفي بالبصرة. (الأعلام ٣٠٢/٢).

* خليل مردم (١٣٧٩هـ)

خليل بن أحمد مختار مردم بك: رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق وأحد شعرائها، مولده ووفاته بها، تعلّم التركية والإنجليزية، وشارك في إنشاء بعض المجلات، وعيّن وزيراً للمعارف ١٩٤١م، وعيّن وزيراً للخارجية ١٩٥٣م، ثم انصرف عن الوزارة فانتخب رئيساً للمجمع واستمرّ إلى أن توفي. له عدة مؤلفات منها «شعراء الشام في القرن الثالث» و «جمهرة المغنين» و «الأعرابيات» وديوان شعره وكلها مطبوعة. (الأعلام ٣١٥/٢)

* خليل الخوري (١٣٢٥هـ)

خليل بن جبرائيل بن يوحنا بن ميخائيل: شاعر، من الكتاب، ولد في الشويفات ببلبنان، وتعلم في بيروت، وأنشأ بها جريدة «حديقة الأخبار» سنة ١٨٥٨م وتوفي في بيروت. له ديوان في ستة أجزاء مطبوع منها خمسة وهي «زهر الربى، العصر الجديد، السмир الأمين، الشاديات، والنفحات» وله قصص ورسائل وكتب. (الأعلام ٣١٦/٢).

* خليل مطران (١٣٦٨هـ)

خليل بن عبده بن يوسف مطران: شاعر من كبار الكتاب، له اشتغال بالتاريخ والترجمة ولد في بعلبك ببلبنان، وتعلّم في بيروت، وسكن مصر وتولّى تحرير «جريدة الأهرام» بضع سنين، ثم أنشأ «المجلة المصرية» وبعدها «الجوائب المصرية» يومية، ترجم عدة روايات لشكسبير، توفي بالقاهرة وديوان شعره مطبوع في أربعة أجزاء (الأعلام ٣٢٠/٢).

* داود الأنطاكي (١٠٠٨هـ)

داود بن عمر الأنطاكي: عالم بالطب والأدب، كان ضريباً، انتهت إليه رئاسة الأطباء في زمانه، ولد في أنطاكية، وهاجر إلى القاهرة وأقام بها مدة، ثم رحل إلى مكة وتوفي بها، له مؤلفات كثيرة منها «تزيين الأسواق» في الأدب اختصره من «أسواق الأشواق» للبقاعي (الأعلام ٢/٣٣٤).

* أبو المطاع ناصر الدولة (٤٢٨هـ)

ذو القرنين بن حمدان بن ناصر الدولة التّغليبي، أبو المطاع، وجيه الدولة: أمير، شاعر، من أهل دمشق، ولي إمرتها (سنة ٤٠١هـ) وعزل فرحل إلى مصر وتولى الإسكندرية، ثم تركها وعاد إلى دمشق ثم عاد إلى مصر وتوفي بها، له ديوان شعر منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي ٢٤: ٢٦٣-٢٨٤ و ٢٥: ١١٥-١٤١. (الأعلام ٨/٣).

* راشد الحيسي (نحو ١١٥٠هـ)

راشد بن خميس بن جمعة بن أحمد الحيسي العُماني: شاعر مجيد من أهل عُمان، ولد في عين بني صارخ من قرى الظاهرة من عُمان، وعمي في طفولته، وانتقل إلى يبرين، فرباه الإمام بلعرب اليعربي، ثم انتقل إلى أرض الحزم في عمان، ثم سكن نزوى إلى أن مات، وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٣/١١).

* المرقّش الأصغر (نحو ٥٠ ق هـ)

ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك: شاعر جاهلي، من أهل نجد والمرقّش الأكبر عمّه، وهو عمّ طرفة بن العبد. ديوانه مطبوع (الأعلام ٣/١٦).

* رشيد أيوب (١٣٦٠هـ)

شاعر لبناني، اشتهر في المهجر الأميركي، ولد في بسكنتا (من قرى لبنان) ورحل إلى باريس سنة ١٨٨٩م فأقام ثلاث سنوات. وانتقل إلى مانشستر فأقام نحو ذلك، وهو يتعاطى تصدير البضائع وعاد إلى قريته ثم هاجر إلى نيويورك واستمر إلى أن توفي، له «الأيوبيات» من نظمه و «أغاني الدرويش» و «هي الدنيا» وجميعها مطبوعة. (الأعلام ٣/٢٢).

* رشيد سليم الخوري ()

المعروف بـ "الشاعر القروي" ولد عام ١٨٨٧م في قرية البربارة ببلبنان تعلم في بيروت وطرابلس، واشتغل بالتدريس سبع سنوات، ثم سافر إلى البرازيل ١٩١٣م. وهناك حمل الصندوق المملوء بالسلع يضرب في القرى منادياً على بضاعته، ثم تحول إلى التجول في الولايات المتحدة، عاش بالكفاف، اشترك في تأليف العصبة الأندلسية، وتولى رئاستها بعد «ميشيل معلوف». جمع شعره كله في ديوان كبير سماه «ديوان القروي» وهو مطبوع. (تاريخ الشعر العربي الحديث ص/٣١٤).

* زكي مبارك (١٣٧١هـ)

زكي عبدالسلام مبارك: أديب من كبار الكتاب المعاصرين، ولد في قرية «سنتريس» بمنوفية مصر، وتعلم في الأزهر وأحرز لقب «دكتور» في الأدب من الجامعة المصرية، اطلع على الأدب الفرنسي في فرنسا، اشتغل بالتدريس في مصر، وانتدب للعمل مدرّساً في بغداد، ثم عاد إلى مصر، فعين مفتشاً بوزارة المعارف، وتوفي في القاهرة، له نحو ثلاثين كتاباً منها «النثر الفني في القرن الرابع» و «البدائع» و «ألحان الخلود» ديوان شعره مطبوع (الأعلام ٤٨/٣).

* زهير بن أبي سلمى (١٣ ق هـ)

زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني، من مضر: حكيم الشعراء في الجاهلية من عائلة أغلبها شعراء، ولد في بلاد «مزينة» بنواحي المدينة وكان يقيم في الحاجر من ديار نجد، قصائده تسمى بالحوليات. وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٥٢/٣).

* البهاء زهير (٦٥٦هـ)

زهير بن محمد بن علي المهلب العتكي، بهاء الدين: شاعر من الكتاب ولد بمكة ونشأ بقوص، اتصل بخدمة الملك الصالح أيوب (بمصر) فقره وجعله من خواص كتّابه، توفي بمصر، وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٥٢/٣).

* النَّابِغَةُ الذَّبْيَانِي (نحو ١٨ ق هـ)

زياد بن معاوية بن ضباب الذبباني الغطفاني المضري، أبو أمامة: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وكان حظياً عند النعمان بن

المنذر، حتى شبب بالمتجردة (زوجة النعمان) فغضب عليه، ففر النابغة، وغاب زمنًا، ثم رضي عنه النعمان، ديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٥٤/٣).

* سيطرة العصبية (...)

شاعرة عاشت في القرن الثالث الهجري ذكرها الأصفهاني في الزهرة وهي معاصرة له لأنه يقول: (وأشدتني سيطرة العصبية) (الزهرة للأصفهاني ١١٥/١).

* عبد بني الحسحاس (نحو ٤٠هـ)

سحيم: شاعر، رقيق الشعر. كان عبدًا نويبًا أعجمي الأصل، اشتراه بنو الحسحاس (وهم بطن في بني أسد) فنشأ فيهم، رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - وكان يعجبه شعره، وعاش إلى أواخر أيام عثمان، وقتله بنو الحسحاس وأحرقوه، لتشبيبه بنسائهم. له ديوان شعر مطبوع (الأعلام ٧٩/٣).

* السري الرقاء (٣٦٦هـ)

السري بن أحمد السري الكندي، أبو الحسن: شاعر، أديب من أهل الموصل. كان في صباه يرفو ويطرز في دكان بها، فعرف بالرقاء. قصد سيف الدولة بحلب فمدحه وأقام عنده مدة، ثم انتقل إلى بغداد. عمل آخر عمره بالوراقة، وكان ينسخ لغيره بالأجرة. من كتبه «المحبّ والمحجوب والمشموم والمشروب» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٨١/٣).

* سعد الدين فوزي ()

شاعر سوداني معاصر، له ديوان من وادي عبقر. وهو مطبوع.

* سعدى بنت الشمردل (...)

سعدى بنت الشمردل الجهنية. لعلها جاهلية: شاعرة من بني جهينة اشتهرت بقصيدة في رثاء أخيها، ومن الرواة من يسميها «سلمى بنت مجدعة» (الأعلام ٨٩/٣).

* سعيد بن حميد (نحو ٢٥٠هـ)

سعيد بن حميد بن سعيد، أبو عثمان: كاتب مترسل، من الشعراء أصله من النهروان الأوسط، من أبناء الدهاقين، ومولده ببغداد، قلده المستعين العباسي ديوان رسائله، أكثر أخباره مناقضات له مع فضل الشاعرة جمع «أحمد السامرائي» ما وجد من رسائله وأشعاره في كتاب مطبوع. (الأعلام ٩٣/٣).

* سعيد بن العاصي (...)

ذكره «الكتّاني» في كتاب «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» وأورد له أشعاراً في مواضع مختلفة في الكتاب ص / ١٢٠، ١٥٢، ١٦٨).

* سمّية زوجة شدّاد العبسي (...)

شاعرة جاهلية من زوجات شدّاد العبسي والد الشاعر المشهور «عنتر بن شدّاد» ولها شعر في رثاء زوجها شدّاد. (شاعرات العرب في الجاهلية ص / ٩٩).

ابن أبي كاهل (بعد ٦٠هـ)

سويد بن أبي كاهل بن حارثة بن حسل الذبياني الكناني اليشكري: شاعر، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، كان يسكن بادية العراق وسجن بالكوفة لمهاجراته أحد بني يشكر، ثم أطلق بعد أن حلف على أن لا يعود إلى المهاجرة، ديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٣ / ١٤٦).

* هاشم الرفاعي (١٩٥٩م)

سيّد بن جامع بن هاشم بن مصطفى الرفاعي، ولكنّه اشتهر باسم جدّه هاشم لشهرته ونبوغه، وهو شاعر مصري معاصر التحق بمعهد الزقازيق الديني الذي يتبع الأزهر سنة ١٩٤٧م، وأكمل دراسته الثانوية به، قتل عام ١٩٥٩م. وديوانه مطبوع. (ديوان هاشم الرفاعي ص / ٩).

* الممزّق العبدي (...)

شأس بن نهار بن أسود، من بني عبدالقيس: شاعر جاهلي قديم، من أهل البحرين. لقّب بالممزّق لقوله:-

فإن كنتُ مأكولا فكنّ خير أكلٍ وإلا فأدركني ولما أمزّق

(الأعلام ٣ / ١٥٢).

* شفيق جبيري ()

ولد عام (١٣١٤هـ) وحين بلغ السادسة أرسله أبوه إلى «دمشق» ليتعلّم ومكث بها حتّى حصل على الشهادة الثانوية (١٩١٣م)، ثم ذهب مع أبيه إلى يافا بفلسطين، ثم إلى الإسكندرية، ثم عاد إلى دمشق (سنة ١٩١٨م) عيّن رئيساً لديوان المعارف، ثم عيّن سنة (١٩٢٨م) مديراً لكلية الآداب بدمشق، له عدّة مؤلفات منها «أنا والشعر» و «أنا والنثر» و «الجاحظ معلم العقل والأدب».

وله ديوان شعر باسم «نوح العنديل» وهو مطبوع. (تاريخ الشعر العربي الحديث ص/٢٠٠).

* صالح الشرنوبى (١٣٧٠هـ)

صالح بن علي الشرنوبى المصرى: شاعر من أهل «بلطيم» بمصر ولد ونشأ بها، ودخل المعهد الدينى بدسوق، فمعهد القاهرة، فالمعهد الأحمدي بطنطا، ثم كلية الشريعة، فكلية دار العلوم - وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٣/١٩٣).

* صفية بنت عبدالمطلب (٢٠هـ)

صفية بنت عبدالمطلب بن هاشم: سيدة قرشية، شاعرة باسلة وهي عمه الرسول - عليه الصلاة والسلام - أسلمت قبل الهجرة، وهاجرت إلى المدينة، قتلت جاسوساً يهودياً بعمود يوم أحد، وتقدمت تقاتل المشركين حين رأت المسلمين يتراجعون، لها مرث رقيقة، وفي شعرها جودة، وماتت في المدينة (الأعلام ٣/٢٠٦).

* صلاح اللبكي (١٣٧٤هـ)

صلاح بن نعوم اللبكي: أديب لبناني. ولد في البرازيل حيث كان أبوه، وجيء به إلى «بعبدات» في لبنان، وعمره سنتان، فتخرج بمدرستي الحكمة وعينطورة ثم بمعهد الحقوق الفرنسي (١٩٣٠م) وعمل في الصحافة والمحاماة وتوفي في بيروت، له مؤلفات نثرية وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٣/٢٠٨).

* ضياء الدين رجب (١٣٩٦هـ)

من أبرز شعراء المملكة العربية السعودية، ولد بالمدينة المنورة (عام ١٣٣٥هـ) تلقى تعليمه في المسجد النبوي الشريف، واشتغل بالتدريس في المدينة المنورة، اشترك في تحرير صحيفة المدينة المنورة في بداية صدورهما، عين قاضياً بمدينة العلا عام ١٣٩١هـ، ثم عمل بعد ذلك بالمحاماة ثم عين مستشاراً قضائياً لأمانة العاصمة فعوضاً بمجلس الشورى إلى أن أحيل للتقاعد فعاد إلى الاشتغال بالمحاماة حتى توفي بالرياض. ديوان شعره مطبوع. (ديوان ضياء رجب - التعريف بالشاعر).

* طرفة بن العبد (نحو ٦٠ ق هـ)

طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، الوائلي، أبوعمر: شاعر جاهلي، في الطبقة الأولى، ولد في بادية البحرين، وتنقل في بقاع نجد واتصل بالملك عمرو بن هند

فجعله في ندمائه، ثم غضب عليه لما بلغه هجاؤه له فأمر بقتله، فقتله المكعبر قبل أن يصل الثلاثين من عمره (الأعلام ٣/٢٢٥).

* طريح الثَّقفي (١٦٥هـ)

طريح بن إسماعيل بن عبيد الثَّقفي، أبوالصَّلْت: شاعر الوليد بن يزيد الأموي، وخليله. انقطع إليه قبل أن يلي الخلافة، واستمر اتصاله به، وأكثر شعره في مدحه، وكان الوليد يستشيريه في مهماته وعاش إلى أيام الهادي العباسي. وديوان شعره مطبوع (الأعلام ٣/٢٢٦).

* المثقَّب العبدي (نحو ٣٥ ق هـ)

العائذ بن محصن بن ثعلبة، من بني عبدالقيس، من ربيعة: شاعر جاهلي، من أهل البحرين. اتَّصل بالملك عمرو بن هند، وله فيه مدائح. ومدح النعمان بن المنذر، ديوانه مطبوع. (الأعلام ٣/٢٣٩).

* عاتكة بنت عبدالمطلب (...)

عاتكة بنت عبدالمطلب بن هاشم: شاعرة، لها في ديوان «الحماسة» أبيات مختارة. وهي من عمَّات النبي - صلى الله عليه وسلم - اختلف في إسلامها، والثابت أنها كانت يوم بدر (سنة ٥هـ) بمكَّة، وقيل أسلمت بمكَّة وهاجرت إلى المدينة (الأعلام ٣/٢٤٢).

* أعشى باهلة (...)

عامر بن الحارث بن رياح الباهلي، من همدان: شاعر جاهلي يكنى «أبا قحطان» أشهر شعره رائية له، في رثاء أخيه لأمه. (الأعلام ٣/٢٥٠).

* جِران العود (...)

عامر بن الحارث النميري: شاعر وصاف. أدرك الإسلام، وسمع القرآن، واقتبس منه كلمات وردت في شعره. ومعنى «جران العود» مقدم عنق البعير المسن، كان يلقب نفسه به في شعره، له ديوان شعر مطبوع. (الأعلام ٣/٢٥٠).

* العباس بن الأحنف (١٩٢هـ)

العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي، أبو الفضل: شاعر غزل رقيق، قال فيه البحترى: «أغزل النَّاس» أصله من اليمامة (في نجد) نشأ ببغداد وتوفي

بها، وقيل بالبصرة. خالف الشعراء في طريقتهم فلم يمدح ولم يهج، بل كان شعره كله غزلاً وتشبيهاً: ديوان شعره مطبوع (الأعلام ٣/٢٥٩).

* عبّاس العقّاد (١٣٨٣هـ)

عبّاس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقّاد: كاتب وشاعر مصري من المكثرين كتابة وتصنيفاً مع الإبداع، أصله من دمياط، كان أحد أسلافه يعمل في «عقادة» الحرير فعرف بالعقاد، ولد بأسوان وتعلّم في مدرستها الابتدائية، عمل بالسكة الحديدية، ثم معلماً في بعض المدارس الأهلية، تعلّم الإنجليزية وأجادها وأمّ بالألمانية والفرنسية، له ٨٣ كتاباً منها «عن الله» و«عبقريّة محمد» و«ساعات بين الكتب» و«ابن الرومي» و«أبونواس» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٣/٢٦٦)

* ابن حمديس (٥٢٧هـ)

عبدالجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي، أبو محمد: شاعر مبدع، ولد وتعلّم في جزيرة صقلية، ورحل إلى الأندلس، فمدح المعتمد بن عباد، وانتقل إلى إفريقية، ومدح بعض حكامها، وتوفي بجزيرة ميورقة، عن نحو ٨٠ عاماً، وقد فقد بصره. له ديوان شعر مطبوع. (الأعلام ٣/٢٧٤).

* أعشى همدان (٨٣هـ)

عبدالرحمن بن عبدالله بن الحارث بن نظام الهمداني: شاعر اليمانيين بالكوفة، وفارسهم في عصره. ويعدّ من شعراء الدولة الأموية، كان أحد الفقهاء القراء، غزا الديلم وله شعر كثير في وصف بلادهم ووقائع المسلمين معهم. قابل رجال الحجاج الثقفى، فقبض عليه وأمر الحجاج بقتله فضربت عنقه، وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٣/٣١٢).

* البرعي (٨٠٣هـ)

عبدالرحيم بن أحمد بن علي البرعي اليماني: شاعر متصوّف، من سكان «النيابتين» في اليمن، أفتى ودرس، له ديوان شعر مطبوع أكثره في المدائح النبوية. نسبته إلى برع «جبل بتهامة». (الأعلام ٣/٣٤٣).

* القاضي الفاضل (٥٩٦هـ)

عبدالرحيم بن علي بن السعيد اللخمي، المعروف بالقاضي الفاضل: وزير، من

أنمة الكتاب، ولد بعسقلان (بفلسطين) وانتقل إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة وتوفي بها. استوزره صلاح الدين، ولم يخدم أحداً بعده، له آثار كثيرة شعراً ونثراً. وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٣/٣٤٦).

* ديك الجنّ (٢٣٥هـ)

عبدالسلام بن رغبان بن عبدالسلام بن حبيب الكلبي، المعروف بديك الجنّ: شاعر، فيه مجون، من شعراء العصر العباسي، سمّي بديك الجنّ لأنّ عينيه كانتا خضراوين، أصله من سلمية (قرب حماة) مولده ووفاته بحمص (في سورية) لم يفارق بلاد الشام، ديوان شعره مطبوع (الأعلام ٤/٥).

* ابن المعذّل (نحو ٢٤٠هـ)

عبدالصّمد بن المعذّل بن غيلان بن الحكم العبدي، من بني عبدالقيس، أبو القاسم: من شعراء الدولة العباسية، ولد ونشأ في البصرة، كان هجاءً، شديد العارضة، سكيراً. (الأعلام ٤/١١).

* ابن بابك (٤١٠هـ)

عبدالصّمد بن منصور بن الحسن بن بابك، أبو القاسم: شاعر مجيد مكثّر من أهل بغداد. له ديوان شعر. طاف البلاد، ولقي الرؤساء ومدحهم، وأجزلوا جائزته، توفي ببغداد. (الأعلام ٤/١١).

* سيدوك الواسطي (٣٦٣هـ)

عبدالعزیز بن حامد بن خضر الواسطي، أبو طاهر: شاعر، من أهل واسط. كان يعرف بسيدوك (الأعلام ٤/١٦). قال عنه الثعالبي (شعره يروى حين يروى ويحفظ حين يلحظ وما لظرفه نهاية، ولا للطفه غاية). (يتيمة الدهر ٢/٤٣٦).

* صفيّ الدين الحلّي (٧٥٠هـ)

عبدالعزیز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم السننسي الطائفي: شاعر عصره. ولد ونشأ في الحلة (بين الكوفة وبغداد) واشتغل بالتجارة. وتقرّب من ملوك الدولة الأرتقية ومدحهم، ورحل إلى القاهرة (سنة ٧٢٦هـ) وتوفي ببغداد. ديوان شعره مطبوع، وله مؤلفات نثرية. (الأعلام ٤/١٨).

* الأخرس (١٢٩٠هـ)

عبدالغفار بن عبدالواحد بن وهب: شاعر من فحول المتأخرين. ولد في الموصل. ونشأ ببغداد، وتوفي بالبصرة. ارتفعت شهرته وتناقل الناس شعره. ولقب بالأخرس لحبسة كانت في لسانه، وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٤/٣٢).

* عبدالله الطيّب ()

ولد بالتميراب غربي «الدامر» في السودان (عام ١٩٢١م) وتعلّم في مدرسة (بربر). وأتمّ دراسته الثانوية والعليا ورحل إلى انكلترا ودرس في جامعاتها ونال درجة الدكتوراه. ثم عاد إلى بلاده وصار إلى جامعة الخرطوم. له ديوان شعر باسم (أصداء النيل) وهو مطبوع. (تاريخ الشعر العربي الحديث ص/٥٩٢).

* عبدالله بن الزبير (نحو ١٥هـ)

عبدالله بن الزبير بن قيس السهمي القرشي، أبوسعدي: شاعر قريش في الجاهلية. كان شديداً على المسلمين إلى أن فُتِحَت مكة فهرب إلى نجران، فقال فيه «حسان» أبياتاً، فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر، ومدح النبي - صلى الله عليه وسلم - فأمر له بحلّة. وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٤/٨٧).

* أبو صخر الهذلي (نحو ٨٠هـ)

عبدالله بن سلمة السهمي، من بني هذيل بن مدركة: شاعر، من الفصحاء كان في العصر الأموي، موالياً لبني مروان، متعصباً لهم، وله في عبدالملك وأخيه عبدالعزيز مدائح، وحبسه عبدالله بن الزبير عاماً ثم أطلقه. (الأعلام ٤/٩٠).

* العرجي (نحو ١٢٠هـ)

عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي القرشي: شاعر، غزل مطبوع، كان مشغولاً باللهو والصيد، وكان من الأدباء الظرفاء الأسخياء ومن الفرسان المعدودين. صحب مسلمة بن عبدالملك في وقائعه بأرض الروم. لقب بـ «العرجي» لسكناه قرية «العرج» قرب الطائف، وهو من أهل مكة، وسجنه والي مكة في تهمة دم مولى لعبدالله بن عمر، فلم ينزل في السجن حتى مات. (الأعلام ٤/١٠٩).

* عبدالله الفيصل ()

الأمير / عبدالله الفيصل بن عبدالعزيز آل سعود / شاعر سعودي معاصر. ولد في مدينة الرياض، وتولى تربيته جده الملك عبدالعزيز آل سعود. ثم سافر مع والده - الملك فيصل - إلى الحجاز، ثم تولى مناصب هامة في الدولة، وكان وزيراً للصحة والداخلية، ثم أتجه إلى الأعمال التجارية عام ١٣٧٨هـ. له عدة دواوين مطبوعة، منها «وحي الحرمان» و «خريف العمر» يعد رائداً للنزعة الرومانتيكية في الشعر السعودي المعاصر وأحد أقطاب الشعر العاطفي في العالم العربي. (تاريخ الشعر العربي الحديث ص/٦٤٥).

الأحوص (١٠٥هـ)

عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عاصم الأنصاري، من بني ضبيعة: شاعر هجاء، صافي الديباجة، كان معاصراً لجرير والفرزدق، وهو من سكان المدينة وفد على الوليد بن عبد الملك بالشام فأكرمه الوليد، ثم بلغه عنه ما ساءه من سيرته فرده إلى المدينة وأمر بجلده. فجلد ونفي إلى جزيرة (دهلك) بالبحر الأحمر. فبقي فيها حتى أطلقه يزيد بن عبد الملك، فقدم دمشق فمات فيها، ديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٤/١١٦).

* ابن المعتز (٢٩٦هـ)

عبدالله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي، أبو العباس، الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة، ولد في بغداد، صنّف كتباً منها «البيدع-ط» و «فصول التماثيل-ط» و «طبقات الشعراء-ط» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٤/١١٩).

* ابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ)

عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان، أبو محمد الخفاجي الحلبي: شاعر أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وغيره. وكانت له ولاية بقلعة «عزاز» من أعمال حلب، وعصى بها، وأطعم طعاماً مسموماً، فمات وحمل إلى حلب. له ديوان شعر مطبوع. و«سر الفصاحة-مطبوع» (الأعلام ٤/١٢٢).

* عبيد بن الأبرص (نحو ٢٥ ق هـ)

عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدي، من مضر، أبوزياد: شاعر، من دهاة الجاهلية وحكائها. وهو أحد أصحاب «المجمهرات» المعدودة طبقة ثانية

عن المعلقات. عاصر امرأ القيس، وله معه مناظرات ومناقضات. وعمر طويلاً حتى قتله النعمان بن المنذر وقد وفد عليه يوم بؤسه. له ديوان شعر مطبوع. (الأعلام ١٨٨/٤).

* أبو الفضل الميكالي (٤٣٦هـ)

عبيدالله بن أحمد بن علي الميكالي، أبو الفضل: أمير، من الكتاب الشعراء. من أهل خراسان. صنّف الشعالي «ثمار القلوب» لخزاتته وأورد في «يتيمة الدهر» محاسن في نشره ونظمه. له من المؤلفات «مخزون البلاغة» و «المنتحل-ط» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ١٩١/٤).

* عبيدالله بن الرُّقيات (نحو ٨٥هـ)

عبيدالله بن قيس بن شريخ بن مالك من بني عامر بن لؤي: شاعر قريش في العصر الأموي. كان مقيماً في المدينة. خرج مع مصعب بن الزبير على عبدالمك بن مروان. ثم انصرف إلى المدينة بعد مقتل ابن الزبير فأقام سنة، ثم قصد الشام، فأمنه عبدالمك، فأقام إلى أن توفي، أكثر شعره في الغزل والنسيب وله مدح وفخر. ولقب بابن قيس الرقيات لأنه كان يتغزل بثلاث نسوة، اسم كل واحدة منهن رقية، وقيل اسمه عبدالله. ديوان شعره مطبوع. (الأعلام ١٩٦/٤).

* المهلهل (نحو ١٠٠هـ)

عدي بن ربيعة بن مرة بن هبيرة، من بني جشم، من تغلب، أبو ليلى المهلهل: شاعر، من أبطال العرب في الجاهلية، من أهل نجد. وهو خال امرئ القيس الشاعر. قيل لقب مهلهل، لأنه أول من هلهل نسج الشعر، أي رققه، لقب في شبابه «زير النساء» أي جليسهن، قُتل أخوه كليب، وآلى أن يثأر له فكانت وقائع بكر وتغلب التي دامت أربعين سنة، وشعره عالي الطبقة. (الأعلام ٢٢٠/٤).

* عدي بن زيد (نحو ٣٥ ق هـ)

عدي بن زيد بن حماد التميمي: شاعر من دهاة الجاهليين، من أهل الحيرة، يحسن العربية والفارسية، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، اتّخذ من خاصّته وجعله ترجماناً بينه وبين العرب. فسكن المدائن. أرسله «هرمز» بن كسرى إلى ملك الروم، فزار بلاد الشام ثم تزوج هند بنت النعمان. ووشى به أعداؤه إلى النعمان بما أوغر صدره فسجنه وقتله. ديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٢٢٠/٤).

* عدي بن الرِّقاع العاملي (نحو ٩٥هـ)

عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع، من بني عاملة: شاعر كبير من أهل دمشق، يكنى أبو داود، كان معاصراً لجريز، مهاجياً له مداحاً لبني أمية، مات في دمشق، له ديوان شعر مطبوع. (الأعلام ٤/٢٢١).

* عزيز أباطة (١٣٩٣هـ)

عزيز بن محمد بن عثمان أباطة: شاعر مصري من رجال الأدب واللغة والقضاء ولد في «الربع مائة» بالشرقية. وتخرج بالحقوق في القاهرة (١٩٢٣م) وعمل في المحاماة ثم كان مدعياً عاماً، فقاضياً، فمن أعضاء مجلس النواب (١٩٢٩م) وتولّى أعمالاً إدارية، وعيّن عضواً بمجمع اللغة العربية، وبالمجمع العلمي العراقي. توفي بالقاهرة، له كتاب «إشراقات النبوة» وديوان شعره مطبوع وله مسرحيات شعرية. (الأعلام ٤/٢٣٢).

* عَطَّارِد بن قُرَّان (نحو ١٠٠هـ)

عطارِد بن قران، من بني صدي بن مالك: شاعر مطبوع مُقلِّد من الصعاليك. حُبِس بنجران وحجر، وله شعر في حبسه بهما، وكان معاصراً لجريز وبينهما مهاجاة. (الأعلام ٤/٢٣٦).

* أبو القاسم الكاتب (...)

علي بن بشر الكاتب، أبو القاسم. ذكره الثعالبي في يتيمة الدهر وأورد مقطعات من شعره (يتيمة الدهر ١/٤٨٨).

* العَكْوَك (٢١٣هـ)

علي بن جبلة بن مسلم بن عبدالرحمن الأبنابي، من أبناء الشيعة الخراسانية، أبو الحسن، المعروف بالعكوك: شاعر عراقي. كان أعمى أسود أبرص، من أحسن الناس إنشاداً، لَقَّبَهُ الأصمعي بالعكوك (الغليظ السمين). ولد بقرب بغداد، وقتله المأمون، ما جمع من شعره محقق منشور (الأعلام ٤/٢٦٨).

* علي بن الجهم (٢٤٩هـ)

علي بن الجهم بن بدر، أبو الحسن، من بني سامة، من لؤي بن غالب: شاعر رقيق الشَّعر، أديب من أهل بغداد. كان معاصراً لأبي تمام صحب المتوكل العباسي، ثم غضب عليه المتوكل فنفاه إلى خراسان فأقام فيها مدة، وانتقل إلى

حلب، ثم خرج منها بجماعة يريد الغزو فاعترضه فرسان من بني كلب، فقاتلهم وجرح ومات من جرحه. له ديوان شعر مطبوع. (الأعلام ٤/٢٧٠).

* الشَّريف المرتضي (٤٣٦هـ)

علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم، أبو القاسم، من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب: نقيب الطالبين، وأحد الأئمة في علم الكلام والأدب والشعر. مولده ووفاته ببغداد، له تصانيف كثيرة منها «أمالي المرتضي-ط» و «المسائل الناصرية-ط» و«طيف الخيال-ط» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٤/٢٧٨).

* علي الجارم (١٣٦٨هـ)

علي بن صالح بن عبدالفتاح الجارم: أديب مصري، من رجال التعلّم له شعر ونظم كثير، ولد في رشيد، وتعلّم بالقاهرة وانجلترا، وجعل كبيراً لمفتّشي اللغة العربية بمصر، فوكيلاً لدار العلوم حتّى سنة (١٩٢٢م) من أعضاء المجمع اللغوي، ديوانه مطبوع، وله عدة مؤلفات منها «فارس بني حمدان» و «غادة من الأندلس» و «هرم الوليد» وكتب مدرسية في النحو والتريية. (الأعلام ٤/٢٩٤).

* ابن الرُّومي (٢٨٣هـ)

علي بن العباس بن جريج الرُّومي: شاعر رومي الأصل، ولد ونشأ ببغداد وفيها مات مسموماً. يقال: إنّه ما مدح أحداً إلّا وعاد إليه وهجاه. وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٤/٢٩٧).

* ابن الزّقاق البلنسي (٥٢٨هـ)

علي بن عطية بن مُطرّف، أبو الحسن اللخمي البلنسي. المعروف بابن الزقاق: شاعر له غزل رقيق ومدائح اشتهر بها، عاش أقل من أربعين عاماً. ديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٤/٣١٢).

* القاضي التنوخي (٣٤٢هـ)

علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم بن تميم، أبو القاسم التنوخي، قاضي، أديب، شاعر، عالم بأصول المعتزلة، ولد بأنطاكية، ورحل إلى بغداد في حياته، وولي قضاء البصرة والأهواز وغيرهما، وتوفي بالبصرة - وله ديوان شعر. (الأعلام ٤/١٤٣).

* أبو الحسن التّهامي (٤١٦هـ)

علي بن محمد بن نهد التّهامي أبو الحسن: شاعر مشهور من أهل تهامة (بين الحجاز واليمن) زار الشام والعراق، وولي خطابة الرملة ثمّ رحل إلى مصر متخيّفاً، فعلمت به حكومة مصر، فاعتقل وحبس في دار البنود بالقاهرة ثم قتل سرّاً في سجنه، وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٣٢٧/٤).

* ابن السّاعاتي (٦٠٤هـ)

علي بن محمد بن رستم الخراساني، أبو الحسن، بهاء الدين بن الساعاتي. شاعر مشهور، خراساني الأصل. ولد ونشأ في دمشق. وكان أبوه يعمل الساعات بها. فلقب بابن الساعاتي. وتوفي بالقاهرة. ديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٣٣٠/٤).

* كمال الدين ابن الأعمى (٦٩٢هـ)

علي بن محمد بن المبارك، كمال الدين ابن الأعمى: شاعر من أهل القاهرة وهو صاحب المقامة البحرية. (الأعلام ٣٣٤/٤).

* علي محمود طه (١٣٦٩هـ)

علي محمود طه المهندس: شاعر مصري، كثير النظم. ولد بالمنصورة وتخرّج بمدرسة الهندسة التطبيقية. وعمل في الأعمال الحكومية إلى أن عيّن وكيلاً لدار الكتب المصرية. وتوفي بالقاهرة ودفن بالمنصورة. له عدة دواوين منها «الملاح التائه» و «ليالي الملاح التائه» و «أرواح وأشباح». (الأعلام ٢١/٥).

* ابن المقرّب العيوني (٦٢٩هـ)

علي بن المقرّب بن منصور بن المقرّب العيوني، جمال الدين، أبو عبدالله: شاعر مجيد، من بيت إمارة. نسبته إلى العيون (موضع بالبحرين) وهو من أهل الأحساء. اضطهده أميرها، فأخذ أمواله، وسجنه مدّة ثم أطلقه، ورحل إلى العراق ثم عاد إلى الأحساء، وزار الموصل - وتوفي بالبحرين. ديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٢٤/٥).

* عمرو بن الحصين العنبري (...)

كان مولى لبني تميم. عاش في أواخر العصر الأموي. وأدرك أبا حمزة الشّاري ورثاه بعد مقتله (ديوان الخوارج ص/١٣٨).

* عمر بن ابي ربيعة (٥٩٣هـ)

عمر بن عبدالله بن ابي ربيعة المخزومي القرشي، أبو الخطاب: أرق شعراء عصره، من طبقة جرير والفرزدق. ولد في الليلة التي توفي بها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فسمي باسمه. كان يتعرض لنساء الحاجّ ويشبّب بهنّ فنفاه عمر بن عبدالعزيز إلى جزيرة "دهلك" ثم غزا في البحر فاحترقت السفينة به ويمن معه، فمات غرقاً. ديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٥/٥٢).

* عمرو بن قميئة (نحو ٨٥ ق هـ)

عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد البكري الوائلي النزازي - شاعر جاهلي نشأ يتيماً، وأقام في الحيرة مدة. خرج مع امريء القيس في توجهه إلى قيصر، فمات في الطريق، فكان يقال له «الضائع» وكان واسع الخيال في شعره. له ديوان شعر مطبوع (الأعلام ٥/٨٣).

* أبو قطيفة (نحو ٧٠هـ)

عمرو بن الوليد بن عقبة بن ابي معيط، الأموي القرشي: شاعر، رقيق الشعر، جليّ المعاني. كان يقيم في المدينة. ونفاه عبدالله بن الزبير إلى الشام مع من نفاهم من بني أمية، فأقام زمناً في دمشق أكثر فيه الحنين إلى المدينة حتى رقى له ابن الزبير فأذن برجوعه، فبينما هو عائد أدركه الموت قبل أن يبلغ المدينة. (الأعلام ٥/٨٧).

* عنتره العبسي (نحو ٢٢ ق هـ)

عنتره بن شداد بن عمرو بن قراد العبسي: أشهر فرسان العرب في الجاهلية من شعراء الطبقة الأولى. من أهل نجد، أمّه حبشية اسمها زبيبة، سرى إليه السواد منها - وفي شعره رقة وعذوبة، كان مغرمّاً بابنة عمّه (عبلة). شهد حرب داحس والغبراء، عاش طويلاً، ومات مقتولاً. ديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٥/٩١).

* المرقش الأكبر (نحو ٧٥ ق هـ)

عوف بن سعد بن مالك بن ضبيعة من بني بكر بن وائل: شاعر جاهلي من المتيمين الشجعان. عشق ابنة عم له اسمها "أسماء" وقال فيها شعراً كثيراً. وكان يحسن الكتابة. وشعره من الطبقة الأولى، ولد باليمن، ونشأ بالعراق، واتّخذ الحارث الغساني كاتباً له. وهو عمّ المرقش الأصغر. (الأعلام ٥/٩٥).

* عيَّاش الضَّبِّي (...)

ذكر المرزباني في معجمه أنه قطعت يده ورجله وحبس. لا يعرف عنه أكثر من ذلك.

* الأخطل (١٩٠هـ)

غياث بن غوث بن الصَّلْت بن طارقة بن عمرو، من بني تغلب، أبو مالك: شاعر اشتهر في عهد بني أمية بالشام، وأكثر من مدح ملوكهم، نشأ على المسيحية، واتَّصل بالأمويين فكان من شعرائهم، وتهاجى مع جرير والفرزدق، فتناقل الرواة أدبه وأخباره مع الخلفاء والشعراء. وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ١٢٣/٥).

* ذو الرِّمَّة (١١٧هـ)

غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، من مضر، أبو الحارث، ذو الرِّمَّة: شاعر، من فحول الطبقة الثانية في عصره. كان شديد القصر دميماً، يضرب لونه إلى السواد، أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، كان مقيماً بالبادية، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً وامتاز بإجادة التَّشبيه - وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ١٢٤/٥).

* ابن النَّحَّاس (١٠٥٢هـ)

فتح الله بن عبدالله، الشهير بابن النحاس: شاعر رقيق مشهور من أهل حلب. قام برحلة طويلة فزار دمشق والقاهرة والحجاز. واستقرَّ في المدينة، ولبس زي الفقراء من الدراويش، وتوفي بها. وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ١٣٥/٥).

* أبو القاسم الشَّابِّي (١٣٥٣هـ)

أبو القاسم بن محمد أبي القاسم الشَّابِّي: شاعر تونسي. في شعره نفحات أندلسية. ولد في قرية «الشايية» بجنوب تونس، وقرأ العربية بالمعهد الزيتوني (بتونس) وتخرَّج بمدرسة الحقوق التونسية، وعلت شهرته، ومات شاباً بمرض الصَّدر، ودفن بقريته، له كتاب «الخيال الشعري عند العرب» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ١٨٥/٥).

* قيس بن الخطيم (نحو ٢ ق هـ)

قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي، أبو يزيد: شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية. أوّل ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتّى قتلها، وقال في ذلك شعراً، أدرك الإسلام وتريث في قبوله فقتل قبل أن يدخل فيه، شعره جيد وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٢٠٥/٥).

* مجنون ليلى (٥٦٨ هـ)

قيس بن الملوح بن مزاحم العامري: شاعر غزل، من المتيمين، من أهل نجد، لقب بالمجنون لحبّه «ليلى بنت سعد» التي نشأ معها إلى أن كبرت وحجبها أبوها، فهام على وجهه ينشد الأشعار ويأنس بالوحوش، إلى أن وُجد ميتاً فحُمِل إلى أهله. وقد جمع بعض شعره في ديوان مطبوع. (الأعلام ٢٠٨/٥).

* كعب بن زهير (٥٢٦ هـ)

كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني: شاعر عالي الطبقة، من أهل نجد، اشتهر في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبي - صلى الله عليه وسلم - فأهدر النبي دمه، فجاءه كعب مستأمناً، وقد أسلم، وأنشده لاميتته المشهورة. وديوان شعره مطبوع (الأعلام ٢٢٦/٥).

* كعب بن مالك (٥٥٠ هـ)

كعب بن مالك بن عمرو بن القين، الأنصاري السلمي الخزرجي: صحابي شاعر، من أهل المدينة، اشتهر في الجاهلية وكان في الإسلام من شعراء الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشهد أكثر الوقائع. ثم كان من أصحاب عثمان، وأنجده يوم الثورة، وعمي في آخر عمره وعاش سبعاً وسبعين سنة، روى ثمانين حديثاً، وديوان شعره مطبوع (الأعلام ٢٢٨/٥).

* العتّابي (٥٢٠ هـ)

كلثوم بن عمرو بن أيوب التّغليبي، أبو عمرو، من بني عتاب بن سعد: كاتب، حسن التّرسّل، وشاعر مجيد، سكن بغداد، فمدح هارون الرشيد وآخرين، ورمى الزندقة، فطلبه الرشيد فهرب إلى اليمن، فأخذ له الفضل البرمكي الأمان من الرشيد، فأمنه وعاد، فصحب البرامكة ثم صحب طاهر بن حسين، وصنّف كتباً منها «فنون الحكم» و «الأداب» و «الخيّل» و «الأجواد». (الأعلام ٢٣١/٥).

* الكميّ (١٢٦هـ)

الكميّ بن زيد بن خنيس الأسدي، أبو المستهل: شاعر الهاشميّين من أهل الكوفة. اشتهر في العصر الأموي. وكان عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسائها، ثقة في علمه، منحازاً إلى بني هاشم كثير المدح لهم، وهو من أصحاب الملحّات. أشهر شعره «الهاشميات» وهي مطبوعة. (الأعلام ٥/٢٣٣).

* مُتَمِّم بن نُويرَة (نحو ٣٠هـ)

متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التيمي، أبو نهشل: شاعر فحل، صحابي، من أشرف قومه. اشتهر في الجاهلية والإسلام، وكان قصيراً أعور. أشهر شعره رثاؤه لأخيه مالك. وسكن متمم المدينة أيام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - (الأعلام ٥/٢٧٤).

* ابن طباطبا (٣٢٠هـ)

محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا، الحسيني العلوي أبو الحسن: شاعر مفلح وعالم بالأدب. مولده ووفاته بأصبهان، له كتب منها «عيار الشعر-ط» و «تهذيب الطبع» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٥/٣٠٨).

* ابن الحداد الأندلسي (٤٨٠هـ)

محمد بن أحمد بن عثمان القيسي، أبو عبدالله، ابن الحداد: شاعر أندلسي، ديوان شعره مطبوع. وله كتاب «المستنبط» في العروض (الأعلام ٥/٣١٥).

* الأبيوردي (٥٠٧هـ)

محمد بن أحمد بن محمد القرشي الأموي، أبو المظفر: شاعر عالي الطبقة، مؤرخ، عالم بالأدب. ولد في أبيورد بخراسان ومات مسموماً في أصفهان كهلاً - من كتبه «تاريخ أبيورد» و «المختلف والمؤتلف» و «أنساب العرب» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٥/٣١٦).

* الإمام الشافعي (٢٠٤هـ)

محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبدالله: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزّة بفلسطين. وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين. وزار بغداد مرتين. وقصد مصر (سنة ١٩٩هـ) وتوفى بها، أفتى وهو ابن عشرين سنة - له مؤلفات كثيرة منها «الأم-ط» و «المسند» «السنن» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٦/٢٦).

* محمد بهجة الأثري ()

شاعر عراقي معاصر، ولد ببغداد (عام ١٩٠٤م) تعلم في صباه التركية والإنجليزية ثم درس علوم العربية والتاريخ وعلوم الإسلام. قرض الشعر مبكرا هاجم في شعره بعض حاكمي العراق ففضى ثلاث سنوات في معتقلات الفاو. عمل معلما بكلية المعلمين العالية ومحاضرا بكلية الشرطة ورأس عدة صحف ومجلات منها: مجلة البدائع، ومجلة العالم الإسلامي، ومجلة المجمع العراقي، له عدة كتب منها: أعلام العراق، والمجمل في تاريخ الأدب العربي. وله ديوان شعر بعنوان «ملاحم وأزهار». وهو مطبوع.

* حافظ إبراهيم (١٣٥١هـ)

محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس الشهير بحافظ إبراهيم: شاعر مصر القومي، ومدون أحداثها نيفا وربع قرن، نشأ يتيما، ونظم الشعر في أثناء الدراسة. ولما شب أتلّف شعر الحداثة جميعا، وعمل مع بعض المحامين ثم التحق بالمدرسة الحربية وتخرج منها (سنة ١٨٩١م) برتبة ملازم ثان بالطوبجية، وسافر مع حملة السودان، فأقام بها مدة - ثم عاد إلى مصر وعمل محررا في جريدة الأهرام ولقب بشاعر النيل وديوان شعره مطبوع - وله بعض المؤلفات منها «ليالي سطوح». (الأعلام ٧٦/٦).

* الشّريف الرّضي (٤٠٦هـ)

محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن، الرضي العلوي الحسيني الموسوي: اشعر الطالبين، مولده ووفاته في بغداد. انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده - له ديوان شعر مطبوع وله عدة مؤلفات منها: «المجازات النبوية-ط» و «مجاز القرآن» (الأعلام ٩٩/٦).

* محمد العدناني ()

محمد خورشيد العدناني ولد في مدينة جنين بفلسطين (عام ١٩٠٣م) وتلقى علومه في مدارس جنين وطولكرم وغزة، ثم في مدرسة الفنون الأميركية بصيدا، ثم في الجامعة الأميركية ببيروت، وعمل في التعليم في دمشق والأردن وصيدا وحلب، وكتب في مجلة الأديب اللبنانية، ديوان شعره مطبوع، وله قصة شعرية منظومة سماها «الأمومة» وله عدة مؤلفات منها «فجر العروبة» و «الوثوب» و «شوقي بين العاطفة والخيال». (تاريخ الشعر العربي الحديث ص ٤٦٤).

* محمد بن داود الأصفهاني (٢٩٦هـ)

أبويكر محمد بن داود الأصفهاني المعروف بالظاهري من أكابر علماء عصره وفقهائهم، لعلوه في مرتبة الأدب، وتصرفه في اللغة وقدرته على الإفتاء في سن مبكرة. كان فقيها أديبا شاعرا ظريفا. واشتهر بكتابه «الزهرة» وله عدة كتب فقهية. وما جمع من شعره في ديوان مطبوع. (أوراق من ديوان أبي بكر محمد الأصفهاني ص/٧).

* الشَّابُّ الظَّرِيفُ (٦٨٨هـ)

محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله التلمساني، شمس الدين المعروف بالشاب الظريف، ويقال له ابن العفيف: شاعر مترق، وهو ابن عفيف الدين التلمساني الشاعر أيضا. ولد بالقاهرة وتوفي بها وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٦/١٥٠).

* المعتمد بن عباد (٢٨٨هـ)

محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي، أبو القاسم، المعتمد على الله صاحب إشبيلية وقرطبة وما حولهما - ولد في باجة (بالأندلس) وولي إشبيلية بعد وفاة أبيه (سنة ٤٦١هـ) وامتلك قرطبة وكثيرا من المملكة الأندلسية - وكان فصيحاً شاعراً وكاتباً مترسلاً بديع التوقيع واستقرت له الأمور حتى (عام ٤٧٨هـ) - فدخل في حروب وفتن إلى أن زال ملكه وأسر (عام ٤٨٤هـ) وأخذ إلى بلدة أغمات أسيرا وبقي بها إلى أن مات. وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٦/١٨١).

* لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦هـ)

محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي أبو عبدالله: وزير مؤرخ أديب. ولد بغرناطة ونشأ بها، يلقب بذي الوزارتين الأدب والسيف، ولي الوزارة، ومؤلفاته تقع في نحو ستين كتاباً، منها «الإحاطة في تاريخ غرناطة-ط» و «روضة التعريف بالحب الشريف-ط». اتهم بالزندقة فسجن وقتل ودفن بفاس (الأعلام ٦/٢٣٥).

* محمد عبدالمطلب (١٣٥٠هـ)

محمد بن عبدالمطلب بن واصل، من أسرة أبي الخير، من جهينة: شاعر مصري، حسن الرصف، من الأدباء الخطباء. ولد في باصونة (من قرى مصر) وتعلم في الأزهر بالقاهرة، وتخرج مدرسا، وشارك في الحركة الوطنية، ديوان شعره مطبوع.

وله كتب منها «تاريخ أدب اللغة العربية» و «إعجاز القرآن» وروايتين. (الأعلام ٢٤٧/٦).

* د. محمد عبدالمنعم خفاجي ()

أديب شاعر مصري، له عدة دواوين مطبوعة منها «وحي العاطفة» صدر عام (١٩٣٦م) و «أحلام الشباب» صدر (عام ١٩٤٩م) و «أحلام السراب» و «أشواق الحياة» وله عدة مؤلفات منها: «الشعر والتجديد» و «مع الشعراء المعاصرين» و «من روائع الأدب» و «مواكب الحياة». (ديوان أشواق الحياة ص/١٣).

* سبط ابن التعاويذي (٥٨٣هـ)

محمد بن عبيدالله بن عبدالله، أبو الفتح المعروف بابن التعاويذي: شاعر العراق في عصره. من أهل بغداد، مولده ووفاته بها - ولي بها الكتابة في ديوان المقاطعات- وعمي (سنة ٥٧٩هـ) - وديوان شعره مطبوع (الأعلام ٢٦٠/٦).

* أبو الشَّيْص الخزاعي (١٩٦هـ)

محمد بن علي بن عبدالله بن سليمان بن تميم الخزاعي: شاعر مطبوع من أهل الكوفة. عاصر أبا نواس، ومسلم بن الوليد، وانقطع إلى أمير الرقة وأبو الشَّيص لقب، وكنيته أبو جعفر. وهو ابن عم «دعبل الخزاعي» عمي في آخر عمره، ومات مقتولا. وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٢٧١/٦).

* محمد الشَّامي العاملي (...)

ترجم له ابن معصوم في كتابه «سلافة العصر» بقوله «شيخنا العلامة محمد بن علي بن محمود بن يوسف بن محمد بن إبراهيم الشامي العاملي... وأقسم أنني لم اسمع بعد شعر مهيار والرضي، أحسن من شعره...» عاش في القرن الحادي عشر، ولا تعرف سنة وفاته. (ابن معصوم، سلافة العصر ص/٣٢٣) عن (ديوان الشعر العربي ٢٩٧/٣).

العرضي (١٠٧١هـ)

محمد بن عمر بن عبدالوهاب الحلبي، العرضي: مفتي الشافعية بحلب مولده ووفاته بها له اشتغال بالتاريخ والأدب ونظم حسن وله عدة مؤلفات منها «طريق الهدى» و«فتح المانح البديع» (الأعلام ٣١٧/٦).

* الرّصافي البلنسي (٥٧٢هـ)

محمد بن غالب الرّصافي، أبو عبدالله: شاعر أندلسي، أصله من رصافة بلنسية، وإليها نسبته. كان يرفأ الثياب ترفعا عن التكسب بشعره، أقام مدة بغرناطة. وسكن مالقة وتوفي بها. وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٦/٣٢٤).

* محمد الأسمر (١٣٧٦هـ)

محمد بن محمد الأسمر: شاعر مصري من علماء الأزهر. ولد وتعلم بدمياط. أحرز الشهادة «العالمية» من الأزهر (سنة ١٩٣٠م). وكان مصححا في جريدة السياسة فنشر فيها بعض نظمه. وعين معاونًا بمكتبة الأزهر. وكان رقيق الطبع حسن العشرة. وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٧/٨٥).

* الماحي ()

محمد مصطفى الماحي: شاعر مصري معاصر ولد في دمياط عام ١٨٩٥م، عمل في وزارة الأوقاف، أصدر ديوانه الأول عام ١٩٣٤م. زار بعض البلاد العربية. وزار مدينة الرياض وتشرف بالسلام على الملك سعود عام ١٩٥٦م، وألقى قصيدة بين يديه. (تاريخ الشعر العربي الحديث ص/٢٦٥).

* محمد بن مطرق بن شخيص (...)

ذكره الثعالبي في اليتيمة وأورد أبياتا من شعره (يتيمة الدهر ٢/٢٦).

* محمد مهدي الجواهري ()

شاعر عراقي معاصر. من أسرة نجفية تعرف بآل الجواهر. نسبة إلى كتاب في الفقه ألفه أحد أجداد الأسرة - واسم الكتاب «جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام» - ولد محمد في النجف ١٩٠٠م. وفيها نشأ وترعرع - نشأ نشأة دينية - وبعد أن غادر النجف إلى بغداد أصدر مجموعة من الصحف ذات الصبغة اليسارية كجريدة «الفرات» وجريدة «الانقلاب» - وانتخب عدة مرات رئيسا لاتحاد الأدباء العراقيين. شارك الجواهري في كل الثورات السياسية التقدمية المهمة في العراق. وديوان شعره مطبوع. (تاريخ الشعر العربي الحديث ص/٤٩٩).

* ابن عُنَيْن (٦٣٠هـ)

محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسن ابن عنين، أبو المحاسن، شرف الدين
الدمشقي الأنصاري: أعظم شعراء عصره. مولده ووفاته في دمشق، كان هجاء،
قل من سلم من شره في دمشق، حتى السلطان صلاح الدين والمملك العادل. نفاه
صلاح الدين، فذهب إلى العراق وبلاد أخرى، ثم عاد إلى دمشق بعد وفاة صلاح
الدين. وتولى الكتابة للملك المعظم بدمشق. وله ديوان شعر مطبوع (الأعلام
١٢٦/٧).

* محمد النعمان (...)

القاضي ابو عبدالله محمد بن النعمان. ذكره الثعالبي في اليتيمة وأورد أبياتا
من شعره (يتيمة الدهر ١/٤٦٦).

* ابن هانيء الأندلسي (٣٦٢هـ)

محمد بن هانيء بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي، أبو القاسم، يتصل
نسبه بالمهلب بن أبي صفرة: أشعر المغاربة على الإطلاق، وهو عندهم كالمثنيبي
عند أهل المشرق. وكانا متعاصرين، ولد بأشبيلية وحظي عند صاحبها. ثم رحل
إلى إفريقية والجزائر، وأقام بالمنصورية بقرب القيروان مدة قصيرة - ثم قصد
مصر - فلما وصل إلى برقة قتل فيها غيلة. له ديوان شعر مطبوع (الأعلام
١٣٠/٧).

* محمد بن وهيب الحميري (...)

شاعر من أهل بغداد من شعراء الدولة العباسية . له مدائح في المأمون والحسن
بن سهل والمعتصم (المصون في الأدب للعسكري ص/١٢٢).

* كُشَاجِم (٣٦٠هـ)

محمود بن الحسين ابن السندي بن شاهك، أبو الفتح الرملي، المعروف بكشاجم:
شاعر متفنن، أديب، من كتاب الإنشاء. من أهل الرملة بفلسطين. فارسي
الأصل، تنقل بين القدس ودمشق وحلب وبغداد وزار مصر، واستقر بحلب - وهو
من شعراء سيف الدولة الحمداني. له كتاب «أدب النديم» و «المصايد والمطارد»،
ديوان شعره مطبوع. (الأعلام ١٦٨/٧).

* محمود سامي البارودي (١٣٢٢هـ)

محمود سامي «باشا» ابن حسن حسني بن عبدالله البارودي المصري: شاعر من القادة الشجعان، جركسي الأصل. مولده ووفاته بالقاهرة، تعلم بها في المدرسة الحربية. ورحل إلى الأستانة فأتقن الفارسية والتركية، وله فيهما قصائد، وعاد إلى مصر، فكان من قواد الحملتين المصريتين لمساعد تركيا - ولما دخل الإنجليز القاهرة قبض عليه وسجن، ونفي إلى سيلان حيث أقام سبعة عشر عاما - تعلم الإنجليزية خلالها - وترجم عنها كتباً إلى العربية، وكف بصره، وعفي عنه سنة ١٣١٧هـ فعاد إلى مصر. له «مختارات البارودي» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ١٧١/٧).

* محمود غنيم (١٣٩٢هـ)

محمود غنيم: شاعر مصري معاصر. ولد ونشأ في قرية «كوم حمادة» وتخرج بدار العلوم (١٩٢٩م) وعمل في التدريس. ثم كان مفتشاً للتعليم الأجنبي (عام ١٩٤٦م). له ديوان «صرخة في واد-ط» و «في ظلال الثورة-ط» ديوان آخر. (الأعلام ١٧٩/٧).

* مروان بن أبي حفصة (١٨٢هـ)

مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد: شاعر، عالي الطبقة نشأ في العصر الأموي باليمامة، حيث منازل أهله، وأدرك زمناً من العهد العباسي. وكان يتقرب من الرشيد بهجاء العلويين توفي ببغداد وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٢٠٨/٧).

* مروان بن عبدالرحمن (نحو ٤٠٠هـ)

مروان بن عبدالرحمن بن مروان بن عبدالرحمن الناصر، أبو عبدالله، ويعرف بالطلق: شاعر أندلسي، سجن بالمطبق لأنه قتل أباه وهو ابن ست عشرة سنة، من أجل جارية هويها واستأثر بها أبوه، ومكث في سجنه (١٦ سنة) وعاش بعد إطلاقه مثلها. وكان شاعراً كثيراً وأكثر شعره في السجن. (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص ٣١٢).

* معروف الرصافي (١٣٦٤هـ)

معروف بن عبدالغني البغدادي الرصافي: شاعر العراق في عصره. من أعضاء المجمع العربي (بدمشق) أصله من عشيرة الجبارة في كركوك، ولد ببغداد ونشأ

بها. واشتغل بالتعليم، ورحل إلى الأستانة وعمل معلما بها للغة العربية. ثم عاد إلى دمشق ثم إلى بغداد. وشغل عدة وظائف حكومية. ونشأ وعاش ومات فقيرا. له كتب منها «دفع الهجنة-ط» و «رسائل التعليقات» و «محاضرات الأدب العربي». وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٧/٢٦٨).

* منصور بن كَيْفَلَع (نحو ٣٥٠هـ)

من أولاد أمراء الشام: شاعر، رقيق النظم. أورد الثعالبي مقطوعات حسنة له. (الأعلام ٧/٣٠٣).

* مهيار الديلمي (٤٢٨هـ)

مهيار بن مرزويه، أبو الحسن الديلمي: شاعر كبير، في معانيه ابتكار. وفي أسلوبه قوة. فارسي الأصل، من أهل بغداد وبها وفاته. وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٧/٣١٧).

* المؤمّل (نحو ١٩٠هـ)

المؤمّل بن أميل بن اسيد المحاربي: شاعر من أهل الكوفة. أدرك العصر الأموي. واشتهر في العصر العباسي، وكان فيه من رجال الجيش. وانقطع إلى المهدي قبل خلافته وبعدها (الأعلام ٧/٣٣٤).

* الأعشى الكبير (٥٧هـ)

ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس، ويقال له أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير: من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقة كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس. غزير الشعر، يسلك فيه كل مسلك. وكان يغني بشعره فسمي «صناجة العرب» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٧/٣٤١).

* نهشل بن حرّي (نحو ٤٥هـ)

نهشل بن حرّي بن ضمرة الدارمي: شاعر مخضرم. أدرك الجاهلية، وعاش في الإسلام، صحب عليا في حروبه، فقتل أخ له في موقعة صفين اسمه «مالك» فرثاه بمرات كثيرة. وبقي نهشل إلى أيام معاوية. (الأعلام ٨/٤٩).

* ابن سناء الملك (٦٠٨هـ)

هبة الله بن جعفر بن سناء الملك، أبو القاسم، القاضي السعيد: شاعر من النبلاء، مصري المولد والوفاة، كان جيد الشعر بديع الإنشاء كتب في ديوان الإنشاء في مصر مدة، وولاه الملك الكامل ديوان الجيش (سنة ٦٠٦هـ) له كتاب «دار الطراز-ط» وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٧١/٨).

* هلال ناجي ()

كاتب وباحث وشاعر عراقي معاصر له عدة كتب منها «شعراء اليمن المعاصرون» وله ديوان «ساق على الدانوب» وفد إلى القاهرة (عام ١٩٥٩م) بعد نضال مرير في بغداد ضد عبدالكريم قاسم. وفي دواوينه شعر وطني وسياسي وإنساني. (تاريخ الشعر العربي الحديث ص/٧٠٧).

* الفرزدق (١١٠هـ)

همام بن غائب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فراس، الشهير بالفرزدق شاعر من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة، وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل. وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٩٣/٨).

* البحتري (٢٨٤هـ)

الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عبادة البحتري: شاعر كبير يقال لشعره «سلاسل الذهب». ولد بمنبج (بين حلب والفرات) ورحل إلى العراق فاتصل بجماعة من الخلفاء أولهم المتوكل العباسي، ثم عاد إلى الشام، وتوفي بمنبج. له كتاب «الحماسة-ط». وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ١٢١/٨).

* الوليد بن يزيد (١٢٦هـ)

الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان، أبو العباس: من ملوك الدولة مروانية بالشام. له شعر رقيق وعلم بالموسيقى. ولي الخلافة (سنة ١٢٥هـ)، فمكث سنة وثلاثة أشهر، ثم خلعه يزيد بن الوليد بن عبدالملك. فهرب إلى البخراء فقصده جمع من أصحاب يزيد فقتلوه في قصر النعمان بن بشير. (الأعلام ١٢٣/٨).

* أبو دَهَبيل الجمحي (٦٣هـ)

وهب بن زمعة بن أسد من قریش: أحد الشعراء العشاق المشهورين. من أهل مكة. له مدائح في معاوية وعبدالله بن الزبير، وأخباره كثيرة مع «عمرة

الجمحية» و «عاتكة بنت معاوية». وولاه عبدالله بن الزبير بعض أعمال اليمن وتوفي بعليب (موضع في تهامة) وديوان شعره مطبوع. (الأعلام ٨/١٢٥).

* يحيى بن الحكم الغزال (٢٥٠هـ)

يحيى بن الحكم البكري الجياني، المعروف بالغزال: شاعر مطبوع، من أهل الأندلس، كان مقرباً من أمراء الأندلس وملوكها من بين أمية. وأرسله بعضهم رسولا إلى ملك الروم، وله «ديوان شعر». (الأعلام ٨/١٤٣)

* يحيى بن خالد (١٩٠هـ)

يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل: الوزير، سيد بني برمك، وهو مؤدب الرشيد العباسي ومعلمه ومربيه، ولما ولي هارون الرشيد الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى وقلده أمره، واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه في الرقة إلى أن مات (الأعلام ٨/١٤٤).

* يزيد بن مفرغ (٦٩هـ)

يزيد بن زياد بن ربيعة الملقب بمفرغ الحميري، أبو عثمان: شاعر غزل هو الذي وضع «سير تبع وأشعاره» كان من أهل تبالة، واستقر بالبصرة. وكان هجاء مقذعا، وله مديح، وفد على «مروان بن الحكم» فأكرمه. وصحب عباد بن زياد بن أبيه، فأقام عنده زمنا. ولم يظفر بخيره فهجاه. وسجنه عباد، مدة ثم أطلقه، وانتقل إلى الشام وجعل ينتقل ويهجو عبادا واباه وأهله، فقبض عليه في البصرة وحبس بها. ثم أطلق بعد أن عذب عذابا شديدا. ثم سكن الكوفة إلى أن مات. وله ديوان شعر مطبوع. (الأعلام ٨/١٨٣).

* يزيد بن معاوية (٦٤هـ)

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي: ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد بالماطرون، ونشأ بدمشق وولي الخلافة بعد وفاة أبيه (سنة ٦٠هـ)، وفي أيامه قتل «الحسين بن علي» سنة ٦١هـ، وليزيد بن معاوية شعر رقيق. (الأعلام ٨/١٨٩).

٣- فهرس المصادر والمراجع

- * الأدب المعاصر في مصر:
تأليف / د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط/٥، ١٩٧٤م.
- * الأسر والسجن في شعر العرب:
د. أحمد مختار الرزة، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط/١، ١٤٠٥هـ.
- * الأسس الجمالية في النقد العربي:
عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٥م.
- * الأصمعيات:
اختيار / عبدالمملك الأصمعي، تحقيق أحمد محمد شاکر وعبدالسلام هارون، بيروت، ط/٥.
- * أصول النقد الأدبي:
تأليف / أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٣، ط/٥.
- * الأغاني:
لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق لجنة من الأدباء، الدار التونسية للنشر.
- * أوراق من ديوان أبي بكر محمد الأصفهاني:
تحقيق / د. نوري حمودي القيسي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٢هـ.
- * الأيام والليالي والشهور:
تأليف / أبي زكريا الفراء، تحقيق / إبراهيم الإبياري، بيروت، ط/٢، ١٤٠٠هـ.
- * بناء الصورة الفنية في البيان العربي:
تأليف / د. كامل البصير، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ.
- * تاريخ الشعر العربي الحديث:
تأليف أحمد قبش، دمشق، ١٩٧١م.
- * تزيين الأسواق في أخبار العشاق:
تأليف / داود الأنطاكي، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط/٢، ١٩٨٦م.

- * التشبيهات من أشعار أهل الأندلس:
تأليف / محمد الكتاني، تحقيق / إحسان عباس، دار الشروق، ط/٢، ١٩٨١م.
- * جمهرة أشعار العرب:
تأليف / أبي زيد القرشي، تحقيق / علي محمد البجاوي.
- * حديث الأربعاء:
تأليف / د. طه حسين، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.
- * الحماسة:
لأبي تمام، تحقيق / د. عبدالله عسيلان، مطبعة دار الهلال، الرياض، ١٤٠١هـ.
- * الحماسة:
للبحثري، تحقيق / لويس شيخو، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ.
- * الحيوان:
للجاحظ، تحقيق / عبدالسلام هارون، القاهرة، ١٩٣٨م.
- * خاص الخاص:
تأليف / أبي منصور الثعالبي، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- * دلائل الإعجاز:
تأليف / عبدالقاهر الجرجاني، دار المعرفة بيروت، ١٣٩٨هـ.
- * دمية القصر وعصرة أهل العصر:
تأليف / أبي الحسن الباخري، تحقيق / سامي مكّي، دار العروبة الكويت، ١٤٠٥هـ.
- * ديوان إبراهيم اليازجي:
قدم له / مارون عبود، نشر دار مارون عبود، ١٩٨٣م.
- * ديوان ابن خفاجة:
دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ.

* ديوان ابن الزقاق البلنسي:

تحقيق / عفيفة محمود ديراني، دار الشافقة، بيروت، ١٤٠٩هـ.

* ديوان ابن زيدون:

تحقيق / كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ.

* ديوان ابن سناء الملك:

تحقيق / محمد إبراهيم نصر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ.

* ديوان ابن سهل الأندلسي:

قدم له / د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ.

* ديوان ابن شهيد الأندلسي:

تحقيق / يعقوب زكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

* ديوان ابن عبدريه:

تحقيق / د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط/٢، ١٤٠٧هـ.

* ديوان ابن المعتز:

دار بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ.

* ديوان ابن المقرب العيوني:

تحقيق / عبدالفتاح محمد الحلو، مطبعة الحلبي، مصر، ط/١، ١٣٨٣هـ.

* ديوان ابن هانيء الأندلسي:

دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

* ديوان أبي الحسن علي التهامي:

تحقيق / د. محمد الربيع، مكتبة المعارف، الرياض، ط/١، ١٤٠٢هـ.

* ديوان أبي دهب الجمحي:

تحقيق / عبدالعظيم عبدالمحسن، مطبعة القضاء في النجف، ط/١، ١٣٩٢هـ.

- * ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره:
صنعة عبدالله الجبوري، المكتب الإسلامي، بيروت، ط/١، ١٤٠٤هـ.
- * ديوان أبي فراس الحمداني:
شرح / عباس عبدالساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٠٤هـ.
- * ديوان أبي الفضل الميكالي:
تحقيق / جليل العطية، عالم الكتب، بيروت، ط/١، ١٤٠٥هـ.
- * ديوان أبي القاسم الشابي:
دار العودة، بيروت، ١٩٧٢م.
- * ديوان أبي نواس:
تحقيق / أحمد عبدالمجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- * ديوان الأحوص الأنصاري:
جمعه / عادل سليمان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/٢، ١٩٩٠م.
- * ديوان الأخرس:
تحقيق / وليد الأعضمي، عالم الكتب، بيروت، ط/١، ١٤٠٦هـ.
- * ديوان الأخطل:
شرح / مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ.
- * ديوان الأرجاني:
تحقيق / د. محمد قاسم مصطفى، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١م.
- * ديوان أسامة بن منقذ:
تحقيق / د. أحمد أحمد بدوي، عالم الكتب، ط/٢، ١٤٠٣هـ.
- * ديوان إسماعيل صبري (أبو أميمة):
تحقيق / د. محمد القصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- * ديوان أشواق الحياة:
شعر / د. محمد عبدالمنعم خفاجي، مطبعة النصر، القاهرة.

* ديوان أصداء النيل:

شعر / عبدالله الطيب، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م.

* ديوان أطياف:

شعر / أحمد محمد الشامي، تهامة، جدة، ط/٢، ١٤٠٥هـ.

* ديوان الأعشى الكبير (ميمون قيس):

دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٤هـ.

* ديوان أعشى همدان وأخباره:

تحقيق / د. حسن عيسى أو ياسين، دار العلوم، ط/١، ١٤٠٣هـ.

* ديوان الأقصى الحزين:

شعر / أحمد محرم، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٤هـ.

* ديوان امرئ القيس:

دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦هـ.

* ديوان أوس بن حجر:

تحقيق / د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ.

* ديوان البارودي:

تحقيق / علي الجارم، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م.

* ديوان البحترى:

دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ.

* ديوان بديع الزمان الهمذاني:

تحقيق / يسرى عبدالغني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٠٧هـ.

* ديوان بشار بن برد:

جمعه / محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٦م.

* ديوان بشر بن أبي خازم:

تحقيق / عزة حسن، دمشق، ١٣٧٩هـ.

- * ديوان البهاء زهير:
تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط/٢، ١٩٨٢م.
- * ديوان جرير:
دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ.
- * ديوان الجواهري:
دار العودة، بيروت، ط/٣، ١٩٨٢م.
- * ديوان حازم القرطاجني:
تحقيق / عثمان الكعاك، دار الثقافة، بيروت، ١٤٠٩هـ.
- * ديوان حافظ إبراهيم:
شرح / أحمد أمين، دار العودة، بيروت.
- * ديوان حسان بن ثابت:
دار صادر، بيروت، ١٣٨١هـ.
- * ديوان حسن القرشي:
دار العودة، بيروت، ط/٣، ١٩٨٣م.
- * ديوان الحطيئة:
تحقيق / نعمان محمد أمين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٧هـ.
- * ديوان الحيسي:
تحقيق / عبدالعليم عيسى، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٤٠٢هـ.
- * ديوان خليل مردم بك:
تحقيق / عدنان مردم بك، دار صادر، بيروت، ط/١، ١٤٠٥هـ.
- * ديوان خليل مطران:
دار الكتاب العربي، بيروت، ط/٣، ١٩٦٧م.
- * ديوان الخنساء:
تحقيق / عبدالسلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ.

- * ديوان الخوارج:
جمع / د. نايف معروف، دار المسيرة، بيروت، ط/١، ١٤٠٣هـ.
- * ديوان ذي الرمة:
نشر المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ط/٢، ١٣٨٤هـ.
- * ديوان الرصافي البلنسي:
جمع / د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٤٠٩هـ.
- * ديوان الرصافي:
شعر / معروف الرصافي، المجموعة الكاملة، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- * ديوان زكي مبارك:
مطبعة حجازي، القاهرة، ط/١، ١٣٥٢هـ.
- * ديوان زهير بن أبي سلمى:
دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- * ديوان سبط بن التعاويذي:
نسخ وتصحيح / مرجليوث، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩٠٣م.
- * ديوان الشاب الظريف:
تحقيق / شاكر هادي شاكر، مكتبة النهضة العربية، ط/١، ١٤٠٥هـ.
- * ديوان الشاعر القروي (رشيد الخوري):
دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٨م.
- * ديوان الشافعي (الإمام الشافعي):
جمع / محمد عفيفي الزعبي، دار الجيل، بيروت.
- * ديوان الشريف الرضي:
دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ.
- * ديوان الشريف المرتضي:
تحقيق / رشيد الصفار، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨م.

* ديوان الشعر العربي:

اختاره / علي أحمد سعيد، دار الفكر للطباعة والنشر، ط/٢، ١٤٠٦هـ.

* ديوان صالح الشرنوبى:

تحقيق / د. عبدالحى ذياب، دار الكاتب العربى، القاهرة.

* ديوان صفى الدين الحلى:

دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ.

* ديوان صلاح لبكى:

* ديوان ضياء الدين رجب:

دار الأصفهاني للطباعة، جدة، ١٤٠٠هـ.

* ديوان طرفة بن العبد:

دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ.

* ديوان طريح بن إسماعيل الثقفي:

تحقيق / د. بدر أحمد ضيف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧م.

* ديوان العباس الأحنف:

دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ.

* ديوان عبدالله بن الزبيرى:

تحقيق / يحيى الجبورى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٢، ١٤٠١هـ.

* ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات:

تحقيق / د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ.

* ديوان عبيد بن الأبرص:

دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ.

* ديوان عدي بن الرقاع العاملى:

تحقيق / د. الشريف عبدالله الحسينى، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ.

- * ديوان عدي بن زيد:
تحقيق / محمد جبار المعيب، بغداد، ١٩٦٥م.
- * ديوان عزيز أباظة:
دار الكتاب المصري، القاهرة.
- * ديوان العشاري:
تحقيق / د. عماد عبدالسلام، مطبعة الأمة، بغداد، ط/١، ١٣٩٧هـ.
- * ديوان علي الجارم:
دار الشروق، ط/١، ١٤٠٦هـ.
- * ديوان علي بن الجهم:
تحقيق / خليل مردم بك، دار الآفاق، بيروت، ط/٢، ١٩٨٠م.
- * ديوان علي محمود طه:
دار العودة، بيروت، ١٩٨٦م.
- * ديوان العقاد (المجموعة الكاملة):
منشورات المكتبة العصرية، بيروت.
- * ديوان عمر بن ابي ربيعة:
دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ.
- * ديوان عنتره العبسي:
دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٨هـ.
- * ديوان كعب بن زهير:
تحقيق / علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٠٧هـ.
- * ديوان الماحي:
دار الفكر العربي، ١٣٨٨هـ.
- * ديوان المثقب العبدى:
تحقيق / حسن كامل صيرفي، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٣٩١هـ.

- * ديوان مجنون ليلى (قيس بن الملوح):
تحقيق / عبدالستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة، القاهرة.
- * ديوان محمد الأسمر:
شركة فن الطباعة، القاهرة.
- * ديوان محمد العدناني:
دار النورس، بيروت، ط/١، ١٩٨١م.
- * ديوان المعاني:
لأبي هلال العسكري، عالم الكتب.
- * ديوان المعتمد بن عباد:
جمع / أحمد بدوي، القاهرة، ط/١، ١٩٥١م.
- * ديوان ملاحم وأزهار:
شعر / محمد بهجة الأثري، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ.
- * ديوان الملك الأمجد (بهرام شاه):
تحقيق / د. ناظم رشيد، مطبعة وزارة الأوقاف، بغداد، ١٤٠٣هـ.
- * ديوان من وادي عبقر:
شعر / سعد الدين فوزي، دار الريحاني للطباعة، بيروت، ١٩٦١م.
- * ديوان الفجر آت يا عراق:
شعر / هلال ناجي.
- * ديوان الفرزدق:
دار بيروت للطباعة، ١٤٠٠هـ.
- * ديوان قيس بن الخطيم:
تحقيق / د. ناصر الدين الأسد، مطبعة المدني، القاهرة، ط/١، ١٣٨١هـ.
- * ديوان كشاجم:
المطبعة الأنسية، بيروت، ط/١، ١٣١٣هـ.

* ديوان النابغة الذبياني:

تحقيق / كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ.

* ديوان نوح العندليب:

شعر / شفيق جبري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

* ديوان هاشم الرفاعي:

الأعمال الكاملة، تحقيق / محمد بريغش، مكتبة الحرمين، الرياض، ١٤٠٠هـ.

* ديوان وحي الحرمان:

شعر الأمير / عبدالله الفيصل، دار الأصفهاني للطباعة، جدة، ١٤٠١هـ.

* ديوان يزيد بن مفرغ الحميري:

تحقيق / د. عبدالقدوس أبوصالح، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٢، ١٤٠٢هـ.

* زهر الآداب وثمر الألباب:

تأليف / أبي إسحاق الحصري، تحقيق / محمد محيي الدين، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة.

* الزهرة:

تأليف / أبي بكر محمد الأصبهاني، تحقيق / د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط/٢، ١٤٠٦هـ.

* السرقات الأدبية:

تأليف / د. بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة.

* سقط الزند:

شعر / أبي العلاء المعري، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ.

* شاعرات العرب في الجاهلية:

تأليف / جورج غريب، دار الثقافة، بيروت، ط/١، ١٩٨٤م.

* شرح ديوان أبي تمام:

ضبط وشرح / إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، ط/١، ١٩٨١م.

- * شرح ديوان البرعي:
مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- * شرح ديوان جميل بثينة:
شرح / مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٠٧هـ.
- * شرح ديوان المتنبي:
وضعه / عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧.
- * شعراء أمويون:
الدكتور / نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، ط/١، ١٤٠٥هـ.
- * شعراء الرابطة القلمية:
د. نادرة سراج، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م.
- * شعر إبراهيم ناجي (المجموعة الكاملة):
ليالي القاهرة، الطائر الجريح، وراء الغمام، في معبد الليل، طبعة دار الشروق، ١٤٠٨هـ.
- * شعر ابن الحداد الأندلسي:
تحقيق / منال منيزل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/١، ١٤٠٥هـ.
- * شعر الأحوص الأنصاري:
تحقيق / عادل سليمان جمال، مطبعة المدني، القاهرة، ط/٢، ١٩٩٠م.
- * شعر الأختل الصغير (بشارة عبدالله الخوري):
دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.
- * شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين:
جمع وتحقيق / عبدالله حامد الحامد.
- * شعر مروان بن أبي حفصة:
تحقيق / د. حسين عطوان، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣م.

• الشعر والشعراء:

تصنيف / أبي محمد بن قتيبة الدينوري، تحقيق / أحمد محمد شاكر، القاهرة.

• الشوقيات:

شعر / أحمد شوقي، دار الكتاب العربي، بيروت.

• الصورة الأدبية:

تأليف / د. مصطفى ناصف، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط/٢، ١٤٠١هـ.

• الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي:

تأليف / د. جابر أحمد عصفور، طبعة دار المعارف، القاهرة.

• الصورة الفنية في شعر امرئ القيس:

تأليف / سعد أحمد الحاوي، دار العلوم للطباعة والنشر، ط/١، ١٤٠٣هـ.

• الصورة في شعر بشار بن برد:

تأليف / د. عبدالفتاح صالح نافع، دار الفكر، عمان، ١٩٨٣م.

• طوق الحمامة:

تأليف ابن حزم الأندلسي، تحقيق / فاروق سعد، مكتبة الحياة، بيروت.

• طيف الخيال:

تأليف / الشريف المرتضي، تحقيق / حسن كامل الصيرفي، ط/١، ١٣٨١هـ.

• العقد الفريد:

تأليف / ابن عبدربه الأندلسي، تحقيق / أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٣هـ.

• العمدة في صناعة الشعر ونقده:

تأليف / ابن رشيق القيرواني، تحقيق / محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة، ١٩٠٧م.

• عيار الشعر:

تأليف / ابن طباطبا العلوي، تحقيق / د. عبدالعزيز المانع، دار العلوم، ١٤٠٥هـ.

* غرائب التنبيهات علي عجائب التشبيهات:

تأليف / علي بن طاهر الأزدي، تحقيق / د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة.

* فوات الوفيات:

تأليف / محمد بن شاعر الكتبي، تحقيق / محمد محيي الدين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١م.

* في الأدب الحديث:

تأليف / د. عمر الدسوقي، دار الفكر العربي.

* فيض الخاطر:

تأليف أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الخامسة.

* في النقد الأدبي عند العرب:

تأليف / د. محمد طاهر درويش، دار المعارف، ١٩٧٩م.

* قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم:

تأليف / د. وليد قصاب، دار العلوم، الرياض، ط/١، ١٩٨٠م.

* اللزوميات (أو لزوم مالا يلزم)

شعر أبي العلاء المعري، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ.

* لسان العرب:

لابن منظور، تحقيق / عبدالله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة.

* محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء:

للاغب الأصبهاني، اختصار / إبراهيم زيدان، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٦هـ.

* مختارات البارودي:

اختيار / محمود سامي البارودي، المكتبة الجامعية، مكة، ط/١، ١٤٠٤هـ.

* مصارع العشاق:

تأليف / أبي محمد السراج، دار صادر، بيروت.

* المصون في الأدب:

تأليف / الحسن بن عبدالله العسكري، تحقيق / عبدالسلام هارون، ط/٢، ١٤٠٢هـ.

* معجم البلدان:

لياقوت بن عبدالله الحموي، دار صادر، بيروت.

* المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم:

وضعه / محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة الإسلامية، استانبول، ١٩٨٤م.

* المفضليات:

للمفضل الضبي، تحقيق / أحمد محمد شاكر، بيروت، ط/٦.

* من غاب عنه المطرب:

لأبي منصور الشعالي، تحقيق / د. النبوي عبدالواحد، ط/١، ١٤٠٥هـ.

* الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري:

لأبي القاسم الآمدي، تحقيق / سيد أحمد صقر، دار المعارف، ط/٢، ١٣٩٢هـ.

* موسوعة الشعر العربي:

اختيار / مطاع صفدي، مراجعة / د. خليل حاوي، بيروت، ١٩٧٠م.

* الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء:

للمرzbاني، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٦٥م.

* نثار الأزهار في الليل والنهار:

المنسوب لابن منظور، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٤٠٣هـ.

* النجوم في الشعر العربي القديم:

تأليف / د. يحيى عبدالأمير شامي، دار الآفاق، بيروت، ط/١، ١٤٠٢هـ.

* نظرية البنائية في النقد الأدبي:

تأليف / صلاح فضل، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية.

* النظرية الرومانتيكية، سيرة أدبية:

تأليف / كولردج، ترجمة / د. عبدالحكيم حسان، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م.

* النقد الأدبي الحديث:

تأليف / محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩م.

* النقد المنهجي عند العرب:

تأليف / د. محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة.

* الوساطة بين المتنبي وخصومه:

تأليف / علي بن عبدالعزيز الجرجاني، تحقيق / أبي الفضل إبراهيم، القاهرة.

* يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر:

تأليف / أبي منصور الثعالبي، تحقيق / د / مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.

* يحيى بن الحكم الغزال:

تأليف / محمد صالح البنداق، دار الآفاق، بيروت، ط/١، ١٩٧٩م.

المجلات الدورية:

* مجلة آداب الرافدين:

مجلة تصدر عن كلية الآداب، جامعة الموصل، العراق، العدد التاسع، أيلول ١٩٧٨م.

* مجلة العربي الكويتية:

مجلة شهرية تصدر بالكويت. العدد (٢٠٦) يناير ١٩٧٦م والعدد (٢٠٧) فبراير ١٩٧٦م.

* مجلة الهلال المصرية:

مجلة تصدر عن دار الهلال بالقاهرة، العدد الثاني عشر، ديسمبر ١٩٧٢م.

٣- فهرس الموضوعات

أ-٥

المقدمة

٢

تمهيد : عناية القدماء والمحدثين بموضوع الليل والشعر

الباب الأول: ليل وحموم الشاعر

الفصل الأول: الليل وحموم الشاعر الشخصية

٢٩

مبحث : الليل والموت

٥٨

مبحث : الشعراء الأسرى والليل

٦٨

مبحث : الشعراء الغرياء والليل

٧٨

مبحث : طوارق الليل

٨٨

مبحث : الليل والطموح

١٠١

مبحث : هموم أخرى

الفصل الثاني : الليل وحموم الشاعر الإنسانية

١٢٩

مبحث : حال الأمة

١٤٧

مبحث : الاستعمار

١٥٤

مبحث : الحروب

١٦٠

مبحث : الآفات الاجتماعية

الباب الثاني: ليل والشاعر المحب

الفصل الأول : مشابه بين الحبيب والقمر

١٦٦

مبحث : القمر ووجه الحبيب

١٨٢

مبحث : سواد الليل وشعر الحبيب

١٨٩

مبحث : النجوم والحبيب

الفصل الثاني : ليالي الوصل

١٩٧

مبحث : ترقب الزيارة

٢١٩

مبحث : الزيارة وملابساتها

٢٢٤

مبحث : الوداع

الفصل الثالث : ليالي الحرمان

٢٥٦

مبحث : الطيف

٢٩٤

مبحث : الشاعر المحروم

٢٢٩

مبحث : ليل الحرمان ليل طويل

الفصل الرابع : خصائص الصورة الفنية في إطار البحث

٢٦٢

مبحث : التعريف بالصورة الفنية

٢٦٦

مبحث : توارد الشعراء على صور الشعر القديم

٢٨١

مبحث : تلون الصورة بلون إحساس الشاعر

٢٨٢

مبحث : أثر البيئة في تشكيل الصورة الفنية

٢٨٥

الخاتمة

الفهارس

٢٨٨

١- فهرس الشعراء

٤٢٨

٢- فهرس المصادر والمراجع

٤٤٤

٢- فهرس الموضوعات